ترجمة فرح أبو التمن

مذكرات

السعي وراء السعادة

كريس غاردنر

2020
4.1.2020

كريس غاردنر

مع كوينسي تروب، وميم اشلر ريفاس

السّعي وراء السعادة

ترجمة فرح أبو التمن

السّعي وراء السعادة

هذا الكتاب بدعم من:

1001 عنوان

مبادرة 1001 عنوان

السّعي وراء السعادة

تأليف: كريس غاردنر
ترجمة: فرج أبو التمن
تحرير: أحمد العلي

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-38-587-5

روايات
REWAYAT

إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2020

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

جميع الحقوق محفوظة © روايات 2020
محتوى هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر
تمت الموافقة على المحتوى من قبل المجلس الوطني للإعلام /
المرجع: MC-02-01-5204971

محتوى هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر

The Pursuit of Happyness. Copyright © 2006 by Chris Gardner. Published by arrangement with Amistad, an imprint of Harper Collins Publishers.

مجموعة كلمات
KALIMAT GROUP

إهداء المؤلف

إلى أمي،
بيتي جين

إهداء المترجمة

أبي.. أعظم الرجال

أهديك قطفة أولى ثمراتي في عالم ترجمة الكتب.

هديل.. حمامتي البيضاء

أهديك ثمرة زرعنا بذورها سويّة

حسنٌ، يا بُني، أقول لك:
الحياة بالنسبة إليّ لم تكن درَجًا كريستاليًّا

فقط كنت طوال الوقت
أتسلّق

"مِن أُمّ إلى اِبن"، لانغستون هوغز.

شكر وتقدير

كانت أمي تؤكد عليَّ دائمًا أن أهم الكلمات في اللغة الإنجليزية هي «من فضلك.» و"شكرا لك." وضعت ما قالته أمي نصب عيني؛ لذا وددت أن أشكر الكثير من الأشخاص الذين كان وجودهم نعمة في حياتي، والذين ساعدوني أيضًا على إنجاز أكثر المهام تحديًا، وهي محاولة كتابتي لهذا الكتاب.

أهدي أول شكري وتقديري إلى فريقي في شركة «غاردنر ريتش وشركاؤه» الذين منحوني الوقت، والمساحة، وسعة الصدر الكافية لأنظر إلى الوراء بينما نظروا هم إلى الأمام. أود أن أخص بالذكر كولين كارلسون، رئيسة الشركة، لوقوفها بجانبي ومساعدتها إياي في السنوات الاثنتي عشرة الماضية.

أود أن أوجه تحية خاصة إلى لين ريدموند في هيئة الإذاعة الأمريكية أي. بي. سي. 20/20. شغفها الذي أضافته على فصل من رحلة حياتي

مهد الطريق لواقع مليء بالنعم والفرص. عليَّ أن أشكر أيضًا بوب براون الذي يعمل في نفس الإذاعة، والذي يشاركني نفس الأفكار حتى أننا نذهب لنفس الحلاق!

مدحني كوينسي تروب ذات مرة بسخرية وقال لي إنني كنت مجنونًا بقدر جنون كتابه السابق الذي كتبه عن مايلز ديفيس. سأعد ذلك إطراء بكل تأكيد! كان هو من ساعدني على فتح كل الأبواب التي حاولت أن أبقيها مغلقة في عقلي.

أما ميم ايشلر ريفاس فقد ساعدتني على فتح أبواب روحي. دونت كوينسي ما حدث في حياتي وكيف بدا الإحساس به، وإن كان في هذا الكتاب أي إحساس بالمشاعر أو العاطفة أو الحلم فالفضل يعود لها.

كان لـ داون ديفس محررة كتابي الرائعة -التي تعمل في شركة أمستاد للنشر- دورٌ حيويٌ رغم أنها لم تكن تعرف شيئًا عن اهتماماتي وأولوياتي. لقد عرفت منذ أول لحظة التقيتها فيها، أنها «المقصودة»، لم أتردد لحظة بلا شك. عندما التقيتها، كان آخر كتاب نشرته في طريقه للفوز بجائزة بولتيزر. كما قلت، لم أتردد لحظة! وشكري أيضًا لكل العاملين المجدين في أمستاد: روكيل هندرسون، وغيلدا سكواير، ومورغن ويبر، والإنتاج وفريق التصميم.

أود التعبير عن امتناني اللامتناهي للممثل ويل سميث. إنه حقًا شخص نادر الوجود. لقد عبرت له عن مخاوفي خلال تصوير الفيلم. لم أزل مبهورًا بكياسته، وتواضعه، وموهبته.

شكري إلى العاملين في شركة إسكيب آرتست: تود بلاك، وجيسون بلمينثال، وستيف تيش. للمرة الثانية، لقد عرفت منذ البداية بأن هؤلاء الأشخاص هم فعلا من كان عليّ العمل معهم. شكرًا لكم! شكرًا لكم!

شكرًا لكم!

شكري أيضًا إلى مارك كليمان الذي لا تنفك رؤيته عن إذهالي. لم يكن ليحدث كل هذا لولا رؤيتك.

شكري الجزيل لجينيفر غيتس، وكيلة أعمالي لدى وكالة زاكري شيستر هارمزورث لمحو الأمية، لإيمانها بي، وإرشادها لي، وسماحها لي بأن أشعر بالخوف.

لا شيء في هذه الحياة أو في الحياة الأخرى سيكون له معنى بقدر ما يعنيه ولداي بالنسبة لي. مع الكثير من المساعدة، تربيا ليصبحا شابين رائعين لا مثيل لهما: ابني كريستوفر، وابنتي جاسنتا. أنتما حقا أغلى النعم في حياتي. شكرًا لكما لأنكما ما أنتما عليه، حتى عندما لم أكن الشخص الذي ينبغي أن أكون عليه.

إلى أتش، حبي إلى الأبد، دعمك خلال كل شيء جعل كل شيء ممكنًا. إلى السيدة بابا، مصدر وحيي، شكرًا لك.

شكرًا للعائلة التي ولدت فيها، وشكرًا للعائلة التي تبنتني: أبي بيل لوسي، وأخي الكبير ريجي ويفر، وابن الخال الشقي تشارلز إينسلي، وأختي الكبيرة آن ديفيس، و"جدي" القس سيسيل ليامز، وعرابي الأصيل بيغ ويل، ويلي إيل. براون، وعرابتي تشارلين ميتشل.

أخيرًا وليس آخرًا، شكرًا من أعماق قلبي إلى مرشدتي، ومعلمتي باربرا سكوت بريسكيل.

ملاحظة المؤلف

يعد هذا الكتاب عملًا واقعيًا نقلت أحداثه بكل أمانة وصدق من خلال استذكاري لها. غُيِّرت أسماء بعض الأشخاص، والأوصاف احترامًا لخصوصيتهم. أقدم خالص اعتذاري لأي شخص لم أذكر اسمه أو قمت بحذفه. وُصفت الظروف والأحاديث هنا من خلال ذاكرتي القوية، وليس المقصودُ من ذِكرها زمنًا محددًا للأحداث، أو نقلًا حرفيًا لإعادة تمثيل حياتي. سُردت الأحداث بطريقة تحرّك صميم الشعور والمعنى لكل ما قيل، ونظرتي لما حدث لي، مع المحافظة على الجوهر الحقيقي لجو وروح تلك اللحظات التي شكلت حياتي.

تمهيد

إلى الأمام سيروا

كلما كنت أُسأل عن طوق نجاتي الذي ساعدني كي أنجو من أحلك أيامي، ليس فقط كي أبقى على قيد الحياة، وإنما لأتغلب على تلك الظروف القاسية وأن أصل أخيرًا إلى أفق النجاح الذي لطالما بدا صعب المنال، فإن كل ما كان يخطر على بالي عند الإجابة هو حدثان.

حدث أحدهما في أوائل الثمانينات عندما كنت في السابعة والعشرين من عمري، في يوم مشمس حار على غير عادة الطقس في منطقة الخليج. في باحة موقف السيارات المكتظ دائمًا وأبدًا، خارج مستشفى سان فرانسيسكو العام، وبينما أنا خارج من البناية حجبت للحظة ومضة من وهج الشمس الرؤية عني، وعندما أمعنت الرؤية تغيرت نظرتي لكل ما أعرفه من حولي. لم يكن ذلك ليؤثر بي كل ذلك التأثير لو أنه حدث في أي مرحلة أخرى من حياتي، لكن كان هناك شيء ما يدور حول تلك اللحظة في حينها، وسيارة الفيراري 308 الحمراء المكشوفة الجميلة التي رأيتها تسير

ببطء في المكان -يقودها شاب كان يبحث على ما يبدو عن مكان ليركن فيه- أجبرتني على الذهاب والتحدث معه، حديثًا قلب حياتي رأسًا على عقب.

قبل بضع سنوات، كنت قد تخرجت مؤخرًا من القوات البحرية، وكنت قد وصلت سان فرانسيسكو لأول مرة حيث أغراني الساحل الغربي بفرصة العمل ضمن مؤسسة بحثية مرموقة، لدى أحد أفضل الأطباء الشبان في جراحة القلب في البلدة. بالنسبة لشخص مثلي بالكاد استطاع أن يحبو خارج المربع السكني المكون من ست بنايات من الحي في ميلواكي، ودون الأخذ بعين الاعتبار لعملي الذي استمر ثلاث سنوات، كوني مسعفًا في القوات البحرية في كارولاينا الشمالية، فقد كانت سان فرانسيسكو إما الصعود إلى القمة، أو الانحدار نحو الهاوية.

وكأنما سحر أرض الحليب والعسل[1] وجمال مدينة الزمرد في أوز[2] قد اجتمعا في هذه المدينة.

لقد أغرتني سان فرانسيسكو منذ البداية وهي تقف أمامي باسطة ذراعيها، ومستعرضة تلالها المرصعة بالغرور ووديانها الغارقة بالتفاخر، مطلة من منطقة الخليج نحو ضباب ذهبي متوهج من الاحتمالات اللامتناهية. كانت البلدة تبدو في الليل وكأنها أفروديت؛ تزينها أضواء المدينة مثل المجوهرات النادرة المتلألئة من أعلى حي نوب هل، وحي باسفيك هايتس، نحو أفخم الأحياء وبمحاذاة الشوارع الأكثر وعورة من حي مشن وتيندرلوين (حي الجديد)، تنفرط منها أبراج المنطقة المالية، وترى انعكاسها

---

1) أرض الحليب والعسل Land of Milk and Honey : هي أرض يسيل فيها الحليب والعسل وعد بها بنو إسرائيل وذكرت في الكتاب المقدس.

2) مدينة الزمرد في أوز: The Emerald City of Oz هو سادس كتب ليمان فرانك بوم من سلسلة كتب أوز، يتحدث عن مدينة خيالية ساحرة تدعى أوز ويروي قصة دوروثي غيل وعمها هنري وعمتها إم الذين قدموا للعيش في أوز.

على الخليج من خلال رصيف الصيادين وحي مارينا.

في أيامي الأولى في سان فرانسيسكو، وبغض النظر عن عدد المرات التي كنت أقود بها سيارتي غربًا عبر جسر الخليج من أوكلاند، أو شمال مدينة دالي متجهًا نحو جسر البوابة الذهبية الممتد بعيدًا نحو الأفق قبيل أن ينتهي في مقاطعة مارين، فإن رؤيتي لهذه المناظر كانت كما لو أنها تجعلني أقع في غرامها من جديد. وحتى مع مرور الوقت ومع تعودي على فترات الطقس -التي كان يسودها جو ضبابي تناوبًا مع نزول المطر وأيام البرد التي تقشعر لها الأبدان- كنت أصحو على أحد أيام سان فرانسيسكو المثالية البهية، وإذا بجمالها قد محى كل ذكريات الكآبة. بقيت سان فرانسيسكو بالنسبة لي باريس المحيط الهادئ حتى يومنا هذا[3].

لكن بالطبع لم أستغرق وقتًا طويلًا حينها لأكتشف أنها كانت خادعة أيضًا، لم تكن بسيطة، ولم تكن رخيصة قطعًا، وأحيانًا كانت عديمة القلب. ما بين الإيجارات الباهظة وتصليحات السيارة المتكررة بسبب القيادة على التلال التي تلحق الضرر بناقل الحركة والفرامل -ناهيك عن تراكم إيصالات مخالفات المرور غير المدفوعة، وكل ذلك هو أمر طبيعي بالنسبة لأغلب سكان سان فرانسيسكو- فإن البقاء صامدًا قد يكون تحديًا. لكن كل هذا لم يكن ليفسد إيماني بأني سوف أنجح. إضافة إلى ذلك كنت خبيرًا في مسألة التحديات. عرفت كيفية العمل بجد، وفي الحقيقة فإن التحديات التي واجهتها خلال السنوات اللاحقة، ساعدتني في إعادة صقل أحلامي كي أصل إلى مدى أبعد، وكي أسعى وراء الأهداف بإلحاح متزايد.

أصبحت في بداية عام 1981 أبًا لأول مرة، ورغم فرحتي العارمة إلا

---

3) باريس المحيط الهادئ Paris of the Pacific: اسم كان يطلق على سان فرانسيسكو في خمسينيات القرن الثامن عشر عندما أبحر المهاجرون الفرنسيون للعيش فيها.

أن هذا الشعور بالإلحاح بدأ يأخذ منحى آخر. ومع مرور الأشهر الأولى من حياة ابني لم أحاول أن أتقدم بمستوى معيشتي بشكل أسرع فحسب وإنما بدأت تساورني الشكوك حول الطريق الذي اخترته، متسائلًا عما إذا كانت جميع جهودي المبذولة هي محاولات معاكسة لكل ما هو صحيح. أو على الأقل كانت هذه هي حالتي الذهنية في ذلك اليوم في باحة موقف السيارات خارج مستشفى سان فرانسيسكو العام، عندما اقتربت من سائق سيارة الفيراري الحمراء.

تبلورت هذه الواقعة في ذاكرتي -متحولة إلى لحظة أسطورية يمكنني العودة إليها وإحياؤها وقتما أشاء، أو كلما احتجت أن أتذكر الرسالة التي تحملها- رأيت السيارة الرياضية وكأنها أمامي الآن، تدور بحركة بطيئة، مع صوت طنين محركها القوي وهو يتباطأ في سرعته، ظلت تنتظر وتخرخر كأسد على وشك أن يثب. كل ما كنت أسمعه في مخيلتي هو صوت عزف رائع آتٍ من بوق مايلز ديفيس[4] -مثلي الأعلى في الموسيقى- الذي كنت في حينها على يقين بأنني سأصبح مثله عندما أكبر. إنها واحدة من تلك الأحاسيس الخيالية المسجلة في شريط حياتنا، والتي تخبرنا بأن ننتبه لها.

كان سقف السيارة مكشوفا، الأمر الذي جعل أشعة الشمس تنعكس على صورة شعاع ملتهب على مقدمة السيارة الحمراء اللامعة، وبدا الرجل الجالس خلف المقود كروعة عازفي الجاز الذين لطالما كنت مولعًا بهم. كان رجلًا أبيض، ذا شعر أسود، حليق الذقن، وطول متوسط،

---

4) مايلز ديفيس Miles Dewey Davis : ولد في 26 أيار 1926 وتوفي في 28 أيلول 1991. كان عازفا لموسيقى الجاز، وعازف بوق، وقائد فرقة، وملحنا أمريكيا. يعد أحد أكثر الموسيقيين تأثيرا في القرن العشرين. إن مايلز ديفيس، مع مجموعاته الموسيقية، في طليعة العديد من التطورات الرئيسة في موسيقى الجاز، منها البيبوب، كوول جاز، هارد بوب، مودال جاز، وجاز فيوجن. تم اعتبار ديفيس "أحد الشخصيات الرئيسة في تاريخ الجاز.»

وبنية اعتيادية، يرتدي بذلة غاية في الأناقة، قد تكون فصلت خصيصًا له، بدلة من أروع ما يكون. لم يكن ملبسه جميلًا فحسب بل هيئته بأكملها هي ما لفتت انتباهي: من ربطة عنق تدل على حسن الذوق، وقميص باهت اللون، ومنديل في جيب سترته، وزرين معدنيين فاخرين في كمّي قميصه وساعة رائعة. كان كل شيء يسر النظر، وكل شيء يبدو في مكانه الصحيح، وبمنتهى الأناقة دون أي بهرجة أو تفاهة.

"مرحبا يا رجل،" قلت له وأنا أقترب من الفيراري وألوح له مشيرًا إلى موقع وقوف سيارتي، ليعرف أنني سأخرج من موقف السيارات. هل أغرتني الفيراري بحدِ ذاتها؟ نعم، فأنا رجل جريء. لكن الأمر كان أكبر من مجرد جرأة. فالسيارة في تلك اللحظة لخصت كل ما كنت أفتقده أثناء نشأتي: من حرية، ومتنفس، وكل الخيارات غير المتاحة. «يمكنك أن تأخذ مكاني"، عرضت عليه، «لكن لابد لي أن أسألك سؤالين.»

علم أنني أقايضه، أعطيه مكاني في الموقف مقابل بعض من المعلومات. لقد تعلمت خلال سنوات عمري السبعة والعشرين القليل عن قوة المعلومات وأهميتها البالغة. أتيحت لي الآن فرصة الحصول على معلومات داخلية، كما اعتقدت، وهكذا قمت بإخراج سيفي الماضي – دافع لا يقاوم لطرح الأسئلة ظل يقبع في حقيبة أدوات نجاتي منذ الطفولة.

كنت أرى أنها ليست بالصفقة السيئة لكلينا. هز كتفه وقال «حسنًا.»

لذا قمت بسؤاله، «ماذا تعمل؟» و"ما هي الطريقة؟"

أجاب سؤالي الأول بابتسامة قائلًا بكل بساطة: «أنا سمسار بورصة"، لكن لكي يجيب السؤال الثاني امتد الحديث إلى لقاء تم بعد عدة أسابيع، ومن

ثم تعرفت لاحقًا على محطة أي بي سي التابعة لشارع المال وول ستريت[5]، والتي كانت مكانًا غريبًا بالنسبة لي، لكن رغم غرابته كان ساحرًا؛ حيث خيل لي في لحظة مجنونة أنني أستطيع أن أعمل ما يعمله ذلك الرجل وأمثاله، فقط لو أتيحت لي فرصة إيجاد المدخل المناسب.

وعلى الرغم من أنني لم يكن لدي أدنى خبرة، أو أي علاقات من أي نوع على الإطلاق، إلا أن التطلع لنيل فرصتي الكبيرة للدخول إلى عالم سوق الأسهم أصبح شغلي الشاغل في الشهور التالية، لكن وبكل أسف كل القضايا الملحة الأخرى أصبحت في تلك الفترة شغلي الشاغل أيضًا، خاصة عندما أصبحت فجأة أبًا عزبًا وسط سلسلة من الأحداث العاصفة التي لم تكن بالحسبان.

في تلك الفترة كانت مواقف سان فرانسيسكو المتضاربة تجاه أزمة السكان المشردين المتصاعدة معروفة جدًا، فما صرح به المسؤولون من ظهور وباء جديد يغزو المتشردين لم يكن بالشيء الجديد؛ فهذا الوباء كان يتطور بالفعل لأكثر من عشر سنوات نتيجة لعدة عوامل -تضمنت التخفيضات الجذرية التي أجرتها الدولة على تمويل مرافق الصحة العقلية، وخيارات علاج محدودة للأعداد الكبيرة ممن خدموا في حرب فيتنام وكانوا يعانون من متلازمة الضغط العصبي ما بعد الصدمة وإدمان الكحول والمخدرات- فضلًا عن الأمراض الاعتيادية الأخرى التي يعاني منها بقية سكان المدينة. بدأت الحكومة أثناء شتاء عام 1982 الطويل البارد بإلغاء برامجها التي

5) شارع المال أو وول ستريت Wall Street: أحد شوارع مانهاتن السفلى، في مدينة نيويورك، في الولايات المتحدة الأمريكية وفي الوقت الحالي تعد وول ستريت الواجهة الرئيسة للسوق الأمريكية حيث توجد فيها بورصة نيويورك والكثير من الشركات المالية – الأسهم/ السندات - الأمريكية الضخمة.

تعنى بمساعدة الفقراء، وعانى الاقتصاد في منطقة الخليج وفي بقية مناطق البلاد فترة ركود. وفي الوقت الذي أصبحت فيه فرص إيجاد العمل والمنازل بأسعار معقولة من أصعب ما يمكن، كان الوصول إلى المخدرات الرخيصة في الشوارع مثل غبار الملاك وعقار الفينسيكليدين، «بي سي بي[6]" من أسهل ما يمكن.

على الرغم من تذمر بعض رواد عالم التجارة من مسألة المتشردين التي من شأنها أن تضعف حركة السياحة، إلا أنه في حال حدث وقمت بزيارة إلى سان فرانسيسكو في أوائل الثمانينات فإنك على الأرجح لن تشعر بعمق الأزمة. ربما كنت قد سمعت عن الأحياء التي عليك تجنب زيارتها -مناطق عليك الحذر منها بسبب انتشار الحشاشين، ومدمني الخمر، والنساء المشردات اللاتي يتجولن بحقيبة أو عربة تحمل جميع أمتعتهن، وعابري السبيل وغيرهم من الذين «أصبحوا مجانين"، كما كان يقال عنهم في منطقتي في ميلواكي. أو ربما كنت قد لاحظت فعلا وجود بعض الدلائل- كطوابير الطعام الطويلة، والمتسولين، والأمهات والأطفال المتكدسين على أعتاب الملاجئ التي لم تعد تستوعب أعدادهم الهائلة، وهروب المراهقين، أو أولئك النائمين في الأزقة وعلى مقاعد الحدائق ومحطات النقل العام،

---

6) غبار الملاك Angel Dust وعقار الفينسيكليدين Phencyclidine (PCP): الاسم العلمي هو الفينسيكليدين، ويشار إليه بالاسم الدارج (غبار الملائكة) أو اختصارا بي سي بي، هو عبارة عن عقار طورته إحدى الشركات الأمريكية في خمسينيات القرن العشرين واستخدم كمخدر للعمليات الجراحية، منع استخدامه على البشر لأنه أظهر أعراضًا جانبية كالهلوسة، وسمح للأطباء البيطريين باستخدامه في الجراحة على الحيوانات ولكن أسيء استخدامه وهو ما أدى إلى سحبه من السوق كليًا. يمكن تعاطي هذا العقار عن طريق الفم أو التدخين أو الشم أو الحقن. ويمكن أيضا إذابته في الماء أو الكحول. وعند تدخين العقار، فإنه غالبا ما يوضع على مادة ورقية مثل التبغ، ثم يتم إشعال الورقة واستنشاقها عبر الغليون البايب.

وأسفل مزاريب الماء، ومداخل البنايات الذين كانوا يبدون في بعض الأحيان كأكوام ملابس مهملة. ربما قد ذكرتك زيارتك إلى سان فرانسيسكو بمشاكل مماثلة في مدينتك، أو ربما قد نبهتك أيضًا إلى النسبة المتزايدة للقوة العاملة الفقيرة التي باتت تعد ضمن صفوف المشردين - عمال بأجور لكنهم في نفس الوقت أشخاص وعوائل متعبة أجبرت على الاختيار ما بين دفع الإيجار، وشراء الطعام، أو شراء الدواء والملابس، أو أي احتياجات أساسية أخرى. وربما تكون قد توقفت لتتساءل عن طبيعة الحياة والأحلام والقصص التي تواجدت في السابق، وربما سيستغرقك التفكير في مدى سهولة أن تكون شخصًا مهملًا لا تطالك أي يد مساعدة كانت متوفرة في السابق، أو أن تواجه أزمة مفاجئة من أي نوع لتتعثر بكل بساطة وتقع في حفرة التشرد.

مهما كانت الاحتمالات، ومهما كنت شديد الملاحظة فإنك لن تلاحظ وجودي. أو إن حدث ولاحظت وجودي، وأنا أتنقل عادة بسرعة، أدفع عربة زرقاء، متهالكة، خفيفة الوزن أصبحت وسيلة تنقلي الوحيدة التي تحمل أثمن ما أملكه في الكون -ابني، «كريس الابن» ذو التسعة عشر شهرًا، طفل جميل ونشط وثرثار وجائع وينمو بسرعة- فإنك على الأرجح لن تلاحظ أنني وابني كنا مشردين. كنت أرتدي إحدى بدلتي الوحيدتين، وكانت الأخرى معلقة في كيس ملابس بلاستيكي متدلٍ على كتفي، إضافة إلى الحقيبة المصنوعة من القماش الخشن التي كانت تعج بكل ما نملكه على سطح هذا الكوكب (متضمنة أشياء مختلفة من الملابس، ومستلزمات الحمام، وبضعة من الكتب التي لا أستطع العيش من دونها) بينما كنت أحاول أن أمسك المظلة بيد وحقيبة المستندات باليد الأخرى، وأن أبقى محافظًا على أكبر صندوق حفاظات بامبرز في العالم تحت إبطي، كل هذا وأنا ما زلت أسيطر على قيادة العربة، كنا على الأرجح نبدو وكأننا ذاهبان

في رحلة نهاية أسبوع طويلة إلى مكان ما.

كل الأماكن التي كنا ننام فيها كانت تدل على ذلك، في قطارات مترو أنفاق نقل الخليج السريع، أو في مناطق الاستراحة في مطار أوكلاند أو مطار سان فرانسيسكو. وأماكن أخرى كنا نمكث فيها وكانت أيضًا تكشف عن وضعنا، وفي المكتب حيث كنت أعمل لوقت متأخر، وكنا نتمدد قليلًا على الأرض تحت مكتبي بعد ساعات العمل، أو في بعض الأحيان كنا نجد نفسينا في الحمام العمومي التابع لمحطة النقل السريع لمنطقة الخليج - بارت في أوكلاند.

مثَّل مربع القرميد الصغير هذا -الأشبه بالزنزانة من دون شباك، الذي اتسع لكلينا، ولحاجياتنا، مع وجود دورة مياه ومغسلة استطعنا أن نغتسل فيها أنا وابني قدر المستطاع- بالنسبة لي أسوأ كوابيسي، أن أصبح محتجزًا، ومحبوسًا، ومستعبدًا، وفي نفس الوقت كان عطية حماية من الرب حيث استطعت فيه أن أغلق الباب وأبقي أي مخاطر بمنأى عنّا. فليكن ما يكون، محطة ما بين المكان الذي آتي منه والمكان الذي سأذهب إليه، تشبه بالضبط محطة توقف السيارات أثناء السباق، لكن محطتي هذه كانت على سكة حديدية تحت الأرض، على نمط الثمانينات.

كنت أحمي نفسي من الوقوع في شرك اليأس من خلال صب كل تركيزي في الوجهات التي كانت تنتظرني في المستقبل، وجهات تجرأت على الحلم بها كامتلاك سيارة فيراري حمراء مثلًا. كان المستقبل غير محدد، من دون شك، وكان أمامي الكثير من العقبات، والالتواءات، والمنعطفات، لكن طالما أني كنت أواصل التقدم نحو الأمام، خطوة تلو الأخرى، فإن هذا السير إلى الأمام كان يخرس كل أصوات الخوف والخزي في رأسي، وكان يسكت كلام كل شخص أرادني أن أصدق أنني لم أكن جيدًا بما فيه الكفاية.

أصبحت «إلى الأمام سيروا» هي تعويذة المانترا[7] التي أرددها كل يوم، والتي استوحيتها من القس سيسيل وليامز[8]، أحد أكثر الرجال المتنورين الذين أتوا إلى هذا العالم. كان هذا الرجل بالنسبة لي صديقًا ومعلمًا باركتني طيبته بطرق لا أستطيع عدها ما حييت. كان القس وليامز بمثابة أيقونة لكل أولئك الذين كانوا يرتادون كنيسة غلايد الميثودية الواقعة في تيندرلوين؛ حيث كان يطعمهم فيها ويُؤويهم، ويصلح حالهم (اتّسعت في النهاية لآلاف من المشردين وأصبحت أول فندق يأوي أمثالهم في البلاد). لا تستطيع أن تعيش في منطقة الخليج دون أن تعرف سيسيل وليامز وتستشعر رسائله. كان يعظ قائلًا: «أوفوا بما وعدتم.» كانت خطبه في كل يوم أحد تخاطب عدة مواضيع مختلفة لكن تلك العظة مع تكملتها كانت حاضرة في كل موضوع. أوفوا بما وعدتم وإلى الأمام سيروا دائمًا. لا تقولوا ما لا تفعلون، أوفوا بعهودكم وتقدموا نحو الأمام. لا ينبغي للطريق أن يكون واسع الخطى، فالخطوات الصغيرة تحسب أيضًا، إلى الأمام سيروا.

---

7) مانترا Mantra: يرجع أصل الكلمة إلى الحضارة الهندية وهي كلمة سنسكريتية تعني تعويذة (मन्त्र) وتعد من أسس ديانات السيخ والهندوس ومن عادات البوذية. تتألف الكلمة من مقطعين: «مان» وتعني التفكير وهناك كلمة «ماناس» وتعني الروح، ومن كلمة «ترا» التي تعني «تحرير»، فيصبح معناها «تحرير الروح أو العقل». وهناك من يقول إن «ترا» تترجم إلى «أداة» مما يصبح معناها «أداة التفكير». أقرب معانيها في العربية هي «تعويذة».

8) سيسيل وليامز Cecil Williams: ولد في 22 أيلول عام 1929 وهو راعي كنيسة غلايد الميثودية وزعيم اجتماعي ومؤلف. أصبحت الكنيسة تحت قيادته تجمعًا لجميع الأعراق والأعمار والديانات. وهي أكبر مزود للخدمات الاجتماعية في المدينة، وتخدم أكثر من ثلاثة آلاف وجبة في اليوم، وتقدم فحوصات فيروس نقص المناعة البشرية/ الإيدز، وتقدم برامج تعليم الكبار، وتقدم المساعدة للنساء اللواتي يعانين من التشرد والعنف المنزلي، وإساءة استعمال المخدرات وقضايا الصحة العقلية.

ترددت تلك العبارات في ذاكرتي حتى أصبحت غناء دون كلمات[9]، وكأنها نغمات متقطعة كنت أسمعها أثناء ركوبنا القطار على سكة حديد محطة بارت، أو كإيقاع تأخير النبر[10] المنبعث من صوت عجلات العربة، مضاف إليه إيقاع صرير المكابح المتقطع، وأصوات الصرير والأنين التي كانت تخرج لدى دفعها على الرصيف الجانبي المليء بالشقوق، صعودًا ونزولًا على تلال سان فرانسيسكو الشهيرة شديدة الانحدار، ومنعطفات الطرق.

أصبحت عربات الأطفال في السنوات اللاحقة عالية التقنية تحتوي على عجلتين أو ثلاث عجلات في كل جانب، وجميعها ذات تصميم إيروديناميكي وشكل انسيابي، وتحتوي أيضًا على وسائد جلدية الصنع وحجرات صغيرة لخزن الأشياء، وسقوف مضافة إليها تجعلها تبدو كأكواخ قابلة للسكن. لكن عربتي الزرقاء الآيلة للسقوط التي كنت أمتلكها حينما أوشكنا على دخول شتاء عام 1982 لم تتضمن أي شيء مما سبق ذكره. كل ما كانت تحتويه هو -في ذلك الشتاء الأكثر رطوبة وبرودة في تاريخ سان فرانسيسكو على ما أعتقد- خيمة صغيرة تغطي رأس كريس الابن قمت بصنعها من الأغطية البلاستيكية المجانية الموجودة في أماكن الغسيل الجاف.

بقدر ما كنت أسير إلى الأمام لأني آمنت بوجود مستقبل مشرق ينتظرني، وبقدر ما كنت واثقًا من أن الواقعة التي حدثت خارج مستشفى

9) غناء دون كلمات skat: هو شكل قديم من الغناء الشعبي في أوائل القرن العشرين خاص بموسيقى الجاز، وهو الارتجال الصوتي مع الأصوات الخالية من الكلمات، أو المقاطع غير المنطوقة أو بدون كلمات على الإطلاق يقوم المغني بترتيل الألحان والإيقاعات باستخدام الصوت كأداة بدلاً من وسيط للتحدث.

10) تأخير النبر Syncopation: هي ممارسة إيقاعية تغير من طبيعة النبضات الإيقاعية للميزان الموسيقي، وتحولها من نبضات قوية إلى نبضات ضعيفة، والعكس صحيح. يميل موسيقيّو الجاز إلى استخدامها أثناء عزفهم.

سان فرانسيسكو العام كانت قد أدارت الدفة باتجاه ذلك المستقبل، إلا أنني استمددت القوة الدافعة الحقيقية من الحدث المحوري الثاني في حياتي الذي حدث في ميلواكي في شهر مارس من عام 1970، في يوم ليس ببعيد من يوم عيد ميلادي السادس عشر.

بخلاف التجارب الكثيرة التي مررت بها في طفولتي، والتي مالت إلى أن تكون غشاوة خيمت على ذاكرتي محولة إياها إلى سلسلة من الصور التي تومض بشكل خافت وكأنها حبيبات مشوشة، تستعرض صورًا قديمة، إلا أن هذا الحدث -الذي لابد أن يكون قد حدث في جزء من الثانية- أصبح واقعًا حيًا أستطيع أن أستحضره في مخيلتي متى ما شئت، بتفاصيله المحفوظة تمامًا.

كانت هذه الفترة أحد أكثر فترات شبابي المتقلبة فيما عدا الاضطراب العام الذي كان سائدًا في تلك الحقبة من الزمن: الحرب الفيتنامية، وحركة الحقوق المدنية، وأصداء الاغتيالات، وأحداث الشغب، والتأثيرات الثقافية للموسيقى، والهيبيز[11]، وحركة القوة السوداء[12]، والنشاط السياسي، كل هذه الأحداث ساعدت في صقل نظرتي لنفسي، ولبلدي، والعالم أجمع.

11) الهيبيز Hippies: ظاهرة اجتماعية كانت بالأصل حركة شبابية نشأت في الولايات المتحدة في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين ثم ما لبثت أن انتشرت في باقي الدول الغربية. وتعد هذه الحركة مناهضة للقيم الرأسمالية، حيث ظهرت بين طلاب بعض الجامعات كظاهرة احتجاج وتمرد على مظاهر المادية والنفعية وثقافة الاستهلاك، فقام بعض الشباب المتذمر إلى التمرد على هذه القيم والدعوة لعالم تسوده الحرية والمساواة والحب والسلام. ميّزوا أنفسهم بإطالة الشعر ولبس الملابس المهلهلة والفضفاضة والتجول والتنقل على هواهم في مختلف الأنحاء، كتعبير عن قربهم من الطبيعة وحبهم لها.

12) حركة القوة السوداء The black power: حركة كانت أهدافها الحقوق المدنية والتي شملت الحقوق السياسية والاقتصادية والاكتفاء الذاتي، والتحرر من سلطة البيض. استمرت الحركة من 1966 ولغاية 1975.

خلال مرحلتَي الطفولة والمراهقة عاشت عائلتي -المتكوّنة من ثلاث أخوات، وأنا، وأمي التي كانت حاضرة في سنوات عمري الأولى على نحو غير منتظم، وزوج أمي- في مجموعة من المنازل، والمباني الخالية من المصاعد، والشقق، تخللتها فترات متقطعة من المكوث مع مجموعة من الأقارب، كل ذلك التنقل حدث ضمن نطاق أربع مربعات سكنية. فيما بعد قمنا بالانتقال إلى بيت صغير في حي يعد من الأحياء الصاعدة. لربما كان هذا هو الحال مقارنة بالمنزل الذي كنا نعيش فيه في السابق، لكن هذا المنزل كان برغم ذلك «خطوة نحو الأعلى»(13) – كما جاء في أغنية مسلسل عائلة جيفرسون(14) الذين كان ما زال أمامهم خمس سنوات حتى يتم إنتاج مسلسلهم.

كان التلفزيون، في ذلك اليوم تحديدًا، هو جل اهتمامي وأحد أسباب شعوري بالسعادة، ليس لأنني كنت أحضّر لمشاهدة آخر لعبتين للفرق الأربعة النهائية في الرابطة الوطنية لرياضة الجامعات لكرة السلة فحسب، وإنما أيضًا لأنني استطعت أن أحصل على غرفة المعيشة لي وحدي. وهذا كان يعني أنني أستطيع أن أصرخ وأهتف كما أشاء، وإن شئت فسأتحدث مع نفسي وأجيبها بصوت عالٍ. كانت لدى أمي نفس العادة وحينما كان يسألها أي أحد ماذا كانت تفعل، كانت تجيب دائمًا: «أنا أتحدث إلى شخص لديه حس جيد للأمور.»

---

13) خطوة نحو الأعلى Movin' on up: هو مصطلح مستمد من الأغنية التي كتبها جيف باري وجانيت دوبوا من مسلسل عائلة جيفرسون.

14) مسلسل عائلة جيفرسون The Jefferson: هو مسلسل كوميدي تم إنتاجه في الولايات المتحدة سنة 1975. عرض على سي بي إس. المسلسل من تأليف بيرني ويست، وهو من إخراج توني سنجلتري وبطولة شرمن همسلي ومايك إيفانز.

صادف أن تكون أمي هي الشخص الوحيد الموجود في المنزل، وكان هذا سببًا آخر كي أشعر بالسعادة في ذلك اليوم. حتى وإن لم تكن تجلس بجانبي لتشاهد المباراة، لكن كان يكفيني أن تكون بأي مكان بالقرب مني -صادف أن تكون مشغولة بكيّ الملابس في غرفة الطعام المجاورة- وكان البيت وكأنه يتنفس الصعداء كوننا أنا وأمي في المنزل فقط، وكان ذلك شيئًا نادر الحصول خاصة مع وجود زوج أمي المزعج.

لطالما غمرتني مسيرة جنون البطولة[15] التي تحدث سنويًا عند نهاية كل موسم للعبة كرة سلة الجامعات بالسعادة، كانت عامل إلهاء ممتاز يشتت انتباهي عن الأفكار المتعبة التي كنت أحملها كبهلوان يمشي على سلك رفيع من مرحلة المراهقة نحو مرحلة الرجولة. كانت البطولة مليئةً بالمفاجآت كعادتها، والنجاحات الكبيرة غير المتوقعة، والأحداث المؤثرة، بدءًا من فرق الأمة الأربعة والستين المتصدرة التي لعبت اثنتين وثلاثين مباراة وسرعان ما تقلصت إلى ستة عشر فريقًا متأهلًا، ومن ثم إلى ثماني فرق، انتهت بلعب الأربع فرق الأخيرة لعبتين، ثم يتنافس الفريقان الفائزان على لقب البطولة. كل الأنظار هذا العام كانت موجهة نحو فريق جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس، وكيف سيلعب الفريق في موسمه الأول في ظل غياب لاعبه فيرديناند ليو ألسندور[16] الذي يبلغ طوله مئتين وثلاثة

15) مسيرة جنون البطولة March Madness: هي مسيرة تقام كل سنة في بطولة كرة السلة للرابطة الوطنية لرياضة الجامعات (NCAA) التي تضم 68 فريقًا. معظم المباريات تجري في شهر مارس، وتعد هذه المسيرة واحدة من أبرز الأحداث الرياضية في البلاد.

16) فرديناند لويس ألسندور Lew Alcindor: عرف باسم كريم عبد الجبار Kareem Abdul-Jabbar ولد عام 1947 في مدينة نيويورك وهو أمريكي من أصل إفريقي، كان لاعب كرة سلة محترف، ويعد أحد أبرز أبطال اللعبة في التاريخ. ذو طول يزيد على مترين و15 سنتيمترًا، سجل أكثر من 387 ,38 نقطة طوال مشواره في اللعبة. لعب في مركز الوسط في فريق جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس حتى تخرج منها. أسلم على يد الداعية حماس عبد الخليص (Hammas Abdul Khaalis) الذي كان له نشاط دعوي للإسلام في مدينة واشنطن، وهو الذي سماه عبد الكريم، ثم تغير الاسم إلى كريم عبد الجبار.

عشر سنتيمترًا (والذي عرف بعدها باسم عبد الكريم جبار) بعد أن قاد فريقه للفوز بثلاثة ألقاب على التوالي. كان الفريق الذي قُدر له أخذ لقب البطولة من فريق جامعة كاليفورنيا هو فريق جامعة جاكسون فيل، والذي لم يكن معروفًا حتى الآن والذي تفاخر بامتلاكه نجمين هما أرتس غيلمور[17] وبيمبروك بيوروس[18] اللذان فاق طولهما المئتين وثلاثة عشر سنتيمترًا. لم يكن أمرًا عاديًا أن يتجاوز طول اللاعبين مئتي مترٍ، ناهيك عن تواجد اثنين منهم في نفس الفريق.

كانا يُعرفان باسم البرجين التوأمين الأصليين، أو في بعض الأحيان كان يطلق عليهما برجا القوة، حيث إنهما ساعدا فريق جاكسون فيل على هزيمة خصمه وإيصاله إلى الربع النهائي ليواجه فريق سينت بونافينتور. تصاعد الشعور بالحماس مع اقتراب النهائيات وتوقعات المذيعين حول الوظائف والثروات التي تنتظر العملاقَين في دوري الرابطة الوطنية لكرة السلة الأمريكية أو اتحاد كرة السلة الأمريكي.

وبالفعل، فاز فريق جاكسون فيل في اللعبة ولكنه خسر البطولة أمام فريق جامعة كاليفورنيا. انتقل غيلمور فيما بعد للّعب في الرابطة الوطنية لكرة السلة بينما اختير بيوروس للعب في فريق سياتل، ومن ثم امتهن فيما بعد سلك شرطة دوريات وأمن الطرق وأصبح ضابط دورية الطرق السريعة في فلوريدا.

---

17) أرتس غيلمور Artis Gilmore: ولد في 21 أيلول عام 1949 وهو لاعب كرة سلة متقاعد، أمريكي من أصل إفريقي. ذو طول 213 سم، لعب في الرابطة الأمريكية لكرة السلة (ABA) والرابطة الوطنية لكرة السلة (NBA) الدوري الأميركي للمحترفين في 2011 وقد أُدرج اسمه في قاعة نايسمث التذكارية لمشاهير كرة السلة.

18) بيمبروك بيوروس Pembrook Burrows: لاعب كرة سلة أمريكي من أصل إفريقي، لعب في فريق كرة سلة جامعة كاليفورنيا. يبلغ طوله 213 سم، ويعد من أهم لاعبي كرة السلة في فترة السبعينات.

لم يكن لكل ذلك أي أهمية وأنا جالس هناك في غرفة المعيشة، منهمكًا تمامًا في توقع النهائيات ومتفاعلًا جدًا مع ضجيج المذيعين وهم يعلقون على قدرات اللاعبين البدنية، والثروة التي تنتظر غيلمور وبيوروس، لدرجة أنني هتفت بأعلى صوتي لا لأحد: «واو، يومًا ما سيجني هذان العملاقان مليون دولار!»

كانت أمي تقف جانب طاولة الكي، ورائي مباشرة في الغرفة المجاورة، عندما قالت بكل وضوح، كما لو أنها كانت جالسة بالقرب مني طوال الوقت: «يا بني، إن كان لديك الإرادة فإنك يومًا ما ستتمكن من كسب مليون دولار.»

ذهلت من قولها وتركته ينساب في أعماقي، دون إجابة مني. ولا داعي للإجابة، فما قالته بيتي جين تريبلت ني غاردنر كان بمثابة بيان رسمي مسجّل لا ينبغي التشكيك فيه، أو الرد عليه. كان تصريح أمي موثوقًا شأنه شأن أن يقول أحدهم في يوم الجمعة أن «غدًا هو السبت.»

كان مقدسًا، أحد الوصايا العشر التي سلمها الرب إلى أمي: «إن كان لديك الإرادة، فإنك يومًا ما ستتمكن من كسب مليون دولار.»

انقلب عالمي رأسًا على عقب في لحظة واحدة. في عام 1970 كانت الطريقة الوحيدة بالنسبة لفتى قادم من حي الغيتو[19] كي يكسب مليون دولار هي إما أن يغني، أو يرقص، أو يعدو، أو يقفز، أو يلتقط الكرة، أو يتاجر في المخدرات. لم أكن أجيد الغناء، وكنت ما زلت الرجل الأسود

19) حي الغيتو Ghetto: منطقة يعيش فيها مجموعة من السكان يعتبرهم أغلبية الناس خلفية لعرقية معينة أو لثقافة معينة أو لدين أو لظروف قهرية معينة. أصل الكلمة يعود إلى (حي اليهود) في مركز مدينة روما. يشار إلى الغيتو في الدول العربية ب «حارة اليهود». الغيتو أيضًا يطلق على وصف الأحياء الفقيرة الموجودة في المناطق المدنية الحديثة.

الوحيد في أمريكا الذي لا يستطيع الرقص أو لعب الكرة، وكانت أمي هي من أوضحت لي الصورة حيال حلمي بأن أصبح مايلز ديفيس.

"كريس،" قالت لي أمي، بعد أن سمعتني أقول عدة مرات بأنني سأصبح مثله، "لا تستطيع أن تكون مثل مايلز ديفيس، لأنه حصل على تلك الوظيفة مسبقًا." لقد فهمت من كلام أمي أنّ بإمكاني أن أصبح كريس غاردنر، مهما استلزم الأمر.

وثقت بأمي عندما أخبرتني في ذلك الوقت وأنا في السادسة عشرة من عمري، أن وظيفتي يمكن أن تجلب مليون دولار، إن كان لدي الإرادة لفعل ذلك. لكن مقدار النقود لم يكن هو المهم في قول أمي، فالجزء المؤثر في رسالتها هو: إن أردت فعل شيء، أيا كانت طبيعته، فإنّ بإمكاني فعله. لم أؤمن بكلامها في ذلك العمر وحسب بل استمر إيماني بما قالته في كل الأيام اللاحقة، من ضمنها ذلك اليوم المصيري في سان فرانسيسكو عندما اختلست أول نظرة نحو مستقبلي في وول ستريت، وفي تلك الأيام التي كنت أسير فيها على التلال تحت الأمطار ومعي ابني الذي يتطلع لي من أسفل الأغطية البلاستيكية التي كان المطر يخترقها، وفي ساعات وحدتي عندما كان حمام محطة بارت هو المأوى الوحيد.

استطعت لاحقًا في مرحلة البلوغ، بعد كل تلك الأيام من التجوال في صحراء التشرد، وإيماني بالأرض الموعودة التي أخبرتني أمي عنها ومن ثم العثور عليها، وبعد أن كسبت الملايين من الدولارات، أن أفهم لماذا كان هذان الحدثان بتلك الأهمية في مسيرة نجاحي الذي تحقق في نهاية المطاف. دلتني واقعة سائق الفيراري الحمراء على الطريق كي أكتشف «نوع» المجال الذي أستطيع من خلاله أن أجد نفسي وأحقق ذاتها وأتعلم «طريقة» فعل ذلك. لكن مقولة أمي كانت هي النبتة الأولى التي غرست الإيمان القوي في

داخلي بأني «أستطيع» تحقيق أي هدف أضعه نصب عيني.

بعد أن تمعنت في حياة أمي استطعت أن أدرك تمامًا سبب قولها تلك الكلمات لي في ذلك الوقت بالتحديد. وبعد أن عرفت خيبات الأمل التي مرت بها قبل وبعد ولادتي، استطعت أن أفهم أنه بالرغم من أن الكثير من أحلامها قد ذهب مع الريح، إلا أن حثها لي على أن أتحلى بالجرأة على الحلم كان بمثابة فرصة لها كي تحقق حلمها من خلالي.

ولكي أجيب إجابة شافية عن طوق نجاتي الذي نور لي طريقي وأصبح سر نجاحي الذي تحقق لاحقًا، كان لابدّ لي أن أعود إلى مرحلة طفولتي وأرجع برحلتي إلى الوراء وأقص حكاية أمي؛ كي أدرك أخيرًا كيف انبثقت شعلة الحلم في داخلي.

قصتي هي قصة أمي.

الجزء الأول

الفصل الأول

قطعة الحلوى

من بين جميع ذكريات الطفولة التي طبعت في ذهني، واحدة فقط هي التي علقت في ذاكرتي دون الكل: كلما استذكرتها سال مع لعابي نكهة شراب البان كيك وهو لم يزل حارًا في المقلاة، وأصوات الطقطقة والفقاعات التي يصدرها الصوص وهو يتحول بطريقة سحرية إلى تلك الحلوى المعدة منزليًا، وها هي تظهر في الصورة، امرأة جميلة جدًا واقفة أمام الفرن، تعد ذلك السحر من أجلي أنا فقط.

أو على الأقل ذلك ما كنت أشعر به كصبي في الثالثة من عمره. صاحب حضورها رائحة زكية أخرى وهي تلتفت نحوي، مبتسمة، وتدنو مني حيث أقف أنا في وسط المطبخ: أنتظر بلهفة مع أختي أوفيليا ذات السبع سنوات وطفلين آخرين -روفس وبوكي- كانا يعيشان في هذا المنزل. بينما كانت تقلب الحلوى المبردة بالملعقة الخشبية وتقسمها إلى قطع، وتجلبها وتضع واحدة في يدي الممتدة، وبينما هي تشاهدني وأنا ألتهم طعمها

الحلو بسعادة غامرة، كانت رائحتها الجميلة تعود مرة أخرى. لم تكن عطرًا مميزًا، كانت رائحة نظيفة ودافئة تلتف حولي كرداء سوبرمان لتشعرني بالقوة والتميز والحنان، حتى وإن لم أكن أعي معاني هذه الكلمات بعد.

على الرغم من أنني لم أكن أعرف من تكون، إلا أنني أحسست بالألفة تجاهها، ليس لأنها كانت تعد لي الحلوى بطريقتها المعتادة في كل مرة فحسب، وإنما أيضًا الطريقة التي كانت تنظر لي بها، وكأنها تخاطبني بعينيها قائلة: «أنت تذكرني، أليس كذلك؟»

في هذه المرحلة من الطفولة، وفي معظم السنوات الخمس الأولى من عمري، كانت خريطة العالم بالنسبة لي مقسمة بالمعنى الدقيق إلى منطقتين: المألوفة والمجهولة. كانت المنطقة المألوفة التي تغمرني بالسعادة والأمان صغيرة جدًا، وغالبًا ما كانت نقطة متنقلة على الخريطة، بينما كانت المنطقة المجهولة واسعة ومخيفة وثابتة في مكانها.

كل ما كنت أعرفه في الثالثة أو الرابعة من عمري هو أن أوفيليا هي أختي الكبرى وصديقتي المقربة، وأن السيد روبنسون وزوجته اللّذين كنا نسكن معهما في منزلهما كانا يعاملاننا معاملة طيبة. ما لم أعرفه هو أن منزل آل روبنسون كان دارًا للأيتام. كان وضعنا -أين آباؤنا الحقيقيون ولماذا لم نكن نعيش معهم، أولماذا كنا نعيش في بعض الأحيان مع أقربائنا- غريبًا كغرابة بقية أطفال الدار الذين يعيشون في منزل آل روبنسون.

كان أهم شيء بالنسبة لي هو وجود أخت ترعاني، وروفس وبوكي وبقية الأولاد الذين كنت ألعب وأرتكب الحماقات معهم خارج المنزل. كل ذلك كان مألوفًا، وكذلك حديقة المنزل وبقية أرجاء المنطقة التي كانت فناءً آمنا للركض ولعب مختلف الألعاب مثل المطاردة، وركل الصفيحة، والغميضة حتى بعد حلول الظلام، فيما عدا ذلك المنزل الذي كان يبعد

مسافة منزلين عن منزل آل روبنسون.

كلما مررنا بجانب ذلك المنزل كنت أشيح النظر عنه -وفي ظني أن المرأة البيضاء العجوز التي تسكنه ستخرج فجأة لتلقي علي لعنة- لأنه، وحسب اعتقاد أوفيليا وباقي أولاد الحي، تلك المرأة كانت ساحرة.

مررنا أنا وأوفيليا ذات مرة من جانب ذلك المنزل، واعترفت لها بخوفي من الساحرة، لكن أوفيليا أخبرتني أنها ليست خائفة، ولكي تبرهن لي ذلك ذهبت ودخلت حديقة منزل الساحرة، وقامت بقطف حفنة من الكرز.

أكلت أوفيليا حبات الكرز واعتلت وجهها ابتسامة ماكرة. وفي نفس الأسبوع وعندما كنت في منزل آل روبنسون جاءت أوفيليا وهي تركض مسرعة نحونا بخطى متعثرة، تلهث، واضعة يديها على صدرها الصغير، وهي تصف لنا الساحرة وقد رأتها تسرق الكرز وأمسكت بذراعها متوعدة «سأنال منك!»

كانت أوفيليا خائفة حتى الموت، لكنها سرعان ما قررت أنها طالما نفذت من الموت مرة، فإنها تستطيع أن تذهب لتسرق الكرز مرة أخرى. وعلى الرغم من ذلك لقد جعلتني أعدها أن أتجنب المرور بالقرب من منزل المرأة الغريبة، وحذرتني قائلة: «عليك أن تتذكر، عندما تمر بالقرب من منزلها وتراها جالسة في الشرفة لا تنظر إليها، ولا تقل لها أي شيء حتى لو نادتك باسمك.»

لم أكن مضطرًا لأفي بوعدي لأني كنت أعرف بألّا أحد يستطيع إجباري على فعل ذلك، لكني كنت ما زلت أشعر بأن شيئًا ما يطاردني في كوابيسي، شيئًا حقيقيًا لدرجة أنني أكاد أجزم أنني قد تسللت إلى منزلها بالفعل ووجدت نفسي داخل غرفة مظلمة ومخيفة محاطًا بجيش من القطط الجالسة على أرجلها الخلفية، والكاشفة عن أنيابها ومخالبها.

كان شعوري بتلك الكوابيس مفزعًا للغاية لدرجة أنني ولفترة طويلة تملكني الرعب والكره تجاه القطط، وفي نفس الوقت لم أكن مقتنعًا تمامًا بأن تلك المرأة هي ساحرة حقًا. ربما كانت مختلفة قليلًا. بما أنني لم أر أي أشخاص بيض سواها من قبل، فقد تصورت أن جميعهم قد يكونون على نفس شاكلتها.

من ناحية أخرى، ولأن أختي كانت مصدر معلوماتي الوحيد الذي يعلمني كل ما هو غير معروف بالنسبة لي، فإنني كنت أصدق وأتقبل كل تفسيراتها. في الوقت الذي كنت أجمع فيه أجزاء المعلومات التي تخص عائلتنا الكبيرة على مر السنين والتي كان مصدرها الرئيس أوفيليا وبعض من أقربائنا، اكتشفت أن الأجوبة كانت أصعب من فهمي.

كيف يمكن لهذا اللّغز المحير أن يسع تلك المرأة الجميلة التي أتت لتعد الحلوى، لم يخبرني أحد من هي، لكن شيئًا ما في داخلي كان يعلم أنها شخص مهم. ربما كان السبب هو رعايتها المميزة لي، رغم أنها كانت ترعى أوفيليا وبقية الأولاد بنفس الطريقة، أو ربما لأننا نحن الاثنان كنا نمتلك طريقة سرية للتحدث بدون كلام. كنت أعرف من خلال حديثنا هذا أنها تقول لي أن سعادتي تجعلها أكثر سعادة، وهكذا فإن شيئًا ما في أعماقي أخبرني أن وظيفتي في الحياة: هي إسعادها كما أسعدتني. وأدركت أيضًا من كانت، رغم ألّا أحد أخبرني، وكان هناك لحظة إدراك تبادرت إلى ذهني خلال إحدى زياراتها لنا: عندما كنت أراقبها وهي تقف أمام الفرن وأبدي ملاحظات سيتم تعزيزها في السنوات القادمة.

كان جمالها أخاذًا، يسلب العقل، بإمكانه أن يستوقفك ويجعلك تلتفت مرة أخرى فتراه أكثر جمالًا. رغم أن طولها لم يكن سوى مئة واثنين وستين سنتيمترًا، لكنها كانت ذات قامة ممشوقة تشبه طلة النبلاء جعلتها تبدو أطول. كانت ذات بشرة سمراء لكنها ليست فاتحة جدًا، كلون شراب

القيقب تقريبًا الذي كانت تضعه على الحلوى. امتلكت أظافر قوية للغاية؛ قادرة على قسم تفاحة إلى نصفين بيديها المجردتين، كان هذا شيء قلة من النساء أو الرجال يستطيعون فعله، لكنه كان أيضًا شيئًا أثار إعجابي طوال حياتي. امتلكت طريقة أنيقة في ارتداء الملابس -كان اللون العنابي وفساتين طباعة بيزلي[20] يبرزان جمالها- حيث إنها كانت تضع على كتفها وشاحًا أو شالًا ليضفي عليها أنوثة طاغية. أعطاها لمعان الألوان وطيات النسيج الفضفاضة مظهرًا أستطيع أن أصفه لاحقًا بأنه يتسم بطابع إفريقي.

لكن أبرز السمات التي كانت تلفت النظر إلى جمالها هي عيناها المعبرتان وابتسامتها الساحرة. كنت حينها، وحتى فيما بعد، أشبّه تلك الابتسامة بالضوء القادم عندما نفتح الثلاجة أثناء الليل. حينما تفتح ذلك الباب -تبتسم- يشع المكان بالضوء. حتى في تلك الليالي اللّاحقة عندما لم تحتوِ الثلاجة على شيء سوى مصباح كهربائي وثلج، كانت ابتسامتها ومجرد التفكير فيها هي كل ما احتجته لأشعر بالراحة.

لا أذكر متى بالضبط أدركت صلتها بي، كل ما أذكره أن الأمر حدث في مكان ما عندما كنت في الرابعة من عمري، ربما بعد أن ناولتني قطعة من الحلوى، في لحظة عندما تمكنت أخيرًا من الاستجابة لتلك النظرة التي كانت تمنحني إياها وأطمئنها بنظرة مني:

«بالطبع أنا أتذكرك، أنت أمي!»

...

كانت عائلتنا مليئة بالأسرار. بمرور الزمن كنت أستمع إلى أجزاء فقط

---

20) بيزلي Paisley: هو تصميم يكون على شكل دمعة مع نهاية منحنية من الأعلى وهو تصميم فساتين أصله فارسي.

من قصص أمي الملحمية التي كانت تقال لي بشتى أنواع الطرق، وهكذا، فإن مفهومي للأحداث في نهاية المطاف كان نوعًا ما أشبه بحكاية سندريلا[21] -من دون الجزء الخاص بالجنية العرابة والنهاية السعيدة بزواج سندريلا من الأمير وعيشهما بسعادة إلى الأبد- ولدت بيتي جين، الابنة الكبرى والوحيدة من بين أربعة أطفال بقوا على قيد الحياة لأبوين يدعيان آرتشي وأوفيليا غاردنر، عام 1928، في ليتل روك، أركانساس، لكنها تربت أثناء فترة الكساد الاقتصادي والفقر المدقع، في أرياف لويزيانا، في مكان بالقرب من بلدة ريفل التي كان تعداد سكانها حينذاك خمسمئة نسمة. لم تكن الحياة سهلة بالنسبة لعائلة غاردنر خصوصًا مع تفشي الفقر والعنصرية. كان على بيتي وأخيها آرتشي -الذي بكى بحرقة مستذكرًا الثلاثينيات والأربعينيات في ريفل عندما كانا يمشيان في طرقات المدينة الطويلة المغبرة نحو المدرسة- أن يُبقيا رأسيهما مرفوعين بينما كان الأطفال البيض يركبون العربات التي تجرها الأحصنة أو يمتطونها، وينظرون ويشيرون إليهما وينعتونهما ب «الزنجيين»، ويبصقون عليهما.

ومع هذا ورغم تلك الفترة الصعبة والجهل الكريه الذي كان سائدًا، إلا أن طفولة بيتي كانت مستقرة نسبيًا. كانت معشوقة إخوانها الثلاثة، آرتشي الابن وويلي وهنري. كانت فتاة لامعة وواعدة بالفعل، وطالبة نموذجية تخرجت الثالثة على صفها من ثانوية ريفل للطلاب الملونين عام 1946 لكن

21) سندريلا Cinderella: تعني (الحذاء الزجاجي الصغير) وهي من أشهر الشخصيات الخيالية في عالم قصص الأطفال. وتعني كلمة سندريلا بالمجاز الشخص الذي يحقق نصرًا وإنجازًا بعد معاناة بصورة غير متوقعة. تدور أحداث القصة حول فتاة تدعى سندريلا تعيش في ظروف صعبة تنقلب حياتها فجأة إلى حياة منعمة. يمكن الرجوع لأصول القصة إلى أيام إيسوب (620-560) ق.م المشهور بتأليف القصص الخيالية وهناك أيضًا قصة مماثلة ظهرت في عام 860 م في الصين تسمى (ين تزان).

سرعان ما تمزقت خيوط أحلامها، ففي نفس اليوم الذي ذهبت به إلى الكلية لتتبع حلمها في أن تصبح معلمة، توفيت والدتها فجأة. وكما حدث في حكاية سندريلا، وبينما كانت ما زالت في فترة حداد على والدتها، وبين ليلة وضحاها تزوج الأب، تاركًا بيتي لتواجه مصيرها مع زوجة أب مستبدة -التي أطلقت على نفسها ساخرة «الأم الحنون»- ومجموعة من أبنائها المشاغبين. وفي الوقت الذي كانت تعتمد فيه بيتي على دعم أبيها المادي من أجل كليتها، رأت «الأم الحنون» بأن هذا الدعم يجب أن يذهب إلى ابنتها أيدي لي، التي تخرجت من نفس الصف مع بيتي لكنها لم تكن من الأوائل.

لم تفقد بيتي الأمل رغم أن قلبها كان مكسورًا بسبب والدها الذي رفض أن يتدخل في الأمر، لذا عملت معلمة بديلة بينما التحقت بمعهد التجميل. لكنها حينما احتاجت إلى النقود كي تدفع رسوم تراخيص الولاية لم يساعدها والدها هذه المرة أيضًا.

رغم أن بيتي كانت موهوبة وذكية وجميلة بالفطرة إلا أن حظها السيء مع الرجال جعل معظمهم يصيبها بخيبة أمل وكان أولهم والدها. وكان هناك صامويل سالتر، وهو معلم متزوج نذر حبه لبيتي ووعدها بترك زوجته، لكنه حتمًا غير رأيه حينما أصبحت حاملًا منه. وكما هو متوقع فإن «الأم الحنون» وأباها لم يمدّا لها يد العون. لقد أخبرا الجميع بأنها أصبحت تشكل مصدر إحراج بالنسبة لهما كونها ما زالت عزباء في عمر الثانية والعشرين، لكن أن تكون عانسًا وأمًا غير متزوجة هو أمر لم يستطيعا تحمل خزيه أكثر من ذلك، وعلى هذا الأساس قاما بطردها من المنزل.

منذ ذلك الوقت ابتدأت رحلة أمي التي استمرت أربع سنوات إلى ميلواكي، حيث استقر فيها إخوانها الثلاثة. أنجبت هناك أختي أوفيليا التي أسمتها تيمّنًا باسم والدتها الحبيبة، كان ذلك قبل أن تتعرف على رجل

وسيم أسود ذي بشرة داكنة، وطويل في رحلة أثناء عودتها إلى لويزيانا. كان اسمه توماس ترنر، وهو رجل متزوج استطاع أن يغزو قلب بيتي جين إما بالحب أو بالقوة. كنت أنا نتيجة ذلك الغزو، كريستوفر بول غاردنر المولود في ميلواكي، ويسكونسن، في التاسع من شباط عام 1954، وهو نفس العام الذي أعلنت فيه المحكمة العليا إلغاء الفصل العنصري في المدارس بوصفه انتهاكًا للتعديل الرابع عشر للدستور الأمريكي.

تماشيًا مع الألغاز الأخرى في عائلتي، كان أبي نسجًا من خيال خيم على المنطقة المجهولة الواسعة في طفولتي. ذُكر اسمه مرة أو مرتين أمامي. ربما كان هذا الموضوع سيزعجني أكثر لولا انشغالي ببقية الأسئلة الملحة، خاصة كيف وأين ومتى ولماذا انتهى الأمر بأمي الجميلة الذكية مع فريدي تريبلت.

لم يكن فريدي الطويل ذو البشرة الداكنة وسيمًا على وجه التحديد -كان في فترة من الفترات يشبه إلى حد كبير الملاكم سوني ليستون[22] وجمع في شكله كلب البيتبول[23] والغودزيلا[24]. كان في السادسة والعشرين من

---

22) سوني ليستون: Sonny Liston ولد في 8 آيار سنة 1928، وتوفي في 5 كانون الثاني عام 1971، أصبح سنة 1962 بطل العالم في الملاكمة للوزن الثقيل منتصرًا على فلويد باترسن من أول جولة. يعد ليستون من بين أكثر الملاكمين قوة في تاريخ الملاكمة.

23) البيتبول: Pitbull هو كلب هجين من مجموعة كلاب، يتميز بقوة وشراسة كبيرة. تخافه معظم الكلاب لشراسته، ويعد من الكلاب الوفية لأصحابها ولكن سوء تربيتها وضربها يجعلها تغدر وهي لطيفة مع الآخرين، لكن أصحابها يضعونها في أماكن سيئة تجعلها شرسة، ويعتبر هذا النوع من أقوى كلاب العالم. هُجّن على أساس صيد الطرائد الضخمة كالخنازير البرية، لكن بعد فترة من تهجينه استخدم في نزاعات الكلاب، لقوته العضلية وقدرته على التحمل في القتال التي قد تصل لعدة ساعات دون توقف. ولشدة طبعه العنيد قد يموت في إحدى النزاعات بسبب نزيف أو كسر وعادة يتم قطع أذنيه لكيلا يتألم عند القتال.

24) غودزيلا: Godzilla هو وحش عملاق خيالي ظهر في سلسلة الأفلام اليابانية. أول ظهور له كان في فيلم غودزيلا للمخرج الياباني إيتشيرو هوندا عام 1954. منذ ذلك الحين أصبح غودزيلا شخصية مشهورة في جميع أنحاء العالم حيث ظهر في 28 فيلمًا من إنتاج شركة توهو. ظهر أيضًا في العديد من ألعاب الفيديو، والروايات، والكتب المصورة والمسلسلات التلفزيونية. كما

عمره، يبلغ طوله مئة وثمانية وثمانين سنتيمترًا، ووزنه مئتين وثمانين رطلًا، وامتلك قوامًا وسمارًا جعلاه جذابًا في عيون بعض النساء. أيًا كان السبب الذي جعل أمي تقع في حبه في بادئ الأمر فلابد أنه كان سببًا مؤقتًا اختفى لاحقًا. أو ربما، وكما كنت أعتقد بمخيلتي الشابة، أن أمي فُتنت به بواسطة كبسولة سحرية صورت لها أنه الضفدع الأمير. وفي نهاية المطاف، إن الرجال الآخرين الذين بدا مظهرهم حسنًا تبين أنهم لا يمكن الاعتماد عليهم، لذا تصورت أمي أن فريدي كان العكس؛ رجل بدا مظهره مخيفًا لكنه كان يخفي شخصًا حنونًا وطيبًا من الداخل. كانت أمي تؤمن بالحكايات فتصورت أن قبلة واحدة منها ستحول الضفدع إلى أمير، لكنها وبكل أسف كانت على خطأ، فلقد تبين فيما بعد أن فريدي كان أخطر بأضعاف مما يبدو عليه، لاسيما بعد تلك القبلة الأولى، عندما قرر أنها أصبحت ملكًا له.

لم يسبق لأي أحد على الإطلاق أن أوضح سير الأحداث التي أدت إلى محاكمة أمي وسجنها؛ بسبب تهمة الاحتيال المزعومة على الرعاية الاجتماعية. ابتدأ الأمر بوصول معلومة من شخص مجهول مفادها أن أمي كانت تشكل خطرًا على المجتمع لأنها كانت تملك وظيفة تكسب المال منها؛ لترعى طفليها، أوفيليا وأنا وأختي شارون التي لم تكن قد ولدت بعد. وفي نفس الوقت كانت تتلقى المساعدة من الرعاية الاجتماعية. اتضح فيما بعد أن فريدي هو من كان وراء تلك المعلومة المجهولة، كان رجلًا مستعدًا لفعل أو قول أي شيء كي تبقى أمي وراء القضبان لثلاث سنوات؛ لأنها ارتكبت جريمة محاولة هجره.

ظهر في الفيلم الأمريكي غودزيلا عام 1998، ثم ظهر في النسخة الأمريكية الثانية في 2014. عادة يطلق عليه ملك الوحوش. كان الهجوم النووي على هيروشيما وناجازاكي الملهم لظهور شخصية غودزيلا حيث يرمز للأسلحة النووية. في بعض الأفلام كان يظهر غودزيلا كبطل وفي البعض الآخر كان يظهر كوحش مدمر يشكل خطرًا على الإنسانية.

بسبب أفعال فريدي التي أدت إلى زجّ أمي في السجن قضينا أنا وأوفيليا السنوات الثلاث تلك في دار الأيتام أو مع أقربائنا. ومع ذلك، لم نكن نعرف أبدًا لماذا أو متى ستحدث تغييرات في أوضاع معيشتنا.

مثلما لم يخبرني أحد أن أمي هي من كانت تزورنا في دار الأيتام وتعد لنا الحلوى تحت المراقبة المشددة التي وضعها السجن، فإنه لم يصاحب انتقالنا أنا وأوفيليا إلى بيت خالي آرتشي وزوجته كلارا -أو تيتي كما كان يناديها الجميع- أي شرح أيضًا. عندما كنا نعيش في لويزيانا، كانت أي أسئلة جدية تطرح حول الماضي تلقى الصمت، وكأن جميع أفراد عائلة غاردنر قد أقسموا على السرية، وهي سياسة لربما اعتمدتها أمي لعدم رغبتها في مناقشة أي موضوع مزعج بالنسبة لها.

عندما أصبحت في سن المراهقة وفي إحدى المرات ضغطت على أمي لكي تجيب سؤالي بشأن هوية أبي ولماذا لم يكن حاضرًا في حياتي. رمقتني بواحدة من نظراتها الفاحصة التي كانت تجعلني أنخرس بسرعة.

"لكن..." حاولت أن أعترض.

هزت رأسها رافضة، وغير راغبة بالإفصاح.

"لماذا؟"

أجابت أمي بحزم، «حسنًا، ما مضى قد مضى.» رأت أمي نظرة الإحباط في عيني، فتنهدت لكنها أصرت، "لا تستطيع فعل شيء حول الأمر." وبذلك وضعت أمي حدًا لجميع أسئلتي واستطردت بحزن: «هذه الأمور تحدث.» وكان ذلك هو كل شيء قد تحدثت به حول الموضوع.

حتى مع استمرار أسئلتي، وبينما كنت أنتظر أن تتضح الأمور من تلقاء نفسها، عدت إلى مهمتي في المحاولة لأن أظل سعيدًا قدر المستطاع؛ لم تكن هذه بالمهمة الصعبة في بادئ الأمر.

أما المنطقة المألوفة -حيث ترعرعت في أحد أفقر الأحياء في الجزء الشمالي من ميلواكي- فقد كانت بمثابة عالم بت أراه أخيرًا كمسلسل «الأيام السعيدة[25]» بحلته السوداء. تمامًا مثل ذلك المسلسل التلفزيوني الذي كان يعرض في الخمسينات -في نفس الفترة التي بدا فيها الحي الذي أقطن فيه متجمدًا حتى في عقود لاحقة- حيث كان هناك أماكن تسكع محلية، يرتادها مختلف الأعمار ليتواصلوا اجتماعيًا، من تجار مراوغين معروفين ومجموعة كبيرة من الشخصيات المرموقة. بينما كانت سترة فونزي[26] الجلدية هي اللون الأسود الوحيد الذي يمكنك أن تراه في ذلك المسلسل، فإنني خلال الاثني عشر عامًا الأولى من حياتي تقريبًا لم أر أي شخص أبيض في الحي الذي كنت أسكن فيه سوى في التلفاز وفي سيارات الشرطة.

شبهت البعض من شخصيات المسلسل العظيمة بأفراد عائلتي، بدءًا من أخوالي العنيدين الثلاثة. بعد إكمال كل من ويلي وهنري فترة الجيش، وسفرهما إلى العديد من الشواطئ البعيدة، عاد الاثنان إلى لويزيانا لينضمّا إلى الخال آرتشي حيث اتخذ كل منهم قرارًا فوريًا بأن يبتعدوا قدر استطاعتهم عن التعصب السائد في المنطقة الجنوبية. تمحورت خطتهم حول الذهاب إلى كندا، لكن عندما تعطلت سيارتهم أثناء وصولهم إلى ميلواكي، أو كما كان يقال، قرروا أن يستقروا فيها ولم يسافروا أبعد من ذلك.

---

25 مسلسل الأيام السعيدة Happy Days: هو مسلسل تلفزيوني بث لأول مرة في عام 1974 واستمر إلى عام 1984 على قناة أي بي سي. من تأليف غاري مارشال، الذي قدم سلسلة حلقات لرؤية مثالية للحياة في منتصف الخمسينات إلى منتصف الستينات في الغرب الأوسط في الولايات المتحدة.

26 فونزي Fonzie: هو آرثر هربرت فونزاريلي المعروف باسم «فونزي» أو «ذي فونز» وهو شخصية خيالية لعبها الممثل هنري وينكلر في المسلسل الهزلي الأمريكي الأيام السعيدة.

لم يلق الإخوة المجدون أي صعوبة في جعل ميلواكي موطنًا لهم. فبالنسبة لهم كانت تلك البلدة الخصبة، الغنية بالموارد التي تقع عند التقاء نهر ميلواكي وبحيرة ميشيغان -والتي توفرت فيها التربة الخصبة الصالحة للزراعة والعديد من الممرات المائية العامرة بالتجارة والصناعة- بمثابة أرض الحليب والعسل والفرص الذهبية. ولكي تتحمل المواسم المتطرفة من الشتاءات القارصة وأيام الصيف الحارقة كان عليك أن تمتلك صلابة متأصلة، وخبرة عملية طويلة، وهمة عالية جاء بها أقربائي والكثير من الأقليات التي هاجرت إلى ويسكونسن من شتى المناطق. كان لابد لتلك السمات أن تكون متواجدة في سلالة الميلواكيين الأصليين؛ سكان الشعوب مثل وينباغو وبوتاواتومي[27]. كان هنالك سمة شخصية محلية أخرى لم يقتصر وجودها على القادمين الجدد من السود، واليهود، والإيطاليين، والأوربيين الشرقيين، أو أولى العوائل التي استوطنت هنا من ألمانيا، وإيرلندا، وإسكندنافيا، أو سكان أمريكا الأصليين، ألا وهي التفاؤل المندفع.

غالبًا ما أسفر عن كل تلك الأحلام الواقعية الطموحة منجزات عظيمة. لم يكن أمرًا كافيًا بالنسبة لمدينة ميلواكي أن تنتج نوعًا واحدًا من شراب الشعير وإنما كان عليها أن تنتج العديد من الأنواع. ولم تشتهر المدينة بمنتجات الألبان فحسب، وإنما اشتهرت أيضًا بأفضل أنواع الجبنة في العالم، ولم يكن هناك صناعة رئيسة واحدة بل عدة صناعات: من مصانع الطابوق، وصناعة المدابغ، ومصانع الجعة، وأحواض بناء السفن، وشركات تعبئة اللحوم، ولغاية مصانع الحديد والصلب مثل مصنع إنلاند للحديد والصلب وشركة أي. أو. سميث لمحركات السيارات العملاقة الأمريكية التي

---

27) شعوب وينباغو وبوتاواتومي Winnebago and Potawatomi: هم شعوب أمريكية تنحدر أصولها من السهول العظمى، ونهر المسيسيبي العلوي والبحيرات العظمى الغربية.

توقف نشاطها في نهاية الثمانينات.

لقد كانت معامل الحديد والصلب وسبك المعادن وشركات تصنيع السيارات السبب الرئيس وراء مجيء العديد من السود من ولايات مختلفة مثل لويزيانا، والباما، ومسيسيبي، وجورجيا، إلى ميلواكي، وديترويت، وشيكاغو، وكليفلاند. كانت وظائف الياقات الزرقاء[28] هذه صعبة المنال وأفضل كثيرًا من حياة المُزارعة في درجات الحرارة الخانقة في جنوب ديكسي، حيث كان الكثير من السود مستعبدين فيها قبل أقل من مئة عام مضت. لقد بدا وكأن كل العوائل تقريبًا كان لديها أفرادٌ جلبوا معهم عادات وتقاليد البلد الذي أتوا منه، حيث كانوا يفضّلون التكتل مع بعضهم البعض. انتهى المطاف ب سام سالتر -والد أوفيليا- بالعيش مع عائلته في ميلواكي، إضافة إلى بعض الأصدقاء من لويزيانا. كانت عائلة تريبلت التي جاءت من المسيسيبي من ألطف ما يكون، فيما عدا فريدي الذي مثل الجانب السيء من العائلة.

ومثلما كان الجميع يعمل باجتهاد طوال الأسبوع، أو على الأقل في حيننا، إلا أنهم خلال عطلة نهاية الأسبوع كانوا يمرحون ويصلون باجتهاد أكثر. لم يكن هناك ما يعرف بالشرب بلا مناسبة في الجزء الذي كنا نسكن فيه في ميلواكي. عندما كانت الصافرة تطلق في مساء يوم الجمعة معلنة انتهاء موعد الدوام في مصنع إنلاند، حيث عمل أخوالي الثلاثة -آرتشي وويلي حتى تقاعدا، وهنري حتى يوم وفاته، الذي حل بسرعة- كانت أوقات مرحهم تبدأ وتستمر لغاية صباح يوم الأحد، حيث كانوا يذهبون فيه إلى الكنيسة من أجل الصلاة وطلب المغفرة.

---

28) وظائف الياقات الزرقاء Blue-collar jobs: هو مصطلح غربي يطلق على أولئك الناس الذين يقومون بعمل يدوي ميداني كالعمال ويختلفون عن أصحاب الياقات البيضاء (White-collar Workers) الذين يقومون بعمل «ذهني» مكتبي مثل المديرين والمتخصصين بذلك.

ما بين عمر الرابعة والخامسة، حينما كنت أعيش مع خالي آرتشي والخالة تيتي، بدأت أثمن الإيقاع المعتاد لفترات العمل الأسبوعية. فقد حافظ خالي وزوجته على جو هادئ ومريح دون الحاجة لفرض قواعد كثيرة. كانت تيتي مسيحية متدينة حرصت على أن نحافظ على الدين الصحيح في داخلنا. كنا نقضي كل يوم أحد بأكمله في الكنيسة المعمدانية، وكنا نحضر في فترة الصيف مدرسة الكتاب المقدس، وكانت أيضًا تصحبنا معها في جميع اجتماعات منتصف الأسبوع الدينية وجنازة أي عضو يتوفى من أعضاء الكنيسة سواء كنا نعرفه أم لا. لم أمانع تواجدي في أغلب تلك الأماكن، نظرًا لكل ذلك الترفيه الذي كنت أحظى به لدى مشاهدتي لمختلف شخصيات الحي، الذين تعودت على رؤيتهم يرتكبون الذنوب طوال الأسبوع ومن ثم يأتون إلى الكنيسة ويغيرون أنفسهم كما يغيرون ملابسهم. أحببت إنشادهم وهتافهم، والشعور بالانفعال والشغف، خاصة تواصلي مع مجتمع اختبرت العيش فيه في فترة لم أكن أعرف فيها مكان أمي.

لم تحاول تيتي أبدًا أن تحل محل أمي لكنها أحاطتني بالحب والأمان. لا أحد استطاع أن يطبخ مثل بيتي جين، لكن خالتي كانت تطبخ خبز ذرة، له مذاق لا ينسى، فلم يستطع طفل في مرحلة نمو مثلي أن يلتهم كفايته منه. مثلما لم أستطع أن أكتفي أيضًا من التهام الكتب التي كانت تيتي تشتريها لي كما لو أنها امتلكت أموالًا طائلة. قامت أمي لاحقًا بتعزيز أهمية القراءة في داخلي، وربتني على عقيدة قضاء أكثر وقت ممكن في المكتبات العامة. ولكي تريني كيف يمكن لبناية مليئة بالكتب أن تحتوي كل تلك العظمة كانت تقول لي: «أخطر مكان في العالم هو المكتبة العامة.» وستكون كذلك بالفعل إن لم تستطع القراءة، لأنك لو استطعت القراءة فهذا يعني أنك ستستطيع أن تكتشف أي شيء في العالم، لكن إن لم

تستطع القراءة، فإنك لن تحقق شيئًا أبدًا.

كانت تيتي أول من غرس في داخلي حب القراءة والسرد القصصي. رغم أنني كنت ما زلت غير قادر على القراءة بعد، لكن بعد أن بدأت تيتي بقراءة الكتب لي، ومن خلال النظر إلى رسومات الكتاب فيما بعد، كنت بالكاد أستطيع تذكر الكلمات والقصص، لكني شعرت كما لو أنني كنت أستطيع القراءة بالفعل. كانت تقرأ لي كتب الأساطير الرومانية واليونانية، وقصص الأطفال الكلاسيكية، وقصص المغامرات، وكانت أول أنواع القصص المفضلة لدي هي حكايات الملك آرثر وفرسان الطاولة المستديرة[29]، حيث تركت قصة السيف المغروس في الصخرة في ذهني انطباعًا لم يذو أبدًا، وأنشأت في داخلي فكرة أنني في يوم ما، وبطريقة ما، سأجد قدري الذي كان ينتظرني.

لم تمنحني الكتب فرصة السفر في خيالي فحسب وإنما جعلتني أطلع على نوافذ العالم المجهول دون خوف. كان هذا حتى جلبت لي تيتي كتاب الثعابين للأولاد[30] الذي كنت أتحرق شوقًا للحصول عليه. كان كتابًا ضخمًا، أخضر فاتحًا كلون ثعبان العشب، أسرني لعدة أيام وأنا أتمعن بكل تفصيلة فيه عن عالم الثعابين: من ثعبان الحليب ذي الصوت الناعم، والثعابين المرجانية وصولًا إلى الأفاعي المميتة، والكوبرا والثعابين غير السامة. كنت منبهرًا أثناء النهار بالصور الموجودة في الكتاب لكني في

29) الملك آرثر: King Arthur أحد أهم الرموز الميثولوجية في بريطانيا العظمى حيث يمثل الملكية العادلة في الحرب والسلم. تروي حكايته وجود إكسكاليبور، سيفه السحري الذي حملته يد تمتد من الماء وكان هدية من سيدة البحيرة التي كانت تعيش في قصر تحت الماء، وفي قصص سابقة كان إكسكاليبور هو السيف الذي أخذه من الصخرة.

30) كتاب الثعابين للأولاد The Boy's Book of Snakes: كتاب تصويري للأطفال من تأليف بيرسي مورس عام 1948. يحتوي الكتاب على صور للثعابين وحقائق حول كل ثعبان.

الليل، وخاصة بعد أن رأيت كابوسًا مليئًا بالثعابين السامة التي كانت تتلوى وتصدر فحيحًا على سريري، كنت أندم على رؤيتي لتلك الصور.

على ما يبدو أن خالي آرتشي والخالة تيتي كانا يشعران بالندم أيضًا على احضار الكتاب لي عندما استيقظا من نومهما ليجداني مختبئًا بينهما. «ماذا تفعل هنا؟»، لكن كل محاولاتهما لتهدئتي أو حتى لتأنيبي لم تجدِ نفعًا لإعادتي إلى سريري، وفي النهاية كانا يعودان للنوم بعد أن يطردا عني الشعور بالفزع، ولم يجعلاني أشعر بالإحراج، حتى كبرت وأصبحت شابًا قويًا وضخمًا، حينها بدآ يسخران مني حول ما كنت أفعله ليلًا.

كانت النافذة الأخرى التي أطل من خلالها على العالم المجهول هي التلفاز الأبيض والأسود، وكان وقوف شوغر ري روبنسون[31] بالقرب من سيارته الكاديلاك هي أنقى صورة رأيتها في حياتي.

هتف خالي آرتشي قائلًا: «الآن رأيت كل شيء.» وهو يضع يديه على كتفي مشيرًا إلى شاشة التلفاز. «لقد اشترى شوغر ري روبنسون سيارة كاديلاك وردية اللون!" لم نكن لنعرف من خلال التلفاز الأبيض والأسود ما إن كان اللون ورديًا إلا إذا صرح المذيع بذلك. ومع هذا فقد كان تلفازًا لا يقل روعة عن التلفاز الملون.

كانت مباراة الملاكمة التي تعرض في سهرات الجمعة، برعاية إعلان ماكينة جيليت بلو بليدز، هي وقتنا الذي نقضيه أنا وخالي للجلوس بمفردنا -من دون تيتي أو أوفيليا- والاستمتاع بكل دقيقة، بدءًا من محادثاتنا التي كانت تسبق وقت المباراة حيث كان يحدثني عن كل ما كان يعرفه حول تاريخ

31) شوغر ري روبنسون Sugar Ray Robinson: ولد باسم ووكر سميث الصغير. في 3 من أيار لعام 1921 وتوفي في 12 نيسان عام 1989. كان ملاكمًا محترفًا. وصف بأنه أعظم الملاكمين على مر العصور في مباريات الوزن أقل من المتوسط (الولتر) والوزن المتوسط.

الملاكمة، ومرورًا باللحظة التي كنا نسمع فيها موسيقى المقدمة التشويقية التي يعلن فيها المذيع قائلًا: «ماكينة جيليت تقدم!» وانتهاء بالمباراة نفسها.

امتلك خالي آرتشي هالة معدية من الهدوء الذي كان يحافظ عليه حتى في لحظات الحماس أثناء القتال أو في أوقات الأزمات. كان حينها في أواخر عشرينياته، ولم يكن لديه ابن، وأنا لم يكن لدي أب، الأمر الذي جعلنا أكثر تقاربًا. إضافة إلى أخلاقياته في العمل، كان آرتشي يستخدم قوته وهدوءه وذكاءه ليرتقي من رتبة إلى رتبة في نقابة مصنع إنلاند. أصبح بالنسبة لي مثالًا يحتذى به في التركيز والصلابة. كان وسيمًا للغاية، النسخة الذكورية لأمي؛ ذا بشرة سمراء داكنة، ونحيلًا، وقصير القامة لكنه كان يبدو أطول، وكان ذواقًا في ملبسه، الأمر الذي أثر فيما بعد في طريقة ارتدائي للملابس وأصبحت عادة اكتسبتها حتى من قبل أن أستطيع تحمل تكاليفها. لم يبالغ في لبسه أبدًا، كان نظيفًا للغاية، ذا قصة شعر قصيرة وشارب مقلم أنيق، وملابس لم تكن ملفتة لكنها كانت لا تشوبها شائبة أبدًا.

عرف عن الخال آرتشي أنه لا يمكن لأحد المساس بأي كلمة بجو لويس[32]، الملقب ب «المفجر الأسمر»، وهو الملاكم الذي نشأ آرتشي على الاستماع لمبارياته عبر الراديو. كان يسمع، ويشعر، ويشم، ويرى كل حركة، وضربة، وتمايل، ولكمة، وخطوة، كل ذلك كان يحدث عبر وسيط غير مرئي. ونتيجة لذلك كان باستطاعة الخال آرتشي أن يقص عليّ كل المعارك. كنا نشاهد التاريخ يؤرخ أمام أعيننا، مع استمرار قوة شوغر ري روبنسون، في

32) جوزيف لويس بارو: ولد في 13 أيار 1914 وتوفي في 12 نيسان 1981 وكان يعرف باسم جو لويس، وهو ملاكم محترف أمريكي الجنسية، وبطل العالم للوزن الثقيل في الفترة من عام 1937 وحتى عام 1949. ويُعتبر لويس واحدًا من أعظم ملاكمي الوزن الثقيل على مر العصور. لقب لويس بـ براون بومبر Brown Bomber.

معركته مع جيك لاموتا[33] التي لم أنسها أبدًا. كان شوغر وبقية الملاكمين أكبر من الحياة نفسها، أبطالًا خارقين يستطيعون فعل أي شيء وامتلاك كل شيء، كسيارة الكاديلاك الوردية. ما كان يقال إلى ولد فقير مثلي من حي الغيتو كان يعني لي كل شيء، كانت تلك الكاديلاك بمثابة بشرى جاءت سلفًا لتخبرني أنني سأحصل يومًا ما على الفيراري الحمراء. لكن شوغر ري روبنسون وسيارته كانا على التلفاز. أما أنا فقد امتلكت شيئًا أقرب إلى اليد استطعت من خلاله أن أرى العالم الجميل الذي يكمن خلف حي الغيتو: ألا وهو كاتالوج شبيغل[34].

عشنا أنا وأوفيليا من خلال صفحات هذا الكاتالوج المليئة بالأحلام عدة شخصيات في الحياة. كنا نلعب لعبة قمنا باختراعها عن طريق اللعب بكاتالوج المنزل وأسميناها «هذه الصفحة – تلك الصفحة" كانت وبكل بساطة عبارة عن تقليب لصفحات الكاتالوج واختيار صفحة بطريقة عشوائية، ومن ثم نقوم بتجميع كل الأشياء الثمينة الموجودة في الصور ونقسمها فيما بيننا. «انظري إلى كل تلك الأشياء التي أصبحت ملكي"، كنت أقولها وأنا أقلب صفحتي. "انظري إلى كل ذلك الأثاث، كل تلك الملابس لي!»

ومن ثم كانت أوفيليا في دورها تقلب الصفحة وتغني "انظر إلى أشيائي، فرني الجميل ومجوهراتي الجميلة!» كان الكاتالوج عبارة عن ثلاث مئة صفحة أو أكثر، لذا لم نمل أبدًا من تلك اللعبة.

---

33) جيك لاموتا Jake LaMotta: ولد في 10 تموز 1921 وتوفي في 19 أيلول 2017. لقب ب «ثور برونكس» أو «الثور الهائج»، وهو ملاكم أميركي وبطل العالم السابق في الوزن المتوسط. جسد شخصيته من روبرت دي نيرو في فيلم (الثور الهائج) عام 1980.

34) كاتالوج شبيغل: Spiegel Catalog: هو فهرس تصويري للتسوق المباشر في أمريكا.

أثناء فترة الشتاء كنا نغير اسم اللعبة إلى صفحات عيد الكريسمس[35]، وعندما كان يحين دور أوفيليا كانت تبتسم ابتسامة عريضة معلنة أن كل ما في الصفحة إهداء منها لي بمناسبة عيد الكريسمس، ومن ثم عندما كان يحين دوري، كنت أقلب الصفحة وأهتف: «أنا أهديك هذه الصفحة بمناسبة عيد الكريسمس!»، لم أكن متأكدًا أي الأمرين كان يشعرني بسعادة أكبر: حصولي على كل ما في الصفحة أم إهداء صفحة لغيري. في تلك الأوقات التي كنا نلعب فيها هذه اللعبة، لم يكن يتخللها محادثات عن أمي، ومن هي، وأين هي، أو متى ستعود. لكن كان هنالك شعور ترقب أدركته في داخلي. كنا نزايد على الوقت، ننتظر شيئًا أو شخصًا ليأتي إلينا. ولذلك السبب لم تكن صدمة أو شيئًا ذا أهمية عندما علمت أخيرًا، أن أمي كانت تغادر إلى أي مكان -السجن، كما عرفت لاحقًا- وبأنها كانت ستأتي لتأخذني أنا وأوفيليا وأختنا الصغرى شارون التي ظهرت فجأة على الساحة.

رغم أن قصة أمي الشبيهة بسندريلا لم تنته النهاية المتوقع لها كما حدث في القصة، لكني كنت أشعر في قرارة نفسي بوجود قصة خيالية على وشك أن تحدث حالما نجتمع جميعًا مع أمي. شعرت بترقب عجيب يعتريني حول كل تلك الذكريات الجميلة عن أمي وهي تعدّ لي الحلوى، وجعلتني تلك اللحظة الوحيدة الخاطفة التي جمعتنا جميعًا في الواقع مع أمي أشعر

35) عيد الكريسمس – عيد الميلاد Christmas: يعد ثاني أهم الأعياد المسيحية على الإطلاق بعد عيد القيامة، ويمثل تذكارًا لميلاد يسوع المسيح وذلك بدءًا من ليلة 24 كانون الأول ونهار 25 في التقويمين الغريغوري واليولياني غير أنه وبنتيجة اختلاف التقويمين ثلاثة عشر يومًا يقع العيد لدى الكنائس التي تتبع التقويم اليولياني عشية 6 كانون الثاني ونهار 7. تترافق مع عيد الميلاد احتفالات دينية وصلوات خاصة للمناسبة عند أغلبية المسيحيين، واجتماعات عائلية واحتفالات اجتماعية أبرزها وضع شجرة الميلاد وتبادل الهدايا واستقبال بابا نويل وتناول عشاء الميلاد.

بسعادة أكبر من أي شيء حلمت به يومًا. لكن كل تلك المشاعر أصبحت فجأة معتمة من أول لحظة وطأت فيها قدم فريدي تريبلت عنوة في حياتي. ربما ستعتقدون أنني عشت مرحلة شهر العسل مع الرجل الذي أصبح زوجًا لأمي وأبًا لنا، لكنه كان عدوي منذ أول لحظة وقعت فيها عيني عليه.

على الرغم من عدم معرفتي مدى العنف الذي كان سيدخله إلى حياتنا، إلا أنني شعرت في داخلي بأنه كان شخصًا لئيمًا يستمتع بأذية مشاعري. تأكد حدسي هذا حينما كان يرمي في وجهي عبارته التي كان يستلذ بها متى ما سنحت له الفرصة، والتي كانت تقتلني في كل مرة يقولها، مثيرًا بقايا الغضب والاستياء اللذين تفجّرا فيما بعد. بدون أي عذر، وبدون أي سابق إنذار، التفت لي في تلك المرة الأولى التي لم أزل أذكرها وأنا أراه يقول عبارة غير قابلة للتأويل، محدقًا بعينيه اللّتين يتطاير منهما الشرار نحوي وصوته المرتعد: «أنا لست أباك اللعين!"

الفصل الثاني

كآبة الحرمان من الأب

«كريس! كريس، انهض!» لثغت أختي شارون ذات الثلاثة أعوام وهي تشدني من كتفي بيديها الصغيرتين.

من دون أن أفتح عيني، أجبرت نفسي على تذكر مكاني حينها. إنها ليلة الهالوين[36] وكان الوقت متأخرًا جدًا، وأنا في سريري الذي احتل أغلب مساحة الغرفة الصغيرة في البيت الخلفي حيث كنا نعيش الآن؛ خلف «البيت الكبير» في شارع الثامن ورايت الذي تملكه بيسي أخت فريدي. حالما استرجعت تلك الحقائق، استرخيت وعدت لنومي؛ لكي أنعم بقسط من الراحة لمدة أطول قليلًا. الأمر البديهي هو أنك قد ترى كوابيس مزعجة أثناء النوم لكن الطريف في الأمر هو أنني كنت أرى أعظم مخاوفي

36) هالوين Halloween: هو احتفال يقام في دول غربية كثيرة في ليلة 31 تشرين الأول من كل عام وذلك في عشية العيد المسيحي الغربي من كل عام. وتشمل تقاليد عيد الهالوين خدعة وطقس يعرف باسم "خدعة أم حلوى» والتنكر في زي الهالوين، والتزيين، ونحت القرع.

في ساعات صحوي.

تغيرت الحياة نحو الأسوأ منذ اللحظة التي أتت فيها أمي لتأخذنا أنا وأختي أوفيليا أولًا ومن ثم شارون -التي ولدت في إصلاحية النساء في الوقت الذي كانت أمي تعيش فيه بعيدة عنا- لنعيش معها ومع فريدي. بدا العالم المجهول الذي أسرني حينما كنت أعيش مع خالي آرتشي وتيتي جميلًا مقارنة مع كل شيء حدث فيما بعد في المنطقة المألوفة التي سيطر عليها فريدي. أعطتنا أمي كل الحب، والحماية والرضا قدر ما استطاعت، لكن ذلك في الغالب جعل فريدي أكثر وحشية مما كان عليه.

أوحى لي حدسي أنه من المنطقي أن أجد طريقة ما تجعل فريدي يستلطفني. لكنني مهما كنت أفعل، كانت ردة فعله في أغلب الأحيان هي أن يبرحني ضربًا. لم نكن نتعرض للضرب يوميًا أنا وأوفيليا أثناء عيشنا في منزل آرتشي وتيتي، لكن مع فريدي كان الضرب يطالنا جميعًا طوال الوقت، بسبب أو بدون سبب لا لشيء سوى أنه كان رجلًا غير متعلم، وهمجيًا مولعًا بالضرب، وسكيرًا من الطراز الأول.

في بادئ الأمر ظننت أن فريدي كان فخورًا بتفوقي الدراسي. في عمر الخامسة والسادسة والسابعة كانت المدرسة بمثابة ملاذ بالنسبة لي، مكان كنت أجيد التعلم وأداء الفعاليات الاجتماعية فيه. نفعني اطلاعي المبكر على الكتب، ومع استمرار أمي بتشجيعي أتقنت القراءة بسرعة. عززت إحدى معلماتي المفضلات السيدة برودريك حبي للكتب حيث إنها كانت تطلب مني باستمرار أن أقرأ بصوت عال، ولمدة أطول من زملائي في الصف. بما أنه لم يكن لدينا تلفازٌ في هذا الوقت، أصبحت القراءة ذات أهمية كبرى في المنزل، لاسيّما أن أمي كانت تحب الجلوس بعد يومها الطويل الذي كانت تقضيه في الأعمال المنزلية، كونها ربة بيت والاستماع لما كنت قد قرأته أو

تعلمته في ذلك اليوم.

كانت أمي ما زالت متعلقة بأمل أنها يومًا ما ستنال التعليم اللازم والموافقات الضرورية لتصبح معلمة في ولاية ويسكونسن. حتى ذلك الحين، كرست أمي نفسها لعمل ما يجب لرعاية أولادها الأربعة، أنا، وأوفيليا، وشارون، وأختي الصغرى كيم التي ولدت في هذه الفترة. لم تمانع أمي أو تشتكي من أيامها التي كانت تقضيها في تنظيف منازل الأغنياء «البيض» ولم تكن تتحدث عن عملها أيضًا، وعوضًا عن ذلك اختارت أمي عيش يومها من خلالنا، ومن خلال متابعة تقارير ما كان يعطيه المعلمون لنا يوميًا من فروض، أو من خلال النظر معي إلى بعض من كتب القصص المصورة التي كنت أجلبها إلى المنزل.

كان «البالون الأحمر[37]» كتابًا لا أملّ من قراءته مرارًا وتكرارًا، وأنا أجلس بالقرب من أمي وأريها الصور التوضيحية لمدينة سحرية يعيش فيها ولد صغير مع بالونه الأحمر، ويطير معه لاستكشاف أسطح المنازل. تلألأت عينا أمي بالسكينة، كما لو أنها قد أصبحت في مكان ما بين الغيوم، ولربما كانت تحلم بأنها ذلك البالون الذي يحلّق عاليًا، وبعيدًا. لم أعرف أن المدينة السحرية في القصة كانت مكانًا يدعى باريس في بلد يسمّى فرنسا. ولم يكن لدي أدنى فكرة أيضًا أني سأزور باريس في عدة مناسبات.

منجزاتي في المدرسة الابتدائية جعلت أمي فخورة بي، لكنني إن كنت قد أوهمت نفسي للحظة أن نجاحي في المدرسة سيجعلني محببًا لدى فريدي، فإنني وبكل أسف كنت مخطئًا. في الحقيقة، فريدي تريبلت -الذي

---

37) البالون الأحمر The Red Balloon: هو كتاب خيالي كوميدي - درامي فرنسي صدر عام 1956 كتبه ألبرت لاموريس. يتحدث الكتاب عن مغامرات صبي صغير يجد يومًا ما منطادًا أحمر، في حي مينيلمونتانت في باريس.

لم يستطع القراءة أو الكتابة ليرفع من شأنه- كان يقضي كل دقيقة من وقته في شن حملة فردية ضد القراءة والكتابة. كان فريدي -في بداية الثلاثينيات من عمره في هذا الوقت- قد توقف عن التعلّم في الصف الثالث عندما كان يعيش في ولاية ميسيسبي، حتى أنه لم يكن باستطاعته أن يطلب رقم هاتف حتى مرحلة متأخرة من عمره، وبالكاد استطاع فعلها حينها. مما لا شك فيه أن عدم إكماله لتعليمه هو أمر غذى شعورًا عميقًا بانعدام الثقة بالنفس، حاول إخفاءه من خلال تصريحه أن أي شخص يستطيع القراءة أو الكتابة هو «وغد ماكر.»

وبالطبع، بالنسبة لمفهومه، فقد شملني ذلك الوصف وشمل أمي وأخواتي، وأي شخص كان يعلم شيئًا لا يعلمه هو، وكان هذا يعني أن ذلك الشخص سيستغله. كان بإمكان أي أحد أن يرى ذلك في عينيه اللّتين تشعان بالجنون، وهو يتصور بأنه يعيش في عالم مليء بالأوغاد الماكرين الذين يسعون للنيل منه. أضف هذا إلى شربه الكحول وستكون النتيجة: جنون الشك بأقصى درجاته.

على الرغم من أنني بدأت أكتشف بعضًا من تصرفاته تلك في وقت مبكر، لكنني ولفترة، كنت على استعداد لتجاهل تلك التصرفات والتصرف على أكمل وجه على أمل أنني وبطريقة ما سأستطيع أن أحرك الجانب الأبوي في داخله. لكن هذا الأمل تحطم في ظهيرة أحد الأيام خلال زيارة سام سالتر والد أوفيليا.

في مصادفة غريبة من نوعها اتضح أن سالتر وفريدي كانا صديقين مقربين ويحتسيان الشراب سوية. لم يكن الأمر منطقيًا، ليس فقط لأن الاثنين كان لديهما أولاد من أمي، ولكن أيضًا لأنهما كانا مختلفين تمامًا. وكعادته في كل زيارة، كان سالتر يجلب معه دفء وسحر الرجل الجنوبي

المهذب عندما يدخل إلى أي مكان. كان رجلًا ذا ملبس أنيق، يدرّس مادة نطق مخارج الحروف في الثانوية؛ استطاع أن يقرأ ويكتب ويتحدث الهراء بلباقة أوهمت الجميع أنه كان محاميًا، ورغم ذلك فلم يتهمه فريدي يومًا بأنه وغد ماكر؛ لم يكن هنالك أي شيء مشترك ما بين صامويل سالتر وفريدي تريبلت الذي كان يستولي على أي مكان كان يدخله بالغصب. وفي بعض الأحيان كان فريدي يخلي المكان تحت تهديد السلاح ملوحًا ببندقيته وهو يصرخ: "اخرج أيها الوغد من منزلي اللعين!» وفي أحيان أخرى كان يخلي المكان بالتبجح والصراخ بغضب حاملًا سيجارة من نوع بال مال المشتعلة في يد، وشراب الويسكي في القنينة ذات النصف لتر التي لا تفارقه أبدًا، في اليد الأخرى.

كان صنف الشراب المفضل لدى فريدي هو أولد تايلور وكان أيضًا يشرب من صنف غراند داد وصنف أولد كرو أو ببساطة كان يشرب أي قنينة شراب تطالها يداه. لم يكن يضع شرابه في زمزمية خمر، مثلما كان يفعل بعض من الرجال السود الراقين كما كنت أراهم. كان يرتدي دائمًا زي عمال متكون من قماش الجينز أو قماش الخاكي، وقميص صوف تحته تي شيرت، وحذاء، وقنينة شرابه الصغيرة ذات النصف لتر التي أصبحت ملحقًا يحمله فريدي معه أينما ذهب. كان تَمَكُّنه من المحافظة على وظيفته في شركة أي. أو. سميث وتقاعده منها في نهاية المطاف وحصوله على المعاش لغزًا آخر بالنسبة لي. مما لا شك فيه أنه كان عاملًا نهمًا، لكنه فضلًا عن هذا كان نهمًا في شربه.

ركضنا أنا وأوفيليا لنسلم على سالتر حال وصوله في تلك الظهيرة، وتبعه فريدي مباشرة إلى غرفة الجلوس. كان كلما جاء يجلب معه شيئًا لنا؛ عادة ما يكون دولارين لأوفيليا، ابنته من دمه، ودولارًا لي لأنه كان يعاملني

كابنه. في هذا اليوم، وكما هو معتاد في كل زيارة، كانت أوفيليا تنال عناقًا وقبلة والدولارين قبل أن تودعه ملوحة: «مع السلامة يا أبي!» ومن ثم كان يحين دوري.

ابتسم سالتر ابتسامة عريضة وهو ينظر إلى يديّ الممدودتين ولم يجعلني أنتظر طويلًا، عانقني وأثنى على تفوقي في المدرسة أولًا ومن ثم ناولني ورقة دولار مجعدة. تدفقت مشاعر السعادة في داخلي ولم أتمالك نفسي فسألته: «ألست أنت بأبي أيضًا؟»

"بلى." قال سالتر، وهو يومئ برأسه بتمعن: «أنا أبوك أنت أيضًا، هاك.» ومن ثم قام بإخراج دولار ثانٍ من جيبه وأعطاني إياه قائلًا: «الآن اذهب يا بني وضع هذا الدولار في حسابك.»

اعتلت وجهي ابتسامة عريضة، ورغم أنني لم أمتلك حسابًا في البنك، إلا أنني بدأت أسير بتباهٍ؛ فأنا الآن أكثر ثراءً بعد أن وافق والد أوفيليا على أن يصبح والدي أنا أيضًا، حتى لاقاني فريدي بوجه متجهم وهو يجأر من حيث لا ندري: «حسنًا، أنا لست بأبيك اللعين، ولن تحصل مني على أي شيء!»

طفح كيلي. نظرت للحظة إلى سالتر الذي أطلق على فريدي نظرة غريبة استقرت في رأسي ورأس فريدي أيضًا. كان سالتر يعني بنظرته تلك على الأرجح شيئًا مقاربًا لما كنت أشعر به؛ من أن فريدي لم يملك الحق في أن يقول أي شيء، أولًا لأني كنت أتحدث مع سالتر، وثانيًا لأن ما قاله كان عقابًا قاسيًا وغير طبيعي. أوضح فريدي وجهة نظره للمرة الألف بأنه ليس أبي، فضلًا عن تعليقه المتواصل على حجم أذني.

كلما كان يسأله أحد عن مكاني، حتى وإن كنت أُقف بالقرب منه، كان يجيب بصوت مدوٍ: «لا أعرف مكان ذلك الوغد ذي الأذنين الكبيرتين!»

ومن ثم كان يلتفت غير مبال ناظرًا إليّ بتجهم -وكأن الأمر يرفع من شأنه إذا ما داس عليّ وقلل من شأني- بينما كنت أقف هناك وأشعر ببشرتي السوداء تصبح حمراء متوهجة جراء الألم والخجل.

في موقف آخر، كنت في الحمام عندما سمعت أحدهم يسأل عني وكان فريدي يزمجر من خلف ظهري: «لا أعرف أين هو ذلك الوغد ذو الأذنين الكبيرتين.» كان الأمر يؤلمني بما فيه الكفاية وهو يقولها في وجهي، خاصة وهو يستمتع بمشاهدتي وأنا أحاول أن أخفي ألمي الذي مرت عليه سبع سنوات، لكنه كان أكثر ألمًا وأنا أسمعه يقولها عندما لم يكن يعرف مكاني بالفعل. وفوق ذلك، عندما نظرت إلى أذنيّ في مرآة الحمام، واكتشفت أنهما كبيرتان نوعًا ما، جعلني ذلك أشعر أن تعليقاته كانت تصبح أكثر نتانة. لم يعني الأمر أنهما ستصبحان ملائمتين لشكلي مستقبلًا عندما أكبر.

ما بين تعليقات فريدي وتعليقات أولاد الحي وأولاد المدرسة الذين كانوا ينادونني «دمبو[38]»، أثرّ كل ذلك سلبًا على احترامي لذاتي، وضاعف حجم الفجوة التي كبرت في داخلي لغياب دور الأب في حياتي. عرف كل شخص من هو والده. فوالد أوفيليا هو سالتر، ووالد شارون وكيم هو فريدي، جميع أصدقائي كان لديهم آباء. اتضح لي من خلال تعليق فريدي غير الضروري في تلك الظهيرة عندما ناولني سالتر الدولار أنه لن يحبني أبدًا. ثم أصبح السؤال الأهم بالنسبة لي هو: ماذا يمكنني أن أفعل حيال هذا الأمر؟

---

38) دمبو Dumbo: هو فيلم رسوم متحركة للمخرج بن شاربستين عرض أول مرة عام 1941. وهو الفيلم الرابع من سلسلة والت ديزني الكلاسيكية المتحركة، تستند قصته على رواية هيلين أبرسون ورسومات هارولد بيرل. الشخصية الرئيسية في الفيلم هي جامبو الابن الذي يمتلك جسم فيل غير أن أذنيه كبيرتان تثيران السخرية، ولذلك لقب باسم «دمبو» والتي أتت من كلمة dumb وتعني الغبي، ولكن في الحقيقة هو قادر على الطيران باستخدام أذنيه كأجنحة.

كانت خطتي طويلة الأمد قد اكتملت بالفعل، بدأ من الوعد الذي قطعته على نفسي أني حينما سأكبر وسيكون لي ابن، سيعرف دائمًا من هو أبوه، ولن أختفي من حياته أبدًا. لكن خطتي قصيرة الأمد كان التكهن بها أصعب، فكيف لي أن أتلافى شعوري بالعجز ليس فقط لعدم وجود أبي في حياتي وتصنيفي على أنني ذلك «الوغد ذو الأذنين الكبيرتين!» بل شعوري بالعجز الذي انبعث من خوفي بأنه لن يتركني وشأني في المنزل أبدًا، والذي كان له وقع أذى أكبر على نفسي.

كان خوفًا مما قد يقدم عليه فريدي وما أقدم عليه مسبقًا. كنت خائفًا خوفًا رهيبًا، خائفًا من أن أعود يومًا للمنزل لأجد أمي مقتولة، خائفًا من أن أقتل أنا وأخواتي، خائفًا من أن فريدي سيعود للمنزل في المرة المقبلة وهو ثمل، فيسحب بندقيته ويوقظنا جميعا لنرى أنفسنا أمام فوهتها، صارخًا: «أيها الأوغاد اخرجوا جميعًا من منزلي!» ويفي بوعده ويقتلنا. لقد وصل الأمر بأمي أن تنام على أريكة غرفة الجلوس مرتدية حذاءها؛ في حال اضطرت أن تهرب، حاملة طفلتها وتجرجر بقيتنا لنخرج من المنزل بأسرع ما يمكن. كنت خائفًا من أن فريدي سيضرب أمي ضربًا مميتا قد يودي بحياتها فعلا. كنت خائفا من أنني قد أضطر لمشاهدته وهو يضربها أو يضرب أوفيليا أو يضربني أنا ولا أستطيع فعل شيء لإيقافه. ماذا كان باستطاعتي أن أفعل أكثر مما فعلته الشرطة أو لم تفعله، في كل المرات التي أتت فيها، ولم تفعل شيئًا، أو كانت تكتفي بأخذه إلى المركز وتطلق سراحه بعد أن يستفيق من شربه؟

ماذا كنت سأفعل؟ وكيف؟ سؤالان لاحا في الأفق الواسع، وأصبحا يلاحقانني في المدرسة، ويتسلّلان إلى أفكاري في صحوي وفي نومي، ويثيران كوابيسًا أرّقتني في معظم سنوات شبابي، كوابيس عادت بي إلى دار الأيتام

حيث ترقد الساحرة كما كنا نتصورها. بعض الأحلام التي راودتني كانت مرعبة للغاية، كنت مشلولًا لدرجة أنني لم أستطع الاستيقاظ، معتقدًا أنني لو استطعت أن أضرب شيئًا ما كالمصباح الموجود بقرب سريري مثلًا، فإنه سيوقظ أحدًا ليأتي كي ينقذني ويساعدني على الهرب من أي رعب كان يطاردني حينها في ذلك الحلم.

"كريس...!"

مرة أخرى يخترق صوت شارون حالة شبه الغيبوبة التي كنت أعيشها.

فتحت عينيّ وجلست من نومي مصعوقًا، وقمت بعملية جرد سريعة. لم يحدث شيء مهم قبل ذهابي للنوم، سوى الاحتفال بعيد الهالوين وقيام الأطفال بتقليد «خدعة أم حلوى[39]»، وبعدها ذهبت أوفيليا مع صديقاتها إلى حفلة؛ حيث هي هناك، على ما يبدو حاليًا. عدا عن ذلك كله، فقد كانت ليلةً هادئةً تمامًا في المنزل الخلفي الذي كنا نستأجره من خالتي سيدة الأعمال الآنسة بيسي، التي تعد أول من امتلك منزلًا من أقربائنا؛ حيث كانت تدير فيه صالون تجميل، ومعمل بيسي للشعر في القبو.

شدت شارون كمي وهي تبكي وأخبرتني: «أمي ملقاة على الأرض.»

كنت أجهل ماذا سأجد أمام عيني، رميت أغطية سريري، والتقطت ردائي، وركضت في الممر مسرعًا إلى الأسفل ودخلت الغرفة الأمامية فوجدت أمي ترقد في أرضية الغرفة، ملقاة على وجهها، وغائبة عن الوعي، وثمة لوح خشبي عريض عالق في مؤخرة رأسها، وحمام من الدم ممتد من تحتها وحولها. ارتفع صوت بكاء شارون وهي تقف بجانبي وتحدق بأمنا وتصرخ:

---

39) خدعة أم حلوى: Trick or treat: هي عادة للأطفال في فترة عيد الهالوين حيث يتجول الأطفال من منزل لآخر مرتدين أزياء تنكرية، ويطلبون الحلوى وذلك بإلقاء السؤال «?Trick or treat» على من يفتح الباب. كلمة «خدعة» Trick في هذه العبارة تعني أنه إذا لم يعط أي حلوى للطفل، فإن الطفل سيقوم بإلقاء خدعة أو سحر على صاحب المنزل أو على ممتلكاته.

«استيقظي، استيقظي!»

وبينما كنت أقاوم شلل الصدمة، شعرت بوجود قوة أخرى تسيطر علي، وكانت ردة فعلي الفورية هي تقييم الوضع لما حدث، مثلما يفعل المحلل الجنائي في مسرح الجريمة.

تمكنت من أن ألاحظ أولًا أن أمي كانت تحاول الخروج من المنزل، والتوجه نحو الباب عندما هاجمها فريدي بالخشبة، موجهًا لها ضربةً عنيفةً على جمجمتها من الخلف لدرجة أن الخشبة انغرست داخل رأسها، وعلقت فيه، مما أدى إلى تناثر الدم ليس من تحتها وحسب، بل في كل أرجاء الغرفة.

شعرت بعدها بموجات ذعر تملكتني خوفًا من أن أمي قد ماتت، أو كانت على وشك الموت، والتفت لأرى بيبي تتصل بالإسعاف. طمأنتني بيبي، وهي أخت فريدي التي كانت تدعى بهذا الاسم تحببًا، بأن المسعفين في طريقهم إلينا ومن ثم ذهبت لتهدئ شارون.

وسط كل تلك الأحاسيس التي كنت أشعر بها وأنا أحاول أن أحصي الفوضى التي خلفها الدم، والخوف، ونحيب أختي، وإصرار بيبي على أن أمي ستذهب إلى المشفى وستكون بخير، ومع تناثر المزيد من الدم، تفجر في داخلي سؤال: «ما الذي أستطيع فعله؟» كانت الإجابة: هي أن أنظف الموقد! عليّ أن أفعل شيئًا، أي شيء. أحتاج القيام بعمل ما، مهمة أقوم بأدائها. لذا أسرعت إلى المطبخ وبدأت بدعك موقد مطبخنا القديم الذي بدا وكأنه مستخدم منذ زمن طويل جدًا، كما بدا مليئًا بالأوساخ الملتصقة بسطحه التي لا يعرف أصلها. وباستخدام فوطة، ومسحوق غسيل، وصابونة، وماء، بدأت التنظيف والتلميع بكل ما أوتيت من قوة، وفي نفس الوقت بدأت الدعاء. كان دعائي أكثر تفصيلًا من مجرد قول: «يا إلهي،

أرجوك ألا تدع أمي تموت.» كان كذلك، ولكن أيضًا مع قول: «يا إلهي، أرجوك ألّا تدع أحدًا يأتي إلى هنا ويرى هذا المكان بكل تلك القذارة.»

أن يرى المسعفون البيض ورجال الشرطة الدم في كل مكان بالإضافة إلى الفرن القذر هي فكرة مخجلة لدرجة لا تطاق. لذا فإن عملي كان يقتضي تنظيف المكان، كي أثبت أن من يسكن هنا هم أشخاص محترمون وليسوا بهمج، فيما عدا فريدي الذي أراق دم امرأة، مرة أخرى.

عندما أتت سيارة الإسعاف، تحرك المسعفون نحو منزلنا بسرعة، وقاموا بالتحدث مع بيبي وبيسي، ليس معي بالطبع، ومن ثم وضعوا أمي على النقالة، بعد إخراج الخشبة من رأسها، ونقلوها إلى السيارة، وانطلقوا إلى المشفى.

استمررت بالتنظيف حتى بعد ذهابهم، فقد كانت المهمة الوحيدة التي استطعت إيجادها لكي أعود إلى صوابي وسط تلك الفوضى. أصبح العالم صغيرًا جدًا بالنسبة لي في تلك الليلة. انطفأ جزء ما في داخلي بطريقة جعلت مشاعري تتجمد، لكن هذا الشعور كان ضروريًا ليمدني بالبقاء.

جهودي لم تنقذ أمي لكن اتضح أن رأسها الغليظ هو ما أنقذها بكل معنى الكلمة. باءت محاولة فريدي لقتلها بالفشل بفضل قوة ومرونة جمجمتها، عادت في اليوم التالي مضمدة الرأس، ومضروبة، لكنها كانت واعية كفاية لتتوعد بألّا تسمح له بالعودة نهائيًا. قالت بحزم، لم أسمعه في صوتها من قبل، ونظرت في أعيننا جميعًا وحلفت: «أقسم أنه لن يعود إلى هنا مرة أخرى.»

كنا لربما قد قضينا أسبوعًا بدونه، ولكن وقبل أن أستطيع أن أنعم بالراحة كان قد عاد. كان خروجه وعودته إلى حياتنا أشبه بركوب لعبة قطار الموت. كان في كل مرة يعود فيها يقدم اعتذاره، ويبدي ندمه، ويبدأ

من جديد بداية لطيفة. لقد كان كالمطر لا يمكن التنبؤ به، لا يمكن لأحد توقع جنونه المفاجئ، لكن في مرحلة ما كان الجميع يعرف أنه يصبح على هذا الحال، مرارًا وتكرارًا.

لماذا كانت أمي تصدقه في كل مرة؟ إنه لأمر محير ممّا لا شك فيه. وعلى النحو ذاته، أدركت أننا في بعض الأحيان كنا جميعنا نصبح في ورطة شديدة الخطورة عندما نحاول الهروب منه.

ورغم أنني لم أكن أمتلك السيطرة على خطتي قصيرة الأمد، إلا أنني قمت بتوسيع خطتي طويلة الأمد. لم أكن سأحرص على أن يكون لأولادي أب يتواجد معهم طوال الوقت فحسب وإنما أيضًا ألّا أصبح مثل فريدي تريبلت. لن أهدد أو أرهب أو أؤذي امرأة أو طفلًا أبدًا، ولن أدمن الكحول لدرجة تجعلني لا أتحكم بأفعالي. تطورت هذه الخطة عبر الزمن كما أنني درست في الكلية الافتراضية الطريقة التي يمكن بها أن أكبر دون أن أصبح مثله. أما بالنسبة للوقت الحالي فلم أستطع فعل شيء سوى كرهه. كانت مشاعر كره حقيقيةً عاشت ما بين جلدي وعظمي.

بدأت شرارات التمرد الصغيرة في داخلي تبصر النور. كان ترياقي للتغلب على شعوري بالعجز هو القيام بمشاغبات صغيرة فقط لأرى إن كان بمقدوري إزعاج فريدي. فمثلًا كنت أعرف أنه لا يستطيع القراءة وكان يشعر بالنقص أمام أي شخص استطاع ذلك؛ وكانت هذه هي البداية.

كنت أقرأ بصوت عالٍ في بعض الأحيان، لا لشيء سوى إرسال رسالة له: قد تكون أذناي كبيرتان، لكني أستطيع القراءة جيدًا، تستطيع أن تبرحنا أرضًا لكنك لن تستطيع القراءة. وفي أحيان أخرى كنت أصبح أكثر مكرًا، فأقوم بحمل كتابي وأشير إلى كلمة بصوت عالٍ جدًا لأتأكد من أن فريدي كان يسمعني وأسأل أمي: «ماذا تعني هذه الكلمة؟» أو «كيف

نتهجى هذه الكلمة؟» أو عندما كنت أبلغ أقصى درجات الشر، كنت أسأل أمي فجأة عن كيفية تهجي كلمة معينة.

لم يكن على أمي سوى أن تنظر لي نظرة رقيقة، لتخبرني بعينيها فقط: «بني، أنت تعرف تمامًا الجواب.» كانت تلك هي مؤامرتنا غير المعلنة، واتفاقنا السري بأنه لن يقوى على تحطيمنا، ومن ثم، وبصوت عالٍ كانت تقول: «لا أعرف.» ويبتسم كلانا للآخر بعينيه.

ومن ثم أخيرًا، وفي هدأة الليل من ذلك الشتاء نفسه الذي جرت فيه حادثة الخشبة، قامت أمي بتجنيدنا جميعًا في عملية تمرد واسعة النطاق. بعد أن قام فريدي بإطلاق العنان لنفسه وضرب أمي، للمرة الألف، وترك المنزل ليذهب بعدها ويحتسي الشراب في إحدى الحانات العديدة الموجودة في الحي، نهضت أمي عن الأرض ووضعت ثلجًا على وجهها المتورم، وبدأت بحزم أمتعتنا، وحثّنا على مساعدتها.

"يجب علينا أن نتحرك بسرعة." قالتها أمي بكل بساطة بينما كنّا أنا وأوفيليا نساعدها في التوضيب، نرمي ملابسنا وحاجياتنا في أكياس، ونحمل أي شيء نستطيع أخذه، لأننا كنا نعلم، دون أن يخبرنا أحد، بأن الوقت كان يداهمنا. وبدلًا من الذهاب للبقاء مع أقاربنا، قامت أمي باستئجار شقة في الشارع السادس الذي يبعد شارعين عن منزلنا الخلفي في شارع الثامن ورايت. بعد أن قمنا بتكديس كل شيء في عربة تسوق جررناها سوية إلى مكاننا الجديد، وكان كل واحد منا يجرها مع أمي، اعتلت وجهها الصدمة وهي تبحث في جيوبها ومحفظتها. نظرت إلى شقتنا في الطابق الثاني وهزت رأسها قائلة بحزن: «المفتاح... المفتاح غير موجود.» بدت مصعوقةً، معلنةً خسارتها الذريعة.

نظرت إلى البناية نظرة فاحصةً، ثم أشارت إلى عمود، وأخبرت

أمي، «أستطيع أن أتسلق ذلك العمود وأقفز على شرفة الشقة، وأدخل من النافذة، ومن ثم أفتح الباب من الداخل.» كوني ولدًا ضعيف البنية -معتادًا على تسلق الأشجار العالية من أجل اللعب والمتعة في ذلك الوقت- فكرت أنه باستطاعتي أن أفعلها وليس هذا فحسب، بل كان لابد لنجاحي أن يكون أمرًا إلزاميًا كي أفتح ذلك الباب نحو حياتنا الجديدة التي تخلو من فريدي. لقد كان الأمر أشبه بمهمة عليّ القيام بها، مهمة حقيقية، وكان أيضًا معركة عليّ أن أخوضها معه وأفوز عليه. بدأت تنفيذ خطتي كما هو مقترح، تسلقت العمود إلى السطح، وقفزت نحو الشرفة، ودخلت، ومن ثم ذهبت لأفتح باب الشقة، وتوجهت مسرعًا نحو الأسفل لأجد نظرة الراحة تعلو وجه أمي، كانت تلك النظرة هي كل ما احتجت لرؤيته. حال استقرارنا في الليل شعرت بفخر عارم لم أعهده من قبل.

في الأيام القليلة اللّاحقة انتبهت أمي أنني كنت قلقًا، وعرفت أنني كنت خائفًا من أن يأتي فريدي ويحاول احتلال منزلنا الجديد.

"لن يعود مرة أخرى." طمأنتني قائلة بالحرف الواحد: "لن تراه بعد الآن، لن يعود أبدًا.»

وفي مساء أحد الأيام سمعت صوتًا يأتي من صالة شقتنا الجديدة، صوتًا ذكوريًا، وقد بدا وكأنه يهدد. كانت المحادثة تدور حول النقود أو الإيجار. تصورت أنه صوت فريدي، لكني عندما ذهبت لأرى من يكون اتضح أنه صوت رجل أبيض لم أره من قبل. كان رجلًا عاديًا، يرتدي طبقات من الملابس الشتوية التي تلاءمت مع الجو، وكان يتحدث بطريقة غير محترمة جعلت أمي ترتعش من الخوف.

تصرفت بردة فعل لا إرادية وركضت إلى المطبخ وعدت حاملًا سكينة جزارة ووجهتها نحو الرجل الأبيض وقاطعته قائلًا: "لا يمكنك التحدث مع

أمي بهذه الطريقة."

رمقتني أمي بنظرة كانت تعني الكثير، محذرة إياي أن أحسن نبرة صوتي وكلماتي وأن أكون مهذبًا.

بادلتها نظرة مفادها السمع والطاعة. التفتّ إلى الرجل، وكانت السكينة ما زالت في يدي، وتحدثت مرة أخرى لكني قلت له هذه المرة: «سيدي، لا يمكنك التحدث مع أمي بهذه الطريقة.»

انسحب وتركنا وشأننا. بكل أسف شديد لم تكن تلك هي المرة الأخيرة التي أرى فيها أحدًا يتحدث بتلك النبرة الفوقية والمهينة مع أمي، وعائلتي، ومعي أنا أيضًا. كنت أعمل جاهدًا طوال حياتي ألّا تكون لدي نفس ردة الفعل إزاء أي شخص من عرق مختلف أو من طبقة أخرى إذا ما تحدث معي بنفس تلك الطريقة.

تبع ذلك عودة فريدي على الفور. وصل قطار الموت ذروته ومن ثم عاد من جديد. كنت أكرهه في كل مرة أكثر من المرة السابقة. لم يكن قد مر أسبوع حتى عاد، ومن ثم حزمنا أمتعتنا وعدنا إلى المنزل الخلفي مع فريدي الذي تكرم علينا بأسبوع نقاهة بدون أي عنف. لم أدرك لماذا عدنا لكن خيبة الأمل ظلت تنهش بجسدي. لم أكن أعلم أن أمي كانت قد زُجَّت في السجن من قبل، لذلك لم أستطع أن أدرك وقتها أنها كانت في معظم الوقت خائفة من أن يتسبب فريدي في إدخالها إلى السجن مرة أخرى. لكني أدركت لاحقًا أنها لم تكن مستقلة ماديًا بالقدر الكافي لتربي أربعة أولاد لوحدها، ولم يكن لديها أي وسيلة للهروب منه، لكنني شعرت حينها أنها كانت عالقةً ما بين أمرين أحلاهما مر.

أصبحت الحاجة لإيجاد حل لوضعنا ملحة أكثر. أتتني الفكرة في ظهيرة يوم الأحد بينما كنت أشاهد فريدي يتناول طبق عظام رقبة تعده

أمي بطريقة لا مثيل لها. كانت مشاهدتي له وهو يأكل أشبه بفتى مدينة وجد نفسه فجأةً في حظيرة خنازير، لكن في هذه الحالة كان يكفيني أن أشاهده لمرة واحدة فقط وهو جالس على طاولة المطبخ، يمتص، ويقطع، ويطقطق بالعظام، لكي أختبر شعور الاشمئزاز الدائم. كان فريدي يفتقر إلى الشعور بالإحراج، لم يكتف فريدي باعتناق روح الشراهة أثناء الأكل فحسب بل كان أيضًا يمزجها بقدرته الواضحة على إطلاق الريح، والعطاس، والتجشؤ في آن واحد. من كان هذا الرجل القذر الشبيه بسوني ليستون، والمدخن لعلبة سجائر بال مال، وشارب الويسكي، وحامل البندقية المخبول؟ أين هي الإنسانية في رجل لا يبدو أنه يهتم بما يفكر به الآخرون عنه، ولم يفوت الفرصة أبدًا في أن يضرب، ويهين، ويحرج، ويذل أي أحد منا، خاصة أنا؟ هل كان السبب لأنني أنا الذكر الوحيد في المنزل، أم لأنني استطعت القراءة، أم لأنني أنا الابن الوحيد لأمي، أم هو مزيج من كل ما تم ذكره وأسباب أخرى لا يعلمها أحد غيره؟

كانت أجوبة تلك الأسئلة ليطول انتظارها أو ربما لن تأتي أبدًا. لكنني حصلت أخيرًا على جواب لما سأفعله حول خطتي قصيرة الأمد. لم أكن قد بلغت الثامنة بعد عندما صعقت الفكرة رأسي كضربة برق في تلك الظهيرة من يوم الجمعة، وأنا أشاهده يمص بالعظام وفكرت في نفسي: «سوف أقتل هذا الوغد.»

على النقيض من ذلك الخطر الذي كان يترصدني في المنزل، وفي شوارع الجانب الشمالي من ميلواكي -مع كل ذلك المرح والحزن المزوجين ببيئة أيامنا السعيدة السوداء- تسنى لي اختبار مشاعر الأمان والطفولة الطبيعية نسبيًا. أتى الشعور بالأمان إلى حد ما من معرفة تخطيط المدينة ومن الإحساس بحدودها. في الحدود الشمالية الممتدة من الشرق إلى

الغرب، كانت هناك منطقة تدعى كابيتول درايف التي سكنها الزنوج من الطبقة البرجوازية[40] الصاعدة، والتي عمل فيها آباء الأولاد أعمالًا مهنية، وكان البعض منهم أطباء ومحامين، بينما كان البعض الآخر معلمين وموظفي تأمين، أو موظفين في الحكومة. أما في مركز الجانب الشمالي فقد سكنته عوائلنا الأدنى دخلًا، ورغم دخلهم المحدود إلا أنهم كانوا مجتمعًا كادحًا أغلبه من الطبقة العاملة في مصانع الحديد والسيارات، ممن علقوا في منطقة ما بين شمال المدينة (حيث يطمح جميعنا في سرنا العيش هناك يومًا ما، رغم ادعائنا عدم رغبتنا في التواجد برفقة المتغطرسين) والجسر الذي يربطنا بعالم البيض الذي يقع في الجانب الجنوبي، والذي منعنا منعًا باتًا من تخطيه، وذلك بموجب قانون الانقسام العرقي غير المكتوب.

كان الشارع الثالث هو أحد الشوارع الرئيسة الممتدة من الشمال إلى الجنوب، والذي احتوى على بعض من المتاجر المميزة مثل سلسلة متاجر غيمبلز للبيع بالتجزئة ومتجر بوستون لبيع الملابس، والأحذية، والأثاث والمجوهرات والأدوات المنزلية، ومستحضرات التجميل، ومتجر بريلز للألبسة، بالإضافة إلى مركز التخفيضات الذي يقع في الشارع الثالث وشارع نورث، والذي كان مكاني المفضل لشراء الملابس ضمن ميزانية معقولة.

وعلى بعد شارعين من مكان إقامتنا في شارع الثامن ورايت كان هناك تقاطع مليء بالنشاط في شارع التاسع وشارع مينيكي على مقربة من مدرسة لي ستريت الابتدائية التي كنت أدرس فيها، والتي كانت تدرس

40) البرجوازية Bourgeois: هي طبقة اجتماعية ظهرت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وهي الطبقة المسيطرة والحاكمة في المجتمع الرأسمالي، وهي طبقة غير منتجة لكن تعيش من فائض قيمة عمل العمال، حيث إن البرجوازيين هم الطبقة المسيطرة على الإنتاج وعلى المجتمع ومؤسسات الدولة للمحافظة على امتيازاتها ومكانتها بحسب نظرية مؤسسها كارل ماركس.

فيها أيضًا بالصدفة بات، أخت أوبرا وينفري[41] عندما كانتا تعيشان في ويسكونسن. احتوى هذا التقاطع على متجر ساي[42] للبيع بالتجزئة. كان ساي رجلًا يهوديًا، أصلع ضخمًا، وهو أحد الأشخاص البيض القليلين الذين كانوا يسكنون في مجتمعنا -رغم أنني لم أعرف حتى وقت لاحق أن الشخص اليهودي يختلف تمامًا عن الشخص الأبيض الأنجلوسكسوني[43] البروتستانتي- وكان محبوبًا جدًا؛ لأنه كان يقدم تسهيلات مالية لزبائنه الدائمين مثلنا. شعرنا بالراحة أيضًا مع الرجلين الأسودين اللّذين ساعدا ساي في إدارة أعمال المتجر واللّذين اشتريا لاحقًا المتجر منه. كان هنري ساي وابنه -الذي أطلق عليه لقب كلب بولدوغ الذي تناسب مع شكله بحق- شخصيّتين عظيمتين ساهمتا في خلق جو يسوده حسن الضيافة في المنطقة.

كان ساي يعد ويبيع مجموعة من الأطعمة اللّذيذة، من ضمنها أطيب وجبة سجق أكلتها في حياتي، وكان أيضًا يعرض مختارات شتى

41) أوبرا وينفري Oprah Winfrey: مقدمة برامج حوارية أمريكية. ولدت في 29 من كانون الثاني لعام 1954. أكملت تعليمها الجامعي من خلال منحة تعليمية حصلت عليها، حيث كانت من أوائل الطلاب الأمريكيين من أصل إفريقي في الجامعة. حسب تصنيف مجلة فوربس لعام 2005، احتلت أوبرا المرتبة التاسعة في أول 20 شخصية من النساء الأكثر نفوذًا على صعيد وسائل الإعلام والسلطة الاقتصادية.

42) هنري ساي Henry Sy: ولد في 15 من تشرين الأول 1924 لعائلة فقيرة في قرية في جنوب الصين. ومؤسس أكبر متاجر التجزئة في الفلبين ومؤسس مجموعة أس أم ورئيس أس أم القابضة. ذكرت مجلة فوربس أنه في عام 2015 كان أغنى رجل في الفلبين.

43) أنجلوساكسوني Anglo-Saxon: هم القبائل الجرمانية التي غزت وسكنت شمال أوروبا في القرن الخامس والقرن السادس. تلك القبائل هي الأنجلز، والسكسون، واليوت. وقد تركوا أوطانهم الأصلية وهي شمال ألمانيا وهولندا والدانمارك، واتجهوا نحو بحر الشمال على متن مراكب خشبية. واستوطنوا جهات بريطانيا الجنوبية والشرقية في القرن الخامس بعد الميلاد، وبعد حوالي مئتي عام انضمت هذه المجموعات الثلاث إلى مجموعة واحدة دعيت بالأنجلو-ساكسون.

لأغراض منزلية وشخصية. في كل مرة كانت أمي تناديني: «كريس بول...» كنت أعرف من نبرة صوتها أن عليّ القيام بمهمة شراء شيء ما من متجر ساي، أي شيء بدءًا من علبة الفشار الحلو الذي أحببت رائحته، أو ماركة ديز ورك المشهورة لمضغ التبغ، وصولًا إلى غرض شخصي غامض لم أسمع به من قبل ألا وهو كوتيكس، أو أيًا كان اسمه. لم يكن لدي أدنى فكره عنه، وعلى قدر ما كنت أرغب بإرضاء أمي والعودة بما طلبته مني، إلا أنني غالبا ما كنت أعود بالغرض الخطأ، لاسيما عندما كانت تقول: «كريس بول أركض إلى متجر ساي وأحضر لي جوارب رمادية اللون.» كنت أعود ومعي أي لون سوى الرمادي مما جعلها في نهاية المطاف تكتب ورقة ملاحظات إلى ساي بدلًا عن الاعتماد عليّ في اكتشاف ما كانت ترغب به.

وعلى بعد شارعين بالاتجاه شمالًا من هناك، في شارع التاسع وكلارك، كان هنالك علامة دالة أخرى للحي، والتي كنا جميعًا نطلق عليها: «متجر الزنوج" ليس بالمعنى السيئ للكلمة بل لأن مالكيه كانوا سودًا على خلاف أغلب المتاجر التي كان أصحابها بيضًا. أي مبلغ كنت أحصل عليه كنت أسرع إلى شارع التاسع وكلارك لأشتري به حلوى بسعر دولار، وكيسًا أو كيسين من فشار أوكي دوكي بالجبنة.

كان التحدي بالنسبة لي في عمر السابعة أو قبلها بقليل هو أن أجد طريقةً أحصل بها على تلك النقود في جيبي. كان معظم الأولاد الأكبر مني سنًا والبالغون منهم لديهم نفس الاهتمامات. كان الجميع، بشكل ما، يبحثون عن طريقة احتيال معينة، ووجهة ليسطوا عليها.

كان تيري ابن خالتي بيسي البالغ من العمر ثلاثة عشر عامًا، زعيم عصابة لمجموعة من الأولاد الذين كنت أتسكع معهم في بعض الأحيان؛ كانوا يعلمونني أساسيات الأعمال الحرة، على طريقة حي الغيتو المتبعة

في الستينات.

طرقت الفرصة بابي حينما بدأت مدينة ميلواكي ببناء الطريق السريع 43 في منتصف حيينا ما بين شارعي السابع والثامن. وبما أن كل العقارات السكنية والتجارية في شارع السابع كان يتم إخلاؤها والاستعداد لهدمها، قرر تيري وجماعته أن يجربوا تجارة الخردة.

كنت متلهفًا للانضمام إليهم، رغم أنني لم يكن لدي أدنى فكرة عن معنى هذه التجارة إلا أنني ذهبت معهم وساعدت الأولاد الأكبر مني سنًا على تدمير الأماكن -حرفيًا- التي صدر فيها أمر الإخلاء والهدم، وبحثت معهم عن أي أغراض من أجهزة، ومعدات، وحديد، وأسلاك نحاس، وأوزان نوافذ، وملابس قديمة، وسجادات، بما فيها البحث عن الورق أيضًا. لم تكن تلك سرقة -أو هكذا كان يقول تيري- لأننا في الحقيقة كنا فقط نساعد المدينة على هدم المنازل التي صدر بحقها أمر الإزالة. وبدلًا عن جلب عمال لترتيب الأشياء في الصناديق كنا نحن من يقوم بتكديسها ووضعها في عربات التسوق ومن ثم نقوم بدحرجتها طوال الطريق نحو الجانب الشرقي من ميلواكي، بعد مسافة قليلة من عبور النهر قبل وصولنا إلى البحيرة. كان هذا هو المكان الذي يدير فيه السيد كاتز -رجل أعمال يهودي يشتري تلك الأشياء مقابل وزنها- نشاطه التجاري في أعمال الخردة.

لكي نزيد من ربحنا المحدود حاولنا أن نكون حذقين لعدة مرات، لكننا مهما كنا نفعل فإننا لم نكن بمستوى السيد كاتز الذي اخترع فن الحذاقة. كانت حيلتنا السخيفة هي محاولتنا أن نزيد ثقل حمولتنا -قبل أن يضعها على ميزانه- من خلال تبليل السجادات لتصبح ثقيلةً، وإخفائها تحت صناديق الحليب التي كنا نخبئها تحت الكومة.

كان السيد كاتز يعرف كل ألاعيبنا السابقة والقادمة. كان يعرفها

بالفطرة، فعندما يكون الوزن ثقيلًا جدًا مقارنة بما يراه، كان يبدأ فورًا بالصراخ باللهجة اليديشية(44) ويبدأ بالبحث عن السجادات المبللة. لم تنطل الحيلة عليه أبدًا. ومع ذلك لم تكن أجرتنا في أعمال الخردة مع السيد كاتز سيئةً بصفته المشتري الدائم. بمعنى أن تيري وأصدقاءه لم تكن تجارتهم معه خاسرة. كانت حصتي البالغة خمسة دولارات أو عشرة دولارات أقل بكثير من حصصهم. لكنني كنت سعيدًا للغاية وأنا أنفقها على الأشياء الصغيرة التي أردتها، دون أن أطلب من أمي أن تعطيني نقودًا للذهاب إلى السينما أو لشراء الحلوى. كما أن هذا المجال عرّفني أيضًا على أهم مبادئ السوق الرئيسة، ألا وهي: العرض والطلب. كان الطلب هو أن شخصًا ما يدفع للسيد كاتز مبلغًا مقابل الأغراض التي كنا نعرضها. لم تكن تلك صفقة سيئة.

معظم الأنشطة الأخرى التي كان تيري يقوم بها لم تكن مستقيمة بالضرورة، كالمرة التي أتى فيها إلى باحتنا الخلفية حاملًا صناديق علب سجائر وفجأة بدأ جميع أولاد الحي، ومن ضمنهم أنا، بالتدخين، وبدأ تيري يخبرنا قصةً بدت غامضة ومشبوهة عن وقوع تلك الصناديق من شاحنة أو شيء من هذا القبيل. لكنها في الحقيقة كانت صناديق سرقت بطريقة ما من حانة محلية، وكان الشخص الذي سرقها هو تيري. لم يعنني الأمر، فقد اعتقدت بأنّنا كنا رائعين، والأروع أنّه لم يتم القبض علينا.

لكن عادةً ما كان يكشف أمرنا. في الحقيقة كان جزءًا من السبب

---

44) اليديشية Yiddish - ייִדיש، يِيدِيش/אידיש، إيديش: هي وحسبما جاء في الموسوعة العربية العالمية لغة يهود أوروبا وقد نمت خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين من لغات عدة، منها الآرامية والألمانية والإيطالية والفرنسية والعبرية. يتحدثها ما يقارب 1.5 ملايين شخص حول العالم، أغلبهم يهود أشكناز. الاسم يديش هو يديشية لكلمة «يهودية» وقد تكون تقصيرًا لـ «يديش - تايتش» (ייִדיש-טײַטש) أو ألمانية - يهودية.

وراء إعطائنا حرية التصرف تلك في الذهاب والمجيء كما نشاء هو أن أهالي أصدقائنا كانوا يراقبوننا طوال الوقت. أصبح هذا الأمر واضحًا تمامًا بالنسبة لي عندما ذهبت لأرى الأخوين بول: آرثر وويلي. أصبحت كرة القدم فيما بعد شغلنا الشاغل، وعندما أصبحت أضخم وأطول من ذي قبل، أصبحت ظهيرًا رباعيًا. كانت مبارياتنا تتمحور حول تمرير الكرة، والركض، وتسجيل الأهداف التي نتج عنها الكثير من الهجمات لتصبح النتيجة النهائية مئة وأربعة عشر هدفًا مقابل ثمانية وتسعين هدفًا، وكان الأمر أشبه بلعب كرة السلة. كان الأخوان لاعبي دفاع ممتازين يتمنى أي فريق بعد نادي المدرسة أن يلعبا معه، وكانا في طريقهما ليصبحا أضخم رجلين يمكن لأي شخص أن يراهما في حياته. كانا من ألطف وأرق الأشخاص الذين عرفتهم في حياتي، وكانت ضخامتهما مثاليةً للاعبي خط الهجوم في الوقت الذي بلغا فيه مرحلة المراهقة. وفي وقت سابق، وفي أول مرة ذهبت فيها إلى منزلهما صادف حينها أن الجو كان حارًا جدًا، وعندما وصلت كان أمرًا واضحًا أن باب منزل عائلة بول قد أزيلت منه الزجاجة، فأصبح الباب عبارة عن إطار خشبي فقط. لذا، ومن دون ذكر ما هو واضح، دخلت المنزل من خلال الإطار الخشبي.

ظهرت السيدة بول، والدتهما، أمامي وصوّبت إصبعها نحوي قائلةً: «من الأفضل لك أن تعود أدراجك وتخرج من المنزل وتفتح ذلك الباب! أين ذهبت أخلاقك؟!»

وقفت هناك لبرهة لست مدركًا ما يجري. لم يكن هنالك زجاج في الباب، لذا كان الباب مفتوحًا بالفعل، أم لم يكن كذلك؟

لم تر السيدة بول الموضوع من هذه الزاوية. أطعت ما قالته وذهبت لأفتح الباب، فأضافت: «هذه ليست تربيتك! فأنا أعرف والدتك، والآن

افتح الباب وكأنك تعي ما تفعله. تراجع إلى الخلف ومن ثم افتح الباب، هل تعي ما أقول؟»

كانت امرأةً ثقيلة الوزن، أكبر من أمي ببضع سنوات. أوضحت السيدة بول الأمر جيدًا بأن ذلك المنزل هو منزلها وهي صاحبة الأمر والنهي فيه.

لم أقل شيئًا، ولم أعرف كيف يفترض بي أن أذهب وأخرج من باب كان بالأصل مفتوحًا. هل خرجت كما دخلت، أم أنني دفعت إطار الباب وفتحته؟ ومع وقوفها هناك، واضعةً يديها على خصرها، ترمقني بنظرة حادة، فتحت إطار الباب، رجعت إلى مكاني خارجًا وأغلقته.

ثم قالت: «تفضل بالدخول.»

وفي اللحظة التي دخلت فيها، ابتسمت لي السيدة بول وأضافت: "كيف حالك كريسي؟"

لم تكن كل العوائل تهتم بأهمية التربية وتطبيقها بتلك الطريقة، لكن كان هنالك قواعد مجتمعية غير مكتوبة من شأنها أن تبقي الأولاد بعيدًا عن المشاكل. في العديد من المنازل في ذلك الوقت كان هنالك تمييزٌ ما بين سوء المعاملة والمعاقبة بالقوة على ارتكابك لخطأ ما. كانت تتخلّل عملية الضرب قضبانٌ خشبية قطعًا. وحيث إن جميع الأمهات والآباء كانوا يعرفون بعضهم البعض، فقد كان أمرًا مقبولًا جدًا لأي أم أن تضرب طفلًا إذا ما تجاوز حدوده. ومن ثم تقوم بالاتصال بوالدتك وستقوم والدتك بضربك هي أيضًا حين عودتك للمنزل. وتقوم أيضًا بانتظار والدك لدى عودته ليمسح بك أرضية المنزل مرة أخرى، ويكون ضربه الأسوأ من بينهم جميعًا.

أما عائلتنا فقد كانت تختلف قليلًا عن باقي العوائل. كان فريدي مهووسًا بالضرب بشكل منتظم، سواءً كنا مذنبين أم لم نكن كذلك،

لذا فضلت أمي عدم ضربنا. وكونها معلمة حقيقية فقد كان بمقدورها أن تعلمنا الدروس الحقيقية التي احتجنا تعلمها دون الحاجة لاستخدام القوة، فبدلًا من الضرب، كانت كلماتها المنتقاة بحكمة، ونبرة صوتها الحادة، ونظرة عينيها، كفيلةً بقول كل ما احتجنا سماعه من توبيخ. لكن كان هنالك استثناءات، مثل تلك المرة التي سرقت فيها من «متجر الزنوج» فشار أوكي دوكي بسعر خمس سنتات. لم تكن صاحبة المتجر الأمريكية من أصل إفريقي تعرف أمي فحسب -حينما رأتني متلبسًا وأنا أحاول أن أكون حذقًا وأخرج من الباب بسذاجة طفل في السابعة من عمره، وأمسكت بي من ياقتي- بل كانت أيضًا تعرف محل عمل أمي. ونتيجة لمحاولتي سرقة الشبس قامت المرأة بإبلاغ الشرطة وإبلاغ والدتي. وبعد أن جاءت أمي لتأخذني من المتجر وقبل أن تصاحبني إلى المنزل، قامت بضربي على مؤخرتي بكل ما أوتيت من شراسة وعزم لتتأكد من أنني لن أكرر فعلتي مرة ثانية.

كانت أمي تتفن بطريقة ضربها. كانت تضربني بسلك الهاتف اللولبي الغليظ الذي تسبب برنين جرس الهاتف في كل مرة كانت تضربني به. إضافة إلى العذاب الجسدي -القاسي لدرجة جعلتني أتساءل ما إذا كانت ستقتلني- استمر عذابي النفسي ولعدة أسابيع ففي كل مرة رن فيها جرس الهاتف كنت أستعيد مجددًا مشهد الضرب معه. ومع آخر ضربة منها فقد كانت حتمًا السد المنيع الذي جعلني أقلع عن مجرد التفكير في السرقة لزمن طويل؛ على الأقل حتى أصبحت مراهقًا.

ربما كان جزءًا من غضب أمي هو التأكد من أنني حتى وإن صاحبت تيري فإنني لن أسير على خطاه وأصبح مثله. في الواقع شعرنا جميعًا أن تيري كان يسلك طريقًا محفوفًا بالمخاطر، كان أحد أولئك الأولاد الذين ولدوا ليصبحوا قطّاع طرق.

"مرحبًا يا كريسي." كان تيري يناديني من الفناء الخلفي دائمًا، ليدعوني للذهاب معه إلى المنزل الكبير، وكعادته وفي صباح أحد الأيام ذهبت مجموعة منا -أخواته وأخواتي- وتبعنا أوامره بالقيام بتحويل سلالم المنزل إلى لعبة من ألعاب ديزني لاند. كانت هذه اللعبة تغييرًا للنمطية السائدة في ألعابنا التنافسية كأن نرى مثلًا من سيدّعي بأنه أكثر شخصية مشوقة كنا نختارها من عدة أفلام. اخترت شخصية من فيلم "السبعة الرائعون[45]"، وهي شخصية كريس التي مثّلها بول براينر[46] والتي كانت من أروع شخصيات الفيلم. ورغم أننا كنا نحمل نفس الاسم، إلا أن الأولاد الأكبر مني سنًا اعترضوا على اختياري، ونالوا فرصة اختيار الشخصيات أولًا. كان للأفلام تأثيرٌ قويٌ عليّ، مثلها مثل الكتب التي كانت تجعلني أطّلع على عوالم أخرى. كان فيلمي المفضل في الطفولة هو الساحر أوز[47] وهو من أكثر الأشياء التي أثرت على نظرتي للحياة. وفي أحد الأيام عزمت على العيش في كانساس حيث لا يحدث فيها أي سوء فيما عدا إعصار يحدث بين حين وآخر.

في تلك الأثناء دعاني تيري إلى منزله لنحظى بأوقات لعب عادية ومرحة. بينما كان الجميع في الخارج قضينا معظم ذلك اليوم في التزحلق

---

45) فيلم السبعة الرائعين The Magnificent Seven: هو فيلم من أفلام الغرب الأمريكي يحكي قصة مزارعين مكسيكيين يتعرضون للاستغلال من قبل زعيم عصابة يدعى كالبيرا إلي ولاك، فيذهبون لطلب المساعدة من رماة أمريكيين مهرة.

46) يول براينر Yul Brynner: ممثل مسرحي وسينمائي من أصل روسي، ولد في 11 تموز 1920 وتوفي في 10 تشرين الأول 1985 بسبب مرض السرطان. اشتهر بشخصية كريس أدمز في فيلم السبعة الرائعين.

47) الساحر أوز The Wizard of Oz: هو فيلم موسيقي وكوميدي درامي وخيالي أمريكي نتج عام 1939، وهو أنجح وأشهر الاقتباسات عن رواية ساحر أوز العجيب للكاتب ليمان فرانك بوم التي صدرت عام 1900.

على السلالم، في صناديق الكرتون التي كانت تندفع بسرعة وتصطدم بمصد صنعناه من وسائد الأريكة. وعندما مللنا من لعب هذه اللعبة اقترح تيري: «كريس، لنتعارك بالوسائد. الأولاد ضد الفتيات!»

"يا للروعة!" كنت متحمسًا جدًا للموضوع. كنا نتعارك أنا وهو معًا ضد اثنين من أخواتي وثلاثة من بنات خالي.

سرعان ما خرج الأمر عن سيطرتنا، ويرجع ذلك في الأساس إلى أن تيري قرر أن يضع قطعة حديد كبيرة جدًا داخل الوسادة. لكننا عرفنا بعد ذلك أنه كان قد ضرب أخته إيلين على رأسها بوسادته الحديدية، وتبع ذلك صرخات، وصيحات، مع تناثر الدم في كل مكان.

تفرق الجميع وذهبت إحدى البنات للبحث عن بول كرافورد، والد تيري الذي لطالما نودي باسمه الثنائي. ورغم أنه لم يكن متزوجًا من السيدة بيسي إلا أن بول كرافورد كان نجارًا وحرفيًا ونصابًا، يتواجد بكثرة في المنزل الكبير، ليس لكونه شغل منصب شريفٍ مقيم فحسب ولكن أيضًا كان يجلب عددًا لا يحصى من مؤن أكياس البطاطا التي تزن مئة رطل. ولربما قد كنا فقراء الحال لكننا لم نكن سنتضور جوعًا.

كان بول كرافورد والد طفل آخر لكني كنت سأفتخر بمناداته أبي، لو كان الأمر كذلك. كان لديه أسلوبه الخاص به، وكان رجلًا ماكرًا وقويًا، ورجلًا عاملًا يتمتع بالحيوية والجاذبية، لم أره مسبقًا دون حزامه المعبأ بأدواته والمنخفض عن خصره وقبعته، وسيجارته غير المشتعلة والمتدلية من شفاهه السفلى. كانت المرة الوحيدة التي شاهدت فيها بول كرافورد في وضح النهار هي في ذلك اليوم الذي واجه فيه ابنه حول الإصابة الخطيرة التي لحقت بإيلين.

حالما تم تضميد رأس إيلين وأخذها إلى غرفة الطوارئ قام بول

كرافورد باستدعائنا جميعًا إلى غرفة الجلوس، في البيت الكبير حيث دُفع الأثاث كله إلى جهة واحدة. تكرر مشهد النهاية المخيف الذي رأيته في فيلم طواف السهول العالية[48] -فيلم شاهدته بعد عدة سنوات- عندما نزع بول كرافورد حزامه بروية، وسار بخطى ثابتة وهو ينظر إلى أعيننا، منتظرًا أحدًا منا ليكشف أمر تيري. تظاهر جميعنا بعدم معرفة المسؤول عما حدث، بما فينا تيري.

"حسنًا." قال بول كرافورد، مثيرًا الرعب في أنفسنا، «على أحدكم أن يخبرني بما حدث.» ومن ثم قام بسحب حزام بنطاله، ووقف وقفة مسرحية ليشعل سيجارته. كان الفرق الوحيد في مشهد إشعال السيجارة ما بين كلنت إيستوود[49] وبول كرافورد هو أن كلنت كان يرتدي قبعة رعاة البقر، بينما ارتدى بول كرافورد قبعة العمال. وبدلًا من أن يكون حاملًا للسلاح، كان حاملًا للحزام وفجأة أصبح الحزام على قيد الحياة في يديه كأفعى غاضبة لا يمكن السيطرة عليها. ورغم أن تركيزه في الضرب كان على تيري إلا أننا جميعًا طالتنا ضربات ارتدادية وتعلمنا على يديه معنى «مخافة الرب".

أسدلت هذه الحادثة الستار على لعبنا على السلالم، وشربنا للسجائر، وعراكنا بالوسائد.

بحثنا أنا وتيري في وقت لاحق عن وسائل تسلية أقل جلبًا للمشاكل، وكان الجو قد أصبح جميلًا ومشمسًا، وفكرنا أنه لن يمانع أحد إن بنينا لأنفسنا بيتًا

---

48) طواف السهول العالية High Plain Drifter: هو فيلم أمريكي غربي من إنتاج عام 1973 أخرجه ولعب دور البطولة فيه: كلينت إيستوود، وكتبه إرنست تيديمان.

49) كلينت إيستوود Clint Eastwood: ولد في 31 آيار 1930 وهو ممثل ومخرج ومؤلف موسيقي للأفلام ومنتج سينمائي أمريكي، حائز على جائزة الأوسكار أربع مرات، اثنتين عن أفضل مخرج واثنتين عن أفضل فيلم، يعتبر إيستوود رمزًا للسينما الأمريكية إن لم يكن رمزاً لأمريكا نفسها.

خشبيًا في الفناء الخلفي، من بعض قطع الخشب المرمية على الأرض.

لكننا لم نكن نعلم أن فريدي سيمانع وعلى ما يبدو فإنه كان يصرخ: «توقفا عن إحداث كل تلك الضجة اللعينة!» لأنه كان يحاول أن ينام. وبينما كان تيري يدق بالمطرقة في الخارج وأنا أيضًا كنت أدق داخل البيت الخشبي، لم نستطع أن نسمع شيئًا. أدركت فيما بعد أن تيري قد توقف عن الطرق. وفجأةً بدأ البيت ينهار من حولي، وسمعت صوت ضرب رنان ومن ثم عكس ضوء الشمس النصل المعدني الساطع لفأس فريدي ذي المقبض الطويل.

لم أدرك شيئًا حينها سوى أن البيت كان يتقطع، وأنا ما زلت في داخله. أما تيري فقد لاذ بالفرار. لم يأبه فريدي أبدًا بوجودي داخل البيت، بل لقد بدا أيضًا أنه غير مكترث بصراخي من الألم؛ جراء دخول قطعة من الخشب المتكسر في ساقي الذي سال منه نهر صغير من الدم، فوق بنائنا الذي تحول إلى كومة حطام. كان فريدي لا يتأثر بشيء، وكأنه منشار كهربائي ممسوس، لا يرغب بشيء سوى تحويل مشروعنا المفعم بالضجيج إلى كومة نشارة.

تداخل مع كل ذلك النشاز من الضرب، والصرخات، والدم، وكسرات الخشب المتناثرة في كل مكان، صوت أمي وهي تصرخ على فريدي: «توقف! توقف!»

توقف فريدي عن الدمار الذي كان يحدثه وقال مدافعًا عن نفسه وهو ينخر: «لقد أخبرته أن يتوقف عن إحداث ذلك الصوت المزعج اللعين.»

إذا أردت أن تقضي على متعة أي شخص فدع الأمر لفريدي. هدأتني أمي وبدأت بتنظيف جرح ساقي البليغ ووضعت ضمادة عليه. عندما بدأ الجرح بالتقشر، كان التهيج لا يطاق لدرجة أنني أصبحت أخدش فيه حتى

خرج الدم من جديد. فوضعت أمي ضمادة أخرى، لكنها وقعت في يوم ما أثناء تواجد أمي في عملها.

بعد أن قمت بغسل الجرح للمرة الثانية، بحثت عن ضمادة كبيرة لكي أضعها على الجرح فوجدت شيئًا أشبه بضمادة بيضاء نظيفة، وناعمة كالحرير في ذلك الكيس الذي اشترته أمي من متجر ساي. وضعت الضمادة بعناية على سطح الجرح المتقشر وربطتها حول ساقي. ومن ثم خرجت بعدها وأنا أتفاخر بقدراتي الطبية القيمة، وفكرت في أن أتمشى في الحي كي أستعرض ضمادتي الرائعة.

ومن سيمر أمامي صدفة بينما كنت أمشي في الشارع سوى تيري؟ تبخترت في مشيتي حتى رأيت نظرة الرعب في وجهه وهو ينظر لي من أعلى إلى أسفل.

"ما هذا الشيء على ساقك يا كريس؟" استطرد قائلًا. وقبل أن أجيبه، أضاف قائلًا: «لماذا تضع كوتيكس على ساقك؟ هل أنت مجنون؟»

حاولت جاهدًا أن أفهم لماذا كان تيري غاضبًا لتلك الدرجة ومحرجًا.

لوح تيري بأصبعه نحوي وقال: «إياك أن تستخدم فوطًا نسائية صحية مرة أخرى! انزعها في الحال! إياك أن تضع هذه الأشياء مرة أخرى!»

ورغم أن الندبة التي سببتها حادثة الفأس لم تندمل أبدًا، إلا أنني لم أستطع التخلص من الشعور المتأخر بالمهانة بعد أن عرفت أن كوتيكس لا يفترض بها أن تستخدم كضمادات وإنما هي فوط صحية خاصة بالنساء!

كان هذا الموقف تذكيرًا إضافيًا لمدى كرهي لفريدي، ومدى رغبتي الشديدة في أن يختفي من حياتنا. لكن إيجاد طريقة للتخلص منه كان أشبه بتلك المهام المستحيلة، التي تعطى للفرسان الذين ليس لديهم خبرة لكي يذهبوا لمواجهة تنانين نارية لا تهزم.

كيف لي أن أتخلص منه؟ أأقتله بالسلاح؟ كان هذا الاحتمال مرعبًا. فبالنسبة لفريدي الذي نشأ في بيئة تمارس الصيد البري والبحري كان حمل السلاح أمرًا طبيعيًا ومنتشرًا، اعتاد فعله طوال حياته. كان الأمر أيضًا شكلًا من أشكال الإدمان كالشرب، والطريقة الوحيدة التي عبّر من خلالها عن نفسه عندما كانت الأمور لا تسير على هواه، ولكي يهدئ من روعه الداخلي، ولكي يسوي خلافته حين لا ينفع الرد باليد.

في عمر الثامنة كان أدائي مخزيًا في استخدام السلاح. قبل بضعة أعوام كنا أنا وأحد أصدقائي نلعب في زقاق مجاور لشركة ثندر بيرد، ووجدنا بندقية صيد طويلة، عيار 22 مرمية داخل فرن مهجور. ومن دون أن نعلم ما إذا كانت حقيقية أم لا، قررنا أن نجرب استخدامها من خلال التصويب على شخص ما، وكان استخدامها من أسوأ ما يمكن أن يحدث. أخطأنا التصويب بأعجوبة، لكن البنت التي صوبنا نحوها كان يمكن لها أن تقتل. عندما تلقى فريدي تلك المكالمة الهاتفية، من أمي على ما أعتقد، انطلق نحوي مسرعًا. كنت أعلم أن ما فعلته لا يغتفر، وغبي، ولا يجوز فعله، لكني لم أرغب في أن يضربني، لذا أسرعت إلى غرفتي واختبأت تحت السرير، وحبست أنفاسي. وقبل أن ألتقط نفسي كان فريدي قد رفع السرير بأكمله إلى الأعلى، ووجدني تحته أرتجف كالفريسة التي اصطيدت. كان الجلد بالحزام سيئًا للغاية، لكن شعوري بأنه كان قادرًا على كل شيء كان أسوأ بكثير.

إضافة لذلك، حتى وإن كان لدي سلاح واستطعت استخدامه، فلن يفي بالغرض. في الحقيقة، وفي إحدى الليالي أتانا خبر بأن فريدي تقاتل مع صديقه سايمن غرانت في بار، وقام سايمون بإطلاق النار على معدة فريدي. لك المجد يا رب! لكن وللأسف تصدت بطن فريدي الضخمة للطلقة كسترة

مضادة للرصاص. كان ينزف بغزارة لكن بعد أن أُخرجت الرصاصة وأُبقِيَ لليلة تحت الملاحظة، ذهب في اليوم التالي مباشرة إلى عمله.

لم أكن أعلم ما هي الخطة التي ستخدمني في رحلتي للتخلص منه، والتي أخذت فيها العهد على نفسي أن أخوضها. وفي كل مرة كان يحصل فيها حدث عنيف كنت أتأكد أكثر أني ليس لدي خيار آخر سوى التخلص منه. بدأ هذا الأمر يدور في عقلي كثيرًا في ليلة كان من الواضح فيها أنه سيضرب أمي مرة أخرى، فركضت لأتصل بالشرطة.

بالقرب من متجر ساي في تقاطع شارع التاسع ومينيك كان هناك بار يدعى الكاسبا. كنت واثقًا من أن شخصًا ما هناك سيقرضني عشر سنتات لكي أجري مكالمة في الهاتف العمومي الموجود خارج البار، لذا قمت بالاقتراب من أول رجل رأيته، رجل بدا وكأنه نسخة من بطاقة بريدية تحمل صورة لاعب من شمال ميلواكي عام 1962، وكان يرتدي قبعة بحافة خلفية مرفوعة، وبدلة مصنوعة من جلد سمك القرش، وربطة عنق تحتوي على دبوس.

"سيدي، انظر." قلتها له وأنا مندفع نحوه ألهث. «من فضلك هل بإمكانك أن تعطيني عشر سنتات؟ عليّ أن أتصل بالشرطة؛ لأن زوج أمي على وشك أن يبرح أمي ضربًا".

قال، من دون أن يرمش: «لا يمكنك خداعي أيها الزنجي.»

أردت الآن أن أقتل هذا الوغد أيضًا، بالإضافة إلى فريدي.

بعدما وجدت شخصًا يصدقني حينما أخبرته أن حياة أمي كانت حقًا في خطر، اتصلت بالشرطة، وأُرسل رجلا شرطة أبيضا اللون إلى منزلنا.

عندما وصلا وشاهدا فريدي يجلس على الأريكة، ارتسمت على وجههما ملامح المفاجأة لرؤية رجل بهذا الحجم. وبعد أن تبادلا نظرات

التوتر فيما بينهما، تنحنح أحدهما وسأل: «هل لنا يا سيد تريبلت أن نستخدم الهاتف؟ علينا أن نتصل بعربة الشرطة.»

كانت تلك واحدة من المرات القلائل التي أظهر فيها فريدي حس الفكاهة الذي بداخله، انحنى نحوهما وأجاب: «بالطبع لا، لا يمكنكم استخدام هاتفي للاتصال بالشرطة كي يحضروا عربة لتأخذني إلى السجن. اذهبا إلى الجحيم.»

كان الموقف مضحكًا للغاية. لكنهما قاما في النهاية بإقناعه للذهاب معهما إلى المخفر. وحال ذهابه سألت أمي لماذا أرادا أن يستخدما هاتفنا للاتصال بالشرطة، وهما من رجال الشرطة وكانا في بيتنا. فقالت: «حسنًا، ربما ظنا أنهما بحاجة لعدة رجال شرطة ضخام كي يستطيعوا إخراجه من المنزل.»

كان هذا الموقف جنونيًا للغاية كالموقف الذي حصل عندما ذهبت أمي لتختبئ في متجر أودوم المجاور، في الزاوية في شارع العاشر ورايت. كان مالك المتجر السيد أودوم والد صديقي في المدرسة، ولم يحاول أن يوقف أمي من استلقائها خلف الطاولة.

قام فريدي بملاحقة أمي إلى المتجر ملوحًا ببندقيته، وطلب من السيد أودوم أن يخبره عن مكانها: "أين هي تلك الساقطة؟»

استهجن السيد أودوم قائلًا: «حسنًا يا فريدي هي ليست هنا، وعليك أن تخرج من متجري الآن أنت وبندقيتك، أتسمعني؟»

كان السيد أودوم لا يخاف الحمقى. كان يعلم أن فريدي شخص جبان مثله مثل أي متنمر جبان، لا يقوى على مواجهة أحد يرفض التنمر عليه. التفت فريدي وغادر المتجر، دون أن يفتعل أي مشاجرة، وواصل طريقه في الشارع حاملًا بندقيته في وضح النهار باحثًا عن أمي.

ظلت أمي مستلقية هناك حتى وقت لاحق في ذلك المساء، حتى هدأ فريدي. أشار ضغط فريدي البارومتري في داخله خلال الأيام المقبلة إلى أن العواصف لم تكن وشيكة الحدوث، وكأن الصمام قد أطلق بخارًا مؤقتًا. لكن المؤشرات كانت تخطئ في بعض الأحيان، لذا كنا جميعًا -أنا، وأمي، وأوفيليا ذات الاثني عشر عامًا، وشارون ذات الأربعة أعوام، وكيم ذات العامين- نتصرف بحذر شديد طوال الوقت.

رغم أني كنت أعرف أننا جميعًا نخاف فريدي ونشمئز منه، لكن حقيقة شعور أمي حول وضعنا الذي بات لا يحتمل ظلت مسألةً بلا جواب، شأنها شأن مسألة هوية أبي الحقيقي ومكانه. بقيت حائرًا حتى عثرت بالصدفة على أحد الدلائل التي ستمكنني من اختراق عالمها الداخلي.

في مثل هذا الوقت، ذكرت أمي والدي، وكانت تلك هي المرة الوحيدة التي تذكره فيها. فقد قام فريدي بتذكيري، مرة ثانية، أنه لم يكن والدي اللّعين، لذا حاولت أمي مواساتي، فذكرت بشكل عابر أن لدي أبًا يعيش في لويزيانا، وقد أرسل لي في مرة رسالة وخمسة دولارات في ظرف. لم أر الرسالة أبدًا، أو النقود، أو اسمه. إشارات أمي أنها كانت دائمًا تعطيني نقودًا، على قدر مستطاعها، وكان هذا أمرًا حقيقيًا. لكن هذا لم يفسر لماذا. فكرت أن رؤيتي لرسالة أبي الحقيقي ستسبب لي وجعًا في قلبي أكثر من عدم معرفة أي شيء عنه.

لربما ظل هذا التفكير يحوم في عقلي، وعندما وجدت نفسي لوحدي في المنزل الخلفي في وقت متأخر في ظهيرة أحد الأيام، قررت أن أفتش في الأدراج، بحثًا عن تلك الرسالة ربما، وعن أي شيء آخر إن وجد. لكني بدلًا من ذلك وجدت رسالة مكتوبةً بخط أمي البسيط المعتنى به، لم تكن تحتوي على تحية في بدايتها، رغم أنه بدى من الواضح أنها كانت مرسلة إلى صديق

مقرب. عندما بحثت داخل الدرج القريب من سريرها وحالما التقطت إنجيل أمي المهترئ، الذي احتفظت به هناك، انسابت الرسالة منه نحو يدي.

بت أعلم أنه بالرغم من أن فريدي لم يستطع أن يقرأ الرسالة، إلا أن أمي كانت مدركة أنه حتى وإن رآها فإنه سينظر إلى الأمر على أنه خيانة. ولهذا السبب كان عليها أن تكتبها خلسة وأن تبقيها مدسوسة داخل الإنجيل، وهو المكان الوحيد الذي لن يفكر فيه.

احتوت الرسالة الكثير من الأمور التي كانت تدور بينها وبين الرجل الكبير الذي لم أعرف عنه شيئًا، والتي لم أستطع فهمها، من ضمنها عرض عمل سبق وأن حصل عليه في ولاية ديترويت ولم يلق النجاح. كانت محتويات الرسالة مذهلةً وصاعقةً في نفس الوقت، خاصة الذعر الذي لا يوصف في مستهل الرسالة: «ساعدني، أنا خائفة على حياتي.»

عرفت بالطبع أن التجسس لم يكن أمرًا صائبًا. ورغم ذلك علمت من خلال قراءتي للرسالة حقيقة مشاعر أمي، وأنها كانت تحاول أن تحصل على المساعدة. خلال الأيام القليلة القادمة راقبتها، وحاولت جاهدًا ألا تشك بأني قد وجدت تلك الرسالة. ودون أن أشعر، كنت قد طورت أنا أيضًا مهارة العائلة في القدرة على الاحتفاظ ببضعة أسرار لنفسي.

نتيجةً لتلك المهارة، عندما توصلت أخيرًا إلى طريقة فعالة بعد طول انتظار لقتل فريدي، وبدأت بإعداد الجرعة القاتلة التي كان سيظنها كحولًا، لا أحد كان لديه أدنى فكرة ما الذي كنت أفعله. كانت خطوتي الأولى هي أن ألوذ فارًا بكوبه، ذلك الكوب المعدني النظيف، الوحيد الذي كان يشرب منه ويعامله بحب كما لو أنه كأس فضيّة مرصّعة بالجواهر. ومن ثم قمت بعدها، ومن دون أن يراني أحد، بصب سائل تبييض في داخل الكوب، والقليل من الكحول، مع خلطة جرعات صحية من جميع أدوات التنظيف

والأدوية التي كتب عليها تحذير لاحتوائها على مادة سمية، وقمت بخلط المواد كلها مع بعضها مع إضافة ماء أقرب إلى درجة الغليان. كان الخليط يغلي ويفرقع، وكان أفضل من أي شيء استطاع الدكتور فرانكنشتاين[50] طبخه في فيلمه، لكن الرائحة النتنة الرهيبة كانت مشكلة. كيف سأجعل فريدي يشربه الآن؟

كانت أحد الاحتمالات أن أتركه في الحمام على أمل أن يأخذ منه رشفة من دافع الفضول. كانت فكرة عظيمةً فيما عدا أنني حينما ذهبت إلى الحمام وسمعت أصواتًا تقترب مني شعرت بالتوتر من أنه هو من سيجعلني أشرب منه من دافع الفضول. كانت فكرتي التالية هي أن أحاول خداعه في أن يعتقد بأن هذا الشراب هو أحد الأشربة الملتهبة الفاخرة. رغم سخافة الفكرة، قمت بإشعال عود كبريت وقذفته في الكوب فتصاعدت فجأة شعلة زرقاء وبرتقالية اللون من داخل كوب فريدي الحديدي! أخفقت جرعة الموت التي أعددتها، وعلاوة على ذلك كنت سأحرق نفسي أيضًا. كان الخيار الوحيد الذي تبقى أمامي هو أن أفرغ فوضى الرغوة المحروقة داخل دورة المياه. وبعد إلقائها تصورت أن الموضوع انتهى، لكن الدخان واللهب تصاعدا من تحت غطاء المرحاض.

سمعت صوت فريدي وهو يقول: «ما هذه الرائحة اللعينة؟»

ضغطت على زر شطف ماء المرحاض -مما أدى إلى اختفاء الرائحة بأعجوبة ولم تتسبب بحدوث انفجار كان سيحرقني أو يحرق المنزل- وخرجت من الحمام وأعدت كوب فريدي حيثما وجدته، وأجبته: «عن أي رائحة تتحدث؟»

---

50) فرانكنشتاين Dr. Frankenstein: هو الشخصية الأدبية الرئيسة في رواية فرانكن شتاين التي كتبتها المؤلفة البريطانية ماري شيلي عام 1818، وهو -في الرواية- ابن ألفونس فرانكن شتاين وكارولين بيوفورت، ولديه ابنان اثنان: ويليام وإرنست.

شعرت بإحباط بسبب جهودي التي باءت بالفشل، وحاولت أن أعزي نفسي بأنها كانت محاولةً تجريبيةً وبأن تجربتي التالية ستلاقي النجاح. كانت خطتي الأخيرة هي محاولة قتله في نومه. لم أكن أعرف أن أمي، مع موهبتها في إخفاء الأسرار، كانت قد وصل بها الحال أيضًا إلى أن تفكر في فعل شيء مشابه. في إحدى الليالي، وبعد تلقيها ضربة وحشية أخرى، قالت بأعلى صوتها، دون توجيه الكلام لأحد معين: «لن يعود إلى حياتنا مرة ثانية.» وأضافت أنه إن عاد فسوف تقتله قبل أن يمس شعرة منها أو منا مرة أخرى، وصرحت قائلة: «سأقتله أثناء نومه.»

إن كانت قد احتفظت بتفاصيل خيالات انتقامها لنفسها، فثمة شيء واحد لم تستطع بيتي جين غاردنر تريبلت إخفاءه عني. قبيل نهاية تلك السنوات الثلاث والنصف التي تلت، منذ أن أخذتنا من منزل الخال آرتشي، وقبل أن تختفي من جديد -دون سابق إنذار أو تفسير من الآخرين- اكتشفت أن لديها قدرةً مذهلةً في أن تدخل في حالة خارقة من السكون. وبعد فترة قصيرة من إيجادي لرسالتها كنت في غرفة الجلوس أشاهد التلفاز في المساء، وكانت هي تجلس حول طاولة الطعام تقرأ الجريدة عندما دفعها فريدي بشكل مفاجئ من جانبها، وبدأ يصرخ، ويهذي، محاولًا إشغالها ومضايقتها، متفوقًا على كل عنفه السابق، ومستخدمًا لغةً لم أسمع أقذر ولا أبذأ منها في حياتي.

فمن جانب قد عكس هذا التصرف شعورًا سرياليًا[51] لإنكار الذات،

---

51) السريالية أو الفوق واقعية Surrealism: هي حركة ثقافية في الفن الحديث والأدب تهدف إلى التعبير عن العقل الباطن بصورة يعوزها النظام والمنطق وحسب مظهرها: أندريه بريتون بالفرنسية: (André Breton) فهي آلية أو تلقائية نفسية خالصة، يمكن من خلالها التعبير عن واقع اشتغال الفكر إما شفويًا أو كتابيًا أو بأي طريقة أخرى، وهي فوق جميع الحركات الثورية.

مع فريدي وهو يمثل دور القاتل بالفأس في فيلم رعب بينما كنت أنا أدعي دور الطفل الذي كان يشاهد التلفاز وأمي تقرأ جريدتها، كأي عائلة تتصرف بطبيعية في منزلها. وكلما كانت عاصفة فريدي المسعورة تشتد ويعلو صوتها، كلما كان سكون أمي يزداد.

لم أشهد مثل هذا الموقف في حياتي، أو منذ ذلك الحين. كان سكونها يتغذى على طاقة فاقت الطاقة التي كانت تعصف داخل فريدي بملايين المرات. كانت تلك هي أقصى درجات السكون التي يمكن أن يصلها أي شخص أو أي شيء والتي لم أر مثلها من قبل. كانت الطاولة تهتز أكثر من أمي. لكن أمي كانت تجلس هناك بلا حراك، وعيناها في جريدتها، متجمدةً في مكانها، ولم تكن تقلب الصفحة أيضًا، وكأنها قد تلاشت عميقًا في داخلها كي تمنع نفسها من الرد؛ لأنها في قرارة نفسها عرفت أنها إذا تفوهت بشيء، أو قلبت الصفحة، أو حتى رمشت رمشةً واحدةً، أو تنفست، فإنه سوف يضربها. هزم سكونها عاصفته. شعرت بالصدمة عندما استسلم وانطفأت ثورة غضبه، ومن ثم التفت إليها وكأنه قد قلب القناة في التلفاز لتوه وغنى لها: "هيا، لنفعلها."[52]

ولدت القدرة على السكون في داخلي في تلك الليلة وأنا أشاهد سكون أمي. تولد هذه القدرة في غريزتنا حينما يكون الاختيار إما الفرار أو الشجار. كان السكون هو وسيلة دفاع أمي الوحيدة ضد شخص مفترس، وهي الطريقة الوحيدة لأي فريسة لتتجنب هجوم أفعى سامة قاتلة أو قرش،

52) أغنية هيا لنفعلها C'mon، Let's get it on: أغنية للمغني الأمريكي من أصول إفريقية مارفين غاي Marvin Ggaye الذي ولد في 2 نيسان 1939 وتوفي في 1 نيسان1983 . أصدرت الأغنية سنة 1973وتميزت بطابع رومانسي وإيحائي. وساعد هذا المقطع على إعطاء مغنيها شهرة بوصفة أيقونة الجنس.

من خلال بقائها ساكنة وكأنها غير مرئية. ولربما قررت في لحظة السكون تلك أنه حان الوقت للفريسة أن تجد طريقة أخرى للتخلص من المفترس، ولتنفذ خطتها في التأكد من عدم عودة فريدي إلى حياتها مرة أخرى. ولربما قررت حينها أن تأخذ جميع الاحتياطات اللازمة للتأكد من خروج جميع أبنائها من المنزل، من ضمنهم أنا، في ليلة بعد أن عاد فريدي ثملًا إلى المنزل وأغمي عليه.

بعد أن تأكدت من أن أبناءها أصبحوا بعيدًا عن طريق الخطر، نفذت خطتها في حرق المنزل بينما كان فريدي نائمًا داخله. أو تلك هي القصة التي سمعتها في نهاية المطاف. لم أعرف كيف استيقظ وكيف أوقف الحريق لكني عرفت أنه استخدم محاولتها في قتله ليدعم ادعاءه بأنها خرقت إطلاق سراحها المشروط من سجنها السابق؛ الذي كان هو أيضًا السبب وراءه. ومرة أخرى، تسببت أفعاله بزجها في السجن.

لم يتم الإفصاح لي أو لأخوتي عن التفاصيل الكاملة لما حدث. كل ما تعلمته مما جرى في هذه المرحلة هو آلية البقاء ساكنًا حينما تهجم عليّ قوى مخيفة. خفت أن أفقد حياتي، أو أن أفقد حياة شخص أحبه، أو أن أفقد كل شيء أملكه؛ تملكتني هذه المخاوف لسنوات عديدة. كان السكون ملجئي الوحيد للدفاع عن نفسي. وحتى فيما بعد، وعندما أصبحت بالغًا، بت أواجه أي ظرف بالسكون، السكون التام. لم يكن بقائي ساكنًا شعورًا جميلًا، لكنه كان المكان الذي ألجأ إليه متى ما شعرت أن الفوضى تحيطني من كل الجهات، ومتى ما شعرت أن العالم ينهار من حولي، ومتى ما شعرت أن كل شيء وكل شخص عزيز في حياتي سيؤخذ مني برمشة عين.

كنت أتحلى بالسكون.

الفصل الثالث

أين أمي؟

تحققت إحدى أعظم مخاوفي برمشة عين. فبعد عودة دامت لسنوات قليلة اختفت أمي فجأةً مثلما عادت فجأةً. وبسرعة شديدة أصبح كل شيء في عالمي ضوضاء بيضاء، مجهولًا غامضًا بلا نهاية. وعندما رمشت مرة ثانية، وجدت نفسي على بعد اثني عشر مربعًا سكنيًا من جهة الغرب في منزل خالي ويلي في الشارع التاسع عشر ومينكي، حيث عشت هناك معظم السنوات الثلاث القادمة. كان الأمر كما لو أن السيناريو الذي كنت أعيشه قد استبدل ذات يوم وكان عليّ أن أقفز إلى اليوم التالي لأعيش بنص جديد، وشخصيات جديدة بالكامل، من دون أن أسأل أي أسئلة.

وعلى عكس ردود الأفعال الغامضة التي كنت أحصل عليها لدى استفساري عن أي شيء في منزل الخال آرتشي عندما كنت أصغر سنًا، أو الطريقة التي كانت تجيب بها أمي أي سؤال في العموم أو الخصوص، فإنني في كل مرة كنت أسأل فيها سؤالًا في منزل خالي ويلي سواء كان السؤال

موجهًا له أو لزوجته ايلا مي فإنهما كانا لا يجيبان أبدًا، وكأنني كنت أتحدث لغة غريبة لا يفهمانها.

مرت عشرة أشهر تقريبًا -وكأنها عمر طويل بالنسبة لولد في الثامنة من عمره- ولم يكن لدي أي دليل لحل لغز ما حدث لأمي وأين هي الآن. ومن ثم، وفي إحدى المناسبات الحزينة في طفولتي -صادف أن تكون جنازة- لمحتها تقف على بعد وبجانبها حارس سجن. لم أعرف في تلك الشهور ما إذا كانت أمي حية أم ميتة حتى تبينت أمامي تلك القطعة من الدليل الدامغ؛ قطعة لغز كبيرة لم أستطع فهمها إلا بعد مرور عقود من الزمن.

ما زاد الطين بلة هو إبعاد أوفيليا عني أيضًا في ذلك الوقت تقريبًا. لقد فقدت الآن ثاني أعز شخص في حياتي. كانت التفسيرات حول الأمر غير واضحة كالعادة، لكن، بعد عدة سنوات لاحقة علمت أن الخال ويلي والخالة ايلا مي قد قررا أن أختي ذات الاثني عشر عامًا ستكون أفضل حالًا إذا عاشت في نوع من أنواع مراكز الاحتجاز، ومدرسة خاصة للبنات اللواتي كن يواجهن مشكلة في الانصياع للقوانين.

كان المنزل مزدحمًا مع وجودي ووجود أبنائهما الثلاثة، وكان أمرًا مفهومًا أن خالي وخالتي، على وجه الخصوص، قد أسسا نظامًا صارمًا للتربية إلى حد كبير. ومقارنة بجو العيش المتساهل في منزل الخال آرتشي وتيتي، وعلى نقيض المعيشة الفوضوية تحت سيطرة فريدي السكير -حيث استطعنا نحن الصغار فعل أي شيء نريده طالما كنا بعيدين عن طريقه- فإن القواعد الجديدة في منزل الخال ويلي كانت أشبه بصدمة ثقافية قوية. وبينما كانت أوفيليا في بادئ الأمر تبذل قصارى جهدها للتأقلم مع تلك القواعد، كنت أنا أول من تمرد عليها، كارهًا أنني، وبدون أي مقدمات، قد أصبح لدي وقتٌ محدد للذهاب إلى النوم، وكان عليّ القيام بأعمال

منزلية ولم يكن هنالك سوى طريقة واحدة للقيام بها.

غسل الصحون؟ كان علي أن أغسلها إن كان ذلك ما أمرت به الخالة ايلا مي -امرأة طويلة، ذات بشرة سمراء داكنة، وضخمة، بنيتها قوية كما لو أنها إحدى آخر النساء الأمازونيات[53]- التي كانت تحوم فوق رؤوسنا مرتديةً نظارة عيون القطة. أيعقل أن أغسل الصحون؟ كان ذلك ضد مبادئي. في الحقيقة كان هذا الأمر أحد الأشياء القليلة التي كنا نتجادل عليها أنا وأوفيليا عندما كانت أمي توليها مسؤولية المنزل في غيابها، فكانت أختي تحاول أن ترغمني على تنظيف المطبخ بما في ذلك غسل الصحون. رفضت وأصررت مصرحًا: «يقول فريدي إن غسل الصحون هو أمر خاص بالبنات فقط.» كانت هذه هي المرة الوحيدة في حياتي التي استحضرت فيها فلسفة كان فريدي تريبلت يؤمن بها. استعدّت أوفيليا لكي تضربني لكني هربت منها ضاحكًا.

أما الخالة ايلا مي فلم يكن هنالك أي مهرب منها. ففي مرة أرغمتني على غسل الصحون لمدة شهر كامل لأنها ادعت وجود بقعة دهن على أحد الكؤوس، بعد أن أقسمت لها بأنني قد غسلته. ابتسمت بتكلف قائلة: «أستطيع رؤية بقعة الدهن، رغم أنني لا أضع نظارتي.» وكانت تلك هي البداية فقط.

---

53) قبائل الأمازون Amazons: هم شعب من النساء المحاربات وهن أول من سخر الحصان لأغراض القتال كما تروي الأسطورة. تبرز الأمازونيات في عدة ثقافات كالميثولوجيا الإغريقية. يذكر أنهن كن بنات وحشيات وعدوانيات، وكان اهتمامهن الرئيس في الحياة هو الحرب. ارتبطن بمناطق متعددة كاليونان وسكيثيا وشمال إفريقيا أو بشكل أدق نوميديا القديمة. وفي الميثولوجيا الأمازيغية أمازونيات عدة كآثينا وميدوسا. وإذا كانت هناك تفسيرات متعددة لاسم أمازونية فإن التفسيرات الحالية تميل إلى اعتبار هذا الاسم أمازيغيّ الأصل وربطه باسم أمازيغ أو أيمازيغن.

كانت أطول بخمسة عشر سنتيمترًا على الأقل من خالي ويلي -الذي كان منشغلًا في الأساس بهموم أكبر بكثير من مسألة الأعمال المنزلية- تمكنت الخالة ايلا مي بمنتهى البساطة، على حد تقديري، من توزيع أعمال منزلية أكثر على عاتقنا كي تعمل هي أقل. علاوة على ذلك فقد كانت تؤمن إيمانًا مطلقًا بالقول المأثور: «الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة.» ولكي توفر الحليب مثلًا، كانت تجعلنا، نحن الأولاد جميعًا، نتناوب على تناول حبوب الكورن فليكس مع الحليب من نفس الوعاء، بالشوكة، الواحد تلو الآخر. ذات مرة أصبحت حذقًا حول نظامها، لذا تطوعت بأن يكون دوري الأخير، فقد أصبحت أعلم أنه عندما تؤكل الحبوب أستطيع رفع الوعاء وشرب حصة الأسد من الحليب.

ربما كانت أوفيليا قد وصلت إلى نقطة انهيار جراء الغضب المترسب بسبب وضعنا، أو جراء تراكمات الخوف والأذى التي طالتنا جميعًا. أو ربما أنها كانت متزمتةً في آرائها، لذا عبرت عن تحديها للوضع بارتكابها أفعالًا خاطئة. لطالما كانت أوفيليا طيبة وذكية ومحبة، فلم أرها تفعل أي شيء محدد -حسب علمي- كي يتم إرسالها بعيدًا عنا، لكن لابد أنها في أقل تقدير أجابت بوقاحة أو عصت أمرًا أو عادت في وقت متأخر إلى المنزل مرات عديدة. وبأي حال من الأحوال، فإنني وبرمشة عين أخرى وجدت نفسي دون أمي ودون أوفيليا أيضًا وكان هذا شعورًا قد سبب لي حزنًا لم أستطع تحمله. وما زاد الأمر سوءًا أن شارون وكيم كانتا تقيمان مع أقربائنا من جهة فريدي، لذا وجدت نفسي غريبًا وسط أرض غريبة؛ حتى وإن كان الخال ويلي والخالة ايلا مي يعدان من أفراد العائلة.

بدأت أقدر مساندة أوفيليا ووجودها في جانبي، ومساندتنا لبعضنا البعض بعد رحيلها من المنزل. نادرًا ما كنا نتشاجر، فيما عدا مرة واحدة ربما

عندما أجريت عملية جراحية على دميتها باربي وقمت بخلع رأسها نوعًا ما. ربما كان هذا نوعًا من أنواع الغيرة لأنها كانت تحصل على هدايا الكريسمس أكثر مني، وفي بعض السنوات كانت هديتي عبارة عن جوارب فقط. أو ربما كان بسبب غضبي الشديد تجاه فريدي الذي ظل يخبرني: «أنت الطفل الوحيد الذي ليس لديه أب.» أو لربما كان بسبب استكشافي المبكر لمهاراتي الجراحية الكامنة. وبالطبع كانت أوفيليا غاضبة مني على تخريبي لدميتها لكنها سرعان ما سامحتني. ومن ثم تلك المرة التي قمت فيها بالتجسس عليها وعلى صديقاتها أثناء جلستهن في الغرفة. وعندما عثرت عليّ وأنا أختلس النظر عبر ثقب الباب، قامت إحدى صديقاتها بجلب ممسحة مطاطية وغمرتها بالماء والصابون ورشتها في عيني! تألمت ألمًا فظيعًا، لكن ما آلم عيني حقًا كان عندما ذهبت مسرعًا للمنزل كي أغسل الصابون بقطعة قماش كانت تحتوي على مستحضرات تجميلية. كنت غاضبًا من أوفيليا لأنها لم تبد اهتمامًا أكثر بالأمر، وتسبب ذلك الموقف بألم دائم لعيني.

لم نفترق في معظم أيام حياتنا، كنا صديقين مقربين جدًا. لم أزل أتذكر الرابع من تموز الماضي جيدًا. أُعطي أولاد بيسي وبعض من أقربائنا وأصدقائها نقودًا للذهاب إلى شاطئ موسكوجي. ولأننا لم نمتلك نقودًا كفاية كان الخيار الثاني، الذهاب إلى بحيرة ميشيغان لرؤية الألعاب النارية. ولكي نذهب إلى هناك كان علينا الاعتماد على فريدي كي يوصلنا في سيارته ويعود إلينا لاحقًا كي يرجعنا معه.

وصلنا في الوقت المناسب لنستمتع بمشاهدة الألعاب النارية بوجود حشد محلي كبير. لم تدم متعتنا طويلًا وباءت مخططاتنا بالفشل، بعد أن انفجر آخر صاروخ ناري وتحول إلى آلاف من الأوراق اللامعة في السماء، وكان هنالك سلسلة رعود مفاجئة أدت إلى هطول الأمطار علينا. لم يكن

لدينا أي مأوى لنحتمي داخله، ولم يمض وقت طويل حتى علمنا أن فريدي لن يأتي ليرجعنا.

وبعد أن أصبح الوقت متأخرًا للغاية، لم يبق لدينا أي خيار سوى العودة مشيًا إلى المنزل، ومثلما فعل الشقيقان «هانسل وغريتل»[(54)] حاولنا أن نعود أدراجنا بالاتجاه المعاكس من حيث ما أوصلنا فريدي. صارعنا البلل والبرد والجوع والخوف من أن نضل طريقنا، وأمضينا الطريق كله بالأحاديث. كانت أوفيليا حينها ما زالت مصدري الوحيد في المعلومات لمعرفة أي شيء لم أكن أعرفه، لذا قررت أن تفسر لي لماذا لم يكن البريد يصل في موعده المحدد في منطقتنا.

"لماذا؟" كان المطر يهطل بغزارة شديدة لذا كان علينا أن نرفع أصواتنا كي يسمع أحدنا الآخر.

لأن قالت أوفيليا "ساعي البريد كان يسهر مع فريدي في حانة لوك." كانت حانة لوك أحد بيوت المرح ومساقي الشرب المفضلة لدى فريدي، الواقعة في الشارع المقابل للبيت الكبير في شارع الثامن ورايت. كنا على يقين بأنه كان يمكث هناك في هذه الليلة، ثملًا لدرجة أنه لن يتذكر أو يهتم أن يأتي ليوصلنا.

ذكرت أوفيليا أن أبناء الحي قالوا إنه إذا أردت الحصول على بريدك في موعده المضبوط، فعليك الذهاب إلى حانة لوك للبحث عن ساعي البريد وستجده جالسًا على مقعده المعتاد في البار، فتش في حقيبته وخذ بريدك الخاص بك. وإن أردت الحصول على صك الرعاية الاجتماعية، فعليك

---

54) هانسل وغريتل Hansel and Gretel: حكاية خيالية مشهورة للأطفال من أصل ألماني، سجلها الأخوان جريم ونشرت في عام 1812. هانسل وغريتل هما شقيقان اختطفتهما ساحرة آكلة للحوم البشر تعيش في الغابة في منزل مشيد من الكعك والحلويات.

الذهاب إلى حانة لوك أيضًا وعليك أن تخبر ساعي البريد: «أيها الزنجي، أعطني صكي.»

استمر المطر بالهطول لساعة ونصف طوال الطريق من البحيرة إلى المنزل، لكن قصص أوفيليا وتعليقاتها هونت علينا مصيبتنا. عندما وصلنا إلى المنزل، لم يكن هناك أي أحد، لذا تدبرت دخولنا من خلال إقحام نفسي في المنفذ الخاص بقناني الحليب.

وكان هذا، باختصار، نمط عيشنا كفريق يبهج أحدنا الآخر، نشتكي همومنا لبعضنا البعض، ونلهي أنفسنا عن التفكير بالأشياء المزعجة التي كان الحديث عنها يؤلم للغاية. ومع ذهاب أمي وعدم وجود أوفيليا بالقرب مني لتكون حليفتي على الشدائد، لم أستطع التخيل أن أحدًا سيملأ ذلك الفراغ الذي خلفه غيابهما.

لكن على ما يبدو، وكما يقول المثل: «الطبيعة ترفض الفراغ.» ملأ إخوة أمي الثلاثة ذلك المكان الفارغ في داخلي بلمح البصر، وحرصوا على ألا أُترك وحيدًا من دون صحبة. كانوا بمثابة آباء لي ومعلمين ومرفهين وواعظين، كل على طريقته الخاصة. كانوا الترياق المثالي للتغلب على كآبة الحرمان من الأب والأم والأخت، وفي الوقت الذي بدأت فيه أشعر بالأسى على نفسي، ساعدوني جميعهم على أن أدرك كم كنت محظوظًا لانتمائي لعائلة غاردنر.

كنت في كل مرة أزور فيها خالي آرتشي كنت أعود محملًا بدروس راسخة عن قيمة العمل الجاد، وتحديد الأهداف، والتركيز، والتعليم الذاتي. كانت نقابة العمال تجري في دمه، فنجح أخيرًا في ارتقاء السلم وأصبح رئيسًا لنقابة المصنع، ومنذ توليه المنصب دأب على القراءة، والدراسة، والتعرف على كل القضايا التي تعني المجتمع.

في المقابل كان هناك الخال ويلي، شخصية من أروع ما تكون، تستطيع أن تحول ظهيرة رتيبة إلى مغامرة مليئة بالتجسس والمكائد العالمية. فمنذ أن عاد من الحرب الكورية، حسب ما سمعت، لم يكن عقله على ما يرام. كان ذلك أحد الكنايات المستخدمة للتعبير عن المرض العقلي الذي كان حاضرًا بقوة في مختلف فروع أقربائنا، واتضح أنه ممتد أيضًا لدى بقية أبناء الحي؛ فبالإضافة إلى عدم قدرتهم على تحمل تكاليف المساعدة، فإن أغلبهم كانوا يفضلون الذهاب إلى ساحر الثعابين، على أن يسعوا إلى العلاج النفسي.

أن تسمي أحدًا ما بالمجنون - هي عبارة تلطيفية يمكن تطبيقها على حالة شخص مثل فريدي الذي كان مصابًا على الأغلب باضطراب المزاج ثنائي القطب أو بانفصام الشخصية، زاد إدمانه على الكحول الأمر سوءًا- كان شكلًا آخر من اشكال إنكار مدى اضطراب الشخص، مما جعل المشكلة تصبح مقبولة، أو على الأقل اعتيادية. ومهما بلغت الحالة من سوء، فستسمع الناس تقول: «حسنا، هذا الزنجي مجنون، إنه مجرد مجنون.» لكن لا أحد منهم سيفكر بأن عليه أن يتعالج. فهذا الخيار كان أمرًا مجنونًا بحد ذاته بالنسبة للكثير من الناس. «آه، لا.» سيقولون عن فريدي: «سيكون بخير.» إنه فقط ثمل. وعلى الأرجح عليه أن يأكل شيئًا ليحمي معدته من قوة المشروب.

في واقع الأمر كان الخال ويلي قد شُخّصَ بإصابته بما يعرف بـ "إجهاد المعركة" أو "صدمة القصف"[55] وبدأت هذه الحالة تزداد حدة مع الوقت،

---

55) إجهاد المعركة Battle Fatigue وصدمة القصف Shell Shock: مصطلحان عسكريان يستخدمان لتصنيف أنماط سلوكية متفرقة ناجمة عن الإجهاد من جراء الحرب، وهي أنماط من شأنها أن تقلل من فاعلية القدرة القتالية للجندي. وأكثر أعراض المرض شيوعًا هي فقدان ضبط النفس أو الذاكرة، والإرهاق، وتباطؤ زمن رد الفعل، والتردد، وانفصال الشخص عن محيطه، وعدم القدرة على تحديد الأولويات.

رغم أنه لم يكن مؤذيًا. وعلى الرغم من أنه لم يخبرني أحد عن حالته خلال الفترة التي عشتها في منزله، لكن بدا عليه الاقتناع بأنه كان عميلًا لدى المخابرات الأمريكية الإف. بي. آي. ولم يزل مقتنعًا بذلك حتى هذا الوقت، ولم يحاول أي أحد في مركز الصحة النفسية حيث كان يعيش أن يخبره أنه كان على خطأ. وأنا أيضًا لم أخبره عندما اكتشفت الأمر أول مرة أثناء عملي معه على «مهمة سرية" فيما بعد في هذه الفترة. في تلك المناسبة كنا متجهين لقضاء مهمة في يوم ما في سيارته، رامبلر، الخضراء البسيطة -إحدى كلاسيكيات منتصف الستينات التي تم صنعها في ميلواكي- ولم أستطع منع نفسي من تأمل ملبسه الرائع: سترة وقميصٌ أبيض، مع ربطة عنق تحمل دبوسًا، وقبعة قش بحافة خلفية مرفوعة، ونظارة شمسية. أصبح هذا الزي تنكره السري، وكان يساعده على التخفي وسط الحشود، حسب قوله. ودون الإشارة إلى «عمله" قام بالتوقف فجأةً، ونظر أمامه مباشرة، وتحدث من بين أسنانه المطبقة، كأنه يتكلم من بطنه، حتى لا يبدو أنه كان يتحدث معي.

"نعم، إنهم هناك يراقبونني الآن." قال الخال ويلي. «إنهم يراقبونني.»

"حقًا؟» سألته بحماس، وقد خطر ببالي مسلسل بيل كوسبي[56] «أنا جاسوس»[57] وجميع قصص جيمس بوند[58] الأخيرة التي شاهدتها أو قرأت

56) بيل كوسبي Bill Cosby: ولد في فيلادلفيا، في 12 تموز عام 1937 وهو كوميدي ومؤلف، وممثل، ومنتج تلفزيوني، وموسيقي، وناشط أمريكي. يعد أحد أشهر الأمريكان الأفارقة ويلقب بـ (الأمريكي الحنون) بسبب الصورة الأبوية التي اشتهر بها.

57 مسلسل أنا جاسوس I Spy: مسلسل من بطولة بيل كوسبي والذي ساهم في تذليل العقبات العرقية في الأوساط التلفزيونية عندما أصبح أول ممثل أسود يؤدي دورًا رئيسًا في مسلسل ناجح، وينال بفضله جائزة «إيمي» لأفضل ممثل في مسلسل درامي.

58) جيمس بوند James Bond: يعرف أيضًا بالعميل (007) وهي شخصية خيالية لجاسوس بريطاني للمؤلف إيان فلمنغ في عام 1953 عبر أول رواية كازينو رويال. كتب فلمنغ عدة روايات وقصص قصيرة من بطولة بوند خلال حياته حتى مماته في 1964 ثم تابع عدة آخرون التأليف الأدبي لروايات ومغامرات بوند.

عنها. لقد كان الأمر رائعًا!

في اللحظة التي أدرت فيها رأسي لأنظر إلى من كان يتبعنا، أمسك الخال ويلي المقود، وهمس لي بصوت أجش: «لا تنظر! إياك أن تنظر! سيعرفون أننا نعلم بوجودهم!»

لكني وللأسف كنت قد استدرت ونظرت بالفعل، واكتشفت أنه لم يكن هنالك أي أحد. أدركت دفعة واحدة أن هذا كان يعني أن الكثير من المزاعم الفاخرة التي كان يختلقها عبر السنين، أو التي كان يسمعها الآخرون منه، لم تكن صحيحة. وعلى سبيل المثال كانت إحدى تلك المزاعم التي سمعتها من الآخرين هي امتلاكه لبعض من لوحات بيكاسو[59] الأصلية المخبئة في موقع لا أحد يعرف مكانه، وأنه كان قد أوصى بها إلى أوفيليا. كانت تلك رؤى ساحرة وجريئة، نوع من أحلام اليقظة التي أحببت التفكير بها وكرهت أنها لم تكن حقيقية سوى في عالمه الخيالي.

ومع هذا فقد كان مقنعًا للغاية. لم يمض وقت طويل على خروجي معه في تلك المهمة حتى تلقى أحد أقربائنا مكالمةً هاتفية من فندق بالمر هاوس -أحد فنادق شيكاغو الشهيرة والفاخرة، أسوة بفندق والدروف أستوريا في نيويورك- اتضح من المكالمة أن الخال ويلي -الذي كان يتردد على مضمار السباق- قد حجز في ذلك الفندق من خلال عرض بطاقاته الرابحة لموظفي الحجز التي حصل عليها من السباق. بعد أن شرح أنه سيدفع لهم في اليوم التالي بمجرد أن يستبدل البطاقات بالنقود، قام بحجز جناح السقيفة الرئاسي. ما إن علمت إدارة الفندق أن البطاقات الرابحة كانت

59) بيكاسو بابلو رويز بيكاسو: Pablo Ruiz Picasso ولد في 25 تشرين الأول عام 1881، في إسبانيا وتوفي في 8 نيسان 1973 وهو رسام ونحات وفنان تشكيلي، وأحد أشهر الفنانين في القرن العشرين وينسب إليه الفضل في تأسيس الحركة التكعيبية في الفن.

عديمة القيمة -مجرد بطاقات مهملة، حتى أنها لم تكن بطاقات رابحة تعود لشخص آخر- قامت بالاتصال بالعائلة ليأتوا ويأخذوا الخال ويلي بدلًا من التعرض إلى الدعاية السلبية جراء تدخل الشرطة.

رافقت أحد أفراد العائلة في ذهابه لإقناع الخال ويلي بترك الجناح، كان من حسن حظي أني قد حظيت بلمحة سريعة لرؤية الأشياء التي تصنع منها الأحلام. بدت صفحات كاتالوج شبيغل لا شيء مقارنة بما رأيته في ردهة فندق بالمر هاوس الفخمة. أما جناح السقيفة -بغرفه المتعددة، وحمامه الذي يمكن أن يتسع لعائلتين، غرفة جلوس هنا وغرفة معيشة هناك، وأثاث مصنوع من الذهب والفضة وأقمشة الساتان والمخمل- فلم يكن يشبه أي شيء حلمت به أو رأيته من قبل. مجرد التفكير بإقامتي في مكان كهذا كان خيالًا أكبر من أن أحلم به، وضربًا من الجنون إن رغبت به. وبينما كنت أتحايل على خالي ويلي للذهاب معنا إلى المنزل، تحايلت على نفسي بنفس الطريقة وزرعت ذلك الخيال في داخلي.

بعد مضي عدة سنوات، وبعد إقامتي في جناحات لعدة فنادق فاخرة، دُعيت إلى فندق بالمر هاوس لأحضر حفل استقبال برعاية رئيس «رابطة التعليم القومية» أحد أكبر عملائي في الاستثمار المؤسسي. لم يخطر ببالي لماذا بدأت أشعر بظاهرة الديجافو[60] بتلك القوة حتى وصلت إلى الحفل الذي صادف أن يكون مقامًا في جناح السقيفة الرئاسي ذاك نفسه. في البداية اعتقدت أن شعوري هذا أفضل من البوح بالسبب الذي مكنني من إرشاد أي شخص كان يسألني عن الحمام، أو البار الداخلي في الجناح، أو طريق الخروج إلى الفناء، لكنني تحدثت حينها بالأمر إلى امرأتين

60) ديجافو – سبق الرؤية Déjà vu: هي ظاهرة عقليه اكتشفها العالم إميل بويرك وتنقسم إلى ثلاثة أنواع: : Déjà Visité تم زيارته مسبقًا وDéjà Vécu تم رؤيته مسبقًا وDéjà Senti تم الشعور به مسبقا.

كبيرتين في السن، فضحكتا معي عندما عرفتا السبب.

قالت إحداهما: «كل واحد منا لديه مثل الخال ويلي في عائلته.» وأضافت المرأة الأخرى: «والبعض منا لديه خالة على نفس الشاكلة أيضًا.»

أصبح لدي في عمر الثمان سنوات اطلاعٌ بسيطٌ حول أسباب المرض العقلي. لذا عندما بدأت أستجمع معلومات حول أفراد عائلتي وعلمت بأنهم لم يكونوا على ما يرام، منحني الأمر سببًا آخر للخوف. إذا انتشر هذا المرض المجنون في العائلة فبماذا سيعود ذلك عليّ؟ ماذا لو كنت مصابًا به أو سأصاب به؟ لربما كان خوفي هو السبب وراء تجنبي أن أصبح سكيرًا. لم أرد أن أفقد سيطرتي القليلة على عالمي الذي كنت أملكه، وأن أفقد ذلك الشعور المطمئن في قدرتي على الاستجابة مع التغير السريع الذي يحدث بكل ما يحيط بي، ومع المواقف، والظروف التي لم يكن لدي سيطرة عليها لولا ذلك الشعور.

وفي نفس الوقت فإن قصص الخال ويلي، سواء كانت وهمية أو حقيقية، جعلتني أرى الأشياء من حولي بطريقة لم أعهدها من قبل، مبدلة خوفي القديم من المجهول برغبة لأرى البعض من الأماكن التي تحدث عنها. وإضافة إلى وصفه للموانئ الأجنبية التي زارها أثناء فترة خدمته -في كوريا- والفلبين وإيطاليا والمحطات الأخرى التي شاهدها في طريقه، تحدث أيضًا عن مدى جمال وحفاوة ترحيب النساء في تلك المناطق، وهو أمر كان سيصبح محط إبهار متزايد بالنسبة لي.

أما الخال هنري فقد كان أكثر من ساهم في فتح باب العالم إلى ما وراء حيينا وجعلني أدرك أن عليّ الذهاب ورؤية ذلك العالم، وكان هو أيضًا من أضفى نورًا على حياتي في هذه المرحلة، كما لو أنه كان قد أرسل من أجلي أنا فقط. كنت أراه بشكل دوري في أوائل سنوات عمري لأنه كان

يعمل مجندًا في الخارج. أما في هذه المرحلة وبعد أن تقاعد من العسكرية، وبدأ يعمل في الحديد والصلب مع بقية أخوالي، ظهر فجأة على الساحة، مثلما اختفت أمي فجأة.

كلما كان خالي هنري يأتي ليعتني بنا في منزل الخال ويلي -أو كان يأخذني معه إلى أحد الأماكن لقضاء رحلة قصيرة، نحن الاثنان فقط- كان مجيئه أشبه بقدوم عيد الكريسماس، وعيد ميلادي، وأي عيد آخر في آن واحد. جعلني أشعر بأنني مميز مثلما كانت أمي تشعرني عندما كانت تأتي لزيارتنا في دار الأيتام وتعد لنا الحلوى. لم يجعلني الخال هنري أشعر بأنني مميز وحسب وإنما سمح لي ولأول مرة في حياتي أن أشعر بالحب تجاه رجل، أن أقع في الحب بالطريقة التي كان الأولاد يقعون بها في حب آبائهم، ويأملون أن يصبحوا مثلهم في يوم ما. كنت أعرف شعور الوقوع في الحب بتلك الطريقة مع النساء المهمات في حياتي، مثل أمي، بابتسامتها العريضة؛ التيلطالما ذكرتني بباب الثلاجة وضوء الأمل والراحة اللذين كانا ينبعثان منها، وعرفت حب أختي، وكيف أنه كان دون شرط أو حدود. كانت أغلب العبارات السائدة التي سمعتها من أي رجل بالغ حتى عمر الثامنة، وقبل أن يأخذني الخال هنري تحت جناح حمايته، وحبه، ومرحه، هي: «اخرج من منزلي اللعين.» و"أنا لست بأبيك اللعين." إضافة إلى فوهة البندقية التي كانت توجه صوبي.

كان هناك اتفاق غير معلن ما بين خالي هنري وبيني كلما كان يأتي ليبقى معنا -إذا ما صادف أن يكون الخال ويلي والخالة ايلا مي مسافرين لقضاء عطلة نهاية الأسبوع أو خارجين في سهرة- وهو أن أذهب إلى سريري لأنام مع الأولاد الصغار، ومن ثم أتسلل خارجًا وأنزل إليه فيما بعد. وفي كل مرة كنت أنزل فيها على أطراف قدمي كنت أجد حفلة يقف في منتصفها

هنري غاردنر. كان طوله مئة وثمانية وسبعين سنتيمترًا تقريبًا رغم أنه مثل أمي، كان يبدو أطول من ذلك. كان هنري شابًا وسيمًا، أعزب، تعشقه النساء، رياضيًا ذا بنية رشيقة، يمشي بخطى واثقة. كان يتفحص أي مكان يدخله دون أن يفوته شيء، وكان يعرف أن النساء لن تفوته أيضًا بهندامه الأنيق ولحيته المشذبة بعناية. لم يسبق لي أبدًا أن رأيته بمظهر غير أنيق، فكل تجعيدة قماش، كل ثنية، كانت بمنتهى الكمال.

في إحدى تلك الحفلات، وبعد مرور فترة ليست طويلة من نزولي إلى الأسفل ومراقبة أصدقاء هنري، ومشاهدة ضيوفه المتنوعين -كان البعض منهم يلعب الورق، وآخرون كانوا منغمسين في محادثاتهم، وقليل منهم كانوا يرقصون- حدث شيء استثنائي. عندما وصلت، كان هناك موسيقى مميزة أثارت جوًا احتفاليًا: تكونت من موسيقى السول[61]، وموسيقى البلوز[62]، وخليط من أنواع موسيقى مختلفة قادم من جهاز تشغيل الأسطوانة مثل سام كوك[63] وجاكي ويلسون[64] وسارة فون.[65] ما

61) موسيقى السول Soul music: هي نوع من الموسيقى الشعبية التي نشأت في الولايات المتحدة في الخمسينات وأوائل الستينات. فهو يجمع بين الغناء الإنجيلي الأمريكي - الإفريقي، وإيقاع البلوز والجاز. أصبحت موسيقى السول شائعة للرقص والاستماع في الولايات المتحدة.

62) موسيقى البلوز Blues music: نوع موسيقى صوتي وآلي يتحدر من أغاني أشغال للزنوج في الولايات المتحدة والغناء الإنجيلي. يتغنّى فيه المغنون بحزنهم وأساهم. كان للبلوز أثر بليغ في الموسيقى الأمريكية الشعبية فآثاره ملموسة في الجاز والريذم أند بلوز والروك أند رول.

63) سام كوك Sam Cooke : ولد في 11 كانون الثاني 1931و توفي في 11 كانون الأول 1964 وهو مطرب وشاعر أمريكي تخصص في موسيقى البلوز والسول والبوب، ويعد من رواد موسيقى السول ومؤسسيها.

64) جاكي ويلسون Jackie Wilson: ولد في 9 حزيران 1934 وتوفي في 21 كانون الثاني 1984. كان مغنيًا وكاتب أغانٍ أميركي، وكان يلقب ب «سيد الإثارة»، وكان له دور مهم في تطور موسيقى البلوز نحو موسيقى السول.

65) سارة فون Sarah Vaughn: ولدت في 27 آذار 1924 وتوفيت في 3 نيسان 1990. مغنية جاز أمريكية، وصفها الناقد الموسيقي سكون يانو بأن لديها صوتًا من أجمل أصوات القرن العشرين.

بين الموسيقى، والضحكات، والأحاديث، ودخان السجائر، كان الجو حارًا وصاخبًا جدًا. ومن ثم، تغير الجو فجأة حينما شُغل تسجيل لم أسمع به من قبل. توقف كل شيء: الضحكات والأحاديث وحتى دخان السجائر اختفى. كان التسجيل لألبوم مايلز ديفيس: «حوالي منتصف الليل»[66] أدركت فيما بعد مدى براعة عزفه على آلة البوق، والنغمة المتذبذبة التي قشعرت بدني، والتشابك الرهيب ما بين سرعة الإيقاع وتناسب الأنغام. لكن أكثر شيء أثر بي في تلك الليلة كانت قوة مايلز ديفيس التي استطاعت أن تقلب الجو في المكان بتلك الطريقة. كانت ما زالت حفلة لكنها أصبحت أكثر حميمية، وأكثر روعة، وأكثر انسيابية. بل وبدا أيضًا أنني أنا نفسي كنت أتمايل بطريقة مختلفة على أنغام مايلز في جهاز التسجيل. لم أتخذ قراري في تعلم آلة البوق في تلك الليلة، لكني استطعت أن أتأمل لأول مرة في حياتي مدى قوة الشعور بأن تكون قادرًا على تغيير الجو، وجعل أشخاص غرباء يشعرون بانقلاب في داخلهم بتلك الطريقة. استطاعت الموسيقى أن تفعل كل ذلك.

منذ ذلك الحين فصاعدًا أصبح عشق مايلز ديفيس شيئًا مشتركًا بيني وبين خالي هنري. شكلت الموسيقى والوقت الذي قضيناه في سماعها معًا مأوى وسط العاصفة التي كنت أعيشها وأنستني جميع مخاوفي، حتى وإن كان نسياني فترة مؤقتة. في تلك المناسبات العديدة التي كان يسمح لي فيها بالسهر لوقت متأخر كنا نستمع لأي تسجيل لمايلز ديفيس كان يقع بين يديه، وكان يخبرني عن مغامراته عبر البحار في الفلبين وكوريا واليابان. «تعال هنا.» أشار لي أثناء حديثه في إحدى الليالي، وقادني إلى رف الكتب،

---

66) ألبوم حوالي منتصف الليل Round about Midnight: هو ألبوم لـ مايلز ديفيس أُنتج عام 1957. اقتُبسَ اسمه من أغنية ثيلونيوس مونك Round Midnight.

وقام بأخذ كتاب الموسوعة الذي كان الخال ويلي والخالة ايلا مي يمتلكانه في منزلهما.

جلس يحدثني عن الحقائق والروابط الثقافية لتلك الأماكن المختلفة، وأوصاني أن أستفيد دائمًا من المصادر خاصة الموسوعية منها. شدد أيضًا على أن العالم مليء بمختلف الأجناس الذين يمتلكون سلوكيات، وعادات، واعتقادات، وحتى ألوانًا مختلفة عنّا، ومن ثم ابتسم ابتسامةً أضاءت وجهه حينما بدأ يصف النساء في تلك الأماكن. كان على أهبة الاستعداد ليقلب الموازين لأجلي كي يحثني على أن أغادر قوقعتي وأستكشف ما حولي قائلًا: «العالم كله ملك يديك. والأمر يعود لك في أن تجد كنوزه.»

لم يقل الخال هنري أو يشر في كلامه إلى أي شيء أوحى بأن قضاءنا أوقاتًا معًا سيكون له نهاية لأي سبب من الأسباب، لكنني عندما أعدت النظر، تساءلت فيما بعد إن كان قد علم بطريقة ما أنه لن يبقى بجانبي إلى الأبد، وكان يحاول أن يعلمني كل شيء رآه وتعلمه في مدة قليلة جدًا. وبأية حال من الأحوال، لم تكن رسالته محددة، لكن مضمونها كان واضحًا دائمًا: عش الحياة طولًا بعرض.

لم تتضمن تلك الرسالة أي شيء سلبي أو أناني. بالنسبة لي كانت تعني أن أجرؤ على الحلم، وأن ألتزم عيش الحياة وفق شروطي، وأن أسعى وراء رؤيتي الخاصة بي؛ رؤية ليس مهمًا أن يراها الآخرون، يكفي أن أراها أنا.

كانت إحدى أوائل رحلاتنا سوية هي الذهاب إلى نهر المسيسبي، حيث علمني فيها الخال هنري السباحة وكان يأخذني في رحلات على المركب كلما كان الجو ملائمًا. ثمة يوم قضيته في النهر لم تزل ذكراه تمثل جوهر السعادة بالنسبة لي، يوم من أيام الصيف الجميلة التي تعلق في الذهن

إلى الأبد. لم يكن هناك أي غيمة في السماء، فقط صوت ورائحة بنزين المحرك، ونحن الاثنان: الخال هنري يجلس في الخلف، يشغل محرك إيفنرود الخارجي ويوجه المركب في النهر، وأنا في المقدمة تتدلى رجلي على الجانب، وأدفع الماء وأرمي رذاذه في وجهي. طغت حواس الرفاهية على حواسي: مع تقلبات المركب الصغير وهو يتحرك بسرعة ويلامس تقلبات الأمواج اليانعة، وصوت الأمواج وملمسها وهي تضرب قعر المركب، ورذاذ الضباب من حولي وهو يداعب وجهي وجلدي.

كان هذا على الأرجح أخطر موقع لقيادة مركب صغير، مما جعل الأمر أكثر جرأة وأكثر متعة خضتهما في حياته. وبعد مرور عقود من الزمن تذكرت هذا اليوم العظيم بينما كنت أشاهد فيلم تايتانك[67] وأرى ليوناردو دي كابريو[68] يصيح بأعلى صوته: «أنا ملك العالم!» كان هذا شعوري بالضبط عندما كنت مع خالي هنري في نهر المسيسبي، شعور بأنك حي بكل ما تحمله الكلمة من معنى. ارتسمت نظرة رضا على وجه خالي هنري، عندما رآني سعيدًا كما لو أنه قد أحسن صنعًا في توجيهي لأمشي في طريق ربما لن يكون متواجدًا فيه ليرشدني. أو هكذا ترجمت فيما بعد أكثر وقت ثمين قضيته معه على الإطلاق.

---

67) فيلم تايتانيك Titanic: هو فيلم أمريكي من إخراج وكتابة وإنتاج جيمس كاميرون. يتناول الفيلم كارثة غرق السفينة آر إم إس تايتانيك في أولى رحلاتها عبر المحيط الأطلسي، وهو من بطولة ليوناردو دي كابريو وكيت وينسليت، وهما شخصان من طبقتين اجتماعيتين مختلفتين وقعا في الحب على متن الرحلة الأولى لتيتانيك عام 1912.

68) ليوناردو دي كابريو Leonardo DiCaprio: ولد في 11 تشرين الثاني، 1974، ممثلٌ ومنتج أفلامٍ أمريكي، فائز بجائزة الأوسكار عن دوره في فيلم العائد (The Revenant) عام 2016. ورُشّح خمس مرات أخرى لنفس الجائزة، كما رُشّح لأربع جوائز بافتا، فاز بواحدة منها عن دوره في فيلم العائد أيضًا عام .2016 ورشح أيضًا لإحدى عشرة جائزة من جوائز غولدن غلوب فاز بثلاثة منها. ترشح أيضًا للعديد من الجوائز الأخرى كجائزة نقابة ممثلي الشاشة، وجائزة ستالايت.

في إحدى الليالي في نهاية تلك الصيفية كنت قد بقيت في منزل الخال ويلي والخالة ايلا مي، وكنت قد ذهبت إلى سريري لكني كنت مازلت مستيقظًا حينما سمعت الخالة تصيح بأعلى صوتها: «آه، لا!» تبعتها صرخة مكتومة منها ومن خالي. جلست في سريري مذعورًا ليس لأني لم أسمع من قبل بكاء أشخاص كبار وإنما لأني عرفت السبب. إنه الخال هنري بلا شك. كان الألم واضحًا للغاية لدرجة أن تردد صداه نحو الطابق العلوي حيث كنت أنام هناك حينذاك. كانت تلك أول مرة أدعو فيها بصدق: «يا إلهي، أرجوك ألا يكون الأمر متعلقًا بالخال هنري.» لم أنم ليلتها، دعوت ودعوت، وكانت هذه هي أكثر مرة شعرت فيها بالعجز، أيًا كان ما حدث فإنني لا حول لي ولا قوة لتغييره.

في صباح اليوم التالي، كانت الخالة ايلا مي تجلس على مائدة الفطور، عيناها منتفختان من خلف النظارة، ثم قالت بصوت كئيب ومرهق: «تعرض هنري لحادث، البارحة. لقد غرق!"

ترنحت من أثر صدمة وألم رحيله ولم أصدق أنه قد تعرض لحادث لأنه كان يعرف كل شيء وكان حذر ولأنه من المستحيل أن يكون قد رحل، بالكاد استطعت تجميع تفاصيل ما حدث. كانت الخالة ايلا مي تتحدث معي لأن الأطفال الأصغر مني لم يكونوا ليفهموا، لكني كنت خدرًا، ومذهولًا. لجأت إلى بقعة السكون في داخلي لأحصن نفسي ضد الألم، وأزيح عن عقلي غشاوته كي أستوعب تسلسل أحداث ما جرى. على ما يبدو أن الخال هنري كان قد ذهب في رحلة صيد إلى جزيرة صغيرة، وكان المركب قد انفصل عن المرسى وانجرف بعيدًا عن الشاطئ. عندما حاول أن يسبح نحو المركب ليعيده إلى رصيف السفن كان تيار الماء قويًا جدًا فأغرقه.

لطالما حذرني الخال هنري من التيارات السفلية، وكيف أنك لن تستطيع معرفة طبيعة التيارات من خلال النظر إلى سطح الماء فقط. لم أستطع أن أصدق ما جرى. لم يكن الأمر منطقيًا بالنسبة لي. كل شيء لا معنى له. أراد قلبي أن يتحطم إلى ملايين من القطع، لكن شعورًا ما في داخلي لم يدعني أنهار. لم يسمح لي هذا الشعور بالبكاء؛ لأني كنت على يقين أنه إذا ما سالت دموعي فلن يستطيع أي شيء أن يضع حدًا لها. لذا قمت بأخذ ذلك الشعور، ذلك الثقل الرهيب الذي كان يتدلى فوق رأسي على هيئة علامة استفهام ضخمة، وسحبته عميقًا نحو الأسفل، ليغرق في تيار سفلي خطير في داخلي.

اعتقدت من خلال حضوري عدة مآتم مع الخالة تيتي أني سأتوقع ما سيحدث في جنازة الخال هنري. لكني بالطبع كنت صغيرًا جدًا حينها، ولم نكن نعرف حقًا أيًا من الذين ماتوا في الكنيسة. لم أكن مستعدًا لتقبل خسارته، وكأني كنت أنتظر سماع أن الأمر كله مجرد غلطة أو حتى خدعة ابتدعها، كي يختفي ليحظى بمغامرة غريبة دون أن يضطر لوداعنا. والأكثر من ذلك، أنني لم أكن مستعدًا تمامًا لرؤية أمي هناك، كانت تلك هي المرة الأولى التي رأيتها فيها بعد مرور عام تقريبا.

في كل مرة كنت أحاول الوصول إليها، كان الأقارب يعترضون طريقي. لم أستطع معانقتها ولم تستطع إخباري عن مكان إقامتها، وماذا كان قد حدث لها، ومتى وما إذا كانت ستعود إلينا. كان جو المكان غريبًا جدًا مع كل ذلك النحيب والبكاء، لكن رؤية أمي أمامي بشحمها ولحمها وعدم استطاعتي لمسها، كان أمرًا كافيًا لوضعي في قبر بجانب الخال هنري. لم تنظر إليّ مباشرة ولم تتحدث معي لأنها علمت أن الأمر سيكون مؤلمًا أكثر إن فعلت ذلك. كان عزائي الوحيد أنها لربما كانت تختلس النظر لي عندما لم أكن أنظر

إليها. أردتها أن ترى كيف أنني أصبحت أطول من ذي قبل، وأهدأ، وأقوى، وكيف أنني أصبحت طفلًا صالحًا في أكثر الأحيان. في كل مرة كنت أنظر إليها على أمل وجود أي إشارة تدل على أنها رأتني، كان كل ما أراه هو حزنها على فقدانها أخيها الصغير، وعدم قدرتها على التحدث مع أطفالها. ظلت عيناها تحدّقان باتجاه الأرض حيث وضعوا تابوت الخال هنري.

عندما أدركت أن السيدة التي كانت تقف بجانب أمي هي حارسة السجن -المرأة البيضاء الوحيدة في المأتم التي كانت ترتدي رداء البحرية الملون- كان الأمر كالصاعقة بالنسبة لي؛ فقد بت أعلم أين اختفت أمي كل تلك الفترة. ورغم أنني حصلت على إجابة لأحد أسئلتي المهمة إلا أن مجموعة جديدة من الأسئلة المحيرة تولدت في داخلي: لماذا دخلت السجن؟ متى ستعود؟ هل ستعود؟

عرفت لاحقًا عندما جمعت المعلومات مع بعضها البعض أنها لم تكن المرة الأولى التي تسجن فيها. لكن حدسي أخبرني في ذلك اليوم أيضًا أن فريدي هو المسؤول عن دخولها السجن. رغم أن فريدي كان الأحق بأن يزج به في السجن بسبب إساءة معاملته لأمي، لكنه لم يكتف بذلك بل كان هو من أخبر السلطات أن أمي حاولت إحراق المنزل وهو في داخله، وبالتالي فإنها بفعلتها هذه تكون قد خرقت إطلاق سراحها المشروط. لم يكن الأمر مفاجئًا، فهو لم يكترث ولو قليلًا لنتيجة ما سنتعرض له نحن أطفالها.

اجتمعت مرة ثانية مع أوفيليا أيضًا. كانت رؤيتها، ورؤية شارون، وكيم، في الجنازة أمرًا يدعو للغرابة لاسيما مع وجود تقليد العائلة: «لا تسأل، ولا تخبر.» تزاحمت المشاعر في داخلي؛ لذا عدت إلى شعوري بالحاجة لفعل شيء ما، خطة ما أصب كل تركيزي عليها. فمن ناحية، وبغض النظر عن حقيقة عدم رؤيتي فريدي كثيرًا منذ ذهاب أمي، لكني

عزمت على استئناف مهمتي التي تقتضي قتله، إصرار ركنته على الرف مؤقتًا عندما انفجرت جرعة السم في وجهي. والأمر الآخر هو أنني قررت أن تحظى طفولتي بأكبر قدر من الدعم، مهما طالت مدة غياب أمي. كنت سأتسكع مع مجموعة من أصدقائي «شلتي" وأتورط في بعض المشاكل -أتسبب بحدوث البعض منها أيضًا- وأركب عربة التزلج التي صنعت من الخشب وعجلات عربة زلاجة قديمة، وربما كنت سأكتشف طريقة لكسب المال من خلال تولي أداء مهمة معينة؛ كي أشتري لنفسي دراجة هوائية. وبعد ذلك كنا أنا وشلتي سنقوم برحلة حول البلدة، نذهب إلى البحيرة إذا شعرنا بالرغبة لفعل ذلك، أو نركب الدراجة على طول الطريق صعودًا إلى أعلى نقطة في منطقتنا في ميلواكي، بالقرب من خزان المياه، وننظر إلى ما وراءنا ونشعر بأننا ملوك العالم. بعدئذ كنا سندلل أنفسنا، وسنقوم بتلك القفزة من أعلى تل سنيك، وكانت ستصبح أعظم اندفاع نقوم به في حياتنا، حيث إننا كنا سنسحب أرجلنا من الدواسات كي نسرع أكثر، ونتجاوز حدود الخطر والإثارة ونفقد السيطرة على أنفسنا.

قررت أيضًا في جنازة الخال هنري ألّا أبكي. وكانت تلك هي إشارتي لأمي بأنني كنت متماسكًا وقويًا ولا داعي أن تقلق علي.

في السنتين اللّتين تبعتا موت خالي هنري فعلت كل ما بوسعي كي لا أنهار. وكان إصراري على قتل فريدي قد بلغ أقصى حدوده في ظهيرة أحد الأيام، عندما مررت بمنزل بيبي، حيث كان يعيش فيه أخواتي الصغريات. كان الشيء الوحيد الجيد في وجود فريدي الكارثي في حياتنا هو أختاه بيبي وبيسي ومعاملتهما الطيبة لنا. رأت بيبي كيف أن فريدي تحكم بي لذا حاولت التعويض عنه بقولها كلامًا طيبًا متى ما سنحت لها الفرصة، حتى أنها كانت تعطيني بضعة دولارات بين الحين والآخر.

"هل أنت جائع يا كريس؟" سلمت عليّ في ذلك اليوم، وهي تعلم إجابة سؤالها قبل أن أهز برأسي وأجيب مبتسمًا بنعم، وبدأت بتحضير بعض الشطائر لي. وبينما كانت بيبي تعد الشطائر، تذكرت الملابس المغسولة في الدور السفلي وطلبت مني أن أذهب وأضع الملابس في آلة التجفيف.

توجهت إلى القبو دون تردد، وبدأت بسحب الملابس الرطبة من الغسالة، وإذا برائحة تعانقني من كل الجهات. إنها الرائحة الجميلة التي دخلت حواسي لأول مرة عندما كنت أعيش في دار الأيتام. لم تكن عطرًا خاصًا، أو باهظ الثمن، أو ذات رائحة قوية، كانت مجرد رائحة نظيفة ودافئة تلتف حولي كرداء سوبرمان، تجعلني أشعر بالتميز، والقوة، والأمان، والحب، وبأمي أيضًا. وقفت هناك واضعًا الملابس في آلة التجفيف، غير متأكد لماذا كان حضور أمي قويًا في كامل حواسي، لم أعرف حينها أن بيبي كانت تخزن بعضًا من أشياء وملابس أمي هنا في القبو. ولم أعرف حينها أنه وبعد عدة أسابيع سترمش عيني مرة أخرى، وستتغير الأمور، وستعود أمي إلى المنزل، وسنجتمع كلنا مرة ثانية وسنعيش كما كنا في السابق.

مثلما استبدل السيناريو، سنواصل من حيث توقفنا، تقريبًا عند المنتصف، دون تفسير ومع وجود فريدي في حياتنا من جديد.

كل ما كنت أعرفه في ذلك الفراغ الذي ملأ قبو بيبي هو أنني كنت أوشك على البكاء حتى يجف الدمع من عينيّ. تهيّأ خزان عينيّ لينفجر بدموع تعادل عشر سنوات من التساؤلات المكبوتة في داخلي، وتعادل نهرًا من الدموع التي لم تذرف.

لكن أولًا، وبينما كانت رائحتها الجميلة تحيط بي أكثر فأكثر، ولكي أتأكد، تلفت من حولي وسألت بأعلى صوتي: «ماما هل هذه أنتِ حقًا؟»

الفصل الرابع

ألبوم بيتشز برو(69)

(الوجه الأول)

أصبحت عبارة «كريسي بول!» نغمة ثابتة تغنى في البيت الكبير في شارع الثامن ورايت، حيث انتقلنا للعيش فيه بشكل مؤقت مع بيسي، ولم تكن تتردد على فم أمي فحسب -التي أصبحت خارج السجن الآن، لتعلمني من خلالها أنها أرادتني أن أقضي لها مهمة- وإنما على فم أخواتي و بنات خالاتي أيضًا.

ما بين العاشرة والرابعة عشرة، تلقيت تدريبًا مكثفًا أثناء العمل، دون أن ألتمس ذلك، من أجل الحصول على مهنة عامل توصيل محترف. لكن هذا لم يكن العمل الذي كان يجول في ذهني استعدادًا لمستقبلي اللامع

69) ألبوم بيتشز برو - Bitches Brew: شراب خمر المومس - هو ألبوم للمغني الأمريكي مايلز ديفيس، صدر في 30 آذار 1970، إنتاج تسجيلات كولومبيا. فضل ديفيس في هذا الألبوم استخدام إيقاعات البيانو الإلكتروني والجيتار على استخدام إيقاعات الجاز التقليدية ولجأ إلى أسلوب الدمج ما بين الروك والجاز. تلقى استجابة متباينة بسبب أسلوب الألبوم غير التقليدي لكنه باع أكثر من نصف مليون نسخة.

في أن أكون مثل مايلز ديفيس؛ طموحًا أصبح لدي هوس به منذ أن سمعت موسيقاه لأول مرة في ذلك المساء مع الخال هنري.

بالرغم من كل ذلك كنت ممتنًا للغاية لأمي لاستماعها لي مرارًا وتكرارًا بشأن مدى رغبتي الملحة في تعلم العزف، ولإيجادها وشرائها لي آلة بوق مستعملة، وفهمها أنني كنت أتلقى دروسًا في العزف أيضًا، لذا لم أستطع أن أقول لا لأي شيء كانت ترسلني لأحضره لها. لم أمانع القيام ببعض المهمات على الإطلاق، من ضمنها المحطات المختلفة التي كنت أتوقف عندها في الأيام التي كان علينا أن نسدد فيها جزءًا من الدين الذي في رقبتنا تجاه محلات البقالة. وجرت العادة أن تبدأ أمي بقولها: «كريسي بول، اذهب إلى منزل بيبي واجلب لي المغلف.»

كنت أعرف أن هذا يعني أننا سنحصل على قرض صغير لنسدد قرضًا آخر، رغم أنه لم يتم مناقشة أي تفاصيل حول الموضوع. كل شيء كان يسري بتحفظ شديد، وكأننا لو تحدثنا عن شحة النقود في المنزل فسيدل ذلك على قلة ذوق. عندما وصلت منزل بيبي لم تتطرق هي الأخرى لموضوع المغلف المطوي الذي سلمته لي أيضًا، لكني علمت بالطبع أنه احتوى على دولارين أو ثلاثة. وبصفتي الساعي في هذه التعاملات، ورغم أنني لم أكن على دراية كافية بكم النقود الموجودة بالضبط، إلا أن هذه المهمة زادت من تقديري لمقدرة أمي على سد رمقنا في بعض الأحيان كي لا نبيت دون عشاء.

أصبحت مهمة النقود هذه برمتها موضع اهتمام ضروري بالنسبة لي، فأنا لم يكن لدي أب ليمول طلباتي واحتياجاتي؛ كشرائي مثلًا لنمط معين من الملابس الذي استطعت تحمل تكاليفه، من خلال ادخار النقود وتوسيع مصادر الحصول عليها من خلال الوظائف الجانبية التي كنت

أقوم بها، وأن أمتلك سيارة من مالي الخاص، الأمر الذي أصبح فيما بعد محط اهتمامي. أما في الوقت الحالي فإن مسألة إدارة النقود هذه جعلتني أتعرف على مجموعة من الأسس المالية، كالأصول المالية وما يقابلها من عجز، وقروض، وفوائد، وكيفية الحصول على قيمة أكثر مقابل نقود أقل.

إضافة إلى مهامي التي كنت أقضيها بالذهاب إلى متجر ساي وبعض المتاجر الأخرى، من وقت لآخر، كنت أتوقف لسداد بعض الديون لمتجر يملكه رجل أسود يدعى العم بين في شارع التاسع ومينيكي. امتلك العم بين خزانة لحوم، كانت أمي ترسلني لمتجره من حين لآخر لأحضر لها قطع لحم باردة بمبلغ دولار، وشرائح لحم السلامي بمبلغ خمسين سنتًا وجبنة بمبلغ خمسين سنتًا. كان هذا عشاء لعائلة مكونة من سبعة أشخاص من ضمنهم أمي، وفريدي وأنا وشارون وكيم وأوفيليا وآخر العنقود ديشانا ابنة أوفيليا التي أنجبتها في مركز الاحتجاز.

كنت أرفض تناول أي شيء يأتي من خزانة لحوم العم بين، إلا إذا كنت جائعًا حتى الموت حرفيًا. لا لأنّ لدي شيئًا ضد العم بين بل لأنه كان يمتلك قطة ويدعها تتناول من تلك اللحوم الباردة. كان منظر القطة وهي تشم وتنبش قطع اللحم مرعبًا بالنسبة لي من الناحية العلمية والطبية. رغم عمري الذي لم يكن يبلغ سوى اثني عشر عامًا، ورغم أنني لم أكن خبيرًا، لكن المنطق يقول بأن قطة خرجت لتوها من مكب النفايات لا ينبغي لها أن تمشي فوق السلامي الذي كنا سنأكله. لكني قمت بالاحتفاظ بوساوسي لنفسي.

في الفترة التي عدنا فيها جميعًا للاستقرار معًا من جديد كانت ديشانا ما زالت محتجزة في دار الأيتام، حتى أصبح بمقدور أوفيليا الحصول على وظيفة وجلبها للعيش معنا في المنزل. كانت مهمتي تقتضي أخذ ديشانا من

دار الأيتام الذي كان يبعد عشر مربعات سكنية عنا، وإحضارها لتزور أوفيليا في منزلنا ومن ثم العودة بها إلى الدار. كانت هذه هي إحدى المهمات التي لم أحبذ القيام بها أبدًا.

ديشانا المسكينة لم تكن تعرفني، وبالكاد عرفت أوفيليا، لذا كان منظرًا مؤلمًا للغاية بالنسبة لنا جميعًا، في كل مرة كانت تراني فيها قادمًا. إضافة إلى أن السيدة التي كانت مسؤولة عن التحفظ على ديشانا في دار الأيتام جعلت الأمر يزداد سوءًا. بمجرد ما كانت الطفلة تجهش بالبكاء، وتدخل في نوبة صراخ، وتقع على الأرض، وتطرق بيديها وتركل برجليها، كانت مسؤولة الدار تجهش بالبكاء أيضًا، وترمقني بعينيها وكأنني أنا من تسببت بكل هذه الجلبة. وسرعان ما كنت أنا أيضًا أجهش بالبكاء؛ لأنني لم أكن أعرف ما الذي يمكن قوله في مثل تلك المواقف. لم تكن ابنتي، كنت فقط أقوم بعملي. ولم تزل عبارة «ما على الرسول إلا البلاغ.» يرن صداها في أذني منذ تلك الحادثة.

عندما خرجنا من الباب أخيرًا، بكت ديشانا في طريق عودتنا إلى الحي عندما كنت أحاول أن أمشي معها إلى المنزل، الأمر الذي اضطرني إلى حملها. وفي كل مرة كنت أذهب إليها كان صراخها يعلو أكثر وكان وزنها يصبح أثقل. لذا كنت أضطر لإنزالها وأقناعها بالمشي. كانت ديشانا تعبر عن استيائها من خلال صراخها المتزايد ورفضها الإمساك بأصابع يدي، كعادة بقية الأطفال الصغار. وكان هذا يعني أن عليّ إمساك يدها، مما أعطاها سببًا آخر للصراخ والبكاء لكي تسحب يدها من يدي. تجمهر الناس حولنا وحدقوا بنا دون أن يقولوا شيئًا، لكن من الواضح أنهم كانوا يقولون في سرهم: «ماذا يفعل بتلك الطفلة؟ ما خطب هذه الصغيرة؟»

لم تكن رحلة إعادة ديشانا بعد زيارتها لأوفيليا بذلك السوء،

خصوصًا أن العلاقة بينهما بدأت تتوطد، وكانت الزيارة تهدئ من روع ابنة أختي. لكن الذهاب إلى هناك كان رهيبًا في كل مرة. كنا جميعًا في غاية السعادة عندما سمحت الخدمات الاجتماعية أخيرًا لديشانا بالعيش مع أوفيليا ومعنا. لم يكن الأمر مفاجئًا حينما لم يتحدث أحد حول الظروف التي جعلت أوفيليا تحمل. لم أسأل ولم يخبرني أحد. لكنني عندما فكرت بوضع ديشانا، وعدم وجود أبيها في حياتها، كان هذا سببًا آخر ليذكرني بوضعي وبأنني لن أجعل أبنائي وبناتي يأتون إلى هذا العالم من دون أن يكون لي وجود في حياتهم.

...

في أحد الأيام رنت عبارة «كريسي بول...!» في أرجاء المنزل بثلاث أصوات مختلفة، وكأنها تمرين لجوقة موسيقية. أتت أمي أولًا وأكملت عبارتها قائلة: "اذهب إلى متجر الزنجي وأحضر لي كوتيكس."

أرادت أوفيليا وابنه خالي لندا نفس الشيء. كانت تلك المهمة كريهة بالنسبة لي. لم لا يتقاسمون نفس العلبة؟ لأن أمي أرادت العلبة الحمراء الفاتحة، بينما طلبت أوفيليا العلبة السمائية، أما لندا فقد أرادت علبة اللافندر. كيف يمكن لفوطة صحية من نفس العلامة التجارية أن تحتوي كل تلك الأنواع؟ لقد خاض تيري هذه التجربة كثيرًا مع أخواته الثلاث وكان يمشي بابتسامة متكلفة، وكلما كن يطلبن منه الذهاب كان يعلق مبتسمًا: «أرسلوا كريس!»

على الأقل شعرت أوفيليا فيما بعد بالأسى نحوي، وأصبحت تعطيني ورقة ملاحظة وكيسًا بني اللون لقضاء هذه المهمة، لكن الأوان كان قد فات على شعورها بالذنب. ففي طريق عودتي إلى المنزل في ذلك اليوم بالتحديد عندما كانت يداي محملتين بثلاث علب مختلفة من كوتيكس

-لم يتّسع كيس المتجر لها جميعًا- سمعت صوتًا ساخرًا ينادي من خلفي: «مرحبًا أيها المخنث!»

ماذا كان ينبغي عليّ أن أفعل؟ أأقوم برمي الفوط النسائية وأضرب أحدهم؟ أم أتجاهلهم وأعاني من سرعة انتشار الخبر في المدرسة والحي؟ استطعت أن أرى المشهد حاضرًا أمام عيني: ساعي البريد مع فريدي -"الدولاب الكبير" وهي التسمية التي أطلقها الجميع عليه، خوفًا منه وشبه إعجاب به- يتسكعان معًا في حانة لوك ويخبران الجميع عن الرجل المخنث الذي ليس لديه أب. كيف كنت سأتغلب على ما حدث؟

بالرغم من ذلك، اخترت ألّا أبتلع الطعم واستمررت بالسير مثقل الخطى عائدًا إلى كل تلك النساء المنتظرات اللاتي أتهن الدورة الشهرية في نفس الوقت، ولم أنظر بعين التقدير إلى أن أحاسيسي المرهفة تجاه النساء قد تكون ذات منفعة يومًا ما. ورغم أنني كنت غاضبًا من الشخص الذي نعتني بالرجل المخنث، إلا أنني فضّلت في تلك الفترة أن أبتعد عن السلوك العدواني قدر ما استطعت. يكفي أنني كنت مضطرًا إلى العيش وسط جو عدائي طوال الوقت في المنزل، لذا فضلت لدى تواجدي في المدرسة والحي استخدام أسلوب الدبلوماسية.

من سوء حظي أنني كنت في طور النمو لأصبح فتى ضخمًا، وكنت دائمًا أطول من جميع أصدقائي، لذا في كل مرة كنا نذهب لمكان وتحصل فيه مشاجرة، كان أمرًا حتميًا أنني سأدخل في شجار مع أحدهم. كان ذلك هو منطق الشارع. كان بقية الأولاد يقفزون عليّ أولًا كي يخيفوا أصدقائي، حيث اقتضت خطتهم أن يهزموني أولًا كي تكون هزيمة أصدقائي أسهل عليهم. سئمت من الروتين المتكرر وفكرت لأكثر من مرة أنّه ينبغي عليّ أن أحصل على أصدقاء ضخام مثلي. لكني سرعان ما تعلمت كيفية التحكم

بحجمي وضخامتي، من خلال نظرة أو إشارة، لأتجنب أي مواجهة. كان لابد أن يقوم أحدهم بعمل استفزازي كي أرغم على ضربه.

اكتشف نورمان، أحد أصدقائي، الشيء الذي بإمكانه أن يثير غضبي بشدة عندما كنا أنا ومجموعة من أصدقائي عائدين إلى شارع العاشر ورايت في ظهيرة أحد الأيام، وكان هو يلعب مع أصدقائه لعبة «التطاول بالكلام".[70]

كان نورمان قد سمع عما حدث قبل أسبوع عندما ذهبت أمي مسرعة إلى متجر لتختبئ فيه من فريدي، الذي كان يطاردها ويهددها بالسلاح. لم أشهد تلك الواقعة لكنني كنت في أوج غضبي عندما سمعت ما حدث لها، وكيف أن فريدي قد أرهب جميع من في المتجر بسلاحه مطالبًا: «أين هي؟» وكيف أنها تمكنت من الهروب منه والصعود إلى سيارة الأجرة، لكن سائق الأجرة لم يتزحزح من مكانه رغم توسلات أمي له: «تحرك، تحرك بسرعة!»

شعرت بالغثيان عندما علمت أن فريدي ذهب مسرعًا إليها وقام بجرها من السيارة، وضربها ضربًا مبرحًا في وسط الشارع حيث خرج الجميع مسرعين من متاجرهم، ووقفوا يتفرجون مطأطئين رؤوسهم، دون أن يفعلوا أو يقولوا شيئًا، وهم بفعلتهم هذه زادوا من وطأة الإهانة التي تعرضت لها أمي. لم يفسر لي أي أحد كيف أن رجال الشرطة وسكان الحي لم يستطيعوا أو لم يرغبوا في التدخل لإنقاذ أمي. حتى أخوالي عجزوا عن الوقوف بوجه فريدي. لم يكن خوفًا منه، لأن أي أحد منهم كان باستطاعته أن يتدبر أمره في أي شجار يقع في الشارع، بل كان الأمر يتعلق

---

70) لعبة التطاول بالكلام The Dozens: هي لعبة تشتهر في المجتمعات السوداء يتنافس فيها متسابقان، حيث يقومان بإهانة بعضهما البعض وسب أفراد عائلتهما حتى يخسر واحد منهم. ومن المعتاد أن تلعب أمام جمهور من المارة، ممن يشجعون المشاركين على الرد بشتائم أكثر فظاعة لزيادة التوتر بين المتسابقين.

بعدم تدخلهم بأي شيء يخص أمي، لكن تصرفهم لم يعجبني. لم يكن لدي أدنى فكرة آنذاك أن الكثير من المجتمعات بدأت بكسر صمتها حول موضوع العنف الأسري، لكن أيًا كانت المصادر المتوفرة، فلم يكن لدينا أي علم بها. ما رأيته أن الكثير من الناس كانوا يشيحون بنظرهم في الجانب الآخر، الأمر الذي كنت أجده -ولم أزل أجده- موقفًا انعدم فيه الضمير.

لم أكن بحاجة إلى حادثة أخرى لتدفعني لقتل فريدي تريبلت لكن عندما حاول نورمان تقليد أمي وهي تهرب من فريدي، زاد الأمر من شعوري الملح بضرورة قتله عشرة أضعاف ما كان عليه.

"مرحبًا كريس!» قال نورمان، وبدأ تقليد أمي وهي ترتعد من الخوف. «هل تتذكر؟» ومن ثم قام بتمثيل دور فريدي وهو يشير بالبندقية قائلًا: «أين هي؟ أتذكر ذلك الموقف؟» شعرت ببركان يغلي في داخلي، حتى أنا صدمت من ردة فعلي وأنا أنفجر على نورمان، وأقوم بضربه بقبضة يدي وركله في الشارع. تمنيت لو أن باستطاعتي أن أوسع فريدي ضربًا مثلما فعلت مع نورمان.

ومنذ ذلك الحين لم يتجرأ أحد أبدًا على ذكر أمي، سواء في لعبة التطاول بالكلام أم غيرها، فيما عدا أحد أقرباء فريدي الذي كان في العشرين من عمره حينها، والذي أصبح يأتي لزيارتنا كثيرًا لأنه كان يستلطفني، وكان يتصرف وكأنه مخول بإلقاء الأوامر على أمي والتقليل من شأنها بأي طريقة تعجبه، ذات مرة عندما كنت في سن المراهقة، وبعد أن أخبرته بأن يكف عن إزعاجها، انفجر فيها قائلًا: «أنت تعلمين أنه لا يحق لك الحديث معي لأني سأقوم بضرب رأسك اللعين.»

بقدر ما أردت أن أفعل بهذا الرجل البغيض مثل ما كان يجول برأسي تجاه فريدي بالضبط، إلا أنني جلست وتمالكت نفسي، لكنني لم

أنس الأمر أبدًا. وبالرغم من أن ما فعله لم يكن بتلك الأهمية، إلا أنني لم أصبح متسامحًا مع مرور الزمن، وبعد مرور أربعة عقود تقريبًا، حينما دعاه أحد الأقرباء إلى عشاء عيد الشكر(71) في شيكاغو -في منزلي الذي أملكه، ليأكل من طعام أنا ابتعته- لم أستطع تناول أي شيء. لم أستطع حتى الجلوس في وجوده لأنني لم أثق ببردة فعلي، بألا أنقض عليه وأوسعه ضربًا حد الموت. كانت لديه كلية واحدة وهذا يعني أني كنت سأتسبب بقتله على الأرجح بضربة واحدة على كليته الأخرى. لم يكن هنالك أي مجال لكي أنسى ما كان قد قاله لأمي، أو حتى لكي أسامحه. مثّل الأمر بالنسبة لي أقصى درجات الاستفزاز التي يمكن أن أصلها.

أما في مواقف أخرى حدثت مع أصدقائي، عندما تعلق الأمر بمحاولة أحدهم أن يسخر مني، استطعت أن أنمي بداخلي شعورًا بعدم الاكتراث. باختصار، أردت أن أكون محبوبًا، لا لدرجة أن أحظى بشعبية بين الجميع -بما فيهم أساتذتي ورؤسائي- بل أن أكون مميزًا، وأن تكون لي هويتي الخاصة بي، وأن أكون شخصًا رائعًا.

لكي أحقق ذلك، فكرت بأنني إن قمت بإحضار العين الزجاجية التي تعود لإحدى أخوات فريدي لكي أعرضها أمام تلاميذ الصف الخامس في حصة «اعرض وتحدث"(72) فإن ذلك سيجعلني محبوبًا إلى أبعد الحدود.

71) عيد الشكر Thanksgiving: هو احتفال يتم فيه شكر النعم والشكر على حصاد العام الذي أشرف على نهايته. يحتفل به في الخميس الرابع من شهر تشرين الثاني من كل عام، وفي كندا في الإثنين الثاني من شهر تشرين الأول.

72) اعرض وتحدث show and tell: هو نشاط صف تشاركي في أوائل التعليم الابتدائي أو روضة الأطفال. يستخدم النشاط لغرض تعليم الأطفال مهارات الخطابة أمام الجمهور. على سبيل المثال، يحضر طفل مادة من بيته ومن ثم يقوم بعرضها أمام زملائه في الصف ويقوم بالشرح عن سبب اختياره لها، ومن أين حصل عليها، والمعلومات الأخرى التي تتصل بها.

بمرور الوقت أدركت أنني متى ما أتتني فكرة كان لدي القدرة على التركيز فيها بشكل حصري. كانت قدرتي تلك هي أعظم سلاح ذي حدين امتلكته في حياتي، وتعلمت استخدامه ببراعة. لم أستطع معرفة السبب الذي دفعني لإزعاج سيس -كما اعتدنا مناداتها- وجعلني آخذ عينها الزجاجية إلى المدرسة، كل ما أعرفه هو أنني كنت عديم الشفقة.

كانت سيس في أوائل خمسينيات عمرها، خط الشيب شعرها، ترتدي الروب وتضع قنينة النصف لتر من الويسكي في جيب، وعلبة سجائر من نوع لكي سترايكس في الجيب الآخر. لم أرها ترتدي ثوبًا أنيقا أبدًا، ونادرًا ما كانت ترتدي أي نوع ثياب آخر حتى لدى خروجها من المنزل. في عام 1965، كان لدى النساء اللاتي عشن في شمال ميلواكي ولع بالأرواب لدرجة أنهن كن يرتدينه فوق أي شيء، ويخرجن به وكأنه معطف مصنوع من فرو حيوان المنك. أما الآنسة آلبيرتا، وهي أحد أفراد عائلتنا الكبيرة، فقد كانت امرأة ضخمة وبدينة جدًا، اعتادت على ارتداء خمس طبقات من الملابس تحت روبها، كان هذا منظرًا فضوليًا آخر من مناظر حيّنا الشبيه بمسلسل «أيامنا السعيدة» بحلته السوداء. لم تكن سيس تفرق عن منظرها بشيء.

في كل مرة كنت أتوسل فيها إلى سيس قائلًا: «هل لي بأخذ عينك الزجاجية إلى المدرسة لكي أعرضها في حصة «اعرض وتحدث» في المدرسة؟» كنت أحصل على نفس الإجابة دائمًا. كانت تتناول جرعة كبيرة من الويسكي ومن ثم تجيبني، «لا، أيها الوغد. أتريد أخذ عيني اللعينة؟ لا بالطبع لا!»

لكنني أخيرًا قمت بتطوير خطة بديلة لأخذها. بما أنني كنت أعرف مكان العين الزجاجية -في إناء يحتوي على سائل لتبقى رطبة في الليل عندما تنام- اقتضت خطتي أن آتي في الصباح الباكر وأستعيرها وهي نائمة، ومن ثم أعيدها في وقت الغداء تمامًا قبل موعد استيقاظها المعتاد.

كل شيء سار بمنتهى الروعة في ذلك الصباح، وعندما وصلت إلى المدرسة بالكاد استطعت أن أنتظر دوري في العرض. لم يحضر أي أحد عينا زجاجية من قبل. كنت جالسًا في مقعدي أنتظر دوري، لم أستطع إخفاء الابتسامة التي ملأت وجهي لأنه كان يومي الموعود الذي سأحقق فيه شعبيتي. وفجأة، انطلقت صرخة ذعر من الممر، في البداية لم يكن الصوت معروفًا لكن سرعان ما عرف الجميع حينما سمعوا: «كريس! كريس! أعد لي عيني. سأقوم بجلد مؤخرتك. أعد لي عيني اللعينة!»

التفت الجميع في نفس اللحظة وحدقوا بي. تبع ذلك سيل آخر من الصرخات نحوي مهددة بكل وضوح: «من الأفضل لك أن تعطيني عيني اللعينة. أريد عيني. سأقوم بضرب مؤخرتك، أيها اللص اللعين!»

فتحت سيس باب الصف ووقفت بجنبه لاهثة، بشعرها المجعد المخيف، مرتدية خفيها وروبها الرث، ترتجف غضبًا، وتنظر إلى جميع من في الصف بعين سليمة، وتجويف خالٍ، ومن ثم جأرت بأعلى صوتها: «أعد لي عيني!» وقفت مذهولًا، وكانت المعلمة والتلاميذ يحدقون بي مذهولين أيضًا، لا يعلمون من تكون هذه المرأة وعن أي عين زجاجية تتحدث. فشلت خطتي فشلًا ذريعًا.

سرت أمام الجميع متوجهًا نحو سيس وقد أثقل الإحراج خطواتي كما لو أنني كنت أرتدي حذاءً إسمنتيًا، ووضعت يدي في جيبي وأخرجت لها عينها. حدقت بعينها السليمة نحو ما بدت وكأنها كرة رخام في راحة يدي ثم قامت بانتزاعها مني، ووضعتها في التجويف الخالي أمام جميع الصف، ومن ثم التفت وخرجت، وهي تلعنني طول الممر. تصورت أن معلمتي سيغمى عليها، ثم شاهدت طفلة صغيرة وهي تتقيأ، فعلى ما يبدو لم ير أي منهما في حياته شخصًا مثل سيس، أو شيئًا مثل إدخال عين زجاجية في تجويف. لم

تكن تداعيات الموقف بعد عودتي إلى المنزل بذلك السوء. فقد كان تصرف فريدي معروفًا، نبح بأعلى صوته: «كريس، إياك أن تأخذ عين سيس مرة ثانية، هل تفهم؟ لأنك إن فعلتها مرة أخرى، فإنني سأقوم بضرب مؤخرتك لدرجة أنك لن تستطيع الجلوس عليها لأسبوع!» لم يزعجني ما قاله؛ لأنه كان يستخدم أي حجة لضربي.

ما آلمني هو ما حدث في المدرسة. كنت موضع سخرية الجميع في مدرسة لي الأساسية لمدة طويلة، وظل الأولاد يتحدثون عن سيس وعينها الزجاجية لأسابيع. لكن وبالطبع، استطعت اجتياز ما حدث. وفيما عدا ذلك الموقف كانت الأمور تسير على ما يرام في المدرسة؛ طالما أنني كنت مهتمًا بدراستي ولدي روح التحدي. إضافة إلى شهيتي الشرهة والمتزايدة في التهام الكتب التي أصبحت تجبرني على الذهاب إلى ممرات المكتبة لأبحث عن كلاسيكيات تشارلز ديكنز[73] ومارك توين[74]، وأصبحت مهتمًا بالتاريخ، ووجدت أن الرياضيات مادة ممتعة ومقنعة بعض الشيء، لاحتوائها على معادلات تحتاج إلى حل كالألعاب التي تحتاج أسئلتها إلى أجوبة تكون إما صوابًا أو خطأ، أو تحتاج إلى إجابة بنعم أو لا.

لم تكن كتلك الأسئلة التي حلقت في سماء منزلنا دون أجوبة.

...

73) تشارلز ديكنز Charles Dickens: ولد في 7 شباط 1812 وتوفي في 9 حزيران 1870 وهو روائي إنجليزي يعد بإجماع النقاد أعظم الروائيين الإنكليز في العصر الفيكتوري، وما يزال كثير من أعماله يحتفظ بشعبيته حتى اليوم. تميز أسلوبه بالدعابة البارعة، والسخرية اللاذعة.

74) مارك توين Mark Twain: كاتب أمريكي ساخر ولد في 30 كانون الأول 1835 وتوفي في 21 نيسان 1910 عرف بروايته (مغامرات هكلبيري فين) التي صدرت عام 1884 والتي وصفت بأنها «الرواية الأمريكية العظيمة».

خلال السنوات التي تلت خروج أمي من السجن، حاولت أن أعرف ما فعلوه بها، وكيف أنها تغيرت، أم لم تتغير، وما الذي كان يجول في خاطرها. كان فريدي، الرجل العجوز، سجنًا بالنسبة لنا جميعًا، كما لو أنه كرة مربوطة بسلسلة حول كواحلنا. كان إدمانًا، على ما أعتقد، وكان هذا هو السبب وراء عودته في كل مرة كانت أمي تهرب فيها منه أو تدفعه خارج المنزل، وهي تتوعد: «يستحيل أن يعود مرة ثانية.» وبعد مرور فترة تساءلت فيما إذا كانت حقًّا ما زالت خائفة منه. تساءلت ما إذا كانت ما زالت باقية معه لتُذكِّره بأنه مهما فعل بها ومهما حاول أن يحطم أحلامها فإنه لن يستطيع تحطيم ذاتها، حتى وإن تسبب في إرسالها إلى السجن مرتين فإنه لن يستطيع أن يهزم بيتي جين. في الحقيقة، حتى وإن خالجها الشعور بالاكتئاب يومًا، حتى وإن شعرت بأنها منهكة القوى فإنها سترفض الإفصاح عن الأمر.

نادرًا ما كانت تعبر عن جزعها أو خيبة أملها بي حتى عندما كنت أستحق توبيخًا منها. لكنها في المرتين اللّتين وبختني فيهما، بطريقتها الوحشية غير القابلة للتقليد، جعلتني أدرك خطئي دون الحاجة لضربي.

ذات مرة أتت أمي إلى المنزل وقدمت لي بنطالًا جديدًا، كانت قد اشترته من مكان يشبه متجر جمبلز. حالما نظرت إليه ووقعت عيني على الثمان دولارات التي تحملها بطاقة السعر، ومن دون تفكير، وبدلًا من أن أكون سعيدًا وممتنًا لأنها أنفقت تلك النقود من أجلي، قلت لها، وكأني كنت أتحدث مع نفسي: «يا إلهي، ثمان دولارات، كنت سأشتري بهذا المبلغ من مركز التخفيضات حذاء، وبنطالًا، وقميصًا، وسيبقى لدي مبلغ لأشتري به تذكرة سينما أيضًا.»

نظرت لي أمي نظرة آلمتني جدًا، ومن ثم انتزعت مني البنطال وقالت:

«يا إلهي، لا يليق بولد بعمرك أن يرتدي بنطالًا بثمان دولارات!»

كان الأوان قد فات على الاعتذار لها، وشعرت شعورًا فظيعًا كما ينبغي لي أن أشعر، وعرفت أنها كانت آخر مرة سأرى فيها ذلك البنطال. ذلك اليوم جعلني أنتقي كلماتي بحذر شديد. لن أعذر نفسي، لكن النزعة لاستخدام الكلمات بطريقة مؤلمة ودنيئة من دون تفكير كانت صفة بشعة كنت قد تعلمتها من فريدي. في الحقيقة، نمت لدينا أنا وأخواتي الثلاث القدرة على الإساءة اللفظية في الحالات القصوى. وما زلت إلى الآن أبذل جهدًا دؤوبًا للتخلص منها، لكن هذا لا يعني أني أنجح دائمًا في لجم لساني.

أرتني أمي، بطريقتها الخاصة، كيف يمكن للكلام والصمت أن يكونا بنفس القوة. بعد أن قامت بضربي بسلك الهاتف اللولبي لسرقتي كيس الفشار قبل فترة طويلة، كان يكفي في المرة المقبلة التي حاولت فيها أن أكون حذقًا وأسرق شيئًا ما، أن تنظر لي نظرة خذلان كي تذكرني بألم سلك الهاتف.

عندما أصبح عمري ثلاثة عشر عامًا، ومع تقلب الهرمونات، بدأت أتحول إلى فتى ضخمٍ، وأردت أن أكون رائعًا وحسن المظهر، لذا قررت أن أذهب وأسرق بنطالًا من مركز التخفيضات، معتقدًا أنني في غاية الحذاقة. كان من الغباء ألّا يخطر ببالي أنني سيمسك بي، وأصبح كل تركيزي يتمحور حول فرصة دس ذلك البنطال تحت بنطالي، وأوهمت نفسي ألّا أحد سيشك بتلميذ مدرسة مثلي، يحمل رِزمةً من الكتب تحت ذراعه وأشياء أخرى.

وبينما كنت متوجهًا لأخرج من باب المتجر، اقتحم الواقع وهمي وربت على كتفي وإذا بها يد مدير المتجر. أصبحت الآن مجرمًا، وتلميذًا في آن واحد. بينما كنت أستجمع قواي لتلقي محاضرة صارمة وتحذير، صدمت

بشيء أسوء بكثير: وصل شرطيان أبيضان وقاما بدفعي وأخذي إلى سيارة الدورية للذهاب إلى مركز الشرطة. مرة ثانية، هيأت نفسي للمكالمة الهاتفية الأليمة التي ستجريها الشرطة مع أهلي ثم يعقبها وصول أمي الغاضبة وزوجها السكير المجنون. عوضًا عن كل ذلك، وقفت بينما كان الشرطي الجالس خلف طاولة المكتب يجري المكالمة الهاتفية واستمعت له وهو يحادث العجوز فريدي لبعض الوقت، وكان من الواضح أن ما فكرت به لم يكن صحيحًا. عندما قام الشرطي بإبلاغ فريدي أنني محتجز في مركز الشرطة حتى يأتي أحد ما ويخرجني، دخل الشرطي في نوبة ضحك هستيرية ومن ثم أغلق سماعة الهاتف وجرجرني نحو زنزانة الحجز.

أخبرني أن فريدي لن يأتي لإخراجي. ونقل لي ما قاله له بالحرف الواحد: «هل تريدني أن آتي لأخذه؟ بالطبع لا، دع مؤخرته تتعفن في السجن. اللعنة عليه.»

تمتمت مع نفسي بصوت منخفض، وأخذت كتابًا من أعلى رِزمة الكتب وبدأت أقرأ، على أمل أن ملفيل[75] وروايته موبي دِك[76] والهروب من خلال القراءة سيهدئ من روعي.

---

75) ملفيل Melvill: ولد في مدينة نيويورك عام 1819 وتوفي عام 1891. يعد من أبرز الروائيين في أمريكا. كتب ملفيل عن تجاربه بطريقة جذابة جعلته أحد أكثر الكتاب شعبية في زمانه. وقد أضفى على مغامراته خيالاً خصبًا وشكلًا فلسفيًا، إلى جانب مهارة فائقة في استعمال اللغة الإنجليزية الأمريكية.

76) موبي ديك Moby-Dick: هي رواية من تأليف الروائي هيرمان ملفيل صدرت عام 1851، وتدور حول صراع تراجيدي بين حوت وإنسان يحاكيان تأمل الوضع البشري وعلاقته بالوجود، في إطار رمزي يسلط الضوء على المشروع الأمريكي الذي وجد في عمل ملفيل شكلًا من أشكال التعبير عن نفسه في منتصف القرن التاسع عشر، في الوقت الذي كانت فيه أمريكا تكتشف ذاتها كقوة كونية وإمبراطورية. فكانت رواية موبي ديك وروايات ملفيل الأخرى بمثابة نبوءة لما ستصير إليه هذه القوة الكامنة.

لكن قراءتي كانت سببًا آخر جعل الشرطيين الأبيضين يدخلان في نوبة من الضحك. سألني أحدهما: «أحقًا أنت تقرأ هذا القرف؟ لأنك إن كنت ذكيًا هكذا، فلماذا إذا أنت في السجن؟»

أعاد الشرطي الآخر ترديد كلمات فريدي: «يقول الرجل العجوز، اترك مؤخرته لتتعفن هناك. اللعنة عليه!»

عندما حضرت أمي ومعها فريدي لإخراجي، لم يقل أي منهما كلمة واحدة، لأنهما أدركا شعوري بالخزي الذي بدا واضحًا على وجهي أنني قد تلقيت درسًا سريعًا في ما يشعر به المرء عندما يكون في مأزق مع الشرطة، ويصبح محتجزًا، ومحبوسًا، مشاعر لم أعهدها من قبل أبدًا. لبرهة قصيرة، جعلتني نظرة الشماتة في عيني فريدي أشعر بغضب كافٍ لينسيني شعوري بأنني كنت المخطئ في هذا الموقف. لكن تعابير الخيبة التي اعتلت وجه أمي صححت لي شعوري المخطئ ذاك على الفور.

وبالطبع لم أرد من هذا العالم شيئًا أكثر من أن أجعل أمي فخورة بي. لذا كان من الطبيعي في مثل هذه المواقف القليلة التي خذلتها فيها أن أشعر بألم لم يفارقني أبدًا.

كنت آمل أن عزفي على آلة البوق سيجعل أمي فخورة بي. تدربت بإصرار، من أجل الحفلات الشبابية التي بدأت القيام بها وفرقة إعدادية روزفلت جونيور على حد سواء. وفي إحدى المساءات قبيل موعد العشاء، وبدلًا من أن تطلب مني أمي أن أذهب لأجلب لها بعض الحاجيات الأساسية -وظيفتي الاعتيادية- قررت أن تذهب بدلًا عني عندما سمعتني أتمرن على العزف، بشرط أن أراقب الفاصولياء التي وضعتها على الموقد. «عظيم.» أجبتها، وكنت مسرورًا لأنني لن أذهب لأي مكان وسأبقى في غرفتي وأستمر

بحفظ «أغنية مهداة لأبي"[77] للمغني هوريس سلفر[78] -أغنيتي المنفردة التي كنت سأؤديها في حفلة قادمة- ومع موهبة التركيز العالي التي أمتلكها، كنت منهمكًا تمامًا في التمرين لدرجة أنني نسيت تمامًا أمر الفاصولياء حتى شممت رائحة شياط هبت نحو غرفتي. عندما ركضت إلى المطبخ وألقيت نظرة، كانت الفاصولياء قد احترقت تمامًا.

اعتقدت أن أمي لن تغضب كثيرًا إن كنت أتمرن، لكنني كنت ما زلت مدركًا أن هناك مشكلة قد حدثت عندما عادت إلى المنزل، فتصرفت كما لو أنني كنت أتفقد الطبخة طوال الوقت. ناديت عليها من غرفتي أثناء دخولها من الباب الأمامي: «أمي، عليك أن تتفقدي الفاصولياء، أعتقد أنها احترقت.»

كان لوقع صوت غطاء القدر وهو يخلع ومن ثم يستبدل بآخر صدى تردد في أرجاء الممر، الأمر الذي أدى إلى تشنج معدتي. كانت أمي تفعل المعجزات بشكل يومي لتوسع مصادر عيشنا كي تتمكن من إطعامنا جميعًا، وأنا بكل بساطة تركت الفاصولياء تحترق. وعلى الرغم من أنها أرادت قتلي على الأرجح، لكنها استجمعت أعظم درجات ضبط النفس، ومشت ببطء في الممر، ووقفت قرب باب غرفتي وقالت بهدوء: «كريس، هل تعلم أن أغلب النقاشات والشجارات التي تحدث بيني وبين فريدي هي بسببك، وأنت لم تستطع حتى أن تراقب قدر الفاصولياء!»

عبّرت كلمات أمي عن معانٍ كثيرة، كل معنى منها كان ينهشني من الداخل، كانت الحقيقة المرة هي أنني كنت شخصًا أنانيًا، منغمسًا في نفسي

77) أغنية مهداة لأبي A Song for My Father: أغنية من أفضل ما ألفه هوريس سلفر عام 1964.

78) هوريس سلفر Horace Sliver: ولد في 2 أيلول 1928 وتوفي في 18 حزيران 2014 وكان عازفًا للجاز، وملحناً، ومنسق أغانٍ أمريكي.

وفي تماريني فقط. والحقيقة الأخرى هي أن أمي ستفعل أي شيء من أجلي، وقد تثير حفيظة فريدي حتى لو كان ذلك يعني أنها ستنحاز لجانبي. هل كان صحيحًا أنني كنت السبب الرئيس وراء شجارهما؟ إن كان كذلك، فإنه أمر مجنون، كجنون فريدي. أشعلت الفكرة النار تحت محرقة الكره التي كنت أشعر بها تجاهه، وأصبحت أحترق وأشيط مثل قدر الفاصولياء.

بعد كل ما قالته أمي نست الأمر، والتفت وعادت إلى المطبخ مرة أخرى، فتحت علبة معجون الطماطم وأضافت إليها بعضًا من التوابل، والفاصولياء المحروقة وحولته إلى قدر جميل من الفاصولياء اللذيذة التي تناولناها على العشاء في تلك الليلة.

بالرغم من كل ما كنت أعرفه عنها، إلّا أنها ظلت تشكل لغزًا محيرًا بالنسبة لي. لم أستطع معرفة سوى القليل عما مرت به في عالمها الداخلي. حدثت إحدى تلك المرات بشكل عابر عندما كان فريدي ما زال خارج المنزل، وكنت قد أنهيت واجبات المدرسة لتوي، وكنا أنا وأمي نشاهد فيلمًا لبيتي ديفيس[79] كان يعرض على التلفاز. أحبت أمي هذه الممثلة، ولطالما اعتقدت أن سبب حبها لها هو أن كلتيهما تحملان نفس الاسم تقريبًا. «كلّا.» قالتها أمي بحزن وفلسفية، كان السبب وراء حبها لأفلام بيتي ديفيس هو أنها كانت مليئة بالقوة والإقناع، وهي تمثل أدوارها ببراعة. اعترفت أمي: «كل ما عليك فعله هو أن تصب غضبك عليها.»

ما الأشياء الأخرى التي جعلت أمي سعيدة؟ ربما عندما شعرت بأنها ستصبح ذات يوم ما كانت تطمح إليه: معلمة. كانت أمي بطريقتها الخاصة

---

79) بيتي ديفيس Bettte Davis : ولدت في 5 نيسان 1908 وتوفيت في 6 تشرين الأول 1989 وكانت ممثلة أمريكية، حصلت على جائزة أوسكار مرتين كأفضل ممثلة عام 1935 عن دورها (فيلم خطر) وعام 1938 عن دورها في فيلم (جزيبل).

معلمتنا، وبمثابة سقراط[80] في نظري ونظر أخواتي. كان لابد أن تشعر بالسعادة وهي ترى أننا نفهم ما تقوله، ترى أنني أستجيب لإصرارها المستمر على أن الإنسان من دون القدرة على القراءة والكتابة لن يكون سوى عبد. توجهت إلى المكتبة العامة الواقعة في جادة السابع ونورث، بغية أن أبحث عن كتاب واحد فقط أو سؤال أردت الإجابة عنه، لكنني حينها وجدت نفسي أستكشف دليل الكتب وأتصفح كتابًا تلو الآخر، وأقضي النهار بطوله في القراءة، مما جعل أمي سعيدة. كانت الكتب تجعلها سعيدة. أحبت أمي القراءة، وكانت مولعة بقراءة مجلة ريدرز دايجيست.[81] جعلتني أنا أيضًا أولع بقراءتها. كنا نقرأها سوية من الغلاف للغلاف ثم كنا نتناقش حول محتوياتها. لربما أسعد مرة رأيتها فيها كانت عندما وجدت قصيدة في نسخة قديمة من مجلة ريدرز دايجيست في المكتبة وقمت باستنساخها لأقرأها لها. لم أكن مولعًا بالشعر كثيرًا، لكن شيئاً ما جذبني حول وقع الكلمات والمشاعر الجياشة في قصيدة إليزابيث باريت براوننغ.[82] استمعت

---

80) سقراط Socrates: فيلسوف وحكيم يوناني (469 ق.م - 399 ق.م) . يعد أحد مؤسسي الفلسفة الغربية. لم يترك سقراط أي كتابات، وجل ما نعرفه عنه مستقى من خلال روايات تلامذته عنه. ومن بين ما تبقى لنا من العصور القديمة، وتعد حوارات " أفلاطون" من أكثر الروايات شمولية وإلمامًا بشخصية «سقراط». بحسب وصف شخصية «سقراط» كما ورد في حوارات «فلاطون"، فقد أصبح «سقراط» مشهورًا بإسهاماته في مجال علم الأخلاق. وإليه تنسب مفاهيم السخرية السقراطية والمنهج السقراطي أو ما يعرف باسم (Elenchus).

81) ريدرز دايجيست Reader's Digest: هي مجلة أمريكية شهرية صدرت عام 1922 تعنى بمصلحة العائلة العامة. وصلت إصداراتها إلى خمسين نسخة في أكثر من عشرين لغة، مما يجعلها أكبر مجلة متداولة حول العالم. صدرت النسخة العربية منها في عام 1943 في مصر، وألغي ترخيصها بعد ذلك. ثم أعيد نشر الإصدار العربي باسم «المختار".

82) إليزابث باريت براوننغ: Elizabeth Barret Browning ولدت في 6 آذار 1806 وتوفيت في 29 حزيران 1861. كانت من أبرز شعراء العصر الفيكتوري. أشعارها كانت الأكثر شعبية في كل من إنجلترا والولايات المتحدة. تعد قصيدتها «كيف لي أن أحبك؟» التي كتبتها في حب زوجها الشاعر روبرت براوننغ، من أروع قصائدها.

أمي في بادئ الأمر بهدوء، وسادها السكون -وهذا هو الشيء الوحيد الذي كان باستطاعتها فعله- عندما بدأت بقراءة الأسطر الأولى:

كيف لي أن أحبك؟
دعني أحصي لك السبل..
أحبك حتى آخر عمق،
وآخر عرض،
وآخر ارتفاع يمكن لروحي أن تصل..

عندما أكملت قراءة القصيدة، انهمرت دموع أمي ثم أخبرتني أنها كانت قصيدتها المفضلة وأن اكتشافي لها جعلها سعيدة.

...

كان عام 1986 هو عام الصحوة الكبرى[83] بالنسبة لي. لقد أحدث انفجارًا كبيرًا في كياني، أدى إلى تفجير طاقة بلوغي سن الرشد إضافة إلى التغييرات الجسيمة التي كانت تحدث من حولي. أبرزت هذه الحقبة بزوغ فجر الوعي في داخلي وإدراكي أنني شخص أسود، وكانت المفاجأة التي تبعتها هي اكتشافي أن العالم لم يكن كله أسود البشرة. قبل خمس

83) الصحوة الكبرى: Great Awakening هو مصطلح استخدم للإشارة إلى فترة الإحياء الديني في الكنيسة التي شهدت زيادة في الاهتمام الروحي أو التجديد في حياة جماعة كنسية أو عدة كنائس في التاريخ الديني الأميركي. وقد تميزت بعمليات إحياء واسعة النطاق للمعتقدات الدينيةK بقيادة القساوسة البروتستانت الإنجيليين، والتشديد على فائدة الدين، وتشكيل الحركات الدينية والطوائف الجديدة.

سنوات، كانت ردة فعل البالغين حول اغتيال الرئيس كينيدي(84) مؤشرًا لما يعنيه أن يكون أحدهم أقلية وأن يفقد بطلًا. لكن بعد مرور عام من ذلك وعندما ذهبنا أنا وبعض من زملائي إلى مدرسة كان يرتادها الطلاب البيض في الجانب الشرقي من ميلواكي، حينها فقط أدركت ورأيت بأم عيني ما عانته أمي في كل يوم كانت تغادر فيه الحي للذهاب إلى العمل. لم يقتصر الأمر على ذلك فقط، حيث كان الجميع بيضًا باستثناء حالات قليلة جدًا كعمال النظافة ومجموعة قليلة جدًا من الأولاد السود، وكان هذا المكان هو القطب النقيض لحي الغيتو، حيث كان الجميع سودًا فيما عدا صاحب متجر أبيض هنا ورجل شرطة أبيض هناك. أدركت أيضًا ما الذي يعنيه أن يكون لوني هو هويتي، وأن ينظر إليّ بنظرة دونية، وأن أعامل على أنني أقل منهم، وأشعر بالخزي، أو أن أكون غير مرئي، كيان لا وجود له سوى أنه ولد بيشرة سوداء داكنة. لكن صدمتي الحقيقية كانت عندما تعرضت أربع فتيات صغيرات للقصف ولقين مصرعهن في بيرمنغهام، ألباما لا لشيء سوى أنهن سوداوات البشرة.

رؤية أمي وهي تبكي لدى مشاهدتها لتغطية التلفاز للحدث أضاءت الفكرة في عقلي فجأة. كان من الممكن أن يحدث نفس الشيء لأخواتي. بت أرى الآن ومن خلال تعاملي مع المجتمع الأسود بكافة أطيافه، أنهن كن بالفعل أخواتي. ومع تصاعد غضب جديد في داخلي وحماسة للتظاهر ضد الاعتداءات التي ارتكبت في الماضي والحاضر والتي سترتكب في المستقبل ضد السود، اختبرت شعورًا جديدًا للتعامل مع الآخرين وبدأت أتتبع ما

84) الرئيس كينيدي : Kennedy ولد في آيار 1917 وتوفي في 22 نوفمبر 1963، ويشار إليه عادة بأحرفه الأولى JFK، وهو سياسي أمريكي تولى منصب الرئيس الخامس والثلاثين للولايات المتحدة من 20 كانون الثاني 1961 حتى اغتياله في 22 تشرين الثاني 1963.

كان يحدث في العالم خارج ميلواكي. اندلعت عام 1965 أعمال شغب في لوس أنجلوس، وهو نفس العام الذي قاد فيه مارتن لوثر كينغ[85] مسيرات في ألباما، سيلما، مطالبًا بالحقوق المدنية، وأيضًا نفس العام الذي قتل فيه مالكوم أكس[86] في هارليم. أما في العام التالي، عندما حدث تآلف لأقلية من مجموعة ناشطين في ميلواكي ونظموا مسيرة بقيادة القس الكاثوليكي الأب جيمس غروبي، نزلت إلى الشارع لأسير معهم، وكان معي اثنان من أصدقائي المقربين، غارفن عازف البوق في فرقة المدرسة، وكين أو زولو كما كنا نطلق عليه. كان زولو شخصًا حقيقيًا بكل معنى الكلمة، لم يكن رجلًا حسن المنظر من جميع النواحي، لكنه امتلك موهبة أداء خرافية كانت ستوصله إلى مكانة عالية إن أحسن استخدامها. حصل فيما بعد على فرصة حقيقية ليصبح ممثلًا سينمائيًا وأقنعني أنني بإمكاني أن أصبح ممثلًا أيضًا.

فكرت في مدى احتمالية تحقّق الأمر، وذهبت لأخبر أمي بالفكرة بينما كنا نتناول الفطور. وأخبرتها حقيقة الأمر وأنا أمضغ طعامي، «نعم، سوف أصبح ممثلًا حالما أنهي دراستي.»

أومأت أمي رأسها بصبر وسألتني ببلاغة شديدة: «حسنًا يا كريس، اذهب وأحضر لي الجريدة وأخبرني: كم عدد الوظائف المعروضة للممثلين؟»

لكن ذلك لم يكن كافيًا بالنسبة لي لأتنازل عن الفكرة، واستمررت

85) مارتن لوثر كينغ Martin Luther King: ولد في 15 كانون الثاني عام 1929، تم اغتياله في 4 نيسان 1968، وهو زعيم أمريكي من أصول إفريقية، وناشط سياسي إنساني، من المطالبين بإنهاء التمييز العنصري ضد السود. في عام 1964 حصل على جائزة نوبل للسلام، وكان أصغر من يحوز عليها.

86) مالكوم أكس Malcom X: ولد في 19 أيار 1925 وتوفي في 21 شباط 1965، واسمه عند مولده: مالكوم ليتل، ويعرف أيضًا باسم الحاج مالك الشباز، هو داعية إسلامي ومدافع عن حقوق الإنسان. أمريكي من أصل إفريقي، صحح مسيرة الحركة الإسلامية التي انحرفت بقوة عن العقيدة الإسلامية في أمريكا، ودعا للعقيدة الصحيحة حتى اغتيل لدعوته ودفاعه عنها.

برمي التعليقات حول الموضوع، وكيف أني أمتلك القامة والصوت والوقار وكلها عوامل تؤهلني لكي أصبح ممثلًا ممتازًا.

استمر الأمر هكذا حتى طلبت من أمي خمسة دولارات لأشتري شيئًا مرة أخرى.

كانت عيناها تتفقد الجريدة، ومن دون حتى أن ترفعهما، وبدلًا من أن تعظني بأنني أستطيع ربما أن أقضي ساعات أكثر في القيام بالوظائف الجانبية، بعد انتهاء وقت المدرسة، قالت بسخرية مبطنة حاذقة: «حسنًا، لماذا لا تمثل دور شخص بحوزته خمسة دولارات؟»

كيف يمكن لشخص أن يمثل أن بحوزته خمسة دولارات؟ لقد وصلتني الفكرة. ومع تلك السخرية تركت طموحي العابر وجددت ولائي لعزف آلة البوق. لكن لم يتوجب على زولو ترك حلمه في أن يصبح ممثلًا. كان لديه موهبة الخروج في مسيرة وغناء أغنية: «سوف ننتصر»[87] وكان يؤديها بحماس وقوة وكأنه زعيم لحركة ما، وفي نفس الوقت كان ينتهز أي فرصة ليقرص النساء البيضاوات المارّات من جواربهن. عندما كن يستدرن لمعرفة من فعلها، كان يلبس قناع النبل ويستمر بالغناء وكأن شيئًا لم يكن. كنا أنا وغارفن نصاب بالدهشة. «إذا فعل ذلك لامرأة سوداء..» قال غارفن عندما رأينا زولو يقرص النساء البيضاوات خلال مسيرة كبيرة، "فإنها سوف تستدير وتصفعه على وجهه."

"أجل" همست له، "وستخبر أمه أيضًا."

(87) أغنية سوف ننتصر We Shall Overcome: للمغني بيت سيغر Pete Seeger. وهو مغنٍ وموسيقي وناشط وداعية سلام أمريكي من مواليد 1919 توفي في عام 2014. أصبحت الأغنية احتجاجًا. وارتبطت هذه الأغنية بالأغنية الأكثر شيوعًا «سننتصر يومًا ما» وهو ترتيلة لتشارلز ألبرت تيندلي نُشرت لأول مرة عام 1900.

وفرت كنيسة القديس بونيفيس الكاثوليكية، بإدارة الأب غروبي، مأوى بعيدًا عن حقل الألغام الذي كنت أعيش وسطه في منزل تريبلت، فبالإضافة إلى انضمامي لمسيرة تناشد بقضايا مهمة مثل توفير المساكن، وإلغاء الفصل العنصري في النوادي التي كانت ما زالت تمنع دخول السود واليهود والكاثوليكيين، وفر منظمو المسيرة الطعام لنا من دونات وشطائر إلى مختلف أنواع الأطعمة العرقية المعدة منزليًا. لبت فعالياتنا الشبابية الكثير من احتياجاتنا، فقد كانت مليئة بالمرح كامتلائها بالأهداف أيضًا. كان الأمر حقًا نعمة حقيقية أن أنال دعمًا قويًا يعزز صورتي لذاتي، هكذا لاسيما في وقت كان فيه انغماسي في الجنس الآخر هو شغلي الشاغل.

لم يلق احترامي لذاتي معاناة جراء اعتداءات فريدي شبه اليومية وحسب، وإنما من المنزلة العليا التي أولاها مجتمعي للسود ذوي البشرة الفاتحة. كرهت لسنوات عدة سموكي روبنسون[88] كونه مثالًا لنوع الرجل الذي رغبت بمواعدته كل فتاة كنت أعرفها. كان نحيل الجسم، أسود ذا بشرة فاتحة، وعينين خضراوين، وشعر مموج جميل، وصوت مفعم بالجزل. لم يكن لديه أدنى فكرة عن كيف أنه قام بإفساد حياة كل رجل طويل يمتلك جسمًا مليئًا بالعضلات، وذي بشرة داكنة، وشعر مجدل، وصوت جهوري مثلي. وحتى يومنا هذا فإنني أقسم أنني إذا رأيته فسأتحداه في مبارزة كي يدفع ثمن معاناتي التي شعرت بها في كثير من المواقف؛ من ضمنها تلك المرة التي أعجبت فيها بفتاة فنظرت لي بتكبر وقالت: «أنت مجرد وحش أسود ضخم.»

---

88) سموكي روبنسون Smokey Robinson: ولد في 19 شباط 1940 هو مغنٍ أمريكي، وكاتب أغانٍ ومنتج. وهو مؤسس فرقة المعجزات الموسيقية. حصل روبنسون على جائزة Gershwin Congress لعام 2016 عن مساهماته في الموسيقى الشعبية.

من حسن الحظ أن سموكي لم يكن المغني الوحيد المتواجد على الساحة، كما تبين. نعم لقد أجاد سموكي الغناء، وكان كاتب أغانٍ مميزًا، ومؤديًا عظيمًا لكنه لم يكن وحده كذلك فقد كان هناك رجال سود، ذوي بشرة داكنة ممن أجادوا الغناء أيضًا. عندما جاء جيمس براون[89]، الأب الروحي لموسيقى السول، وغنى: «قلها بصوت عال، أنا أسود وفخور»[90] كانت أغنيته بمثابة الكأس المقدسة[91] لولد أسود مثلي.

سرعان ما اندثرت بعض الصيحات التي لم تلائمني أبدًا، وموضة استخدام الجل ذي الرائحة الكريهة لفرد الشعر الذي كان يحرق فروة رأسي، وأصبحت موضة شعر الأفرو الشبيهة بكرة كبيرة أو ما يدعى بالشعر المجعد الطبيعي هي الرائجة، إضافة إلى ارتداء القمصان الفضفاضة متعددة الألوان والخرز. تماشيت مع تلك الصيحة بسرعة، ولابدّ أنني كنت أول وأصغر هيبي أسود في أمريكا. لم يلق ارتداء القمصان الفضفاضة والملونة صدى في الحي في ميلواكي، لكن في النهاية تمكنت من دمج المظهر «الأسود والفخور» مع ملابس الهيبيز المستعملة التي اشتريها من متجر غودويل ومتجر جيش الخلاص لأحصل على أفضل الخرز، وأفضل البناطيل متسعة الأطراف، وأفضل أنواع الألبسة ذات الألوان والأنماط المتداخلة،

89) جيمس براون James Brown : ولد في 3 أيار 1933 وتوفي في 25 كانون الأول 2006 وهو مغنٍ وموسيقي أمريكي. لعب دورًا مهمًا في تطور السول والبلوز والغوسبل. يعد أول من غنى ورقص في ذات الوقت. كما يعد الأب الروحي لموسيقى السول وقد جسدت موسيقاه التغيرات الثورية للأمريكين السود.

90) أنا أسود وأنا فخور Say it loud، I'm Black and I'm Proud: تعد من أشهر أغاني جيمس براون، كانت نشيدًا للتعبير عن الحقوق المدنية خلال فترة الستينات التي شهدت اضطرابات عنصرية في أمريكا.

91) الكأس المقدسة Holy Grail: في الميثولوجيا المسيحية، كانت الكأس المقدسة طبقًا أو كوبًا استخدمها يسوع في العشاء الأخير، يقال إنها ذات قدرة إعجازية.

إضافة إلى تسريحة أفرو كبيرة. بإمكان سموكي الآن أن يذهب إلى الجحيم.

كان جيمس براون مثلي الأعلى. عندما ذهبنا أنا وغارفن إلى القديس بونيفيس وانضممنا في المسيرة، حرصنا على أن يتسوق جميع من نعرفهم فقط من المكان الذي يقبل طوابع الأسود والبني[92] التي كان جيمس براون يروج عنها ليساعد أحياء المدن الداخلية الفقيرة عبر البلاد. كانت تلك الطوابع أشبه بطوابع أس أند أتش[93] الخضراء. تكللت جهودنا بالنجاح إلى أن قمنا بملء عربتين في متجر تسوق أي أند بي الواقع في حي أبيض وانتظرنا في طابور الدفع وعندما وصل دورنا قمت بسؤال أمين الصندوق: «هل لديك طوابع الأسود والبني، إن لم يكن لديك منها فلن نقوم بالتسوق من هنا.» تمثلت القوة السوداء[94] بفتى في الثالثة عشر من عمره.

أتى رجال الشرطة إلى المكان بسرعة فائقة أصابتنا بالذهول، ووقفوا مثل مغنيين ثانويين خلف المدير الذي كان ينظر إلينا ببرود وقال: «أنتما

---

92) طوابع الأسود والبني Black & Brown Stamps: طوابع باللون الأسود والبني تحمل صورة المغني جيمس براون أسسها لاعب كرة القدم آرت باول Art Powell عام 1969 في أوكلاند، كاليفورنيا لخلق فرصة متكافئة داخل المجتمع الأسود. أصدر التجار السود في وسط مدينة أوكلاند هذه الطوابع لتقديم حوافز للمستفيدين المحليين في المجتمع الأسود. وكانت عبارة عن كتاب يتألف من 50 صفحة من الطوابع أي ما يعادل ثلاثة دولارات في البضائع. ثم نمت الجهود لتشمل جميع أنحاء ولاية كاليفورنيا، مولدة أكثر من مليون دولار في قطاع الأعمال.

93) طوابع أس أند أتش S & H Stamps: هي طوابع تجارية شعبية تُوزّع جزءًا من برنامج المكافآت الذي تديره شركة سبيري وهتشينسون (S & H). خلال الستينات، كان الزبون يحصل على الطوابع وعلى علب الخروج من محلات السوبر ماركت والمتاجر ومحطات البنزين وغيرها، والتي يمكن استبدالها بالمنتجات الموجودة في الكاتالوج.

94) القوة السوداء Black Power: هو شعار سياسي واسم لمختلف الأيديولوجيات المرتبطة بهدف تحقيق تقرير المصير للمنحدرين من أصل إفريقي وقد استخدمه الأمريكيون الأفارقة في الولايات المتحدة. وكانت حركة «القوة السوداء» بارزة في أواخر الستينيات وأوائل السبعينات، مؤكدة على الفخر العرقي، وخلق مؤسسات سياسية وثقافية سوداء لتغذية وتعزيز المصالح الجماعية السوداء والنهوض بالقيم السوداء.

الاثنان أرجعا كل شيء في العربة إلى مكانه، وسننسى ما حصل. لكن إن لم ترجعا كل شيء من حيث أخذتماه، سوف تذهبان إلى السجن.» عندما التفت المدير ليذهب قمنا بإرجاع كل شيء بخجل إلى مكانه في الرفوف، وسخر منا أغلب موظفي المتجر.

على الرغم من ذلك كنا فخورين بنفسينا وبالجهود التي بذلناها. توجهنا إلى القديس بوني فيس لحضور اجتماع ومسيرة مع مجلس شباب الرابطة الوطنية للنهوض بالملونين[95]، وعلمنا أن مكاتب الرابطة التابعة لفرع ميلواكي كانت قد فُجّرت. شددت هذه الحادثة في الحال على خطورة ما كنا نقوم به.

في الثلاثين من تموز عام 1967، وفي أعقاب أعمال الشغب الكبيرة التي حدثت في ديترويت، ونيويورك، وهارليم، وواشنطن، اندلعت أعمال شغب أخرى في ميلواكي بعد تفشي خبر عن الوحشية التي ارتُكبت على يد عناصر الشرطة، في حادثة وقف شجار نشب في مرقص يرتاده السود. وعلى الرغم من أني لم أكن حاضرًا معهم بجسدي، إلا أنني أصبت بالفزع لرؤيتي متاجر مثل متجر ساي وهي تنهب. لكن هذا لم يمنعني من اندفاعي نحو شارع الثالث على أمل أن أصل إلى مركز التخفيضات قبل أن تُصفّى بضاعته. لكن ولسوء الحظ، لم يكن قد تبقى شيء بمقاسي في الوقت الذي وصلت فيه، وكل ما استطعت أخذه كان عبارة عن ملابس لن أستطيع ارتداءها. لكن ومن حسن حظي أنه لم يتم أخذي إلى السجن مع الألفي شخص تقريبًا الذين تم اعتقالهم، من ضمنهم تيري بعد أن ألقي القبض

95) الرابطة الوطنية للنهوض بالملونين NAACP: هي منظمة حقوق مدنية للأمريكان ذوي الأصول الإفريقية في الولايات المتحدة. تشكلت في عام 1909 على يد مورفيلد ستوري، وماري وايت أوفنقتن، ودو بويز. مهمة المنظمة هي ضمان المساواة السياسية والتعليمية والاجتماعية والاقتصادية بين جميع الأعراق والقضاء على التمييز العنصري.

عليه وهو يجرب حذاء أمام مرآة الأحذية. كانت أعمال الشغب ذات أثر بليغ لدرجة أنه تم استدعاء الحرس الوطني وتم فرض حظر تجول استمر ثلاثة أيام. ومن بين مئة جريح أو أكثر، توفي ثلاثة أشخاص في تلك الليلة.

وسط هذه الفوضى، احتدم الوضع في فيتنام، وكانت أعداد مهولة من الشباب الأمريكيين المساكين تُرسل إلى هناك، البيض والسود على حد سواء للقتال، وكانوا يعودون إلى وطنهم جثامين، أو مدمنين، أو مصابين بالاضطراب العقلي. كان محمد علي بطلًا بالنسبة لي، حتى من قبل أن يغير اسمه من كاسيوس كلاي حينما كان مستجدًا وقلب عالم الملاكمة رأسًا على عقب عندما غلب سوني ليستون. لكنه عندما رفض القتال في الحرب، وكما قال: "ليس لدي خلاف مع فيت كونغ."[96] وأكمل حديثه قائلًا: "لم ينعتني أي فيتنامي بالزنجي أو طالب بإعدامي." أصبح محمد علي بالنسبة لي بطلًا أبديًا من نوع آخر، ووجدت فيه رمزًا لشخصية الأب.

كان الرابع من نيسان، عام 1968، هو القفزة الفاصلة التي أحدثت تطورًا في وعيي في هذه الحقبة ووعي الملايين من الأمريكيين بمختلف خلفياتهم العرقية. إبان عودتنا إلى القديس بوني فيس من مسيرة مفتوحة تطالب بحقوق الإسكان، جلسنا أنا وغارفن وزولو، صديقاي الحميمان، في قاعة الاجتماعات، وكانت بطوننا تئن جوعًا وأمامنا أطباق مليئة بالدونات، وقطع اللحم الباردة، ورقائق البطاطا، عندما دخل علينا رجل

---

96) فيت كونغ Vietcong: الجبهة الوطنية لتحرير جنوب فيتنام المعروفة بالفيت كونغ (Việt cộng) حركة مقاومة مسلحة فيتنامية نشطت بين 1954 إلى 1976 . بدأت قوات الفيت في الجنوب بالتمرد على حكومة ديم. وقد عُرف هؤلاء بالفيت كونغ. وفي عام 1959م أعلنت فيتنام الشمالية تأييدها لهذه الفئة وأمرتها بشن كفاح شامل ضد حكومتها. كانت أول مجموعة متمردة ناضلت ضد الاستعمار الفرنسي وضد جمهوريه جنوب فيتنام. هذه الجبهة كانت معارضة لجميع العناصر المكونة للحكومية بصرف النظر عما إذا كانوا شيوعيين أم لا.

ينتمي للرابطة الوطنية للنهوض بالأشخاص الملونين[97] كان يرتدي بدلة وربطة عنق، ووقف في المنتصف وهو ينحب مختنقًا: "أطلقت النار على الدكتور كينغ!»

تبع ذلك حالة من الصخب، الكل يصرخ، مطالبًا أن يعرف ماذا حدث. ذهب أحدهم ليشغل الراديو، وذهب آخر ليشغل التلفاز كي يتفقد نشرة الأخبار، كنا نستمع لمقتطفات من التقارير حول تواجد الدكتور كينغ في ممفيس، تنيسي من أجل دعم إضراب عمال الصرف الصحي، وإطلاق النار عليه من شرفة غرفته في فندق لوريان في ممفيس. ومن ثم فجأة صرخ صوت اكتسح أصوات الجميع: «لقد مات! لقد قتلوا الدكتور كينغ!»

ساد الهدوء أرجاء المكان، والكل ما بين صدمة وعدم تصديق. مرت أعمار في هذه اللحظات. ومن ثم تفجرت موجة مشاعر من الحزن والغضب في المكان، منطلقة نحوي، وحاملة إيانا جميعًا إلى الشارع، حيث بدأنا برمي أي شيء استطعنا وضع أيدينا عليه. بلغت القوة القابعة تحت تلك المشاعر أضعاف ما وصلت إليه في الليلة التي اندلعت فيها أعمال الشغب، رغم أن الرد الناري الذي عاث فسادًا بجميع الأحياء التي يقطنها البيض انتهى بسرعة.

مع اغتيال الرئيس كينيدي بعد أشهر قليلة، جلب عام 1968 معه قمة رعدية عصفت بكل شيء كان يحدث من حركات حقوق الانسان، والاحتجاجات حول حرب فيتنام، والثورة الجنسية[98]، إضافة إلى ما كان

97) الثورة الجنسية Sexual Revolution: تعبير يستخدم للإشارة إلى تحرك اجتماعي سياسي ظهر خلال الستينيات وامتد حتى سبعينيات القرن الماضي في العالم الغربي وغالبًا ما يعزى استخدامه إلى التأثر بكتابات فرويد حول التحرر الجنسي والقضايا الجنس-نفسية.

98) المثالية Idealism : هي معتقد فلسفي نظري وعملي أتى به أفلاطون يرد كل ظواهر الوجود إلى الفكر، أو يجعل من الفكر منطلقًا لمعرفة الوجود أو الحقيقة مؤكدًا على أسبقية المثال (بكل معانيه) على الواقع.

يحدث في الموسيقى والثقافة

على حد سواء. أطيح ببعض من مفاهيمنا المثالية[99] في الوقت ذاته الذي كانت فيه قوة الدفع التي تغلي داخل الجميع لا يمكن إيقافها. لم نخلف وعدنا بأننا سننتصر وسنتغلب على كل ما يحدث، وبأننا سنصل إلى أعلى قمة لتحقيق أهدافنا، لكن الصراع كان سيأخذ وقتًا أطول وأصعب بكثير مما كنا نعتقد.

أشبعت الكتب، كعادتها، رغبتي في إيجاد القوة من خلال المعرفة. تبحرت على مدى السنوات القليلة القادمة في تاريخ السود من خلال قراءة أي شيء تقع عليه يدي. لم تكف أمي أبدًا عن تشجيعها لي بقراءة أي كتاب، على الرغم من أنها كانت حذرة بعض الشيء عندما عدت إلى المنزل وأنا أحمل في يدي كتاب "مُت أيها الزنجيّ، مُت للكاتب راب براون[100] وكتاب «الروح فوق الجليد»[101] للكاتب أيلدرج كليفر.[102]

كانت أمي من أنصار حركة معاداة الحرب، ولم يكن لديها أي مشكلة مع القمصان التي كنا نرتديها ونبيعها والتي حملت على ظهرها شعارات تنادي بالتفاخر بالبشرة السوداء مثل: «الرجل الأسود» و"القوة السوداء"

---

99) أتش راب براون H. Rap Brown: ولد في 4 تشرين الأول 1943، كان الرئيس الخامس للجنة التنسيق ضد العنف الطلابية في الستينيات. وهو الآن يقضي عقوبة بالسجن المؤبد عقب إطلاق النار على نائبين من محافظات مقاطعة فولتون.

100) كتاب مت أيها الزنجي مت Die، Nigger، Die: هو سيرة ذاتية سياسية صدرت عام 1969 من قبل الناشط السياسي الأمريكي أتش راب براون.

101) كتاب الروح فوق الجليد Soul on Ice: هو مجموعة من المذكرات والمقالات التي كتبها كليفر في سجن فولسوم الحكومي في عام 1965 وكان الجزء الأكثر إثارة للجدل من الكتاب هو اعتراف كليفر بارتكابه العديد من جرائم الاغتصاب.

102) أيلدرج كليفر Eldridge Cleaver: ولد في 31 آب 1935 وتوفي في 1 أيار 1998 وهو كاتب وزعيم أمريكي بارز في الحقوق المدنية، وزعيم في حزب النمر الأسود.

و"لا تفقد الأمل" والشعار الإيحائي: «أعطني أفضل ما لديك» حتى إنها كانت ترتدي قميص «المرأة السوداء» أثناء غسلها للملابس. كانت أمي تحذرني بين الحين والآخر قائلة: «إذا أردت أن تصبح مثل راب براون، فعليك أن تخرج من منزلي"؛ حرصًا منها على ألّا أصبح متطرفًا جدًا في معتقداتي السياسية أو ألا تكون لدي نزعة نضالية.

عندما واصلت القراءة -لا لأنني كنت متطرفًا بشكل مبالغ فيه، بل لأنني أردت أن أعرف ما الذي ينبغي علي قوله في أمر ما قبل أن أرفضه- سألتني، بعصبية خفيفة: «أنت لا تؤمن بكل تلك الأشياء، أليس كذلك؟»

"بالطبع لا" طمأنتها، "أنا لم أؤمن بها جميعها ولم أرد أن أصبح مناضلًا."

عرفت أمي أيضًا أن هناك الكثير من العوامل الأخرى التي أثرت في، لكن لا شيء كان له التأثير الأقوى عليّ مثل الموسيقى. لم أدرك حقًا إلا في وقت لاحق كم كان الأمر رائعًا أن أبلغ مرحلة النضج في أوج عنفوان كل ظاهرة مهمة انبثقت في أواخر الستينات، وأن أعاصر كل شخص كان يقول شيئًا ذا قيمة: من جيمس براون وبوب ديلن(103) إلى فرقة بيتلز(104) ومجلة رولنغ ستونز(105) ومارفين غي(106)

---

103) بوب ديلن Bob Dylan: ولد في 24 أيار 1941. مغنٍ وملحن وشاعر وفنان أمريكي يتمتع بصوت رائع ومرن، لقد كان شخصية مؤثرة في الموسيقى والثقافة الشعبية لأكثر من خمسة عقود.

104) فرقة البيتلز- الخنافس The Beatles: هي أشهر فرقة روك غنائية بريطانية تشكلت في ليفربول في عام 1960، وأصبحت أكبر الفرق الموسيقية نجاحًا وأشهرها في تاريخ الموسيقى الشعبية.

105) مجلة ذى رولنغ ستونز The Rolling Stones: هي مجلة أمريكية تصدر كل أسبوعين، مخصصة للموسيقى والسياسة الليبرالية والثقافة الشعبية.

106) مارفين غي Marvin Gaye : ولد في 2 نيسان 1939 وتوفي في 1 نيسان 1984، مغنٍ أمريكي وكاتب أغاني وموسيقي من أصول إفريقية، وقد سيطر لأكثر من عقدين على ساحة الغناء الإفريقي في أمريكا.

وستيفي وندر[107] وفرقة تيمبتيشنز[108] وجيمي هندركس[109] وسلاي ستون[110] وعلى رأسهم بالطبع مايلز ديفيس -الذي توج الستينيات بألبومه الرائد بيتشز برو والذي عدّه البعض أفضل عمل فني موسيقي في القرن العشرين، وكان على الأغلب نقطة تحول في اختراع موسيقى الجاز نفسها- كان الألبوم بالنسبة لي بمثابة قدر كبير صب فيه مايلز ديفيس كل شيء كان يحدث -تاريخيًا، وسياسيًا، واجتماعيًا، ومتطرفًا، وموسيقيًا- وقام بخلطها جميعًا مع كل شعور مفرح ومؤلم، وكل بذرة أمل وخوف، وكل لحظة سعادة، وحزن، وغضب، ونشوة. وخلق من خلطته هذه انصهارًا عظيمًا.

كان هذا الانصهار أشبه أيضًا بتعبير موسيقي، عبّر عن كل ما كان يدور في حياتي الشخصية خلال مرحلة المراهقة، شراب مخمر بانغماسات جديدة وقديمة تغلي على نار هادئة. مع وصولي إلى سن البلوغ، أصبح لدي هوس مستمر بالبنات والجنس على نحو لا يصدق. أحببت كل شيء يتعلق بهما. أثارني، لعدة سنوات، كل شيء كان يدور حول الجنس الأنثوي. فجأة،

---

107) ستيفي وندر Steave Wonder: ولد في 13 أيار 1950، مغنٍ وملحن وكاتب أغاني ومنتج موسيقي من الولايات المتحدة اسمه الحقيقي ستيفلاند هاردوي جودكتز. أصيب بالعمى بسبب مشاكل صحية في صغره، تعلم عزف البيانو في سن السابعة.

108) فرقة تيمبتيشنز The Temptations: هي فرقة أمريكية بارزة ظهرت خلال الستينات والسبعينات. واشتهرت برقصها، وتنوعاتها المتميزة، وكان لها تأثير مهم في تطور موسيقى السول.

109) جيمي هندركس Jimi Hendrix : ولد في 27 كانون الثاني 1942 وتوفي في 18 أيلول 1970. وهوعازف بلوز وروك أمريكي من أصل إفريقي، عرف بمهارته في عزف الغيتار الكهربائي. كان له تأثير كبير على التغييرات في موسيقى الروك إن رول. كما ساهم في تطوير آلة الجيتار الكهربائي وإدخال بعض الخواص عليها.

110) سلاي ستون Sly Stone: ولد في 15 آذار 1943، في تكساس وهو موسيقي أمريكي، وكاتب أغاني، ومنتج، اشتهر بدوره في سلاي وفامليستون، وهي الفرقة التي لعبت دورًا جاسمًا في تطوير موسيقى السول. اشتهرت في الستينيات والسبعينيات.

أصبح كل شيء يثيرني ويجعلني أنتصب، لقد بدأ الأمر مبكرًا بدون أي سابق انذار. كنت أنتصب أثناء التدافع على المكان لدى ركوبي الحافلة. لم يفسر لي أي أحد أن ما كنت أمر به هو أمر طبيعي أو عندما كان قضيبي يتضخم أحيانًا ويصبح صلبًا لدرجة تجعلني أفكر بأنه سينكسر، أو سيحدث له شيء فإنه من الطبيعي أيضًا أن أشعر بتلك الطريقة وليس من المرجح حدوث ما أفكر به.

فمن ناحية، أن تكون لديك القدرة على الشعور بطاقة مفرطة هو أمر خارق كأن تصحو يومًا لتجد نفسك تمتلك سيارة رياضية قوية وباهظة الثمن، من دون أن تطلب ذلك. ومن ناحية أخرى، كونك مراهقًا ومع تقلب الهرمونات في جسمك، ومع وجود فرص محدودة لتفعل أي شيء حيال الأمر، كان الأمر أشبه بامتلاكك لنفس السيارة الرياضية القوية غير أنك لا تملك رخصة لقيادتها بعد! أتيحت لي عدة فرص لأختبر قدرتي، لكني ولحين حصولي على حبيبة في حياتي، استمررت بفعل نفس الأشياء التي تعودت فعلها عندما كنت ولدًا صغيرًا أعيش مع الخال ويلي، كتلك المرة التي حاولت فيها أن أجذب انتباه ابنة الجيران، وذلك من خلال وقوفي على صندوق الحليب الموضوع تحت شباك غرفة نومها وأدى ذلك إلى كسر عظم ركبتي. كانت أغلب محاولاتي لعزف السرينادة[111] تبوء بالفشل.

أكثر ما كان يحيرني هو حدوث الانتصاب في لحظات غير ملائمة، مثلما حدث مع السيدة العجوز صغيرة الحجم التي كانت تدفع لي مبلغًا من المال لكي أجرف لها الثلج عن الطريق، وأقوم ببعض المهام لمنزلها عندما

---

111) عزف السرينادة Serenade أو أحيانًا Serenata: هو عمل موسيقي يعرض على شرف شخص ما. تكون السرينادة عادة عملًا موسيقيًا هادئًا وخفيفًا. تعد السرينادة في الأصل أغنية ليلية يغنيها الحبيب في الهواء الطلق في الليل تحت نافذة حبيبته.

احتاجت مساعدتي للنهوض من على الأريكة: «هلا ساعدتني لأنهض يا كريس، أمسكني حتى أقف معتدلة على قدمي؟»

"حاضر، سيدتي." أجبتها وساعدتها بلطف لكي تصبح بوضعية الوقوف، وبينما كنت منحنيًا لكي أرفع العجوز الهزيلة ذات السبعين عامًا، والتي عانت من عدم وضوح الرؤية، انتصب قضيبي. كان هذا المشهد مخيفًا بالنسبة لي أكثر من أي مشهد رأيته في أفلام الرعب التي أنفقنا أنا وصديقي غارفن كل ما كنا نملك عليها، لدى ذهابنا لمشاهدة الأفلام في مسرح أويسس في شارع السابع والعشرين وسينتر. ورغم أنني أدركت فيما بعد أن الانتصاب لم يكن سوى تموج ينتج عن انفعالات تحدث في جسم الإنسان يمكن أن تكون عفوية أحيانًا، وليس لها أي علاقة بالانجذاب لامرأة عجوز، إلا أنني كنت ما زلت مرعوبًا لدرجة جعلتني أنهي عملي لديها.

كانت أوفيليا هي الشخص الوحيد الذي ربما قد أفضي له ما أمر به مؤخرًا من حيرة، لكني لم أعد أفعل ذلك منذ انتقالها مع ديشانا من المنزل. مررنا أنا وأخواتي الصغريات بوقت عصيب منذ رحيلهما. على الرغم من اختلاف أبوينا، إلا أن الأمر لم يؤثر على تنشئتنا. كانت أخواتي الصغريات وكنت أنا أخاهم الوحيد بكل بساطة. هكذا تربينا لأن أمي أصرت على تربيتنا دون تفرقة، ولأننا كنا فريقًا واحدًا: نحن ضد فريدي. استخدمت أختي الصغرى كيم فيما بعد اسم عائلة غاردنر أيضًا في كل أوراقها الرسمية، رغم أنها كانت من عائلة تريبلت. ربما تشاركنا أنا وكيم وشارون نفس الأمنية في أن يكون سام سالتر أبانا نحن أيضًا. أساء فريدي معاملتنا جميعًا على حد سواء، فكونه أباهما الحقيقي هو أمر لم يغنهما عن إساءته.

كان السر الذي أفضيت به لأوفيليا حينما رأيتها هو انشغالي المستمر

في وضع حد لوحشية فريدي وله أيضًا، حتى لو اقتضى الأمر أن أدخل السجن. ولأن فريدي كان السبب وراء مغادرة أوفيليا المنزل -لدرجة أنه قام بشن حملة عليها ليرغمها على المغادرة- تفهمت أوفيليا دافعي لقتله. بداية، كانت في كل مرة تخرج فيها في موعد مع أحد، كان فريدي يظهر في وقت الموعد ليحرص على أن يجعل الفتى يشعر بالاشمئزاز؛ فكان على سبيل المثال يتحدث عن ملابسه الرثة، أو يضرط، ويتجشأ، ويحدث صوتًا عاليًا أثناء شربه، ويفعل أي شيء من شأنه أن يجعل أوفيليا ترغب بأن تغيب عن الوجود من فرط خجلها. ومنذ ذلك الحين فصاعدًا متى ما كان لديها موعد مع أحد، كان الفتى يكتفي بالضغط على بوق سيارته فقط، كي تهم هي بالخروج من المنزل دون رؤية فريدي.

وأصبح فيما بعد يدقق في كل شيء تفعله في المنزل، بحجة أنها لم تكن تفعله بالطريقة الصحيحة. وعندما تصاعد الخلاف بينهما في إحدى المرات، حذرها من أن ترد عليه بوقاحة وإلا سيضربها، فحاولت أوفيليا أن تغرب عن وجهه، لكنه اعترض طريقها وجأر قائلًا: «إما أن أضربك أو تخرجين من المنزل. اختاري أحد الأمرين!»

كانت القشة التي قصمت ظهر البعير هي عندما بدأ يدخل خلسة غرفة نومها التي كانت تنام فيها مع ديشانا وشارون وكيم، حيث كن ينمن على سرير واحد وكانت الطفلة تنام في مهدها.

وفي ليلة شعرت أوفيليا بصوته في الغرفة وكانت خائفة من أن يؤذي ديشانا، فقامت بالتقاط منقلة كبيرة الحجم كنت أستخدمها في مادة علم الهندسة، واستخدمت الطرف المدبب لتجعل فريدي يعلم: «إذا دخلت إلى الغرفة وضربتني فسوف أقوم بقتلك.»

بعد مرور يومين خرجت أختي وابنتها ولم يعودا مرة أخرى، وذهبتا

للعيش مع ابنة خالتي أيلين في شارع الثامن، الذي كان يبعد منزلين عن منزل سام سالتر. رأت أوفيليا والدها كل يوم، وعرفت زوجته وأولاده، وفي كل مرة كانت تحتاج شيء أو تطلب منه مساعدة كان يلبي النداء، رغم أنه في كل مرة كان يخبرها أن هذين الدولارين آخر ما بحوزته.

كنت أزور أوفيليا متى ما سنحت لي الفرصة، وكنت أشاركها بعضًا من همومي وأسراري، لكن ليس جميعها.

الفصل الخامس

ألبوم بيتشز برو

(الوجه الثاني)

"ماذا تفعل؟" سألت غارفن بينما كنا أنا وهو وصديقنا السمين سام، عازف الجيتار، ذاهبين في طريقنا إلى وسط المدينة لمشاهدة فيلم في ليلة جمعة، ومررنا بمسرح أوديتوريوم وغارون، فإذا به يتوجه مباشرة إلى الباب الأمامي.

كانت إحدى ليالي فصل الربيع المعتدلة، بعد مرور فترة قليلة من عيد ميلادي الثالث عشر، وصادف أن يكون أحد آخر أيام معرض هوم أند غاردن، وهو تجمع كبير يحدث كل عام، حيث اقترح علينا غارفن أن نتسلل ونشاهد ما كان يعرض. حالما فتحنا الأبواب، تدفقت أفواج من الناس إلى الخارج، فانسابت أقدامنا معهم نحو الداخل من دون أن ندفع رسوم الدخول.

قال سام السمين: "فلنتوارَ عن الأنظار لبعض الوقت." واقترحت أنا أن نتوجه إلى السلالم ونستلقي بين مدرجات المسرح.

سرعان ما أخليَ المكان، وكانت الأجواء شبه معتمة، مع وجود ضوء ضئيل منبعث من علامات الخروج على امتداد الممرات. حبسنا أنفاسنا بينما مر حارس كان يقوم بدورية تفقد أخيرة في المكان، حاملًا معه مصباحًا يدويًا. ومن ثم أخيرًا أصبحنا في أمان، فقصدنا وجهتنا الأولى: معرض خبز وكعك، مليء بكعكات الأعراس، ولفائف الجلي، والمعجنات، وقطع الخبز الطازجة، كل شيء يبدو شهيًا بشكل خيالي، كمنظر المعرض الذي لم نبق عليه شيئًا. أكلنا حتى شبعنا، وملأنا جيوبنا لنأكل في وقت لاحق، وبدأنا برمي الدونات المغطاة بمسحوق السكر على بعضنا البعض وكنا نضحك بشكل هستيري على وجوهنا المكسوة بزغب سكري أبيض.

دعانا غارفن متحمسًا لنذهب إليه ونرى ما وجده في المعرض الثاني. انضممنا أنا وسام السمين إليه وذهلنا من المنظر. معرض فاق الروعة فيه كل شيء يمكن لثلاثة أصدقاء موسيقيين أن يحتاجوه كي يصنعوا موسيقاهم الخاصة بهم: مكبرات صوت، وأجهزة ستيريو، وأجهزة راديو ترانزستور، وميكروفونات، وأجهزة تسجيل ذات شرائط بكرات. كنا نعرف أن أخذ أي شيء يعد جريمة لكننا كنا ثملين في الأساس من كمية السكر التي تناولناها، وفجأة حلت تطلعاتنا الموسيقية محل رأينا السديد. لم نكن سوى أولاد في متجر حلوى! بعد أن أخلينا جيوبنا من المعجنات لنضع محلها أجهزة الراديو وبكرات الأشرطة، قمنا بحمل الأغراض الأكبر حجمًا وجمعناها سوية وقمنا بدفعها بأي طريقة ممكنة. قال سام بأنه سيأخذ مجموعة مكبرات الصوت من نوع فوكس وسيحملها على العربة، بينما طالبت أنا بأخذ جهاز تشغيل شريط البكرة من بين أشياء أخرى. كان الأمر أشبه بلعب «هذه - الصفحة - تلك -الصفحة" في كاتالوج شبيغل مع أوفيليا، لكن هذه المرة كانت أغراضًا حقيقية.

كيف سنجلب كل تلك الأشياء إلى المنزل؟ تلك هي المصيبة. كان الأمر أسهل بالنسبة لسام لأنه كان يعيش في مكان قريب جدًا من مكان المعرض، لكنه لم يكن بالأمر السهل بالنسبة لي أو لغارفن. تدبرنا أمرنا بين الأزقة واتجهنا نحو الجانب الشمالي، لنتخفى دون أن تلمحنا عيون الشرطة. في كل مرة كانت تسايرني فيها الشكوك، كان غارفن يحثني قائلًا: «لقد حصلنا على غنيمة رائعة يا رجل، ولم يتبق أمامنا سوى القليل.»

كان الجميع متواجدًا في الشقة في الطابق الثاني حيث كنا نسكن في ذلك الوقت، ولم يكن لدي مفتاح. ولكي أتسلل إلى الداخل، توجب عليّ أن أستخدم سلمًا كنت قد صنعته سلفًا من سياج حديدي كي أستطيع أن أرفع الأغراض المسروقة وأخبئها في غرفتي الصغيرة في الخلف، حيث لا يدخلها أحد. كنت منهكا لكن النصر بالغنيمة أنساني تعبي، استرخيت، وتطايرت الأحلام من حولي، فشاهدت نفسي وأنا أسجل أول ألبوم جاز لي وأكسب أيضًا نقودًا إضافية من بيع بقية الأغراض الإلكترونية التي لا أحتاجها. بدأت سرعة قدراتي في التركيز تتضاعف وأصبحت أفكر، من سيشتري البضائع المسروقة؟

في ظهيرة اليوم التالي، خرج الجميع من الشقة، وبينما كنت مشغولًا بكنس السلالم في الممر الأمامي للبناية -أحد الأعمال التي أقوم بها بدوام جزئي، مقابل خمسة دولارات كان يعطيها لي صاحب البناية- عادت مجموعة من الجيران الجدد في البناية من جولتهم. للحظة، أوعز لي حدسي أنني لا أعرف شيئًا عن هؤلاء الأشخاص. كانوا سكانًا كثيري الصخب، ومولعين بالجدل ولم يبد عليهم أنهم أفراد عائلة واحدة بل مجرد مجموعة من الشبان يتقاسمون إيجار المكان على الأغلب. تصرفت بكل هدوء، ولدى مراقبتي لهم وهم يصعدون السلالم، لاحظت وجود

ثلاثة آخرين معهم لكنهم ليسوا من سكان العمارة. بدا أنهم كانوا شبانًا مسالمين، ليسوا من النوع الذي سيبلغ عن ولد لبيعه أجهزة إلكترونية رائعة. أصغيت لحدسي، ورفعت رأسي وتركت الكنس جانبًا وقلت لأحد منهم كان على ما يبدو أنه رئيس المجموعة: «مرحبًا يا رجل، أترغب في شراء أجهزة تسجيل؟ أو أجهزة راديو؟"

نظر إلى صديقيه، وهز كتفيه وقال: «بالطبع، لنذهب ونرى ماذا لديك.»

رائع. أصبحت الآن السيد محتال[112]، الموهوب بالفطرة. تبعني الثلاثة إلى شقتي ومن ثم إلى أسفل الردهة نحو غرفتي حيث أريتهم مخبئي. وبينما كانوا يتفقدون الأغراض، ويتحدثون عن أنهم ليسوا مهتمين بإجراء صفقة، أنذرني حدسي هذه المرة أن هؤلاء الأشخاص سيئون وبأنني قد ارتكبت خطأ فادحًا وأسأت الحكم. توجهت إلى الممر نحو حجرة فريدي التي كان يخبئ بها بندقيته، وشعرت برعشة خوف تتملكني لكنني حاولت أن أتمالك نفسي. حالما دخلت الحجرة وذهبت لأجلب البندقية أمسك رئيس مجموعتهم ذراعي، وجرني خارج الحجرة، وانقض ثلاثتهم عليّ ودفعوني نحو الأرض، دون أن يؤلموني، لكنهم قيدوني بطريقة كانت كافية لجمعهم كل الأغراض وذهابهم، وهذا ما آلمني حقًا.

اشتطت غضبًا منهم بقدر غضبي من نفسي، أحبطت للغاية فليس باليد حيلة، وأدركت تمامًا أنني لن أستطيع الاتصال بالشرطة، وبالتأكيد لن أستطيع إخبار العجوز فريدي. كما لو أنني لم أكن لوحدي وحظيت بالمساعدة، جلست والغليان يتدفق من كل مسام جلدي، محاولًا أن

---

112) السيد محتال Mr. Hustler: شخصية شخص محتال من فيلم The Hustler المحتال، أنتج في الولايات المتحدة وصدر في سنة 1961.

أرسم مشهد جريمة لكل واحد منهم في رأسي. كنت على الأقل سأجعل سام وغارفن يراقبان أولئك الأوغاد، الذين تراوحت أعمارهم ما بين نهاية العشرينات وبداية الثلاثينيات. كان رئيس مجموعتهم ذا بنية اعتيادية، غير محدد الأوصاف، بينما كان الرجل الثاني طويلًا بعض الشيء وهزيلًا، وأيضًا لم يكن مظهره ذا ميزة معينة، لكن الرجل الثالث -الذي بدا متراجعًا للخلف عندما انقض الاثنان الآخران عليّ- كان مميزًا بطريقة مشيته؛ فقد كان يعرج بوضوح، لربما كان كسيحًا، أو لديه شلل، نتيجة لعاهة جسدية وليس إصابة نتيجة حادث.

دون وجود أي مساعدة، ودون أخذ أي عبرة مما حدث لي، شعرت بالقرف ولم يكن باليد حيلة سوى العودة إلى كنس السلالم. وكعادتي، غيرت مجرى تركيزي محاولًا أن أنسى مهمتي الفاشلة في أن أصبح السيد محتال.

"مرحبا" اقترب صوت خافت مني بعد مرور عشرين دقيقة تقريبًا. نظرت فرأيت الرجل الأعرج، واقفًا هناك حاملًا كيس بقالة. قال لي: « لقد أتيت لأعيد لك بعضًا من أغراضك. وجلبت لك بعضًا من المال أيضًا.»

رائع. ذلك من شأنه أن يخفف حدة الموقف. عدنا إلى الشقة وقمت بإجراء جرد سريع للأغراض التي أعادها. كانت ثلث الأشياء تقريبًا موجودة، حصته على ما يبدو، لكن جهاز التسجيل بشريط البكرة لم يكن موجودًا. ناولني عشرة دولارات، وبينما ذهبت لأضع النقود في جيبي، وبدلًا من أن يذهب باتجاه الباب ليهم بالخروج، تقدم نحوي قائلًا: «لقد أسديتك صنيعًا، وجاء دورك الآن لكي ترد لي الجميل.»

"بالطبع." قلت له: «ماذا تريد؟»

"أريد منك الحصول على المتعة."

"بالطبع لا" اعترضت، معتقدًا أنني أملك الحق في أن أرفض وأنه ما

زال لدي فرصة للاحتيال عليه كي يخرج. لكنني أسأت الحكم مجددًا.

خلال العشر دقائق أو الخمس عشرة دقيقة التي تلت، أو أقل، لم تمض الأحداث بالسرعة العادية: مضت أجزاء منها بالحركة البطيئة ومضت أجزاء أخرى بسرعة مخيفة. لكن، حتى وإن لم أكن أتعقب مسار الوقت، فإنني أستطيع أن أتذكر كل تفصيلة لما حدث، منذ اللحظة التي سحب فيها السكين ووضعها على عنقي، وحتى إمساكه لي بقوة من الخلف، وسحبه بنطالي للأسفل، ووضع قضيبه بين فخذي، ولغاية تسجيلي لحالة الرعب المشوشة التي أصابتني حينما انتصب قضيبي جراء الإثارة، والرعب الحقيقي جراء رفعه لي في وضعية كي يتمكن من اغتصابي من الخلف، على أرضية غرفة الجلوس. ما زلت أتذكر كل صوت، وكل نفس، ورائحته التي طغت على كل شيء، رائحة زنخة كادت أن تكون غير بشرية. ألم حار أبيض تدفق مني على بلاط الأرضية الصلب والبارد.

بعد أن انتهى قال: «لا بأس.» رفعني من ياقة قميصي، ومن ثم دفعني إلى الممر، نحو باب الحمام، وأرغمني على النزول على أرضية الحمام، واغتصبني مرة أخرى. كان عقلي يستوعب أنه اعتدى عليّ مرتين، لكن مشاعري لم تستطع مجاراة ما حدث، كل شيء امتزج بالخوف من أنه سيقوم بقتلي بعد أن ينتهي. لكن ما قاله بعدها هو ما أثار غضبي.

"اللعنة، لم أصل للذروة."

في تلك اللحظة المرعبة التي فكرت فيها أنه سيقوم بإرغامي على فعل شيء آخر، توقف ثم وضع سكينه جانبًا، كأنه أدرك أن بقية أفراد المنزل قد يعودون قريبًا، وقام بإغلاق أزرار بنطاله، ومشى يعرج طوال الممر وغادر، لكن رائحته بقيت. كنت أشعر بغثيان، وقذارة دائمة، لكنني بدأت بتحليل الوضع محاولًا أن أضع خطة لما سأفعله. ماذا سأفعل. لا يمكن لأحد أن

يعلم بما حدث. لا أستطيع أن أخبر فريدي الذي سيقوم بنشر القصة في بار لوك وستعم في أرجاء المدينة كلها. لا أستطيع أن أخبر أمي التي ستود أن تعرف من أين أتيت بالأغراض وكيف دخل الرجل إلى الشقة من الأساس. ولا أستطيع أن أخبر الشرطة، لا أستطيع أن أخبر أي أحد. عوضًا عن ذلك، سآخذ تسجيل عقلي، وسألفه حول بكرة شريط، وأضعه بعيدًا عن تفكيري، سيظل موجودًا، ولن أنساه، لكنني لا أريده أن يعيش في وعيي كل يوم.

ساد الهدوء الكئيب أرجاء الشقة وانسابت مشاعر العجز والألم لتغمرني كلي. بدأت كآبة الحرمان من الأب تعبث في مخيلتي، وتستهزئ بي، قائلة لو كان لي أب، لما كان سيتركني دون حماية؛ كان سيحميني من هفوات الشباب أو من قطاع الطرق. ولكي أخرج تلك الأصوات من رأسي دخلت إلى غرفتي وأخرجت البوق من حافظته وبدأت أعزف بشكل روتيني، دون الشعور بأي عاطفة، مدركًا الآن أنه أصبح هنالك وغدان في هذا العالم ينبغي عليّ أن أقتلهما.

...

هل كان هناك أي شيء إيجابي يمكن أن يقال بحق فريدي تريبلت؟ فهو بعد كل ذلك، ما زال زوج أمي، في السراء والضراء. لكن أي جزء من حياتنا اليومية يمكنني أن أعده سراء؟ كنت في أغلب الأحيان أعيش معه أيامًا صعبة لذا لم يخطر ببالي أي أيام سراء فيما عدا أن أفراد عائلته المقربين والبعيدين كانوا في غاية اللطف. كان هنالك أخته بيسي الكادحة التي تملك البيت الكبير، ومعمل بيسي للشعر، المعروفة بكرمها مع جميع الأفراد ضمن شجرة العائلة بمختلف تفرعاتها. وكان هنالك أخته بيبي التي كانت تنحاز لطرف أمي على حساب أخيها دائمًا، حتى أنها كانت تنبهني أن أكون حذرًا عندما أتحدث -لربما كثيرًا- عن كيفية التخطيط لقتل فريدي.

لم تحاول بيبي أن تثنيني عن خططي، أرادتني فقط أن أنفذها بطريقة سليمة. أخبرتني: «كريس إذا علم فريدي أنك تحاول التفكير في كيفية قتله، فسوف يحضر بندقيته وسيقتلك قبل أن تقتله. هل تفهمني، صدقني سوف يقتلك، لذا تذكر ذلك جيدًا!»

كانت على حق. لم تعد الخطة مجرد تخطيط وحسب وإنما، اغتنام فرصة تبدو وكأنها قضاء وقدر، حتى لا يكشف أمري له ولا لأي شخص آخر. كنا أنا وأصدقائي نذهب إلى وسط المدينة لنشاهد مباريات مصارعة لغير المحترفين، وحتى وإن كان أغلب ما يحدث في تلك المباريات هو للعرض فقط -كما علمت لاحقًا، وخاب أملي كثيرًا- إلا أنني كنت قد تدربت في عقلي على توجيه ركلات سحق العظم شديدة القوة نحو فريدي. لابد أن يحدث الأمر بسرعة، لا أستطيع أن أسبب له عاهة مستديمة فقط، فهلاكه المطلق هو الحل الوحيد.

بعد مدة قصيرة من تحذير بيبي، أتت الفرصة على طبق من ذهب لأجعل فريدي يتعرض لحادث مميت مذهل، عندما ذهبنا أنا وهو كي ننقل ثلاجة إلى منزلها. أمرني فريدي بصوت عال وأخبرني أن أذهب إلى الأمام وأن أرفع العربة إلى الأعلى، بينما يقف هو في الأسفل، ومن ثم يقوم بدفع العربة والثلاجة صعودًا على السلالم. وفي توقيت ممتاز، قمت بتخطي درجة من السلم، متعمدًا، وتركت الثلاجة لتفلت مني. كانت نظرة الرعب والحيرة على وجهه لا تقدر بثمن، وكأنها لوحة فنية، ومن ثم وقعت الثلاجة على صدر فريدي وتدحرج الاثنان نحو الأسفل. «اللعنة!» هي كل ما قاله عندما سقطت الثلاجة عليه «بمحض الصدفة.» وقع وتدحرج إلى الوراء، وبدأ يشهق أنفاسه الأخيرة، وقبل أن تسحقه الثلاجة مودية بحياته، أسند نفسه، ونفخ صدره، ووقف على رجليه، وقام برفع تلك الثلاجة الحديدية

الثقيلة بيديه وأعادها إلى مكانها ومن ثم رفعها إلى أعلى السلم.

لقد كان غودزيلا بحق. رمقني بنظرة شريرة، لكنه بالتأكيد لم يكن لديه أدنى فكرة أن الحادثة كانت مدبرة وإلا فإنه كان سيسحقني بالثلاجة. علمت بيبي، من خلال ملامح الخيبة التي ارتسمت على وجهي عندما قمنا بدحرجة العربة إلى الداخل، حقيقة ما حدث على السلالم.

إضافة إلى بيبي وأخوات فريدي الأخريات، كنت مولعًا أيضًا بصديق له أصبح عمي بالتبني، رجل كان الجميع يناديه باسم «دودابغ»؛ لقب لربما يرجع أصله إلى «رقصة الحشرة»[113] أو ربما لسبب آخر. تحدث الجميع عن مدى قبح شكله، بدا وكأن الرب قد ضرب وجهه بمجرفة. كان قصير القامة، ونحيلًا، وعديم الأسنان، وكان يسكر طوال اليوم، لكن الجميع كانوا يحبونه، على الرغم من أنه لم يكن من أقربائنا. كان في السابق رجلًا لعوبًا يرتدي أكثر الملابس أناقة، ويصاحب أجمل النساء، ويمتلك عدة سيارات، ولديه الكثير من المال، لكنه وقع في حفرة البطالة والكحول ولم يخرج منها أبدًا. كان يمثل بالنسبة لي درسًا آخر عن مخاطر الإدمان، وأصبح أيضًا مثالًا حيًا للقول المأثور: «الإرادة تصنع المعجزات" لا تسألوني كيف فعلها، لكنه عندما قرر أن يمنحني هدية مميزة لم يعطني أحد مثلها من قبل، وفى بوعده وقدم لي أول زوج من الثياب الداخلية الحريرية مع تيشيرت أسود حريري تلاءم مع الثياب الداخلية. ارتديتهم حتى اهترؤوا ولم يتبق شيء سوى المحزم.

كان العم دودابغ يظهر أفضل ما بشخصية فريدي. عندما كانا يذهبان إلى بار لوك الذي كان فريدي يسير فيه وكأنه يملك المكان، ولأنه

113) رقصة الحشرة Do the bug: أغنية ل دون كوبر Don Cooper تم إصدارها ضمن ألبوم بوغي ووغي بغز Boogie Woogie Bugs.

كان شخصًا حقيرًا، فإن أي شخص كان يزعج العم دودابغ كان يخبره: «إن تعرضت إلى دودابغ فسوف تضطر لمواجهتي.»

لكن طبيعة فريدي الوقائية تلاشت خلال جولة قام بها مع دودابغ. عندما شعر العم دودابغ بالنعاس كانت السيجارة في فمه وهو يجلس على المقعد الخلفي في أعز ما يملكه فريدي؛ سيارة «كاديلاك كوب دو فيل» ذات اللون الأزرق الفاتح، طراز 1964. كان سقفها مصنوعًا من مادة الفينيل الأزرق الغامق، ودواخلها زرقاء غامقة، وكانت مؤخرتها تشبه ذيل السمكة، كتلك التي كان يمتلكها ألفيس بريسلي. كانت تلك الكاديلاك -الشبيهة بسيارة ألفيس مع بعض التحويرات- مكانه المقدس الذي لم يجرؤ أحد على إيقاع نقطة عرق على مقاعدها. لا أحد سوى العم دودابغ الذي غلبه النعاس ولم يلحظ وجود رائحة شيء يحترق حتى ظن فريدي -الجالس في مقعد القيادة- وأنا أجلس بجانبه في المقعد الأمامي، أن الرائحة تأتي من تنجيد أرضية المقعد الخلفي. وفجأة، ابتلعت النيران العم دودابغ والمقاعد الخلفية. أطفأ فريدي النار بصودا البرتقال التي كنت أشربها، وقام بشتمه بأعلى صوته: "اخرج من سيارتي، أيها السكير الوغد! اخرج من سيارتي اللعينة!»

لحسن الحظ لم يصب أي أحد بأذى، على الرغم من أنني لم أستطع تمالك نفسي من تخيل مشهد ننجو فيه أنا والعم دودابغ من جحيم النيران التي أودت بحياة فريدي.

رغم ما حدث، فقد كان دودابغ يظهر الجانب الرقيق من فريدي. لا أعرف بالضبط ما الذي جعل فريدي يصبح بتلك الوحشية، كانت المرة الوحيدة التي بدا فيها وديعًا هي عندما كان يبحر في النهر على متن أي نوع من المراكب ومعه أفضل معدات الصيد وقنينة النصف لتر من الويسكي. في الحقيقة، لو كان بالإمكان أن يظل فريدي قابعًا في صيد البرية أو السمك،

لكان مزاجه سيبقى جيدًا. كونه ولدًا تربّى في ريف ولاية مسيسيبي، كان الأجدر به ألّا يعيش في المدينة. عندما كان فريدي يقضي وقته في الخارج، كلما كان أبعد عن جو المدينة، كلما أصبح في أحسن حالاته. كنت في بعض الأحيان أذهب للصيد معه ومع بقية أفراد العائلة من كلا الجانبين: غاردنر وتريبلت، وأحيانًا كنت أذهب معه هو فقط. عندما كنا نخرج ضمن مجموعة كنت أشعر أنني في الجنة، وأنا أستمع إلى الرجال الذين يتحدثون عن قصص صيدهم في متجر بيع طعم الأسماك، وأرى أماكن جديدة في المناطق الريفية من ويسكونسن ومينيسوتا، وكنت أحب ليالي الصيف وأيامه، وأنا أتعلم فيه فن الصيد وعلومه لأكون صيادًا ماهرًا، وأمسح عن جبيني العرق في يوم حار جدًا، وأحاول أن أجد بقعة في الظل لأنعم بنسيم بارد.

لكنني عندما كنت أذهب مع فريدي للصيد لوحدنا، كان عليّ أن أكون أكثر حذرًا. كنت على هذا الحال منذ أن أصبحت ضخمًا وبت أشكل مصدر خطر أكبر بالنسبة له، لذا كان يجرب أي طريقة ممكنة ليبقيني تابعًا له، وكان يأخذني معه في رحلات صيد كهذه لربما حتى أصبح عبدًا له مثل هكلبيري فن(114) ولكن بنسخة سوداء، أو شيئًا من هذا القبيل. ليس لأنني كنت أثق به أو أطيقه، لكنني كنت أستمتع حقًا بالصيد وكنت أشعر بالأمان قليلًا عندما لم يكن يحمل معه أي أسلحة.

114) هكلبيري فن Huckleberry Finn: هي رواية من تأليف مارك توين والتي نشرت في العام 1884. وهي تعد أحد أعظم الروايات الأمريكية، تتميز الرواية بوصفها المفعم بالحيوية للأشخاص والأماكن على طول نهر المسيسيبي، وتمثل تهكمًا ونقدًا للمجتمع الأمريكي في جنوب الولايات المتحدة قبل الحرب الأهلية، وتوجه الرواية نقدًا لاذعًا لبعض التوجهات السائدة في ذلك الحين وخاصة التمييز العرقي. وتعد صورة هاك وصديقه جيم الذي كان عبدًا هاربًا من سيده في رحلتهما على نهر المسيسيبي على الطوف أجمل رمز لمفهوم الهروب والتحرر من ربقة العبودية في جميع أعمال الأدب الأمريكي.

أما أثناء تواجده على سطح الماء، فقد كان يسكر لكنه لم يكن يتصرف بجنون. مرت لحظات عابرة تجسدت فيها صداقة متينة بيننا عندما كنا نطبخ ما اصطدناه في مقلاة فوق النار ونجلس على ضفاف النهر ونأكلها هناك. ثمة لحظات شعرت فيها بوجود إحساس السلام في داخله عندما كنا نتواجد على متن القارب، ننتظر السمكة لتأكل الطعم، نحن الاثنان فقط والسماء صافية، ولم تكن الشمس قد بلغت أعلى ارتفاعها في السماء.

لكننا حال عودتنا إلى المنزل كان يعود لعادته القديمة، يضرب أمي ويضربني ويضرب أخواتي، يحضر بندقيته ويقوم بإيقاظنا جميعًا في منتصف الليل ليخبرنا أن نخرج من «منزله اللعين"، فضلًا عن أنني كنت أحرص على تجنب رحلات الصيد البرية معه لكن الحق يقال، لقد كان يعود من صيده محملًا بالكثير. أحب فريدي أن يطلق على نفسه «صياد الحي الأبيض العظيم»؛ لأنه كان بإمكانه أن يصطاد، أو ينصب فخًا، أو يقتل أي شيء يمر أمامه في الغابة. لم تكن تلك بمبالغة فيما عدا الجزء الخاص بـ"الأبيض." كان يجلب إلى المنزل كل أنواع الحيوانات مثل: الراكون، والسنجاب، والأرنب، والأبوسوم، والسلحفاة، والإوز والبط، ومختلف أنواع الطيور. من أكثر الأشياء التي ندم عليها هي أنه لم يصطد غزالًا قط، على الرغم من أنه جلب واحدًا إلى المنزل وكان مربوطًا بمؤخرة سيارته الكاديلاك، وكأن قتل بامبي[115] بالنسبة له كان أمرًا يستدعي التفاخر. حتى أن سكارى البلدة لم يسألوه: «أين قتلته؟»؛ لأنه كان من الواضح أنه لم

115) بامبي Bambi: هي شخصية غزال من فيلم رسوم متحركة للمخرج دافيد هاند، عرض أول مرة عام 1942. يتحدث الفيلم عن غزال صغير يولد في الغابة ويصبح أميرها، كوالده ويصير صديقًا للحيوانات، منهم ثمبر الأرنب ومعًا يكتشفان أسرار الغابة، وتموت أمه على أيدي الصيادين ويقابل فالين صديقة قديمة من أيام الطفولة وسرعان ما يقعان في الحب وبعدها يقوم حريق في الغابة ويقوم بامبي بإنقاذ فالين والهروب من الصيادين.

يقتله وإنما دهسه بسيارته.

وسواء كنا نصطاد سوية أو كان يعود إلى المنزل ومعه كيس مليء بالأرانب والسناجب أو أي حيوانات أخرى، فإن عملي الرئيس في المنزل لم يعد قاضي الحاجيات بل أصبحت صبي فريدي الذي يخرج الأحشاء، ويقشر، ويسلخ، وينظف، وينزع المخالب، وينزع العظام. وليس بالأمر المفاجئ أن عملي هذا تضمن استخدام السكاكين الحادة جدًا.

عندما كان الأمر يتعلق بصيد السمك، كانت بنية أحشائه الداخلية تدهشني: من مثانة، ومعدة، وقلب، ورئتين، وخياشيم. ولم أكن أمانع إزالة قشوره، وأحشائه، وتنظيفه لأنني كلما أتقنت عملي كلما أصبح الطعم بمنتهى اللذة، عندما كانت أمي تقليه بعجينة البان كيك وكنا نأكله مع الخبز الأبيض والصلصة الحارة. لكني فيما بعد أصبحت أكره إزالة أحشاء الحيوانات الأخرى وتنظيفها. في البداية كنت مهتمًا بتلقي دروس حول تشريح الأعضاء الداخلية. وبالنسبة لشخص لم يستطع القراءة أو الكتابة فقد كان فريدي بارعًا في شرح كل عضو في جسم الحيوان من معدة، ومرارة، ومثانة، وكبد، وأعضاء حيوية لعدة أصناف أخرى. وعلى الرغم من أن أمي كان باستطاعتها طبخ أي شيء يأتي به فريدي للمنزل -تقليه مع الرز وصلصة اللحم، لكن شريحة لحم الضأن المشوية كانت هي الأشهى بالنسبة لي، مع خبز الذرة والخضروات، وبعض من اليام جانبًا- لكن تنظيف وسلخ أي شيء ذي فراء أو ريش أصبح أمرًا لا يحتمل بعد مرور فترة. كانت غنائم صيد فريدي المتنوعة ذائعة الصيت في منزلنا الصغير في 3951 – شمال الشارع الرابع عشر حيث كنا نسكن في الوقت الذي أصبحت فيه طالبًا في المدرسة الثانوية. كان السبب الرئيس وراء شهرتنا التي تخطت حي الغيتو ووصل صيتها إلى منطقة كابيتول درايف ومن ثم نحو الأحياء الراقية هو

الخال آرتشي، الذي أمتلك المنزل الذي كنا نستأجره. كان السمك يلقى في حوض الاستحمام والأبوسوم في المجمدة، ولم نكن نعرف ماذا يمكننا أن نجد بعد.

كانت تلك هي الحياة مع الرجل العجوز. وما بين فريدي اللطيف في الأماكن العامة والمريض النفسي، لم نكن نعلم من منهما سيحل ضيفًا على العشاء. كلما ظننت أنه سيتغير للأحسن، كنت أعود إلى المنزل لأرى مشهد جريمة جديد، والشرطة تجره مرة أخرى إلى المخفر. أصيب جميع أفراد العائلة بحالة فزع من تزايد عدد بنادقه. كانت أخت أمي غير الشقيقة ديسي بيل -التي تعيش الآن في شيكاغو- الأكثر قلقًا منه. (يبدو أن جميع الخالات الجنوبيات وبنات الخالة يحملن اسمين مثل بيتي جين، وديسي بيل، وليلي مي، وأيدي لي). حرص الأقرباء الأكبر سنًا على عدم ترك أولادهم، لاسيما البنات منهم، لوحدهم مع فريدي.

في إحدى المناسبات كنا أنا وأمي لوحدنا في المنزل، وعلمنا أن الخطر محدق بنا لدى عودة فريدي في أي وقت. وفي اللحظة التي دخل فيها، ودون أن تقول أمي أي كلمة، عرفت من عينيها أنها أرادت أن تخبرني: "اذهب واتصل بالشرطة." ذلك الرعب الذي تملكني وأنا أركض أقنعني من دون شك أنني في الوقت الذي سأصل فيه إلى الهاتف العمومي الذي يبعد عنا مربعًا سكنيًا ستكون أمي قد أصبحت في عداد الموتى. عدت مسرعًا إلى المنزل، وتخيلت مشهدًا داميا ينتظرني، تصاعد خوفي عاليًا حتى وصل إلى برج عملاق. كان شعورًا قام سبايك لي[116] فيما بعد بتصويره في فيلمه الذي يدور حول حركة الكاميرا بدلًا عن الممثل، استطاع أن ينقل لنا بالضبط

116) سبايك لي Spike Lee: ولد في 20 مارس ، 1957 . حائز على جائزة الإيمي، وجائزة أكاديمية، وهو مخرج أفلام أمريكي ومنتج وكاتب وممثل، أخرج عدة أفلام مثل مالكوم إكس والساعة 25.

كيف أن شبكة الأسلاك في أدمغتنا تنحرف عن مسارها أثناء حدوث أزمة. حالما وصلت إلى المنزل، رأيت رجال الشرطة قد صادروا لتوهم مسدسًا محشوًا، عيار38، من يد فريدي وكانوا يأخذونه إلى المخفر ليتم حجزه لليلة على الأقل.

بحلول عام 1970، أصبح عمري ستة عشر عامًا، وكنت طالبًا في المرحلة الثانوية ما قبل الأخيرة، لم أتصور صدقًا أن باستطاعتي العيش في قطار الموت بعد الآن. لكن أمي كانت تعلم بكل ما سيحدث لذا حثتني على التماسك، مشيرة إلى أنني كنت قد تخطيت سنة دراسية ولم يتبق لي على التخرج سوى عام واحد. في هذه المرحلة وجدت متنفسًا في العزف، ومصاحبة البنات، والتسكع مع أصدقائي، لكن المدرسة لم تعد الملاذ الذي كانت عليه في السابق. لم تعد الحياة الأكاديمية تمثل مصدر اهتمام بالنسبة لي، ووضعني موقفي ضد مبادئ المجتمع التقليدية أمام احتمالات لا تعد ولا تحصى، وجو مشحون بالتطرف والقمعية.

حدثت مواجهة كبيرة جدًا في سنتي الدراسية الثانية، عندما رفض مدرب فريق كرة القدم أن يجعلني ظهيرًا رباعيًا. كنت غاضبًا للغاية فلطالما كنت ظهيرًا رباعيًا في كل فرق كرة القدم التي لعبت فيها، منذ أن كنت ألعب كرة القدم في الشارع ولغاية لعبي في مواسم فرق الثانوية. كان الجميع يعرف أن بإمكان كريس أن يرمي الكرة. كانت كرة القدم هي سمعتي ومستقبلي، أو هكذا خيل لي، منذ أن أقنعتني أمي أنني لن أصبح عازفًا مثل ديفيس مايلز لأنه حصل على تلك الوظيفة مسبقًا. على كل حال، ترك مايلز منزل أهله في عمر السادسة عشرة وكان يقوم بجلسات

تدريبية مع تشارلي باركر[117] وديزي غيليسبي[118] في مدينة نيويورك. كنت أعزف في فرقة رائعة لكني فجأة لم أعد أرى نفسي في هذا المجال وأنا أطرح ألبومًا كألبوم بيتشز برو وقد لا تكون كرة القدم مهنة نافعة بالنسبة لي أيضًا، لكني كنت بارعًا فيها، وأفضل من يمكن ترشيحه كظهير رباعي.

لم يشاركني مدرب فريق كرة القدم في المدرسة الثانوية الموحدة تلك الرؤية. ألقى نظرة واحدة علي، ورأى أنني لست سوى فتى أسود، أصبح طوله مئة وخمسة وثمانين سنتمترًا، وكنت سأصل قريبًا لارتفاع مئة وتسعين سنتمتر، فقرر أنني أصلح أن أكون لاعب هجوم. أنا الفتى الضخم؟ سألعب على خط الوسط؟ لم يكن لدي أي شيء ضد لاعبي الهجوم الرئيسيين الذين يشكلون أهمية كبيرة بالنسبة لأي ظهير رباعي، لكن دور النجم كان الوظيفة التي كنت أحلم بها. بالإضافة إلى إتقاني فن مسك الكرة، امتلكت أيضًا البراعة، وفن التخطيط والقيادة لأفوز بمباريات كرة القدم وكنت أصقل تلك الصفات بالتدريب. التزمت بما أتيح لي، ورغم موافقتي للعب على الخط، إلا أنني استمررت بطرح الموضوع على المدرب حتى احتدت وطأة النقاش، وكان الأمر واضحًا أنه أراد إخراجي من الفريق. حاول اختلاق أي سبب لمنعي من اللعب وكان سيتصرف بعنصرية إن وجد السبب.

وجد السبب، الذي أخبرني به في مكتبه، وهو اكتشافه لوجود ممنوعات في خزانتي. هز كتفيه وأخبرني بأنني قد مُنعت من اللعب قائلًا: «أنت عنصر غير مشرف لما نحاول أن نحرزه في هذه المدرسة.» كانت

117) تشارلي باركر Charlie Parker: عازف ساكسفون أمريكي ولد في 29 آب 1920 وتوفي في 12 آذار 1955. لقب بالطائر أو Yardbird لما به من طابع ساخر.

118) ديزي غيليسبي Dizzy Gillespie: ولد في 12 تشرين الأول 1917 وتوفي في 6 كانون الثاني 1993. كان عازف جاز أمريكيًا مختصًا في عزف البوق، وكان قائد فرقة وملحنًا ومغنيًا في بعض الأحيان. كتب عنه موقع أول ميوزيك: «كانت مساهمات ديزي غيليسبي لموسيقى الجاز ضخمة، واحدٌ من أعظم عازفي البوق في موسيقى الجاز في كل العصور.»

الممنوعات عبارة عن كتب. ولكي أكون دقيقًا أكثر كانت: مت أيها الزنجي مت، وروح على الجليد، والسيرة الذاتية لمالكوم أكس.[119]

بسبب ما حدث انتهت أي رغبة كانت في داخلي تجاه الرياضة. امتزجت تلك الرغبة مع نشاطي المستمر، وملاحظاتي الجديدة حول الفجوة ما بين الأثرياء والفقراء، والسود والبيض، وأججت القصص التي بدأت أسمعها من الإخوة العائدين من حرب فيتنام في داخلي رغبة التمرد ضد الوضع الراهن أكثر. وبدلًا عن أن أصبح مناضلًا، تمردت من خلال خلق احتجاج خاص بي -مثل تسريحة الأفرو، وارتداء الملابس الملونة والخرز- ومن خلال تسليط طاقاتي في الفرقة التي كنت أحد أعضائها.

صادف أن تكون فرقة الواقعية على طراز فرقة جيمس براون، ومزيجًا من فرقة سلاي ستون وبدي مايلز[120]، وبالطبع كنت مولعًا تمامًا بالسيد جيمس براون، ولعدة سنوات وفي كل مرة كان يتواجد فيها في البلدة، كنت أحضر حفلته، لأستوعب وأفهم كل شيء كان يفعله هو وفرقته لكي أخلق في داخلي تلك الطاقة الخلابة.

في كل حفلة كنت أقطع الطريق آتيًا من بين صفوف المدرجات في ملعب مقاطعة ميلواكي الذي يحتوي على ستة عشر ألف معجب، وفي

---

119) السيرة الذاتية لمالكوم أكس The Autobiography of Malcolm X: نشرت السيرة الذاتية عام 1965 والتي كانت نتاج تعاون مالكوم إكس مع الصحفي أليكس هالي. شارك هالي في تأليف هذه السيرة حيث جاء بمصادره من الأحاديث الصحفية التي أجريت ما بين عامي 1963 و1965 وهو العام الذي اغتيل فيه مالكوم إكس. وهذه السيرة عبارة عن سرد تحول روحاني والتي تُشكل فلسفة مالكوم إكس عن فخر الجنس الأسود، وقومية الزنوج، واتحاد الأفارقة. بعد وفاة مالكوم ألّف هالي خاتمة الكتاب والتي يصف فيها تعاونهم معا ويُلخص نهاية حياة مالكوم إكس.

120) بدي مايلز Buddy Miles: ولد في 5 أيلول 1947 وتوفي في 26 شباط 2008، كان طبالاً، ومؤلفًا وملحنًا ومنتجًا. وكان عضوًا في فرقة جيمي هندريكس (1969-1970)، ومؤسس فرقة بدي مايلز.

الوقت الذي كان يصعد فيه جيمس على المسرح كنت أصل إلى الصف الأمامي. كان الجمهور الأسود في غالبه، يجن جنونه ويهتف عاليًا من قبل أن يفتح جيمس فمه، وكل أغنية يغنيها كانت تنال تصفيقًا منقطع النظير، وتمثل حالة دينية. كان هناك شيء غريب يدور حول أدائه لأغنية «أرجوك، أرجوك، أرجوك»[121] بكل ما تحمله من صوت أجش، وتذرع، وعاطفة جياشة، وحزن هادئ، وفي كل مرة كان أداؤه يحمل نفس الإحساس.

في إحدى الحفلات التي لا تنسى قفزت إحدى المعجبات على المسرح خلال تأديته لتلك الأغنية، ومزقت رداءه الوردي اللماع الذي كان يرتديه وقامت برميه على الجمهور. كان الشيء التالي الذي عرفناه هو انتشار حالة من الهيجان، الكل يمزق رداء جيمس بروان. أصبحت قطعتي الممزقة، التي كانت بحجم منشفة تقريبًا، أثمن ملكية حصلت عليها في حياتي في ذلك الوقت. أمي، التي كانت تعشقه أيضًا، كانت فرحة من أجلي عندما عدت للمنزل ومعي قصاصة الخلود الوردية.

تقليد صوت جيمس بروان -بإيقاعه وتذبذبه الذي فاق كل التوقعات- كان هدفًا مستحيلًا. لكننا لم نكن سيئين. كان المغني الرئيس في فرقتنا شابًا في العشرينات من عمره يدعى بيغ إيد، أكبر سنًا من معظمنا وكان هو من أسس الفرقة ومن ثم التحق بحركة عدم الانحياز[122]

121) أغنية أرجوك أرجوك أرجوك Please Please Please: أغنية لجيمس براون صدرت عام 1963. كتبها براون وجوني تيري.

122) حركة عدم الانحياز: Non-Aligned Movement تعد واحدة من نتائج الحرب العالمية الثانية ونتيجة مباشرة أكثر للحرب الباردة التي تصاعدت بين المعسكر الغربي (الولايات المتحدة وحلف الناتو) وبين المعسكر الشرقي (الاتحاد السوفيتي وحلف وارسو) وكان الهدف منها الابتعاد عن سياسات الحرب الباردة. تأسست من 29 دولة وتعد من بنات أفكار رئيس الوزراء الهندي جواهر لال نهرو والرئيس المصري جمال عبد الناصر والرئيس اليوغسلافي تيتو. انعقد المؤتمر الأول للحركة عام 1961.

واستمرت الفرقة من بعده بنشاطها. عندما عاد، التقط الميكرفون من حيث ما تركه. بالنسبة لمدينة ميلواكي كانت حفلاته التي يقيمها لا بأس بها، بصراخه وغنائه على الأرض، وبزيه المبهرج الغريب نوعًا ما، وبنطاله القصير مقارنه بطوله البالغ مئة وثمانية وتسعين سنتيمترا، وحزامه النحاسي الذي تلاءم مع ملبسه على نحو غريب. كنت أدرك في صميم قلبي أن الموسيقى لم تكن التذكرة التي ستجلب لي الشهرة والثروة، وكان هذا أحد الإدراكات الكثيرة التي سرعان ما حفزتني لأجد وظيفة بعد المدرسة وفي أيام العطل.

كان همي الآخر هو بيغ إيد الذي أصبحت تصرفاته غير مستقرة بعد عودته من فيتنام. مررنا أنا وغارفن في أحد الأيام على منزله لنراجع قائمة الأغاني التي سنتدرب عليها لذلك المساء، ومع وجود صوت التلفاز خلفنا، وصوت أحاديثنا، قام بيغ إيد فجأة، وسحب سلاحًا، عيار 45، وصوب باتجاه شاشة التلفاز من فوق رأسي بالضبط، ومن ثم ضغط على الزناد فانفجر التلفاز وتحول إلى قطع مفككة! ومن ثم وبدون تردد وضع السلاح جانبًا، وكأنه قد مارس لتوه نوعًا من أنواع خفة اليد، واستمر بحديثه وكأن شيئًا لم يحدث: «كريس، ماذا سنعزف الليلة؟»

خرجنا أنا وغارفن من منزله بأسرع ما استطعنا. «اللعنة.» قلت له، "كل ما كان عليه فعله هو تغيير القناة!"

اتضح فيما بعد أنه أطلق النار على عدة شاشات تلفزيونية، وكان على والدته أن تخبئ تلفازها في كل مرة كان يذهب لزيارتها.

تدخينه الحشيشة أفقده عقله. بعد مرور عدة ليالٍ كنا أنا وغارفن نجلس في سيارة متوقفة على جنب الطريق مع بيغ إيد الذي كان يدخن سيجارة مخدرات. عندما توقفت خلفنا سيارة شرطة، استطاع بيغ إيد أن يرمي ما تبقى من السيجارة قبل أن يقترب منا الشرطيان.

أمرنا الشرطيان بالترجل من السيارة، وقاما بتفتيش دواخلها المفعمة بالدخان. لم يجدا شيئًا، وقال أحدهما: «لابد أنكم كنتم تدخنون الماريجوانا هناك، لأنني شممت رائحتها، سأقوم باعتقالكم.»

قال بيغ إيد: «خذ الرائحة إلى المحكمة، ليس لدينا شيء هنا.»

كانت لحظة حرجة بالنسبة للشرطي الذي ارتسمت على وجهه ملامح الصدمة، وكأنه لم يستطع أن يصدق ما قد سمعته أذناه. لكن ما قاله بيغ إيد كان منطقيًا جدًا لدرجة جعلته ينجو بفعلته ولم يتلق من الشرطة سوى تحذير. زاد احترامي لبيغ إيد كثيرًا. فبالنسبة لشخص جن جنونه من أخبار التلفاز للدرجة التي جعلته يطلق النار عليه، كان يعلم جيدًا كيف يبقى هادئًا في مثل تلك المواقف.

اشتهرت أواخر الستينات وبداية السبعينات بالماريجوانا لكنها لم تكن شيئًا مقارنة بالمنشطات التي ظهرت في العقود اللاحقة. أما بالنسبة لي، وعلى الرغم من أنني كنت أحصل على متعتي من خلال شرب النبيذ الرخيص في تلك الفترة، إلا أن تدخين الماريجوانا كانت متعتي المفضلة. ومن ناحية أخرى، لم أرغب يومًا في الوصول إلى درجة عالية من النشوة لأنني احتجت أن أبقى محافظًا على تركيزي كي أكون قادرًا على التعامل مع أي ردة فعل مجنونة يقوم بها فريدي في المنزل في أي وقت.

عندما كنت خارجًا مع أصدقائي بعد ذهابنا لحفلة في نفس الفترة التي حدثت فيها واقعة الشرطة، قمت بتدخين عصا تايلندية[123]، وعدت إلى المنزل مذعورًا وكأنما أصابني مس من الجنون، أحمل معي علبة كبيرة من المأكولات الخفيفة. مشيت على أطراف أصابع قدمي ونزلت إلى الطابق

123) عصا تايلندية Thai stick: نوع من أنواع الماريجوانا تلف بحبل حول عصا سميكة من نبات القنب.

الأسفل نحو ثلاجة القبو لأبحث عن شيء لآكله، وفي اللحظة التي فتحت فيها باب الثلاجة سمعت صوت صياح أشبه بصوت طير. نظرت حولي، فوجدت نفسي وجهًا لوجه أمام إوزة حية. إوزة في قبونا! إما أن فريدي قد قام بتحويل القبو إلى محمية حيوانية أو أنني كنت منتشيًا جدًا.

اتضح أن فريدي كان قد جلب تلك الإوزة إلى المنزل، لتكون وجبة العشاء في الليلة المقبلة ليوم الأحد. هذا ما قاله فريدي عندما صحوت في اليوم التالي. ذهبنا ثلاثتنا: أنا، وفريدي، والإوزة المنحوسة إلى الباحة الخلفية وتوجهنا إلى طاولة تقطيع اللحم. عندما ناولني فريدي الفأس كانت أنفاسه مليئة برائحة الويسكي في وضح النهار، ومن ثم ابتسم ابتسامة شريرة، وكأنه يقول لي أن لدي الخيار بأن أقوم بقطع رأس الإوزة الحية، وهو أمر لم أرغب فعله بالطبع، أو -كما وردتني الفكرة- أنني سأحظى بأعظم فرصة لأفعل أخيرًا ما قد حاولت القيام به لعدة سنوات.

عندما ترددت بأخذ الفأس، قال لي: «سأقوم أنا إذا بقطع رأسها، اللعنة عليك. أمسك لي الإوزة.» شعرت بدوار وأنا أفكر بالفرصة، وأدركت بأنه كان يمنحني أحد الخيارين التاليين: إما أن أمسك الإوزة بينما يقوم هو بقطع رأسها بالفأس، أو أقطع أنا رأسها بينما يقوم هو بإمساكها. خيل لي ذلك السكير الوغد وهو يقطع أصابعي، لذا فضلت أن أضرب أنا بالفأس.

ظلت شفرة الفأس معلقة في الهواء، وأنا أنظر إلى الإوزة وكل ما تبادر إلى ذهني هو صورة لامرأة خائفة، وضعيفة، ومغلوب على أمرها، مثل أمي حينما يحلق فريدي فوق رأسها. نظرت إليه لأرى أي مكان من جسمه سأضربه بشفرة الفأس. كانت أكثر فكرة واعدة خطرت على بالي هي حساب هندسي دقيق: هل أستطيع تحقيق الزاوية المناسبة التي ستمكنني من خلق القوة والسرعة الكافيتين لأقتل فريدي بضربة واحدة؟ فأنا لا أستطيع

تقطيعه لعدة مرات. ليس لدي سوى فرصة واحدة، وضربة واحدة. أخذت نفسًا عميقًا، عشت فيه حياة كاملة من التأمل، وأنا أفكر بالقصة التي سأخبرها كي أفسر الحادثة، واسترجعت إخفاقاتي السابقة، فأنا لا أريد أن أخفق هذه المرة أيضًا. أخذت نفسًا أعمق، وأخرجته وضربت الفأس بكل ما أوتيت من قوة، وقطعت رأس الإوزة الأم.

اللعنة؛ بعد كل ذلك الوقت، حصلت أخيرًا على فرصتي الحقيقية لكنني لم أستطع اغتنامها. كان الشعور الوحيد الذي راودني بعد حساباتي الدقيقة هو الحرمان الشديد. وكأنما قد تدلت أمامي جائزة لكني لم أستطع الإمساك بها. قال فريدي: «أحسنت. لم يتبق عليك الآن سوى أولًا أن تنتف ريشها، وثانيًا أن تسلقها، ومن ثم ثالثًا أن تستخرج أحشاءها الداخلية.»

خاب أملي بكل شيء، بالرغم من أنني استغرقت عدة سنوات لأفهم أن فكرة محاولة قتل العجوز كانت ستدمر حياتي. لم يعد لدي أي مكان أصب فيه مشاعر الغضب تجاه فريدي، لذا قمت بتحويلها إلى المشاعر المخزونة في حساب الشخص الآخر الذي كنت ما زلت أتطلع لقتله، ثم أتتني فرصة للانتقام بعد فترة قصيرة من حادثة الإوزة.

كنت أعتقد أنني سألقاه يومًا عاجلًا أو آجلًا. وعندما حصل اللقاء، لفتت انتباهي رجله العرجاء ورائحته، وهما أمران يستحيل عليّ أن أخطئ في تمييزهما. راودني الخوف من جديد عندما رأيته. لم يكن خوفًا من أنه سيفعل بي شيئًا، بل خوفًا من أنه قد يفلت من قبضتي. كان الأمر أكبر من ذلك حتى، فمع كل ذلك الغضب المخزون في داخلي لثلاث سنوات، فقد كان خوفًا من الشيء الذي سأفعله به. عندما مر من جانبي في الشارع، استدار ثم دخل إلى حانة. انتظرته لأكثر من ساعة، وأنا أحمل قالب طوب في يدي.

في كل مرة كان باب الحانة يفتح فيها، كان ينبعث من الداخل

مزيج من أصوات موسيقى، وضحكات عالية، ودخان سجائر، ومجموعة روائح من الجعة ومختلف أنواع الخمور، وروائح الحانة القديمة، وروائح جسدية. في كل مرة كان يخرج شخص آخر، ربما يكون قد هرب، أو تسلل خارجًا في ظلال العتمة. لكن بعد ذلك فتح الباب أخيرًا، وتدفقت الروائح والأصوات مرة أخرى، وخرج لوحده، واتجه بالطريق الذي كنت أنتظره فيه. أردته أن يراني، أردت أن أرى عينيه وهما تتعرفان علي.

عندما تقدمت نحوه، لم أر في عينيه نظرة التعرف فقط بل نظرة الخوف أيضًا، ولربما كانت هذه هي المرة الوحيدة التي رأيت فيها نظرة خوف في عيني أحد كنت أنا السبب فيها.

"آه، اللعنة." قال، وقبل أن ينهي جملته ضربت رأسه بقالب الطوب بكل ما أوتيت من قوة. في البداية لم يقع لكنه بدأ يترنح. وبعد أن قمت بضربه عدة ضربات تكوم أخيرًا على جانب الطريق، رميت قالب الطوب من يدي، وتركته بجانبه، ورحلت. لم ألتفت ورائي، ولم أركض. سواء كان ما فعلته صوابًا أو خطأً، فإنني قلت بصمت: «لقد نلت من مؤخرتك أيها اللعين.» وكانت هذه هي آخر مرة فكرت فيها بشأنه في حياتي.

لم أعرف ماذا حل به لكني كنت أعرف: أنه سيعاني من ألم رأس خرافي وأنه لن ينساني أبدًا. ولم يعد هناك أي داع بالنسبة لي لأنْ أبقي صورته في ذاكرتي. رميتها أرضًا في تلك الليلة مثلما فعلت به وبقالب الطوب. ثأرت لنفسي، وأغلقت القضية.

...

ربما ارتبط قدري بنهر المسيسبي عندما كان عمري ثمان سنوات وكنت أذهب في رحلة على متن القارب الكهربائي مع خالي هنري، أستمع لقصصه التي دارت حول رحلاته عبر البحار ولقاءاته بالنساء، ورؤيته

العالم. وما بين قصصه وقصص الخال ويلي وجدت نفسي شيئًا فشيئًا أقع في حب تلك القصص التي جعلتني أتطوع للتجنيد.

لم يكن هناك شيء ثمين يدعوني للتمسك بميلواكي. بعد ذلك الربيع من عام 1970، وبينما كنت أشاهد نهائيات مباريات الرابطة الوطنية لرياضة الجامعات منحتني أفكار أمي الحكيمة أعظم هدية عندما قالت لي: «يا بني، إن كان لديك الإرادة فإنك يومًا ما ستتمكن من كسب مليون دولار.» وعرفت حينها أنني ينبغي عليّ أن أترك محل إقامتي وأسعى وراء إيجاد طريقي أينما كان.

كنت أدرك في أحيان كثيرة من السنوات اللاحقة أنني قد ولدت في الوقت المثالي لأكون قادرًا على أن أشهد كل شيء حدث في كل عقد من الزمن منذ الخمسينات فصاعدًا. ولحسن حظي أن التجنيد لم يعد إلزاميًا في الوقت الذي بلغت فيه سن الرشد. فلو أنني كنت قد ولدت قبل تاريخ ولادتي بعام أو عامين، لكنت قد شاركت بحرب فيتنام. كان الأمر رائعًا أيضًا أن أنشأ في خضم الثورة الجنسية في مرحلة كانت فيها الصورة النمطية المأخوذة عن اللون قد بدأت تتغير، لتصبح البشرة السوداء جميلة على وجه الخصوص. تركت جميع علاقاتي العاطفية المبكرة في جعبتي مشاعر إيجابية حول ما كان يجري في داخلي من مشاعر حسية وجسدية.

كانت جينيتا هي أول علاقة جدية في حياتي. كانت أجمل وألطف بنت في شمال ميلواكي. لم يخطر ببالي أبدًا كم كنت مفتونًا بها حتى أخبرتني أمي، بعد عودتي المتأخرة للمرة الألف: "اعتدت أن أضبط ساعتي على موعد قدومك."

رغم أننا كنا ساذجين في علاقتنا الجسدية لكننا كنا متيمين ببعضنا البعض لأبعد الحدود. وحتى بعد انفصالنا، كنا من حين لآخر نتسلل إلى

قبو منزلها ونمارس العلاقة الحميمية كثيرًا.

واعدت بعدها ابنة قسيس كانت تقطن في شمال المدينة، ووجدت فيها سحرًا لا يقاوم لأنها كانت ترتدي جوارب طويلة. لم أواعد في حياتي أبدًا فتاة ترتدي الجوارب الطويلة غيرها، وكانت أيضًا أول فتاة أواعدها وهي ما زالت تعيش مع كلي والديها. معظم اللواتي عرفتهن كن يعشن في أسر ذات معيل واحد. كانت فتاة محافظة جدًا، وهادئة، ومستقيمة. كانت فتاة عذراء لديها الاستعداد لممارسة العلاقة الحميمية، شرط أن تحمل بعدها. لم أعرف الكثير، لكنني مررت بدروس كثيرة في الحياة علمتني أن الأبوة في مرحلة الثانوية ليست أمرًا كنت أطمح له، لذا انفصلنا قبل أن تصبح علاقتنا جادة أكثر.

أما حبيبتي التالية، بليندا، فقد كنا أنا وهي رفقاء روح، وأصبحت علاقتنا جادة بسرعة. كانت جميلة، سوداء البشرة مثلي، جذابة جدًا، وذات شفاه شهية وزكية الرائحة، وكان طولها فارعًا وجميلًا وكأنها ملكة إفريقية. رغم كل تلك الصفات إلا أن أكثر ما جذبني فيها هو مدى ذكائها. كانت تحب القراءة وجعلتني أحبها أكثر، لدرجة أنها كانت تناقشني في الكتب التي نقرأها.

وسّعت بليندا نظرتي للعالم بعيدًا عن التجربة الأمريكية الإفريقية، وقادتني نحو قراءة كتب تدور حول جنوب إفريقيا والفصل العنصري(124)،

---

124) الفصل العنصري Apartheid الأبارتايد: هو نظام الفصل العنصري الذي حكمت من خلاله الأقلية البيضاء في جنوب إفريقيا من عام 1948 وحتى إلغائه بين الأعوام 1990 - 1993 وأعقب ذلك انتخابات ديموقراطية عام 1994. هدف نظام الأبارتايد إلى خلق إطار قانوني يحافظ على الهيمنة الاقتصادية والسياسية للأقلية ذات الأصول الأوروبية. منع هذا الإجراء الأفراد غير البيض من أن يكون له حق اقتراع وتم فصل أجهزة التعليم، والصحة، والخدمات المختلفة مثل الأكل في المطاعم، أو الشرب من المياه العامة، واستخدام المراحيض العامة، أو المدارس المختلفة، والدخول إلى دور السنيما، وغيرها من الخدمات.

وتاريخ بعض الأحداث مثل مجزرة شاربفيل[125]، مما زاد من وعيي في علاقاتي مع كل الناس الملونين من حول العالم. كان الأفرو القصير هو تسريحة بليندا المفضلة، وكانت ذات ابتسامة عريضة وجميلة. أحببتها، وأحببت جسدها على وجه الخصوص، فقد كان جسدًا خرافيًا، وكانت مؤخرتها مثيرة تشبه كرة السلة.

أقسم بالرب أنني في كل مرة كنت أراها فيها من جهة الخلف كنت أشعر بالإثارة على الفور. ليس هذا فحسب، بل إنها كانت طليقة العنان في شهواتها، تفعل أشياء كأن تقفز إلى حضني في غرفة الجلوس في منزل أبيها بينما كان نائمًا في الغرفة المجاورة. كان ذلك، بالنسبة لي في تلك المرحلة، أكثر الأشياء جموحًا على الإطلاق.

كان لدينا أنا وبليندا موعدٌ غراميٌ خططنا فيه للذهاب إلى السينما في ظهيرة يوم عيد الكريسمس، وكان الموعد فرصة لا تعوض لكي أتخلص من اجتماع العائلة السنوي في منزل أحد أقاربنا. يفترض بعيد الكريسمس، وفقًا للعادات المنتشرة وحسبما جاء على لسان الأشخاص العاديين، أن يكون مناسبةً عائليةً يجتمع فيها الأهل ليأكلوا، ويشربوا، ويفرحوا. لكن الأمر لم يكن كذلك في عائلتنا حيث جرت العادة أن يجتمع الجميع ليأكلوا، ويشربوا، ومن ثم يتشاجروا. لم يكن يهم فقد كانوا يتشاجرون في كل عطلة سواء كانت دينية، أو مدنية، أو وطنية، أو وثنية، فبعد ثالث جولة من المشروبات كانت المعارك تبدأ. لذا بعد أن توجهت أمي وشارون وكيم إلى

125) مجزرة شاربفيل Sharpsville: مذبحة حدثت في 21 من آذار عام 1960 في بلدة شاربفيل في جنوب إفريقيا. تجمع حشد من المتظاهرين تراوح عددهم ما بين 5000 إلى 7000 شخص تقريبًا أمام مركز الشرطة بعد يومٍ من المظاهرات احتجاجًا على قوانين الاجتياز التي أوجدها الاستعمار البريطاني لتقييد حركة السكان الأصليين الأفارقة. قتل في هذه المجزرة تسعة وستون إفريقيًا من بينهم نساء وأطفال أطلق عليهم النار بدم بارد على يد شرطة نظام الفصل العنصري.

سيارة فريدي ناديت عليهم وقلت لهم: «عيدًا مجيدًا! اسبقوني إلى الحفلة وسأذهب أنا إلى السينما مع بليندا، وربما سأعرج عليكم فيما بعد.»

أصبح البيت كله لي وحدي، يا لها من رفاهية. رتبت ملابسي تحضرًا لموعدي، ومن ثم ذهبت لأحظى بحمام ساخن. أدخلتني حالة الترقب ليوم عيد الكريسمس الطويل التي عشتها داخل البانيو في جو رائع سادته السكينة. أنزلت نفسي في البانيو، وأغلقت عيني، وبدأت أستمتع بتأمل سلسلة من الصور التي أخذتني بعيدًا على متن قارب في يوم حار، وشعرت بالاسترخاء دون أن أحمل هم أي شيء في العالم، وما هي إلا لحظات حتى سمعت صوتًا أتى من الشرفة الأمامية: «هذا الوغد! وتلك العاهرة.» وقع الخطوات القادم من غرفة المعيشة جعلني أعلم أن أمي وأخواتي وفريدي عادوا إلى المنزل. كان الوضع أشبه بمشهد من فيلم الأرواح الشريرة(126) الذي تم عرضه بعد عدة سنوات: «لقد عاااااادوا.»

بينما كنت مستلقيًا في البانيو وعاريًا تمامًا فكرت: «اللعنة، لقد استغرقت وقتًا طويلًا في الحمام.» لكنني وقبل أن أتمكن من فعل أي شيء، فتح فريدي الباب من مفصله وصوب فوهة البندقية نحوي. لم أره ينظر لي هكذا من قبل أبدًا، وكأنه صورة مشوهة من سوني ليستون بكل ذلك القدر من اللؤم، والسكر، والجنون، وهددني قائلًا: "اخرج أيها الوغد من بيتي اللعين! اخرج من بيتي اللعين!"

لم يكن لدي أي وقت لأرد عليه أو أسأله عن الخطأ الذي ارتكبته، ومع تطاير الجميع حرفيًا من حولي نحو الطابق العلوي أو نحو القبو،

---

126) فيلم أرواح شريرة Poltergeist: هو فيلم رعب من إخراج جيل كينان وتأليف ستيفن سبيلبرج وديفيد ليندسي أباي. صدر عام 1982 وصدر عنه فيلم عام 2005 حمل نفس الاسم من بطولة سام روكويل وروزماي ديويت وجاريد هاريس ونيكولاس براون.

وددت لو أنني قتلت نفسي لأني لم أقتله بذلك الفأس بدلًا من قتل تلك الإوزة، فهو الآن سيفي بوعده وسيقتلني ببندقيته. لم يعد الخيار بيدي الآن، قفزت من البانيو، وكان قلبي يدق سريعًا من خلف صدري، وتسارعت للوصول إلى الباب الأمامي لأدخل الشرفة. كنت عاريًا تمامًا ليراني العالم أجمع في ميلواكي، ويسكونسن وفي يوم عيد الكريسمس.

قبل أن أفكر ماذا ستكون خطوتي التالية، نظرت إلى الأسفل فوجدت ولدًا صغيرًا محبوبًا يمر من جانبي، متلفلفًا بمعطفه الشتوي الذي لاءم درجة حرارة الجو التي بلغت 15 درجة. كان يشبهني عندما كنت في مثل عمره، بأذنيه الكبيرتين مقارنة برأسه ومما لا شك فيه أنهما ستصبحان ملائمتين لشكله عندما يكبر. عندما لمحني، ابتسم ابتسامة عريضة. وقال لي بمنتهى الصدق: «عيد مجيد سيدي!»

لم أجبه ورأيته يذهب مكملًا طريقه، واختفى سريعًا في ضباب ويسكونسن الشتائي.

لم تحاول بليندا أن تبهجني بعد أن التقينا لاحقًا في السينما. لم يتبق أي ذرة شعور بالعيد في داخلي.

سجل ذلك اليوم آخر مرة اكترثت فيها بالاحتفال بأي عطلة في منزل فريدي تريبلت، ولسوء الحظ تشوه في داخلي معنى عيد الكريسمس أيضًا. لم أهتم، لعدة سنوات، بشراء شجرة عيد الكريسمس، وإن كنت بعدها قد احتفلت بهذا العيد فقد كان ذلك بنية فعل شيء لتكريم ذكرى المسيح، في نطاق روحاني. استغرقت وقتًا طويلًا كي أستعيد بهجة العيد الحقيقية. ومن جانب آخر، كانت هدية فريدي لي في ذلك العام هي أن تبدأ ساعتي عدها التنازلي لكي أنفذ بجلدي.

بعد مرور فترة قصيرة، انفصلنا أنا وبليندا، لانعدام الحب بيننا وإنما

كان لتوقيت العلاقة وعدم نضجي الكافي لمساعدتها في تخطي أزمة موت صديق مشترك لنا السبب الأكبر في انفصالنا. بحلول صيف عام 1971 بلغت السابعة عشرة، وأصبحت في سنتي الأخيرة في الثانوية. عندما كنت أمشي في جادة ويسكونسن، مكاني المفضل للتسكع في تلك الفترة، نظرت إلى نافذة متجر تخزين فائض جيش البحرية ولمحت من خلال زجاج النافذة بنتًا تحمل قميصًا على صدرها، وكأنها تتناقش مع نفسها فيما إذا كانت ستجرب ارتداءه أم لا. نظرة واحدة لها كانت كفيلة بأن توقعني في شباكها لتصيب قلبي بسهم حبها.

بعد أن دخلت المتجر وعرفتها بنفسي، عرفت أن اسمها شيري دايسون وأنها من فيرجينيا، طالبة في المرحلة الأخيرة في كلية ولاية مورغن، جاءت إلى بلدتنا مع أقاربها. كانت بشرتها سوداء فاتحة، ذات جسم نحيف، وتسريحة أفرو، تحمل أجمل ثديين رأيتهما على الإطلاق، لا يمكن أن يضاهى جمالهما بأي شيء. لم يكن جمالها كذلك المعروض في مجلات الأفلام، لكنه كان أخاذًا بطريقة واضحة تذهب العقل. كانت فائقة الذكاء، لطيفة، امتلكت حسًا فكاهيًا جعلني أشعر بالراحة منذ أول حديث جرى بيننا. بعد أن التقينا قضينا يومين لم نفعل فيهما شيئًا سوى التحدث.

في البداية، لم تعلم شيري أنني أصغر منها بأربع سنوات، لكنني بعد ذهابنا لمشاهدة فيلم «صيف عام » 1942 [127] -فيلم رومانسي تلاءم بشكل لا يصدق مع وضعنا كان يتحدث عن علاقة غرامية بين امرأة كبيرة وولد مراهق- كان علي أن أعترف لها بحقيقة عمري. في كل مرة كنت أسمع أو

127) فيلم صيف عام 1942 Summer of 42: فيلم أمريكي كوميدي - درامي يعتمد على مذكرات كاتب السيناريو هيرمان روشير. يحكي قصة روشيه، في أوائل مراهقته في إجازته الصيفية عام 1942 في جزيرة نانتوكيت (قبالة ساحل كيب كود)، حيث يبدأ علاقة رومانسية من جانب واحد مع امرأة شابة تدعى دوروثي خرج زوجها للقتال في الحرب العالمية الثانية.

أتذكر أغنية الفيلم[128] كنت أعود ذلك الولد ذا السبعة عشر عامًا مرة أخرى، المتيم بشيري دايسون، امرأة أحلامي من عائلة ريتشموند الثرية من فيرجينيا. كانت شيري ابنة لحانوتي يمتلك دار أي. دي. برايس لتجهيز الجنازات وكانت والدتها معلمة ثانوية. ترعرعت شيري في منزل واحد طوال حياتها، كان منزلًا ضخمًا وأنيقًا يقع في جادة هينز في ريتشموند، فيرجينيا، لم أنس أبدًا اسم شارعهم من كم الرسائل وبطاقات المعايدة التي كنت أرسلها إلى ذلك العنوان.

في هذه المرحلة من حياتي منحني وجود عدة حبيبات تدريبات مكثفة في تعلم أساسيات الاقتصاد. ففي سنتي الأخيرة في الثانوية ومن خلال صدمتي لدى اكتشافي أن فاتورة مكالماتي الهاتفية بعيدة المدى مع شيري قد بلغت تسعمئة دولار أدركت أنه يتحتم عليّ أن أجد عملًا يكسبني مالًا أكثر من عملي في غسل الصحون في مطعم شرائح لحم نينو، حيث كنت أجني فيه في أفضل الأحوال مئة دولار في الأسبوع.

بعد أن أخفيت فاتورة الهاتف، تلقت أمي مكالمة من شركة الهواتف مفادها أن خط هاتفنا سيتم قطعه لعدم دفع الفاتورة. وعندما اشتكت من أنها لم تستلم أي فاتورة، عرفت بسرعة ما كان يحدث. ظلت محافظة على هدوئها تمامًا، وأخذتني معها إلى مكاتب شركة الهواتف وجعلتني أعترف أمامهم لماذا كانت فاتورتنا عالية جدًا. وتوصلنا إلى اتفاق مع الشركة بعدم قطع الخط، يقتضي تسليم كل سنت أكسبه لما تبقى من سنوات مراهقتي.

كل ما حدث كان بسببي لكن الأمر لم يمنعني من أن أثور غضبًا في

128) أغنية فيلم صيف عام 1942 : من غناء المغني آندي ويليامز الذي ولد في 3 كانون الأول 1927 وتوفي في 25 أيلول 2012. وهو مغني بوب أمريكي شهير ومن أشهر أغنياته أيضًا: أغنية فيلم «Love Story» وأغنية فيلم «The Godfather» وأغنية «Speak Softly Love».

مطعم نينو في الليلة التالية عندما وصل بي الحال إلى حد الغليان جراء تعرضي للخداع على يد النادلين الذين كان يفترض بهم أن يتقاسموا البقشيش معي. وهم نفس الطاقم الذين كانوا يركضون عائدين إلى المطبخ ويصرخون مطالبين بصحون نظيفة. هز المدير كتفيه وأخبرني أنني كنت محظوظًا بما فيه الكفاية لاسترجاعي عملي في غسل الصحون كما كان. كنت غاضبًا من الجميع ومحمومًا من حرارة غسالة صحون «مغازلة هوبارت[129] المثيرة»، كما كنا نطلق عليها أثناء تشغيلها، لذا قمت بفعل أقذر شيء خطر ببالي. شعرت بعدها بشعور سيء مشابه لذاك الذي أحسست به عندما كنت أمر بضائقة مالية أخرى -بسبب مكالماتي الهاتفية مع شيري- جعلتني أرهن تلفاز أوفيليا. في تلك الليلة في مطعم نينو تبولت على الصحون التي كانت تخرج من هوبارت. ليس لمرة واحدة فقط، بل لعدة مرات بقدر ما استطعت شربه من سوائل لكي يدركوا كم كنت مستاء في آخر ساعات عملي التي قضيتها في غسل الصحون لدى ذلك المطعم.

لابد أن الرب كان يمزح معي عندما اتضح أن عملي الجديد الذي حصلت عليه كان يقتضي الاهتمام بتنظيف مبولة السرائر، وتنظيف بول وبراز كبار السن. الأمر الأهم من ذلك أنني تعلمت مستوى جديدًا من الرحمة لم أعهده من قبل، وقمت أخيرًا بتسديد فاتورة الهاتف.

كانت أوفيليا هي من دبرت لي هذا العمل في دار هيرتسايد لرعاية كبار السن، حيث عملت فيه معاون ممرض. أردت أن أجيد عملي لعدة أسباب من أهمها أنني كنت قد عاهدت نفسي أنني أيًا كان مجال العمل الذي سأخوضه في الحياة، فإنني سأوليه كل جهدي وطاقتي، لأتخطى توقعات

129) هوبارت Hobart: اسم شركة مصنعة لأجهزة كهربائية.

الجميع. كانت خطوتي الأولى -التي اتضحت فائدتها في الفصول المحورية التالية من حياتي- أن أتعلم بأسرع طريقة ممكنة من أفضل الأشخاص كيفية أداء المهام التي احتجت إتقانها. وبعد تفكيري هذا انخرطت فعليًا في عمل هذا النوع من المهام: تقديم الطعام، وتغيير الحفاظات، وترتيب السرائر، وتنظيف مبولة السرائر.

سرعان ما أصبحت أفكر، «نعم، أنا أستطيع أن أفعل ذلك.» وبعد ذلك بفترة قليلة استطعت أن أؤدي عملي أفضل من أي ممرض ممتاز كان يعمل هناك. في الحقيقة رأت الإدارة مدى براعتي في عملي فسلمتني جناحًا خاصًا بي. من بين ثلاثين مريضًا تقريبًا، جميعهم بيض، كان البعض منهم قادرًا على العناية بنفسه، بينما احتاج البعض الآخر إلى الكثير من المساعدة. كان العمل معهم تجربة مجزية على نحو مثير للدهشة. لقد شعرت شعورًا جميلًا لدى مساعدتي للناس، وكان يصبح أجمل عندما كانوا يشكرونني على حسن معاملتي لهم. وعلى عكس بعض المرضين وطاقم العمل، فإنني لم أكن أتجاهل المرضى عندما كانوا يضغطون على زر الاستدعاء بل كنت أذهب لأساعدهم على الفور. لا أحد هناك كان على استعداد أن يمنحهم ذلك النوع من العناية. في الحقيقة لقد أحببت حقًا مساعدتهم، وأحببت القيام بعملي.

كان السيد جون مكارفيل، وهو جندي بحرية سابق، قد فقد القدرة على النطق. لكنه كان يستطيع أداء التحية العسكرية. في كل ليلة كنت أضعه فيها على سريره، أو في أي وقت كنت ألبي شيئًا احتاجه، كان يؤدي لي تحية عسكرية حارة. «شكرًا لك.» كان يقولها دون كلمات. «أنا أقدر لطفك.» كانت عيناه تلمعان بالامتنان لي. كان هناك أيضًا مريضان كنا

ندعوهما «آل فلنتستونز[130]»؛ لأنهما كانا يشبهان الشخصيتين الرئيستين في المسلسل: فريد فلنتسون وصديقه بارني رابل، وكانا متخلفين عقليًا. كان الاثنان يقطنان في الجناح منذ فترة طويلة بعد أن أصبحا عاشقين، لم يرغب أحد أن يفرقهما. كان فريد هو المسيطر وبارني هو المذعن. أصبت بحالة فزع نوعًا ما عندما رأيت أحدهما يأكل برازه.

"هل هناك أية طريقة لنقلهما إلى جناح آخر؟" سألت مديري، وأنا أفكر في عدم قابليتي لاستيعاب هكذا نوع من التصرفات.

"لا، يجب عليهما البقاء في هذا الجناح، لذا عليك محاولة التعامل مع الموضوع."

لذا تعاملت مع الموضوع.

كان هناك مريضة أخرى تدعى إيدا، كانت سيدة إيطالية، صغيرة الحجم ذات سن ذهبي، لم أرها يومًا ترتدي ثوبًا سوى رداء المشفى وحذاء صغير. كانت من ألطف ما يكون، وكانت تعاني مما أطلقنا عليه لاحقًا مرض خرف الشيخوخة، وكانت على الأغلب تعاني من مرض الزهايمر أو شكلًا من أشكال الجنون.

في أول مرة رأيتها فيها وقفت على قدميها وتقدمت نحوي بخطوات ثابتة ثم سألتني: «هل أنت ابني الصغير؟»

كنت مهتمًا جدًا بشأن حالة التشوش التي كانت تعاني منها. ومنذ ذلك الوقت وصاعدًا كانت إجابتي تكون: «نعم إيدا، أنا ولدك الصغير.» ثم

---

130) آل فلنتستونز The Flintstones: مسلسل كرتوني أمريكي عرض على شبكة هيئة الإذاعة الأمريكية (ABC) من 30 أيلول 1960 حتى 1 نيسان 1966، يحكي قصة فريد فلينستون وزوجته ويلما وصديقه بارني رابل وزوجته بيتي وحياتهم جميعًا في العصر الحجري، وهو من إنتاج هانا - باربيرا. حظي المسلسل بشهرة عالمية واسعة وأعيد بثه بعد شراء حقوقه، على العديد من قنوات التلفزة في جميع أنحاء العالم، بُثّ باللغة العربية على قناة سبيس تون.

قالت، وكانت جادة للغاية: «هذا أمر مضحك. آخر مرة رأيتك فيها لم تكن بذلك الطول. ولم تكن بشرتك ملونة أيضًا.»

لم أفقد أعصابي مع المرضى سوى مرة واحدة فقط، ندمت عليها فيما بعد. حدث ذلك مع إحدى المريضات، كانت امرأة ثرية تنتمي لعائلة من النبلاء، وكانت دائمة التذمر، وفي كل يوم كانت تزداد صراخًا وتزداد بغضًا. كانت توبخ الجميع، بما فيهم أنا، وترفض أن تأكل. وعندما كانت ترغب بشيء، كانت تريده في الحال والتو! إن لم أسرع وأجلبه لها كانت تطلب محاميها على الفور. في يوم من الأيام لم أتمالك أعصابي عندما بدأت تتفوه بكلمات بذيئة، وبدلًا من أن أترك قطعة من فطيرة ميرنغ بالليمون في صحنها، التقطت الفطيرة ووضعتها على وجهها.

شعرت بالخزي على الفور وقلت لها: «أنا حقا آسف.» والتقطت منشفة وبدأت برفق أمسح الفطيرة عن خديها وأنفها.

اتضح أن كل ما كانت تحتاجه هو الاهتمام بها فقط. نظرت لي وقالت بامتنان: «شكرًا، يا بني، هذه أول مرة ينظف لي أحدهم وجهي طوال اليوم.»

...

عندما ذهبت أخواتي ليخبرن أمي بأنني تطوعت في القوات البحرية، بعد عام تقريبًا على تخرجي من الثانوية، عبرت أمي عن خيبة أملها. ربما لو كنت قد حققت في سنواتي الأخيرة في المدرسة إنجازًا ما -لاسيما بعد معاملة الإدارة لي كنمر أسود[131] فار من العدالة- لكنت قد سعيت وراء تعليمي الجامعي. لكني في الوقت الذي جئت فيه لأقول لها الخبر، ابتسمت بيتي جين غاردنر تريبلت ابتسامتها الساطعة المعهودة التي من شأنها جعل

131) نمر أسود Black Panther: هي قصص مصورة لشخصية خارقة أشبه بقصص سوبرمان وباتمان، نتج عنها فيما بعد فيلم يحمل نفس الاسم في عام 2018.

ألف سفينة تنطلق من أجلها[132] وسألتني إن كان هنالك متسع من الوقت لتقيم لي حفلة.

طوال الأشهر القليلة الماضية كنت قد عملت لدى شركة إنلاند للحديد والصلب، بفضل خالي آرتشي الذي ساعدني لأجد وظيفة هناك. على قدر ما تعلمته في دار الرعاية، إلا أن أجور النقابة في هذه الوظيفة أظهرت تحسنًا ملحوظًا في دخلي. ورغم هذا، اكتشفت مبدأ اقتصاديًا لاذعًا: كلما جنيت مالًا أكثر كلما أنفقت أكثر. كان ذلك أمرًا واضحًا جدًا لم يكن علي أن أغادر ميلواكي كي أكتشفه. لكن كان هناك الكثير بعد لأتعلمه خارج هذا المكان، وأشار الواقع إلى أنني يجب علي أن أترك مسقط رأسي، المنطقة المألوفة.

كان سبب انضمامي للقوات البحرية من بين الكثير من مجالات الخدمة هو شعارها التسويقي الأسمى: انضموا إلى القوات البحرية وتمتعوا برؤية العالم. أو ربما كان السبب هو جاك نيكلسون[133] لأنني كنت قد رأيته مؤخرًا في دور بحار في فيلم «آخر التفاصيل"[134] قبيل ذهابي إلى مركز التجنيد. إضافة لذلك، وعدتني القوات البحرية بأنني كنت حقًا سأرى أماكن ما وراء البحار التي تحدث عنها خالاي. لكن السبب الرئيس الذي حفزني، حتى مع عدم غياب شيري عن الصورة بشكل كلي، هو أنني

---

132) ألف سفينة تنطلق من أجلها: جاءت من مقولة The face that launched a thousand ships: وجه امرأة جعل ألف سفينة تنطلق من أجله - إشارة إلى الشخصية الأسطورية هيلين من طروادة أو أفروديت، كما يقول البعض. قيل إن اختطافها من باريس كان السبب وراء إطلاق أسطول من ألف سفينة لبدء معركة، الأمر الذي تسبب بحرب طروادة.

133) جاك نيكلسون Jack Nicholson: ولد في 22 نيسان 1937 في مدينة نيويورك. وهو ممثل، مخرج، منتج أمريكي: امتدت مسيرته السينمائية قرابة 60 عامًا.

134) آخر التفاصيل The Last Detail: فيلم من إنتاج سنة 1973 من بطولة جاك نيكلسون الذي أدى فيه دور بحار يدعى (بيلي).

كنت سألتقي بكل تلك النساء. كنت أستمع إلى الخال هنري وهو يتحدث عن النساء الإيطاليات، وعن النساء الكوريات اللاتي كن يقفن على ظهرك ليمنحنك مساجًا من شأنه أن يشفي ألم عمودك الفقري إلى الأبد. كن يمتلكن «أقدامًا كاليدين" سمعته يقولها مرات عديدة. لذا لم أستطع أن أنتظر فترة أطول لكي أذهب إليهن.

لقد أمضيت أول ثمانية عشر عامًا من حياتي دون أب يرشدني الطريق، وآمنت أن مسؤوليتي الأساسية كانت حماية أمي. عندما فشلت في تأمين حمايتها من خلال التخلص من فريدي كان الوقت قد حان لأتركها في حماية ورعاية الرب، وأذهب لأسعى وراء السعادة التي لطالما كانت أمنية أمي الوحيدة من أجلي.

الجزء الثاني

الفصل السادس

العالم الخارجي

بدأت رحلة المجند كريس غاردنر عبر الطائرة، وكانت هذه هي أول مرة أسافر فيها على الإطلاق، لكن بدلًا من أن أرسل إلى معسكر تدريب بالقرب من قاعدة مثل سان دييغو أو هاواي، حيث التقطت جميع صور التجنيد على ما يبدو، أتيحت لي فرصة الاختيار ما بين الذهاب إلى البحيرات الكبرى المجاورة، أو إلينويز، أو أورلاندو، أو فلوريدا. فضلت الذهاب إلى الوجهة الأبعد، متخيلًا أنها ستكون نقطة الانطلاق نحو كل تلك الموانئ الأجنبية، اخترت الذهاب إلى أورلاندو التي اتضح أنها مدينة غير ساحلية ذات جو أحر من الجحيم، ومستوى رطوبة لا يطاق وحشرات تتغذى على الستيرويد.

شعرت بالراحة لدى انتقالي للعيش ضمن البنية المؤسسية خاصة مع نشأتي في قطار الموت المصمم حسب مزاج فريدي. بعد أن كنت أعيش في بيئة لا يمكنني أبدًا أن أكون فيها على صواب مهما فعلت، وفرت القوات

البحرية لي خط إرشادات واضح المعالم يبين الصواب من الخطأ وامتلكت آلية تكافئ من خلالها أو تعاقب وفقًا للأداء. بالتأكيد كان هناك جزء في داخلي يرفض السلطة ويرفض فكرة تجريد الشخصية الفردية مني، لكنني فهمت الهدف منها وعرفت كيفية التأقلم معها دون أن أفقد شعوري بنفسي كليًا. تحولت من كوني ذلك الشخص المتمرد بملابسه الملونة الفضفاضة، وخرزه، وتسريحة شعره الأفرو، وشعر وجهه الخفيف إلى ذلك البحار حليق الذقن والشعر الذي يرتدي الزي الرسمي، وهذه المسألة بالطبع كانت أكثر من مجرد صدمة.

كانت النتيجة لهذا التحول هي إصابتي بحالة مزمنة من التهاب الجريبات[135] الكاذب، أو بمعنى أدق، كتل كبيرة متورمة يصاب بها الكثير من الرجال، خاصة السود منهم، تحدث نتيجة الحلاقة لأول مرة. لم يعد شعري في السابق من بعد معسكر التدريب. ومع مرور السنوات تخليت أخيرًا عن محاولة إطالته من جديد وشعرت بالامتنان فيما بعد لإسحاق هايز[136] لاعتماده قصة الرأس الحليق.

كانت حرارة الجو ورطوبته شديدتين منذ البداية لكنني لم أعرف مدى الحرارة الفعلية حتى اضطررت للوقوف على أهبة الاستعداد بكامل زيي الموحد تحت أشعة الشمس مباشرة. ساعدني «تدريبي» كثيرًا في تعلم كيفية البقاء ساكنًا. لم يسمح لي بالحركة أو أن تكون لي أي ردة فعل تجاه

135) التهاب الجريبات Folliculitis: هو مرض يصيب بصيلات الشعر ومن علاماته تشكل تجمعات من العقيدات الحمراء الصغيرة أو البثور ذات الرؤوس البيضاء حول بصيلات أو جريبات الشعر أو احمرار وحكة في الجلد.

136) إسحاق هايز Isaac Hayes: ولد في 20 آب 1942 وتوفي في 10 آب 2008. مغنٍ أمريكي وكاتب أغان ومنتج وممثل وأحد الأسباب الرئيسة وراء نجاح موسيقى السول الجنوبية. كان معروفًا بقصة شعره الحليقة.

أنهار العرق التي كانت تصب على وجهي وظهري. لم يسمح لي حتى أن أرمش.

عندما كنت واقفًا في مكاني في ظهيرة أحد الأيام تقدم نحوي كبير قادة الضباط، بيتي وايت، قائد سرية رقم 208 فهيأت نفسي للكلام الذي كان على وشك قوله.

"يا بني، هل تعرف ما أعرفه عنك؟" سألني، بينما كان يقف قريبًا مني بعض الشيء وكانت قطرات العرق تتصبب على وجهي وظهري، وليس هذا فحسب بل كانت تلمسني وكأنها أصابع طويلة ملتهبة، أو موكب من الحشرات التي تزحف وتسبب الحكة. لم أتحرك وأجاب الضابط وايت بنفسه على سؤاله: «كل ما أعرفه هو أنك تمتلك الكثير من ضبط النفس.»

لم يكن الأمر يتعلق بعدم ارتكابي الأخطاء. ففي وقت سابق، ومن شدة حماستي، قمت بأداء التحية لضابط في داخل المبنى. من كان يعلم أنك غير مسموح لك أن تفعل ذلك؟ كنت فقط أؤدي التحية دون سبب محدد، سرت منفوخ الصدر وقلت بصوت عال: "مرحبًا، أنا في القوات البحرية، ذاهب لأرى العالم!» ونتيجة لذلك، تم إرسالي إلى الرصيف. في الحقيقة كان المكان عبارة عن مرجة خضراء أمام الثكنات، حيث تعلمت هناك على نحو صحيح كيف وأين ومتى أؤدي التحية لأي ضابط. كان يحيط بهذا المكان الذي يبدو كرصيف تماثيل لنخلات تسكنها السناجب، وكان المكان مثاليًا بالنسبة للضابط الأعلى رتبة مني لكي يجعلني أفهم طبيعة مكاني حيث أمرني أن أقف هناك وفي كل مرة أشاهد فيها سنجابًا أذهب إليه، وأقف وقفة عسكرية، وأقوم بتأدية التحية، وأقول: «مساء الخير سيدي.»

كدت لا أصدق ما حدث! لابد أن تلك السناجب امتلكت هواتف خليوية سابقة لأوانها لأنها بدت وكأنها تخرج لي من العدم، تقفز من نخلة إلى

أخرى وتنتشر في ظهر السفينة بينما كنت أركض من سنجاب لآخر، أحييه قائلًا: «عمت مساء سيدي.» كما طلب مني. كان الجزء المهين في الأمر هو الجمهور العريض من المجندين الذين وقفوا يتفرجون من نافذة الثكنات العلوية بينما أسرعت أنا جيئة وذهابًا لألقي التحية على مجموعة من السنجاب اللعينة. لكن، وبالرغم من ذلك استطعت تخطي معظم تدريبات المعسكر بنجاح ساحق. منح المتخرجون فرصة الاختيار ما بين الذهاب إلى أحد الأساطيل أو إلى مدرسة «أي[137]». اخترت الذهاب إلى مدرسة "أي" مع جارفيس بويكن، أحد المجندين الذين التقيتهم في المعسكر التدريبي. اعتقدت أنها فرصة لا تعوض، لأستكمل ما تعلمته في مجال الطب في دار هيرت سايد لرعاية كبار السن. كانت المدرسة حجر الأساس الذي أهلني لأصبح مسعفًا ضمن فيلق الخدمات الطبية في مستشفى القوات البحرية الأمريكية المرموقة التي تصورت أنها ستأخذني لأخدم في الفلبين أو كوريا.

لقد تدربت في المعسكر خير تدريب، لكنه لم يستطع أن يمحي شعاع الرومانسية في داخلي. أصبحت مستعدًا لأرى العالم الخارجي ما وراء الشواطئ المألوفة، وليس هذا فحسب وإنما بدأت أفكر بقوة الشفاء والمساعدة التي سأقدمها لكل أولئك المحتاجين، وتغيير العالم وإنقاذه. لكن المفارقة لعبت دورها وصادف أن تكون المدرسة التي كنت سأرتادها لتضعني على المسار الصحيح هي مدرسة فيلق القوات البحرية الأمريكية التي تقع في البحريات العظمى -إلينويز- التي لا تبعد كثيرًا عن ميلواكي، ويسكونسن.

كان هنالك عدة مفارقات أخرى في الطريق. بعد تحويل المسار الذي

137) مدرسة «أي» A School: بعد إتمام المعسكر التدريبي، يحضر المجندون في البحرية تدريبًا تقنيًا، يسمى عادة مدرسة من الدرجة الأولى. يتلقون خلال تدريبهم تعليمات تبين لهم ما يمكن فعله أو يمنع فعله أثناء فترة تجنيدهم في البحرية.

قمت به حيث انتهى بي المطاف من حيث ما بدأت شمالًا، واجهت أمامي الحقيقة المروعة بأن فيلق مستشفى القوات البحرية الأمريكية كان يقدم المساعدة والدعم الطبي لقوات مشاة البحرية: المارينز. اتضح لي لاحقًا أن المارينز هي جزء تابع لقسم بحرية الولايات المتحدة، وهو أمر لم يخبرني به أحد من قبل عندما تجندت. توقعت أن أُرسل إلى منشأة بحرية طبية ما وراء البحار، وأنني سأكون محاطًا بالممرضات اللاتي يرتدين زيًا مثيرًا للغاية مثل هوليهان ذات الشفاه المثيرة من فيلم أم. أي. أس. أتش[138]. آخر ما أردت فعله هو أن أكون ضمن فيلق المارينز. اشتكيت الأمر إلى بويكن وبعض من أصدقائي الذين تعرفت عليهم في منطقة البحيرات العظمى خلال فترة تدريبنا على أساسيات الإسعافات الأولية: «يا إلهي، لو أردت أن أكون ضمن فيلق المارينز، لكنت قد التحقت بقوات مشاة البحرية.» كان ذلك سببًا آخر لقلقي المتزايد حول المكان الذي كانوا سيرسلونني إليه.

تولد في داخلي إحساس سيء بأن حلمي بالإبحار بعيدًا لن يتحقق. لقد ساورني القلق حقًا بأنني قد لا أستطيع الخروج من الولايات المتحدة. ولهذا السبب كنت شديد الحرص على أن أنتبه جيدًا لتصرفاتي وكلامي، لكي أتأكد فقط من أنهم سيرسلونني إلى أحد الأماكن التي كنت قد تمنيتها في أحلامي ولن ينقلونني مع جنود المارينز.

لحسن الحظ أنني كنت أتميز بسرعة تعلمي للأشياء المتعلقة بالتدريب الطبي الذي كنا نتلقاه. كان كل شيء يبدو واعدًا على الورق. عندما قارب التدريب الذي استمر اثني عشر أسبوعًا على الانتهاء، تمكنت

---

138) أم. أي. أس. أتش. Hot Lips Houlihan from M.A.S.H - هوليهان ذات الشفاه المثيرة: هو فيلم لعبت فيه دور هوليهان الممثلة لوريتا سويت Loretta Swit . كان الفيلم في الأصل رواية لشخصية خيالية من كتاب (ماش) تتحدث عن ثلاثة أطباء في الجيش.

من البقاء بعيدًا عن نوع المشاكل التي وقع فيها الآخرون. كنت محبطًا بما فيه الكفاية من مسألة شرب فريدي المتأزمة، إضافة إلى حقيقة أنني لم أحب طعم الشرب كثيرًا، لكن عندما دعاني الرجال للذهاب معهم للشرب خارج قاعدة التجنيد، ذهبت معهم وشربت القليل، وكاد أن يكون الشرب لائقًا بزيي الرسمي. توجهنا أنا وصديقي بويكن في إحدى الليالي إلى بار يدعى راثسكيلر، وأفرطنا في الشرب قليلًا. أصبحنا ثملين جدًا، وكان هذا يعني أننا فوتنا توصيلتنا لذا كان علينا العودة مشيًا إلى القاعدة. وبدلًا من أن نسلك الطريق الطويل ونعود من خلال البوابة الرئيسة ونصل متأخرين، قررنا أن نسلك طريقًا مختصرًا من خلال القفز فوق السياج.

كان الظلام حالكًا في الخارج، قبل حلول منتصف الليل بدقائق، عندما تسلقنا السياج ونظرنا إلى الأسفل لنرى ما بدا وكأنه بقعة صلبة، قد تكون أرضًا أو سطح بناية. تفاجأنا عندما أدركنا، إثر وقوعنا على سطح معدن ثقيل، أنها كانت شاحنة. لم تكن مجرد شاحنة فقد كانت شاحنة يستقلها اثنان من خفر الساحل. وعرفنا من خلال منظرهما المتعب أنهما كانا يأخذان قيلولة وأننا بقفزتنا هذه كنا قد أيقظناهما الأمر الذي جعلهما يغضبان بشدة.

"اللعنة!" قال بويكن.

«ها نحن ذا.» قلت له.

نتيجة لذلك كان علينا في صباح اليوم التالي الامتثال أمام هيئة أركان القائد العام؛ حيث سيقرر القائد ماذا سيكون عقابنا. خرج بويكن من جلسة الاستماع يحمل أخبارًا سيئة بأنه سيتم إرساله إلى أقصى جنوب آسيا. رغم أن الحرب في فيتنام كانت قد هدأت قليلًا، إلا أنه كان هناك حاجة ماسة للمسعفين أثناء إعادة القوات إلى الوطن. لا يعني هذا أنني رغبت الذهاب إلى ذلك المكان، لكنه كان عبر البحار.

دخلت وانتظرت القائد، ووقفت وقفة راسخة، آملًا أنه سينظر إلى ملفي وسينقلني إلى إحدى الوجهات التي طلبتها وأنه سيغض النظر عن الأخطاء التي ارتكبتها ليلة أمس.

دخل القائد وهو يخطو خطوات واسعة، ثم جلس، ونظر إلي من الأعلى إلى الأسفل. فكر للحظة ومن ثم سأل: «هل تلعب كرة القدم؟»

"أجل سيدي، أنا ألعب كرة القدم."

"حسنًا." قال، وكتب ملاحظة. «سوف تذهب إلى معسكر لوجين[139]. لديهم فريق كرة قدم جيد هناك، وهم بحاجة لشخص ضخم مثلك.» وضع ملفي جانبًا ونادى: "فليدخل التالي!"

كان خبر نقلي خبرًا جيدًا وفي نفس الوقت سيئاً. كان خبرًا سيئًا لأنني بدأت أشك قبل مغادرتي منطقة البحيرات العظمى والوصول إلى معسكر لوجين بأنني لن أغادر الولايات المتحدة أبدًا. فبدلًا من الذهاب لرؤية العالم قمت باستكشاف الغابات غير المأهولة لجاكسون فيل، كارولاينا الشمالية؛ حيث بدت فيها شخصية جيم كرو[140] حية وتتمتع بصحة جيدة متى ما

139 معسكر لوجين Camp Lejeune: هو أكبر منشأة تدريب عسكرية في الولايات المتحدة في جاكسون فيل، في كارولاينا الشمالية.

140 جيم كرو Jim Crow: يشير المصطلح، أصلاً، إلى شخصية سوداء البشرة في أغنية شعبية أُلّفت عام 1830. غالبا ما تنسب عبارة «جيم كرو» إلى أغنية «اقفز يا جيم كرو»، وهي أغنية ورقصة كاريكاتيرية ساخرة من السود الأمريكيين، من أداء الممثل الأبيض رايس توماس. ظهرت الأغنية للمرة الأولى عام 1832 وكانت تستخدم للسخرية من سياسات أندرو جاكسون الشعبوية. ونتيجة لشهرة رايس، صار تعبير «جيم كرو» هو الوصف التحقيري لزنوج أمريكا خلال عام 1883، ومن هنا عرفت قوانين الفصل العنصري باسم قوانين جيم كرو وهي قوانين الدولة التي فرضت العزل العرقي في جنوب الولايات المتحدة. فُعّلت هذه القوانين حتى عام 1965، حيث فُرضت على الفصل العنصري في جميع المرافق العامة في الولايات الكونفدرالية الأمريكية السابقة، التي بدأت في عام 1896، وضع «منفصل ولكن متساو» للأميركيين الأفارقة في سيارات السكك الحديدية. وكان التعليم العام مفصولًا أساسًا منذ إنشائه في معظم ولايات الجنوب بعد الحرب الأهلية.

أصبحنا خارج القاعدة. ليس ذلك فقط، فقد كان معسكر لوجين هو أكبر قاعدة لقوات مشاة البحرية في العالم كله، وصل عدد مجنديه إلى ستين ألف جندي مارينز وستمئة بحار، لذا تحققت مخاوفي وأصبحت مجندًا في المارينز. كان الأمر الإيجابي الوحيد في ذلك الخبر السيء هو إرسالي إلى مركز القوات البحرية الإقليمي الطبي، بدلًا عن الذهاب إلى أسطول القوات البحرية؛ فقط لأن القائد الذي أرسلني صادف أن يكون صديقًا مقربًا لفريق كرة القدم التابع لمستشفى القوات البحرية، أحد الفرق الجيدة في القوات البحرية.

أما الخبر الجيد فقد كان يتعلق بتمكني من الخدمة، والعمل، والتعلم، والعيش على مدى الأعوام القليلة القادمة في بيئة لم تختلف كثيرًا عن إطار البيئة الجامعية. تكفلت القوات البحرية بالتكاليف الأساسية للمعيشة، واستطعت أيضًا لعب كرة القدم، وتلقيت تعليمي أثناء أداء عملي لأُجاري ما يتلقاه أغلب طلاب الطب في الجامعات المرموقة، وحظيت بأوقات ممتعة أيضًا. عندما وصلت إلى هناك شرح لي أحد المنسقين أن الثكنات كانت ممتلئةً ولم يكن سريري جاهزًا حتى الآن. أخذني في جولة في المستشفى مع ثلاثة آخرين لم يكونوا قد حصلوا على مكان في الثكنات أيضًا.

حال وصولنا لجناح لم يكن مفتوحًا بشكل رسمي للمرضى، أعلن المنسق: "هذا هو. سيكون مكانُ إقامتكم هنا." حولنا المكان بلمح البصر إلى مركز حفلات. لم يكن على طراز جناح السقيفة الرئاسي في فندق بالمر هاوس، لكننا قمنا باستغلال المساحة الكبيرة في المكان. حولنا طاولة الشمس الخاصة بالمريض وردهة مشاهدة التلفاز إلى غرفة عزوبية، وقمنا بربط جميع أجهزتنا الصوتية في نظام صوتي مهول متعدد الأصوات. وفجأة، بدا كل شيء رائعًا. فما كان يبدو في السابق استراحة سيئة اتضح

فيما بعد أنه نعمة لم تعد مستترة.

كان المستشفى مثالًا للحداثة، وكان الطاقم الموجود، العسكري والمدني، من ألمع رجال الأمة. عندما تسلمت مهمتي الوظيفية التي كان من الممكن لها أن تكون أي شيء بدءًا من تقويم العظام، أو علاج الأقدام، أو أمراض المستقيم، وانتهاء بالعلاج النفسي، ومن بين جميع الاختيارات، حالفني الحظ وجرى تعييني للعمل في قسم الجراحة العام مع القائد الملازم شارلوت غانون التي كانت جوهرة بكل معنى الكلمة.

كانت الرائد شارلوت غانون، بزيها الأبيض وقبعة البحرية ورتبة الثلاث ضفائر ونصف، قد أتت من المستشفى العام في ماساتشوستس وكانت تدير قسمها بقوة، وتفوق، وعاطفة. ازدهرت تحت إشرافها لأنها كانت بيئة مثالية للتعلم. وجهت كل طاقاتي لكل جانب من جوانب عملي لكنه لم يكن كافيًا لمساعدة المرضى الذين كان أغلبهم من جنود المارينز وأفراد أسرهم، بالإضافة إلى بعض من السكان المحليين الذين كانوا بحاجة إلى جراحات متخصصة لم تكن متوفرة في المستشفيات الأخرى في المنطقة. تعلمت في هذه المرحلة قوة طرح الأسئلة وعرفت أن الأطباء الممتازين لا يمانعون كثرة طرح الأسئلة عليهم.

أعجبت غانون بتركيزي ورغبتي الشديدة في تعلم المزيد واحتضنت كل أسئلتي الواحد تلو الآخر: "ماذا يسمى هذا؟" "كيف تفعلين هذا؟" "لماذا تفعلين هذا؟" "أيمكنك أن تريني؟" "هل تسمحين لي بالمحاولة؟" تعلمت على يديها الكثير مما كان له الأثر في اتخاذ مختلف أنواع القرارات المصيرية. بفضل خبرتي في هارت سايد وبعض الإرشادات الجيدة التي تلقيتها في مدرسة قوات البحرية في منطقة البحيرات العظمى، استطعت أن أتفوق على أي شخص كان يعمل في نفس مجالي. وأصبحت بسرعة فائقة أحد المفضلين

لديها ونلت احترام عدة أطباء آخرين أيضًا، لم يتردد أي أحد منهم في مد يد المساعدة متى ما وقعت في ورطة أو احتجت إلى محامي دفاع.

لم يمانع الأطباء الآخرون كثرة أسئلتي لسبب أساسي، هو أنني غالبًا ما كنت أستوعب شرحهم من أول مرة. ورغم أنني كنت ما زلت أجهل طبيعة العمل الطبي، حيث يمكن توظيف العديد من جوانبه في مجالات أخرى، لكن ربما لم يكن أي جانب منها أكثر أهمية من معرفة كيفية تنظيم وقتي. كما أنني أحببت ما كنت أقوم به، من تغيير ضمادات المرضى وتعليق المغذي للوريد وتوفير عناية ما بعد الجراحة، ومعاينة الأنسجة وتنظيف الجروح، وغالبًا ما كنت أقوم بإجراء عدة عمليات في نفس الوقت. إضافة إلى مهارتي في تأدية تلك المهام المحددة، كنت واعيًا لطريقة اعتنائي بالمريض وكيف أنها تلعب دورًا مهمًا في سلامته وتماثله للشفاء بشكل عام. تحقيقًا لهذه الغاية، أوليت أهميةً بالغة لتدوين ملاحظات مفصلة في لوحة ملاحظات المريض، مما ساعد الجراحين والممرضات على متابعة العناية بالمريض: متى تم تغيير الضمادات، أو كيف بدا الجرح، أو كيف كانت رائحته، سواء كان الجرح نظيفًا، وبدأ يتماثل للشفاء أم أن المريض كان يشتكي من وجود خطب ما.

بعد مرور فترة قصيرة من الوقت، أصبح جميع الرجال -من مختلف الخلفيات- يسألون عن «الدوك" كما كانوا يسمونني. ذاع صيتي لدرجة أن أي أحد كان يصاب بطلق ناري في أي وقت، كان ينصح قبل أن يصل إلى الردهة بضرورة استدعائي، فلا أحد يستطيع أن يعالجهم مثلي حينما كان الأمر يتعلق بالجروح الناتجة عن الطلقات النارية. حتى وإن كنت مشغولًا أو لم أكن متواجدًا، فإنه متى ما عين للمريض أي معالج آخر، كانت تكون إجابته: «لا، سأنتظر قدوم «الدوك». وجرى الأمر نفسه مع أي مريض كان يريد تغيير ضماداته. بدا لي أنني قد قطعت شوطًا كبيرًا منذ ذلك الوقت

الذي حاولت فيه تضميد جرحي بفوطة كوتيكس.

كانت إحدى أصعب المهمات التي عملتها في بداياتي هي ذهابي إلى موقع اصطدام لشاحنة تحمل اثني عشر جنديًا بورتوريكيا أو أكثر، جميعهم جنود مارينز، وقع لهم حادث مروع أثناء توجههم إلى مدينة نيويورك لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. بصرف النظر عن منظر الدم والأحشاء الممزقة، كان عليّ أن أساعد في سحب اثني عشر جنديًا بورتوريكيا فاقدًا للوعي أو ثملًا إلى خارج الشاحنة، حيث قطع الزجاج المتناثرة في كل مكان. كان وجه أحد الجنود الذي يدعى دومينخوس مليئًا بالزجاج لدرجة أنني اضطررت لإزالة القطع المغروسة بالملقط وإلا فإن وجهه كان سيصبح مشوهًا بالندوب مدى الحياة، مثل فرانكشتاين. شعرت أنه من واجبي أن أنقذ وجهه، رغم أن المسعفين الآخرين كانوا على الأغلب سيخيطون وجهه مع قطع الزجاج التي ما زالت عالقة. لم ينس أبدًا أنني عالجت وجهه، وأصبحت علاقتنا قوية جدًا لفترة طويلة.

أحببت ما كنت أقوم به وأحببت ذلك الشعور بالتقدير لدى مساعدتي لأحدهم، إضافة لذلك، كان الأمر ملهمًا أن ترى المرضى الذين يعانون من ألم شديد وهم يتماثلون للشفاء، ويتخطون الظروف التي أدخلتهم المستشفى. إنه لشيء مدهش أن ترى كل أولئك المتخلفين والمتبجحين فجأة يضعون على جنب تحيزاتهم العنصرية. كان البعض من جنود المارينز الذين عرفتهم ينادونني بالزنجي دون أي تردد، لكنهم عندما كانوا يصابون بإعياء ما ويعانون من ألم شديد، ويصبحون غير قادرين على الحركة، كانت شخصياتهم تتبدل ويقولون بكل بساطة: «لا، سأنتظر قدوم «الدوك» متى سيأتي؟»

كانوا ينتظرون رجلًا أسود البشرة ضخمًا مثلي ليساعدهم كي

يتخطوا محنتهم التي وجدوا أنفسهم فيها. كانوا يبدون وكأنهم متغيرين بالفعل، لا لأنني أنا من غيرتهم، بل لأنهم هم من غيروا أنفسهم من خلال التغلب على معتقداتهم الخطأ. وفي المقابل فإن أفكاري الشخصية حول البعض ممن يختلفون عني كانت قد تغيرت أيضًا. منذ أن علمت أن العالم لم يكن كله أسود البشرة، بدأت حقًا ولأول مرة في حياتي أرى الناس مجرد أشخاص بعيدًا عن لون بشرتهم، وتعلمت أيضًا أننا جميعًا متشابهون إلى حد كبير.

بعيدًا عن تواجدي في القاعدة، كانت قدرتي على تحمل بعض المواقف ما زال مشوارها طويلًا. خلال إحدى المهمات التي أُندت لي والتي اقتضت الإجابة على الهاتف في العيادة الجراحية، كنت أتلقى العديد من الاتصالات المشابهة لاتصال امرأة كانت تصرخ: «قدمي مكسورة. داس زنجي يزن مئتين وخمسين رطلا على قدمي.»

"حسنا، دعيني أرى إن كنت قد فهمت الأمر جيدًا، قدمك مكسورة؟"

"نعم!"

"هل كسرها لأن وزنه مئتيان وخمسون رطلًا، أم لأنه زنجي؟»

"كلا السببين!"

منذ ذلك الحين فصاعدًا أصبحت أقابل أشخاصًا مثلها وجهًا لوجه.

في إحدى عطل نهاية الأسبوع كنا أنا وصديقي جميل ويلي -الذي كان يبدو تمامًا عكس اسمه لدرجة جعلت العم دودابغ يبدو جميلًا بالنسبة له- ذاهبين في رحلة على القارب خارج البلدة وكان علينا التوقف للتزود بالوقود في محطة بنزين محلية قبل أن ننطلق في طريقنا. حذرني جميل ويلي الذي كان يسكن في مدينة أكين، كارولاينا الجنوبية، من أننا قد لا نلقى ترحيبًا لدى زيارتنا لبعض الأماكن التي تبعد عن القاعدة مسافة كبيرة.

لم يلق قدومنا إلى محطة البنزين المحلية ترحيبًا حارًا. ما إن وصلنا حتى أتت امرأة بيضاء ضعيفة وكبيرة في السن، تحمل بندقية ذات ماسورة مزدوجة وكانت تصوبها نحونا، وتنظر إلينا بعينيها البراقتين نظرات تقطر شرًا ثم قالت: «أنا لا أبيع الوقود للزنوج! قمت ببيع الوقود مرة لزنجي وحاول أن يحرق المكان! لذا ستخرجان من هنا في الحال!» لم يحصل أن تعرضت لموقف صريح مثل هذا من قبل. حتى أن جميل ويلي أصيب بالدهشة مثلي تمامًا.

أدركت من خلال كل النشاطات التي مررت بها عندما كنت مراهقًا أن الفقر والجهل كانا وراء إعلاء صوت العنصرية بهذا الشكل. فقد كان هنالك العديد من الأشخاص الفقراء، من كلا البشرتين، ممن عاشوا في المناطق المجاورة للقاعدة، على الرغم من تواصلي القليلِ معهم. لم أعد أعاني ذلك الحد من الفقر لأنني أصبحت أنتمي لمؤسسة الآن، وهو أمر حثني على مساعدة الغير، حتى وإن لم أكن أعرف الطريقة.

في تلك الأثناء، بدأت ترتسم في عقلي صورة عن مستقبلي في مهنة الطب، بعيدًا عن القوات البحرية. لم تكن شيري دايسون تحتل الصدارة في حياتي كثيرًا في تلك المرحلة، ربما لأن تواصلنا لم يعد حميميًا وقويًا كالسابق، على الرغم من أن الحديث بيننا لم ينقطع. ومع هذا، فإنها كانت تليق بصورة زوجة الطبيب، وكلما فكرت بتلك اللقطة وهي تحمل ذلك التيشيرت وتضعه على صدرها خلف نافذة متجر جيش البحرية، لم أستطع تخيل مستقبلي على المدى الطويل من دونها. لكن بالنسبة للوقت الحالي، وبما أن فرصة التعرف على النساء في البلاد الأجنبية قد فاتتني، لذا سمحت لنفسي أن تطلق العنان لرغباتها.

في إحدى المرات المميزة كنت في رحلة مع ثلاثة من أصدقائي إلى

جامعة هاورد في واشنطن. كان لدينا تصور خيالي مسبق عن الحياة الجامعية المختلطة في سكن كانديل الجامعي. كان الطابق الأول مخصصًا لسكن الطلبة الشبان أما الطابق الثاني فقد كان مخصصًا لسكن الطالبات الشابات. كن شابات جميلات متحررات في مطلع السبعينات. عندما وصلنا إلى هذا السكن ورأينا ما كان يحدث، قلنا جميعنا، بصوت واحد تقريبًا: «لن نعود إلى كارولاينا الشمالية مرة أخرى!»

رأينا كل تلك النساء الجميلات السمراوات وقمنا بالتغيب عن الخدمة العسكرية دون إذن. وبعد أن أنفقنا كل نقودنا لم يعد لدينا أي خيار سوى تسليم أنفسنا إلى خفر السواحل. صدرت أوامر بحقنا، ومنح كل واحد منا خمسين دولارًا للعودة إلى معسكر لوجين، لكننا وعلى الفور قمنا بالتغيب دون إذن مرة أخرى. لم نكن سوى شبان يافعين وطائشين في التاسعة عشرة من عمرنا، لذا لم نستطع كبح جماح أنفسنا. مع وجود كل تلك الأخوات في جامعة هاورد تصورنا أننا متنا وذهبنا إلى الجنة! قمنا أخيرًا بالاحتفال معهن وكان علينا أن نسلم أنفسنا إلى خفر السواحل للمرة الثانية. وبدلًا من إعطائنا النقود، أخذونا هذه المرة بنفسهم مباشرة إلى محطة الباص ورافقونا في الباص. عدنا جميعًا دون إصابتنا بأي أذى فيما عدى هيز المجنون الذي أدخل نفسه في شجار وتغيب دون إذن للمرة الثالثة. عندما عاد تم وضعه في غرفة احتجاز وتم قطع راتبه، ووجهت إليه العديد من التهم. أما الشابان الآخران فلم يخفقا مثلما فعل هيز لكن بالتأكيد ترتبت عليهما بعض العواقب وخيمة.

بينما كنت أقف في انتظار تحديد مصيري، ظهرت القائد الملازم شارلوت غانون، ومرت من جنبي ورمقتني بنظرة جدية، وذهبت لتجتمع مع بقية الضباط المسؤولين عن تأديبي. دخلت مباشرة في صميم الموضوع

وشرحت لهم: « إنه ذراعي الأيمن. هذا غاردنر. دعوه وشأنه.»

لنتهى الأمر عند ذلك الحد. لقد حمت شارلوت غانون ظهري لأنها كانت تحظى بمكانة عالية. سرعان ما عدنا إلى الجناح وحذرتني بالطبع: «غاردنر، لا تفعلها مرة ثانية. قم بواجبك فقط وسأنسى ما حصل!»

منذ ذلك الحين فصاعدًا أصبحت أراقب نفسي وتصرفاتي. كان الأمر أكثر سهولة حينما انتقلت للعيش خارج القاعدة. بعد أن التقيت ببحار اسمه ليون ويب -قدر له أن يكون أحد أصدقائي المقربين مدى العمر- وجدنا مقطورة رخيصة الثمن وقمنا بتأجيرها وتصورنا أن بإمكاننا فعل ما يحلو لنا دون الوقوع بمشكلة. رغم أنني لم أمتلك سيارة، افترضت أن بإمكان ليون إيصالي معه إلى القاعدة بسيارته. اتضح أن الأمور في بعض الأحيان تكون أكثر تعقيدًا، فقد كان عليّ أن أحرص على تنسيق جولاتي مع سيارات الآخرين إذا لم تتوافق مواعيد دوامي مع ليون. رغم أن القوات البحرية زودتنا بمبلغ إضافي للطعام والمؤن، لكننا خسرنا ميزة تناول الطعام في القاعدة. لم نع الأمر جيدًا بأننا أصبحنا الآن نعيش الحياة الواقعية، عندما نفدت النقود منا، لم يعد لدينا ما نأكله. في إحدى الليالي الباردة جدًا التي لا تنسى، والتي كان البرد فيها يصبح قارصًا جدًا في النواحي البعيدة عن المدن. كانت ثلاجتنا فارغة تمامًا فيما عدا علبة فاصولياء وبيضة نعامة. اتفقنا أنا وليون على أنها كانت ألذ بيضة أكلناها على الإطلاق في حياتنا.

لحسن حظي كان هناك امرأة تكبرني بعشرة أعوام، تعيش خارج القاعدة في مكان ليس ببعيد عن محل إقامتي، تولت مهمة إطعامي وتدفئتي في بعض من تلك الليالي الباردة. لم يكن طبخها سيئًا، وكان لديها سيارة، وكانت رائعة على السرير، امرأة غريبة الأطوار جعلتني أختبر أشياء جديدة في الحياة. لم يزعجني أبدًا وجود رجال آخرين في حياتها، بل بالعكس من

ذلك، فقد سمح لي هذا الأمر أن ألعب دور طالب شغوف دون أي توقعات منه في العلاقة.

في إحدى الليالي، وفي توقيت محرج، وما إن بدأنا بممارسة العلاقة الحميمية حتى سمعت طرقًا مدويًا على الباب وصوتًا يقول: "افتح الباب، افتح الباب!»

تجاهلت الصوت، وحاولت العودة لما كنا نفعله.

استمر الطرق! أصر هذا الرجل على عدم الذهاب.

توقفت وسألتها: «من هذا؟ إنه لن يذهب من هنا.»

"آه، إنه ليون" أجابت.

كنت أعرف صوت صديقي وهذا لم يكن صوته. «ليون؟» أيًا كان خلف الباب، فإنه دوري الآن وليس دوره، إنه يمنعني من إكمال متعتي، لذا قلت لها: «افتحي الباب، سأقوم بضرب ذلك الوغد.»

"لا، لا، إنه ليون، لن ترغب بضربه، ثق بي، إنه ملاكم ولن تستطيع التغلب عليه".

"عن أي ليون تتحدثين؟"

إنه «ليون سبنكس!"

عرفت أنني لم أفهم الأمر بعد فذكرتني: "إنه بطل القاعدة في الوزن الثقيل."

"آه" قلت لها، البطل ليون.

كان ليون سبنكس متمركزًا في معسكر لوجين ضمن مجندي قوات المارينز، وكان بطل ملاكمة في القاعدة، يتهيأ للعلب ضمن الأولمبياد المقبلة، وسوف يحصل في النهاية على لقب بطل العالم في الوزن الثقيل.

وقف ليون سبنكس في الخارج ثملًا، وهو يلعن ويريد الدخول لأن

الآن حان «دوره" كيف أدخلت نفسي في هذه الورطة؟ كيف سأخرج من هناك؟ كلا، لن أدخل في نزاع مع ليون سبنكس.

"سوف أقوم بخلع هذا الباب!" هدد قائلًا، وكأنه «الذئب الشرير الضخم» في قصة الخنازير الثلاثة الصغار.[141] كان منزعًجا جدًا لدرجة أنه أراد أن يفجر المقطورة. كوني موسوعة معلومات متنقلة تمشي على رجلين، والفضل يعود بذلك للأيام الطويلة التي قضيتها في المكتبات العامة، استطعت أن أحدد حجم هذا الموقف الطارئ الذي كنت فيه، ووجدت حلًا ربما أكون قد قرأته في مكان ما أو رأيته في أحد أفلام سلسلة "المهرجون الثلاثة"[142] بينما كان يستعد للركض بسرعة كي يحطم الباب، اقتضت خطتي ما يلي: حالما تصل خطاه عتبة المقطورة ويضع كتفه على الباب سأقوم بفتحه، وسوف يدخل بكل سرعته نحو الفضاء المفتوح في نفس الوقت الذي سألوذ فيه بالفرار.

قمت بضبط توقيتي لفتح الباب بشكل مثالي، فدخل بكل سرعته واصطدم بالطاولة ومن ثم ارتطم بالحائط فسقط على الأرض وفقد وعيه. لم يتكبد الأمر عناء كثيرًا لأنه كان ثملًا جدًا. استلقى ليون سبنكس على الأرض وخلد إلى نوم هانئ، في حين أن صاحبة المكان قامت بالصراخ

---

141) قصة الخنازير الثلاثة The Three Little Pigs: هي قصة، يعود تاريخها إلى عام 1840 ولربما أقدم من ذلك، تتحدث عن ثلاثة خنازير يقومون ببناء ثلاثة منازل من مواد مختلفة ويأتي الذئب ليهجم عليهم. أصبحت العبارات المستخدمة في القصة، والقيم المختلفة المستمدة منها، جزءًا لا يتجزأ من الثقافة الغربية. غيّرت العديد من أحداثها عبر السنين مما جعل الذئب في بعض الأحيان يصبح شخصية لطيفة.

142) المهرجون الثلاثة The Three Stooges: فرقة استعراضية ومسرحية وكوميدية أميركية نشطت في الفترة من 1928 حتى عام 1970، ثم أصبحت سلسلة أفلام قصيرة من إنتاج وتوزيع شركة كولومبيا بيكتشرز التي بثّت على التلفزيون بانتظام منذ عام 1958. كانت السمة المميزة للفرقة التهريج الهزلي.

علي وطردتني وزاد غضبها عندما أخذت مفاتيحها وسيارتها ولكني وعدتها بأن أتركها لها في القاعدة.

عندما التقينا مرة ثانية، لكن في بيتي هذه المرة، أقنعتني بأن أدعها تربطني بالحبل. مقارنة مع كل الوضعيات التقليدية التي سبق وأن جربتها مع نساء أخريات فقد كان الأمر جريئًا وحديثًا حقًا. لكن بما أنني سبق وأن قمت بربطها أيضًا، بناء على طلبها، لذا وافقت على الفور. ربطتني على السرير مستخدمة بعضًا من العقد التي يصعب حلها، ورشت بودرة أطفال على جسدي كله، ومن ثم رمت بجانبي على السرير دمية حيوان محشوة كبيرة. «لا مانع لديك من ربطي لك بقوة؟» سألتني، ولأننا كنا نتسلى فكرت أن الأمر سيكون سريعًا لذا لم أمانع.

ها أنا هناك مستلق، منفرج الذراعين والساقين، عارٍ تمامًا، مغطى من رأسي لأخمص قدمي ببودرة الأطفال، وإلى جانبي دمية باندا محشوة عملاقة. أغلقت عيني في انتظار ما ستقوم به من إغراء. لم يحدث أي شيء. فتحت عيني ولم أجدها. لقد اختفت بكل بساطة.

لم أستطع فعل شيء سوى انتظار عودة زميلي في السكن. فمن الذي سيسمع صراخي وأنا في مكان خارج المدينة؟ لربما قد تسمعني صاحبة الأرض، لكني لا أريدها أن تراني وأنا بهذا المنظر. لذا انتظرت لساعات شعرت فيها أنها يوم كامل.

سمعت أخيرًا صوت سيارة ليون وهي تتوقف. شعرت بذعر مخيف من أن يكون معه جميل ويلي أو هيز، أو أن تكون معه امرأة ما لا قدر الله. بقيت ساكنًا قدر المستطاع، وانتظرت لأرى من سيدخل من الباب.

لم أستطع لسوء الحظ أن أرى من الذي دخل من موقعي في الغرفة. بدا أنه منشغل بفعل شيء ما في غرفة المعيشة. طفح كيلي فصرخت قائلًا:

«يا رجل، انظر هنا، هل لك أن تأتي لبرهة كي تمد لي يد المساعدة.»

"حسنا، انتظرني قليلًا." أجابني.

مرت عدة دقائق. صرخت مرة ثانية: «لا يا رجل، لا، عليك أن تأتي في الحال. أرجوك أن تسرع لمساعدتي.»

"حسنًا يا رجل، انتظر، عليّ أن أذهب أولًا إلى الحمام." قال، ثم دخل إلى الغرفة ومر من جانبي، ومن ثم أتى أخيرًا ورأى الصورة المخزية كاملة ودخل في نوبة ضحك هستيرية، سائلًا ماذا أفعل بذلك الدب وبكل تلك البودرة على جسدي.

أصبحت أضحك أنا أيضًا.

وبعد أن رأف ليون بحالي وفك وثاقي، استمر كلانا بالضحك لثلاثة أيام.

لقد أصبحت مدعاة للسخرية.

...

كانت أمراض المستقيم بلا شك هي إحدى أصعب الوظائف وأقواها في نفس الوقت بالنسبة لأي مسعف يعمل في المستشفى ويعتني بجنود المارينز، ممن تعودوا على أكل البيض المسلوق. ومما لا شك فيه أيضًا أن هذه الوظيفة تطلبت شخصًا يمتلك مجموعة من المهارات وتضمنت أيضًا أساسيات يمكن الاستفادة منها في مجالات طبية أخرى. من الذي لا يرغب في الاستفادة من كسب خبرة من العمل حول مجموعة من الحمقى؟

ومنذ انتقالي من قسم الجراحة العامة إلى العيادة الجراحية أصبحت من أهم خبراء القاعدة في مجال أمراض المستقيم، وهذا يعني أنني كنت في كل صباح من يوم الإثنين أجد أحمق يعاني من مشكلة ما يقف أمام البوابة الأمامية. كانوا يأتون إلي ويصطفون تباعًا ليروا خبير أمراض

المستقيم بشحمه ولحمه سواء كانت تلك المشكلة: بواسير، أو باسور متخثر، أو خراجات في المنطقة المحيطة بفتحة المستقيم، أو أكياس شعرية الناسور الشعري، أو أي مرض له علاقة بالمستقيم، أو فتحة الشرج، وما يجاورها. بعد مرور فترة، أصبح الأطباء يوكلون المسؤولية لي ويتوجهون إلى ملاعب الجولف.

لم يتطلب الأمر مني أي صعوبة، وبات معروفًا للجميع أن باستطاعتي تصريف قيح الخراج وتناول الغداء في نفس الوقت. لم يكن الموضوع يزعجني. تضمنت خبرتي وضع أي نوع من الضمادات وتغييرها، إضافة إلى عمل مختلف أنواع العمليات لمعالجة المرضى المصابين بالأكياس الشعرية (وهي بشكل أساسي كيس يتفاقم في منطقة أسفل الظهر نتيجة تسرب شعرة تسقط إليه من الجسم فتسبب حدوث التهاب) من الشائع أن ينفجر الكيس الشعري ويبدو وكأنه خد مؤخرة ثالث. كنت أقوم بشق الخراج، وأصرفه، وأنظفه؛ كي أتأكد من أن القيح المتجمع قد خرج وأن ضمادة الشاش موضوعة بصورة صحيحة ليستمر سحب القيح خارجًا.

كان يزورني عدة عقداء زينت صدورهم بالأوسمة والأنواط ممن كانوا يعانون من أحد تلك الأمراض. نادرًا ما كنت أتلقى أي احترام من الضباط الذين كانوا يأتون لرؤية الطبيب ولم يشعروا بأن عليهم أن يتصرفوا بلطف مع المسعف، رغم أنني كنت المسؤول عن تهيئتهم في كرسي الأسنان المقولب المستخدم لغرض الفحوصات.

في إحدى المرات كان هناك عقيد يجلس على الكرسي، وكانت مؤخرته مرفوعة في الهواء، فدخل الطبيب وقال: «حسنًا، سأتركك مع غاردنر وسيقوم بتهيئتك.»

شكل ذلك مصدر قوة بالنسبة لي. فجأة أصبح العقيد برتبته

العسكرية العالية في موقف ضعيف جدًا، مؤخرته مرفوعة في الهواء ومغطاة بشريط. خرجت ثم عدت بعد برهة ومعي جهاز الناظور، ومن ثم فجأة بدأ يتحدث معي كما لو أنه كان صديقي المقرب: «آه دوك، أرجوك أن تخبرني إن كان هنالك أي شيء أستطيع فعله لك؟»

في بعض الأحيان كنت أمازحهم فيما يخص أمراض المستقيم مدعيًا أنني قد نفد مني الزيت الذي يساهم في تقليل الألم.

كان جنود المارينز الأقوياء يتحولون في لحظة إلى مخنثين بسبب الألم: «آه، دوك، آه...»

في إحدى المرات حينما لم يكن الطبيب متواجدًا قمت بوصف تحميلة لعقيد. ارتاب من الأمر لكنني طمأنته: «لا تقلق، سأعتني بك جيدًا.» استخدم هذه التحاميل وسوف نراك أنا والطبيب يوم الإثنين.

في يوم الإثنين الموعود دخل هو وزوجته إلى الجناح، طالبًا التحدث مع الضابط المسؤول عني. نظر كلاهما نحوي بازدراء، وكأنهما يقولان في سرهما: «من أنت على أية حال؟ أنت لست طبيبًا، مجرد شخص أسود!» ورغم أنني لم أعلم ما الذي فعلته، لكنني علمت أنه كان ينتوي كتابة تقرير عني. وأخيرًا، جأر بغضب: «أنت لا تعلم ماذا تفعل بحق السماء! أنت شخص خطر! لا يجب أن يكون مكانك هنا! ورغم ما قدمته هذه الحبوب لي من فوائد، إلا أنني لم أتردد لحظة عن رميها خلفي!»

تمالكت نفسي كي لا أضحك. لقد تناول التحاميل عن طريق الفم. كان هذا العقيد يقود طائرة نفاثة تقدر بخمسين مليون دولار، وتناول تحاميل المستقيم عن طريق الفم. كانت مؤخرته ما زالت تؤلمه وكان يتساءل عن السبب.

أجبته بهدوء: «سيدي، تلك الأدوية التي تناولتها عن طريق الفم

كان عليك أن تستخدمها عن طريق الشرج، وبتلك الطريقة سيهدأ ألمك ويخف التورم.»

وكما هو متوقع، بعدما قلبته رأسًا على عقب في الكرسي المقولب، وأصبحت مؤخرته مكشوفة في الهواء تغير موقفه جذريًا وأصبح مخنثًا مثل جميع من سبقوه. حتى أنه نسي أن يكتب تقريرًا عني، وبعد أن هدأ ألمه، كان ممتنًا شأنه شأن بقية القصص التي تكللت بالنجاح.

رغم تزايد ثقتي بنفسي أثناء مدة الخدمة التي كنت قد تلقيتها في مركز القوات البحرية الطبي الإقليمي إلا أن نوبات الشك كانت تراودني بين فترة وأخرى، لاسيما مع قرب نهاية خدمتي التي لم يتبق منها سوى ستة أشهر. ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن لم يكن لدي أي مخاوف كون المؤسسة البحرية كانت تزودني بأربعمئة دولار شهريًا، ورعاية صحية مجانية. لكن فجأة بدأت أفكر ماذا سأفعل بعد انقضاء الستة أشهر، وفتح التفكير أمامي بابًا من الأسئلة المزعجة، مستحضرًا أشباح الحرمان من الأب التي عادت لمطاردتي من جديد. سواء كنت محقًا أم مخطئًا فقد بدا لي أنني لو كان لدي أب لكان قد أرشدني لطريق الصواب. ساعدني خالاي، أبواي البديلان، في توجيهي للدخول إلى الخدمة البحرية، وأخبرتني أمي أن بإمكاني النجاح بأي شيء سأختار أن أعمله في النهاية. لكن ماذا كان سيشعر أبي، أيًا كان هذا الرجل الذي يدعى توماس ترنر، والذي يسكن في لويزيانا -ذلك الاسم الذي حصلت عليه في مرحلة ما من أمي- تجاه الابن الذي لم يعرف أنه قد أصبح طبيبًا؟ أما كان سيطالب بي حينها؟

قرر بعض من المجندين الذين كنت أعرفهم تجديد فترة تجنيدهم، بينما عاد البعض الآخر إلى منازلهم وتهيؤوا للعمل، والزواج والتحضر لتكوين عائلة أو العودة لزوجاتهم وأولادهم الذين كانوا بانتظارهم. كان

تكوين العائلة أمرًا أردت فعله يومًا ما دون شك. لكن بغض النظر عن مدى تفكيري الحكيم فيما سأصبحه يومًا ما، كان ما زال هنالك جزء في داخلي يشعر بالخيانة لعدم سفري ورؤية العالم الخارجي. بيد أنني، وفي هذه المرحلة من شبابي، إن أردت السعي وراء مهنة الطب، فهذا يعني قضاء عدة سنوات في الدراسة، وبالتالي لن يبقى أمامي أي مجال للسفر.

بينما كنت أمر بالقرب من قسم الجراحة العامة في ظهيرة أحد الأيام، وجدت الإجابة لبعض من تلك الأسئلة على هيئة عرض تقدم به الدكتور روبيرت ايلس. كان من أحد الأطباء الذين كانوا قد سمعوا عني كلامًا طيبًا من خلال شارلوت غانون، وأخذني فيما بعد تحت جناحه لتدريبي. كان الدكتور ايلس بارعًا حقًا -أو بوب الجاموس، كما كان يسميه بعض منا نحن البحارة تحببًا؛ لأنه كان ضخمًا جدًا ولأنه كان يؤدي واجبه الوطني في القوات البحرية مكرهًا- وكان قد تلقى تدريبه في مستشفى تكساس للأطفال في هيوستن مع أشهر طبيبين في جراحة القلب على مستوى العالم: الدكتور دينتون كوولي والدكتور مايكل ديباكي.

مع انتهاء خدمة الدكتور ايلس، أعلمني أنه سيغادر إلى سان فرانسيسكو للتحضر لفتح مختبر الأبحاث الخاص به في المركز الطبي التابع لجامعة كاليفورنيا وجمعية المحاربين القدماء.[143]

صافحت يده وهنأته من أعماق قلبي فأنا أعلم كم كان الأمر مفرحًا، وأنه يستحق المنصب بكل جدارة. لا توجد أي تورية مقصودة في كلامي.

---

143) جمعية المحاربين القدماء Veterans Affairs (VA): هي جمعية من أعرق الجمعيات العالمية التي أخذت على عاتقها منذ إنشائها تقديم أوجه الرعاية بمختلف صورها للمحاربين القدماء وأسر الشهداء ومصابي العمليات الحربية إيمانًا منها ومن القيادة العامة للقوات المسلحة بما قدموه لهذا الوطن وصون مقدساته.

"ماذا عنك؟" سألني وهو يعلم أنه لم يتبق أمامي سوى ستة أشهر على انتهاء الخدمة.

هززت كتفي، لأعلمه أنني كنت ما زلت أفكر في الخيارات المطروحة أمامي.

"حسنًا" قال الدكتور ايلس بصورة عامة إلى حد ما، «إن أردت أن تلقي نظرة على مهنة الطب فأستطيع أن أساعدك في الأمر."

استمعت له بآذان صاغية وهو يشرح لي عن المختبر الذي كان يحضر له وعن منصب المساعد الباحث الذي كان سيشغله.

"يمكنك أن تأتي وتساعدني» أعقب قائلًا؛ ليعلمني أن الوظيفة في انتظاري إن أردتها: «لكن راتبك سيكون سبعمئة وخمسين دولارًا في السنة فقط.»

كان ذلك من شأنه أن يحسن من دخلي في القوات البحرية. لم يكن الراتب الذي كنت أحلم به لكنه كان فرصة كبيرة لأتلقى تدريبي على يد أحد ألمع الأطباء في المجال في سان فرانسيسكو، المكان الأبعد الذي يمكن لي أن أذهب إليه وأشعر وكأنني أزور جزءًا آخر من العالم.

"فكر في الأمر." قال لي، "وأخبرني إن كنت ستقبل الوظيفة."

فكرت لثانيتين ثم أخبرت بوب ايلس: «لقد قبلت، سأكون هناك.»

الفصل السابع

صور من الحياة

عندما كنت أتأمل المناظر في ساحة الاتحاد في ربيع عام 1976 - بعد مرور عامين على عملي مع الدكتور روبيرت ايلس في المركز الطبي التابع لجامعة كاليفورنيا، وجمعية المحاربين القدامى وقف رجل أعمال بجانبي، في منتصف عمره، يرتدي نظارات ويحمل في يده حقيبة مستندات وقال: «أنت تعلم أن سان فرانسيسكو هي باريس المحيط الهادئ.»

"أنت على حق." قلت له، وأنا أتذكر كم مضى من الوقت على وجودي خارج منطقة الخليج.

بالطبع فإنني في هذه المرحلة وبعد مرور فترة قصيرة على عيد ميلادي الثاني والعشرين، لم يكن قد سبق لي أبدًا الذهاب إلى باريس. لكنني كنت متأثرًا كثيرًا بتأملي للمناظر لدرجة أنني بدأت أصف فناء منزلي الجديد للآخرين على أنه «باريس المحيط الهادئ.» عبارة لتذكيري بأني سأمتلك في نهاية المطاف منزلي الخاص بي.

صادف أن يكون جو هذا اليوم جميلًا جدًا. لن ترى يومًا جميلًا

كهذا في أي مكان في العالم سوى في سان فرانسيسكو؛ فزرقة سمائها تمثل -دون وجود أي غيمة- خير مثال لمعنى «سماء زرقاء» في القاموس. نسيم دافئ يداعب الأشجار في المتنزهات، وترى الجميع فيها، من ساكنين وزائرين على حد سواء، مستمتعين في الهواء الطلق، مثلي، فلا شيء أفضل من أن تمتع نظرك بهذه المدينة الجميلة.

إنه لشعور مثير أيضًا أن تتواجد في سان فرانسيسكو في ذلك التوقيت الثقافي والتاريخي. رغم بدأ انحسار ذروة ظاهرة الهيبيز وحركة الحب الحر[144]، إلا أن المدينة في السبعينات كانت ما تزال مقصدًا لشخص مثلي كان ذات يوم أول هيبي أسود في أمريكا. مع حدوث الكثير من التغييرات العاصفة في الستينات، ومع الإنجازات التي جرت في حركة الحقوق المدنية الواضح أثرها في كل مكان، ومع فضيحة ريتشارد نيكسون[145] وانتهاء حرب

144) حركة الحب الحر Free Love: حركة اجتماعية ترفض الزواج، والتي كانت ينظر إليها بوصفها شكل من أشكال العبودية الاجتماعية، وخصوصا بالنسبة للمرأة. الهدف الأساسي لحركة الحب الحر هو فصل الدولة عن الشؤون الجنسية كالزواج، تحديد النسل، وممارسة العلاقة الحميمية خارج إطار الزواج، حيث رأت بأن هذه القضايا هي شأن خاص بالأفراد فقط. فبينما يترجم البعض عبارة الحب الحر للجنس المشاع في الرؤية الشعبية، خصوصًا في العام 1960 والعام 1970، تاريخيًا حركة الحب الحر لم تؤيد تعدد الشركاء في العلاقات الحميمية. ولكنها أيدت أن تكون علاقات الحب حرة بدون أي قانون يحددها.

145) ريتشارد نيكسون Richard Nixon: 1913-1994، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية السابع والثلاثون للفترة: 1969-1974. اضطر للتنحي في بداية فترة رئاسته الثانية بسبب فضيحة وترغيت التي تعد أكبر فضيحة سياسية في تاريخ أمريكا. عندما فاز نيكسون بصعوبة شديدة على منافسه الديموقراطي همفري، بنسبة 43.5% إلى 42%، جعل موقفه أثناء معركة التجديد للرئاسة صعبًا جدًا. لذا قرر التجسس على مكاتب الحزب الديمقراطي المنافس في مبنى ووترغيت. وفي 17 حزيران 1972 ألقي القبض على خمسة أشخاص في واشنطن بمقر الحزب الديمقراطي وهم ينصبون أجهزة تسجيل مموهة. تفجرت أزمة سياسية هائلة وتوجهت أصابع الاتهام إلى الرئيس نيكسون. استقال على أثر ذلك في أغسطس عام 1974. وحوكم بسبب الفضيحة، وفي 8 أيلول 1974 أصدر الرئيس الأمريكي جيرالد فورد عفوًا بحق ريتشارد نيكسون بشأن الفضيحة.

فيتنام، مهّد عصر الاحتجاجات الطريق لبدأ وقت المرح والتمتع بالحياة. كانت سان فرانسيسكو أكثر، من أي مكان آخر، مثالًا حيًا وحقيقيًا للجو المرح، والمتسامح، وإمكانية حدوث وتجربة أي شيء.

بعد إكمال فترة التجنيد العسكري، حيث كان كل شيء فيها يدور حول الانضباط، والاستدعاءات، والأوامر، والتنظيم، بدأت أختبر الحياة في المدينة التي احتفت بالشخصية الفردية والاختلاف فوق كل شيء آخر وكأنني كنت بالفعل أزور بلدًا أجنبيًا. أصبحت منطقة هايت -آشبري مكاني المفضل الذي أقضي فيه معظم وقتي، حيث كانت في يوم من الأيام مهدًا للحياة الليلية، والمخدرات، وموسيقى الروك أند رول[146]، ولم تزل تعج بنوادي الموسيقى، والمطاعم، والمكتبات، ومنافذ البيع بالتجزئة، وكان مشهد الشارع المجنون مليئًا بالألوان والحياة.

لم تكن منطقة الخليج في تلك الأعوام هي الميدان المثالي للاستكشاف والتجربة فحسب، بل كنت أنا أيضًا في عمر مثالي لاختبار أشياء جديدة، واستكشاف فلسفات جديدة، وتذوق نكهات مختلفة كي أستطيع أن أقرر نوع الحياة التي أردت أن أبنيها لنفسي نهاية المطاف. كانت هذه الفترة مهمة جدًا بالنسبة لي ليس فقط لأني اكتشفت فيها الجانب الخارجي للحياة من عمل وعلاقات، ومال، بل لأنها جعلتني أيضًا أكتشف نفسي من الداخل، وأتعرف على خباياها، وأدرك وجهة نظري الحقيقية بكل ما يحدث من حولي.

---

146) روك أند رول Rock n roll: نمط من العزف الموسيقي نشأ في أمريكا في الخمسينات من القرن العشرين، وسرعان ما شهد انتشارًا واسعًا وتطور إلى عدة فروع وأنماط يشار لها جميعًا باسم روك. تضم موسيقا الروك عناصر من عدة أنماط للعزف الموسيقي مثل: البلوز وبوغي ووغي، والجاز، والريثم، إضافة لتأثرها بموسيقى الريف الأمريكي: الكانتري والويسترن.

كان هذا الأمر واضحًا لدى وصولي للساحل الغربي بعد فترة قصيرة عندما دعاني بعض الأصدقاء للانضمام إليهم لحضور محاضرة. اتفق ثلاثتنا على حضورها بعد إلحاح شديد من بيل الذي كان يجيد التحدث بلباقة، وفي نفس الوقت كان شخصًا محتالًا أيضًا. لقد كنا الشبان الثلاثة الوحيدين المستقيمين ممن كانوا حينها يقيمون في جمعية الشبان المسيحيين[147] في تيندرلوين. كنا نستخدم المرحاض، ونحلق، ونستحم بالتناوب كي يرعى أحدنا ظهر الآخر حرفيًا. كان علينا البقاء سوية دائمًا، فإن رغب بيل حضور أي شيء كنا نضطر نحن أيضًا للضور معه.

لكنني لم أستطع منع نفسي من السؤال: «ما هو موضوع المحاضرة؟»

وعدني قائلًا: «كريس، هذه الندوة ستغير حياتك. فكما تعلم يا رجل، نحن جميعنا نخضع للاستجابة للأشياء بطريقة معينة: بسبب آبائنا، ومدارسنا، وحكوماتنا. إنها الرأسمالية[148] المبرمجة في عقولنا التي تجعلنا نطارد تلك الأشياء المادية. أنا أتحدث عن حرية الإرادة، عن إنهاء العبودية من سيطرة الدولار المعظّم.»

147) جمعية الشبان المسيحيين: YMCA - Young Men's Christian Association هي مؤسسة عالمية تأسست في لندن عام 1844 وتهدف لنشر الوعي والثقافة والأخلاق والقيم المسيحية في أوساط الشباب. في عام 1978 أصبح هذا المختصر يشير أيضًا إلى (رابطة شبان رعاة البقر) وهي مجموعة الشبان غير المستقيمين الذين كانوا يستترون تحت غطاء الاختصار الحقيقي لهذه الأحرف، حيث ظهر معنى هذا المختصر من خلال أغنية حملت نفس العنوان قام بغنائها فرقة فيلج بيبول. وعلى الرغم من أن الأغنية لا تحتوي على إشارات تدل على المثلية الجنسية إلا أنها سرعان ما أصبحت نشيدًا يعبر عن الشبان غير المستقيمين (مثلي الجنس).

148) الرأسمالية Capitalism: نظام اقتصادي ذو فلسفة اجتماعية وسياسية تقوم على أساس تنمية الملكية الفردية والمحافظة عليها. يشمل هذا النظام الخصائص الرئيسة للرأسمالية وهي الملكية الخاصة وتراكم رأس المال والعمل المأجور والأسواق التنافسية، حيث يفتح السوق المنافسة الصرفية بين الأفراد لاستغلالها بكفاءة. بما أن الرأسمالية تعزز الملكية الفردية، فإنها تقلص الملكية العامة، ويوصف دور الحكومة فيه على أنه دور رقابي فقط.

"هل ستكون الندوة عن الشيء الذي قلته الآن؟" سألته، مذكرًا إياه أن جدول أعمالي ضيق للغاية.

استطرد قائلًا، «تلك هي المشكلة، نحن نسعى وراء الأشياء المادية، ونسعى إلى أن نصبح من الطبقة المتوسطة، ونطمح للوصول إلى الطبقة البرجوازية.[149] أنت تعتقد أن العمل هو الذي يحدد ذاتك، أليس كذلك؟ كلا يا رجل، العمل لا يحدد من نكون، نحن فقط من نحدد شخصياتنا.»

كان كلامه مثيرًا للاهتمام بما فيه الكفاية ليجعلني أحضر الندوة. وحتى بعد أن حضرتها، وبعد ما تبين أنها ندوة تدعى إي أس تي[150] يديرها شاب يدعى ويرنر أيرهارد، لم يفسر لنا أي أحد عن ماذا كانت تتحدث. في الحقيقة كان عليك أن تفهم ماذا تعني، وإن لم تفهم ماذا تعني، فعليك أن تتدرب حتى تفهم ماذا كانت تعني. وعليك أن تدفع الكثير من النقود لكي يتم تدريبك حتى تفهمها. جلست على الأرض متربعًا في غرفة تحتوي على ما يقارب المئة شخص، ومعي أصدقائي الثلاثة، نتناقل تعابير الإحباط فيما بيننا بينما كان ويرنير أيرهارد وصديقه الملازم يتبادلان الأدوار في الصراخ علينا، بالضبط كما كانوا يفعلون في العسكرية، يخبروننا كيف أن حياتنا

149) الطبقة البرجوازية Bourgeois: هي طبقة اجتماعية ظهرت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، تمتلك رؤوس الأموال والحرف، كما تمتلك كذلك القدرة على الإنتاج والسيطرة على المجتمع ومؤسسات الدولة للمحافظة على امتيازاتها ومكانتها بحسب نظرية كارل ماركس.

150) إي أس تي ندوات إيرهارد التدريبية –EST: Erhard Seminars Training : هي ندوات مكثفة لمدة ستين ساعة من التلاعب النفسي ظهرت في عام 1971 على يد مؤسسها المؤلف والمحاضر الأمريكي ويرنر هانس أيرهارد (5، أيلول، 1935). تهدف إلى إعادة هيكلة نظرة الشخص إلى العالم، ويزعم أيرهارد أن هذه الندوات تعطي الفرد حرية عظيمة تمكنه من أن ينشئ نفسه من جديد وأن يصبح كما يريد أن يكون، وذلك بإزالة كل القوانين والقواعد التي تحكم الفرد، فلا يوجد أي اعتبار للمجتمع، والفرد وحده هو المهم، وسعادته هي الأولوية القصوى، ولا دور للحكومة أو المجتمع في ذلك.

لم تكن تجري على ما يرام وكيف أننا لم نكن نتحمل أي مسؤولية عن أفعالنا. كيف يمكننا تحمل المسؤولية؟ كان علينا أن نفهمها. لكن لم يخبرنا أحد ماذا كانت تعني! والأدهى من ذلك أنهم لم يرغبوا أن نغادر حتى نكون قد فهمنها تمامًا. لم يسمحوا لنا أيضًا بالأكل أو الذهاب إلى الحمام. بدأنا أنا وأصدقائي ومن ضمنهم بيل نقلب أعيننا من الإحباط. ما أردت قوله هو: «أخبرونا فقط ما هي، لربما سنفهمها إن عرفنا ماذا تكون. لربما نحن بالفعل نعرفها.»

تبين لي أن منظمي الندوة لم يكونوا على دراية بمعناها أيضًا. وعندما أصبح الأمر واضحًا تمامًا، وبعد مرور ساعة تقريبًا من كل ذلك التوبيخ، وقفت وقلت أخيرًا: «لقد فهمتها.» وقبل أن يستأنف الحديث عنها، أضفت قائلًا: «تبًا لها. تبًا له، وتبًا لك، وتبًا لكل شيء.»

تعالت أصواتنا نحن الأربعة، وردد أحد أصدقائي: «نعم، تبًا لها!» وصرخ آخر: «أليست هذه الندوة هراءً!" وصرخ بيل: «لا أريد أن أفهمها!» وختمتها قائلًا: «احتفظوا بها لأنفسكم.»

كوننا كنا الأشخاص السود الوحيدين في المكان، شعرنا بأن الأمر سيأخذ منحى عنصريًا، لكن سرعان ما بدأ الأشخاص البيض بالنظر إلينا وكأنهم يقولون لنا: "إنهم حقًا يفهمونها." كانت أبواب الجحيم على وشك أن تفتح بوجوهنا حتى وقف أحدهم وانضم إلينا قائلًا: «أجل، هذا صحيح، تبًا لها!». كان هذا سببًا كافيًا بالنسبة لنا لنخرج من المكان بسرعة لأننا حقًا جعلنا المكان فوضى. برهنت تلك التجربة الصغيرة لي أنني لم أكن بحاجة لمذهب آخر لينور بصيرتي. لكن بيل استمر في بحثه عن مذهب جديد.

بعد مرور عدة أعوام سمعت بأن بيل وزوجته قد أصبحا تابعين

لأحد قادة الكاريزمية[151] الذي أقنع أتباعه بتسليم جميع ممتلكاتهم الثمينة -له- ومغادرة الولايات المتحدة إلى مدينة جونز تاون[152]في غويانا. في تشرين الثاني من عام 1978 سمعت الأخبار التي تحدثت عن عملية انتحار جماعية نظمها جيم جونز[153] حيث تمكن من إقناع أكثر من تسعمئة شخص من أتباعه بشرب سم السيانيد الموضوع داخل علبة مشروب كول - إيد. كان بيل من ضمن أولئك الذين ماتوا في ذلك اليوم. جعلني الأمر أتساءل حقًا كيف يمكن لشخص فطن استطاع أن يتحدى منظومة المعتقد السائدة في الوضع الراهن، أن يعتنق منظومة معتقد راديكالية مثل جونز تاون دون التشكيك فيها.

حاجتي للسيطرة على الأمور التي عاشت معي منذ الطفولة كانت جزءًا من وسيلة دفاعي عن نفسي. كان هذا أيضًا سببًا جعلني أستمر في التصدي إلى الإسراف في تعاطي المخدرات وشرب الكحول في هذه السنوات

151) الكاريزمية Charismatic: إن أول من استخدم مصطلح الكاريزما هو عالم الاجتماع الألماني ماكس ويبر، حيث استخدم هذا المصطلح للإشارة إلى نوع السلطة المقترنة بشخصية القائد وما يمتلكه من مواهب ذاتية. ويسمي البعض هذا النوع من القيادة بقيادة سحر الشخصية، وذلك لأن القائد هنا يعتمد على السلوك المرن وعلى الاتصالات الشخصية مع مرؤوسيه لغرض تحفيزهم ولإيصال ما يهمهم من معلومات وأفكار.

152) جونز تاون Jonestown: هو الاسم العامي لمشروع معبد الشعوب الزراعية، مجموعة دولية أنشئت في الشمال الغربي لغيانا و تكونت بواسطة طائفة دينية من الأمريكيين من أعضاء المعبد بقيادة جيم جونز. أصبحت تلك المجموعة سيئة السمعة عالميًا في 18 تشرين الثاني 1978 إثر وفاة 913 شخص في المستعمرة من بينهم قتل أكثر من 200 طفل جميعهم من جراء التسمم بمادة السيانيد.

153) جيم جونز Jim Jones: ولد في 13 أيار 1931 وتوفي في 18 تشرين الثاني 1978 وهو مؤسس وزعيم معبد الشعوب، اشتهر بعملية الانتحار الجماعي في الثامن عشر من تشرين الثاني لعام 1978 التي راح ضحيتها ما يزيد عن 900 عضو من المعبد في جونز تاون، غيانا، من بينهم أكثر من 200 طفل قتلوا جميعًا من جراء التسمم بمادة السيانيد، بالإضافة إلى قتل خمسة أشخاص آخرين بالقرب من مدرج هبوط للطائرات.

الحافلة بالتجارب. كنت بالطبع أتعاطى البعض منها بين الحين والآخر، كتلك المرة التي دخنت فيها غبار الملاك وحاولت إقناع نفسي بالعدول عن فكرة الاعتقاد بأنني أستطيع الطيران. في اللحظة التي دخلت فيها مادة البي سي بي عقلي قمت بعمل تمارين رفع كتلة الجسم مئة مرة على أنابيب التدفئة في بنايتنا، استوقفتني قوتي الخارقة وبدأت أفكر أنني عندما كنت أتمرن في القوات البحرية، كنت أستطيع القيام بخمسة وعشرين رفعة فقط عندما أكون في كامل لياقتي.

عندما بدأت أنظر من النافذة وحاولت أن أقرر إلى أي وجهة سأطير، نصحني صوت واع وحكيم في داخلي: "انس أمر الطيران، ما رأيك بأن نسير؟»

قمت بالسير من تيندرلوين قاطعًا مسافة طويلة دون الإحساس بأي إجهاد، وشعرت بأني كنت أرتفع إلى أعلى التلال، ومن ثم أهبط إلى أسفلها، وكنت أسحب من جسر إلى آخر. وصلت بأعجوبة إلى الحي الصيني[154]، وكأنني كنت أبحر ووصلت إلى الشاطئ، وتصادف أن يكون وصولي تحديدًا إلى وسط احتفال وعرض باذخ. انضممت إلى الحاضرين على الفور، دون أن تتم دعوتي، ورقصت في الشارع مع أصحاب الأزياء التنكرية والأقنعة، وكان عددٌ كبير منهم يحمل مصابيح صينية وتماثيل مصنوعة من الورق والعجين، وكان الكثير منهم ينظر نحوي باستغراب، ولا شك أنهم كانوا يتساءلون: «من هذا الرجل السعيد؟ إنه ليس صينيًا.»

---

154) الحي الصيني Chinatown: هو الّحي الذي يقطنه المهاجرون الصّينيّون في مانهاتن، ويتميز الحي بالمشهد الثّقافي الصيني الذي يحافظ عليه سكان الحي منذ سكنوا المنطقة. هذا الحي ثاني أكبر تجمع للصينيين خارج حدود الصين، حيث يوفر هذا الحي جميع مشاهد الحياة اليومية للصينيين من مطاعم للمأكولات الصينيّة الشعبية، وحتى المتاجر التي تبيع التحف والزخارف الصينية، ومتاجر الملابس، إلى جانب العروض الفنية، والثقافية والمهرجانات التراثية.

في الوقت الذي بدأت فيه أهدأ وجدت نفسي في بار في الساحل الشمالي، أتراقص على أنغام فرقة تعزف شتى أنواع الموسيقى، متكونة من طبل وآلة هارمونيكا. تصورت أنني وسط حفل موسيقي في قاعة كارنيجي.[155] أدركت مدى خطورة أن أكون منتشيًا لتلك الدرجة وكان هذا أمرًا جيدًا. يمكن للموسيقى بحد ذاتها أن تكون تجربة ذات تأثير قوي على العقل، لذا إن كنت قد تعاطيت عقارًا مسبقًا فهذا يعني أن استماعك للموسيقى سيذهب عقلك تمامًا. كان الأمر خارجًا عن السيطرة! وعندما حان الوقت لعودتي إلى تيندرلوين مشيت إلى المنزل بتثاقل، لكنني استعدت اتزاني سريعًا وأدركت أن تعاطي المخدرات تجربة لا أرغب بتكرارها.

في الواقع ورغم جميع استكشافاتي التي قمت بها خلال ساعات الفراغ إلا أن محط اهتمامي الرئيس فيما يخص التجارب، كان يتمحور حول عملي في المختبر الذي كان الدكتور ايلس قد أتى بي من أجل القيام به. اتهمني صديقي بيل الذي أخذني معه لحضور اجتماع ال إي أس تي بأن لدي تطلعات برجوازية، وكان هذا صحيحًا؛ فلقد أغرتني فكرة إمكانية العمل في مجال الطب. إن كان هذا هو ما أريده، وإن كنت شغوفًا ومتفانيًا في عملي فإن بوب ايلس كان على استعداد لوضع ثقة كبيرة في شخصي كي يعلمني ويفتح لي الباب نحو عالم جديد في مجال البحث الطبي، عالم مختلف عن عالم القوات البحرية الذي عملت فيه.

أدير المشروع البحثي بالاشتراك مع مستشفى المحاربين القدامى -الكائن في فورت مايلي، أبعد نقطة ساحلية في سان فرانسيسكو، على

---

155) قاعة كارنيجي Carnegie Hall: هو مكان لإقامة الحفلات الموسيقية في وسط مانهاتن في مدينة نيويورك، الولايات المتحدة. صمم المكان المهندس المعماري ويليام بيرنيت وبناه أندرو كارنيجي في عام 1891 ويعد واحدا من أرق الأماكن في العالم التي تجمع الموسيقى الكلاسيكية والشعبية.

مسافة من جسر البوابة الذهبية- ومستشفى جامعة كاليفورنيا في سان فرانسيسكو، على مقربة من متنزه البوابة الذهبية وملعب القيصر. قضيت معظم ساعات عملي في مستشفى المحاربين القدامى وكان الهدف من البحث هو إنشاء مختبر -يتكون بشكل رئيس من غرفة عمليات قديمة- يشابه البيئة التي يستطيع القلب من خلالها متابعة وظيفته أثناء القيام بعملية قلب مفتوح. كنا نحاول على وجه الخصوص تحديد نسبة البوتاسيوم الأفضل للحفاظ على مركب الفوسفات عالية الطاقة في عضلة القلب. كنا نجري مجموعة من الاختبارات مع وجود مستويات عالية من محلول البوتاسيوم، ومجموعة أخرى مع وجود مستويات منخفضة من محلول البوتاسيوم، ومجموعة أخرى مع وجود الحد الأدنى من محلول البوتاسيوم، ونقوم بأخذ عينات من نسيج القلب في كل مرة، ومن ثم نقوم باستخدام ما توصلنا إليه في تلك المرات من أجل بيان نتائج بحثنا. تبين في النهاية أن المستوى المرتفع من محلول البوتاسيوم كان الحل الأفضل للمحافظة على الفوسفات عالية الطاقة، وهي معلومة من شأنها تغيير الطريقة التي تتم بها عملية زراعة القلب، إضافة إلى تأثيرها في علم أمراض القلب والأوعية الدموية. كوني شخصًا قادرًا على امتصاص المعلومات، فقد وضعني هذا العمل حيث يجب أن أكون.

قال الدكتور ايلس في أول يوم لي في العمل: «غاردنر، أريد أن أعرفك على ريب جاكسون.»

التفتّ لأتمعن في الإطلالة المذهلة لريبورن «ريب» جاكسون الذي أتى به الدكتور ايلس إلى سان فرانسيسكو حيث كان قد تعرف عليه أثناء تواجده في جاكسون فيل، كارولاينا الشمالية. مثلما كان الدكتور ايلس يتميز بإطلالة تليق بمكانته كشاب جراح لامع -ذي طول وجسم اعتيادي،

يرتدي نظارة، وأصلع، أنفه يشبه منقار الصقر، ويستكشف التفاصيل بدقة، شغوف، وانفعالي أحيانًا- فإن ريب جاكسون كان عبقريًا أيضًا وامتلك قدرة هائلة كمساعد فني في العلوم الطبية. مد ريب -النحيف، القصير، حليق الذقن، بشعره الأشيب وعينيه الزرقاوين الصغيرتين الثاقبتين- يده ليصافح يدي وألقى التحية بنبرة ابن الريف الأصيل، القادم من غابات كارولاينا الشمالية قائلًا: «تشرفت بمعرفتك.» وأضاف مبتسمًا ابتسامة صغيرة: «لقد سمعت عنك الكثير يا غاردنر.»

أخبرني حدسي أنه لربما قد كان أحد أعضاء مجموعة كو كلوكس كلان (ك. ك. ك)[156] في أيام شبابه. شيء ما حوله كان يذكرني بتلك المرأة الكبيرة في السن في محطة الوقود التي هددتنا بالبندقية. لم يكن ريب متطرفًا إلى حد كبير، لكن مع مرور الوقت كان لسانه يزل في بعض التعليقات التي أكدت على أنه كان شخصًا متعصبًا حد النخاع. ونظرًا إلى أنه كان يعمل لدى الكثير من الأطباء اليهود، فإنه على ما يبدو كان حذرًا في عدم قول تعليقات معادية للسامية.[157] لكن ربما بسبب اختلاطه القليل بالأطباء السود، كان غير متحفظ في كلامه، فمثلًا عندما أراد أن يعبر عن

156) كو كلوكس كلان (ك. ك. ك) Ku Klux Klan (KKK): مجموعة منظمات أخوية سرية ظهرت بشكل ملموس عام 1915 في جنوب الولايات المتحدة. تهدف هذه المجموعة إلى قمع الحقوق المكتسبة حديثًا للسود ومعاداة السامية والكاثوليكية، وغيرها من الجماعات. تعمدوا هذه المنظمات عمومًا استخدام العنف والإرهاب وممارسات تعذيبية كالحرق على الصليب لاضطهاد من يكرهونهم مثل الأمريكيين من أصل إفريقي وغيرهم.

157) معاداة السامية Anti-Semitism: المعنى الحرفي أو اللغوي للعبارة هو «ضد السامية»، وتُترجَم أحيانا إلى «اللاسامية». استخدم المصطلح لأول مرة من قبل الباحث الألماني فيلهم مار لوصف موجة العداء لليهود في أوروبا الوسطى في أواسط القرن التاسع عشر. وبالرغم من انتماء العرب والآشوريين وغيرهم إلى الساميين، الا أن معاداتهم لا تصنف كمعاداة للسامية. معاداة اليهود تُعد شكلًا من أشكال العنصرية.

مشاعره إزاء رؤية زوجين من بشرتين مختلفتين في المستشفى، كان يهز برأسه مشمئزًا ويقول لي: «أعتقد أنني أفضّل أن أرى رجلين في علاقة معًا على أن أرى رجلًا أسود مع امرأة بيضاء.»

كان الأمر مثيرًا للاهتمام جدًا، لربما كانت علاقتنا قوية للغاية لكي يعلق هكذا في وجودي. وعلى أية حال، فإن ريب جاكسون رأى منذ البداية أنني أردت التعلم منه وليس هذا فحسب، بل إنني لم أستغرق وقتًا كثيرًا في فهم ال إي أس تي، لذا كان يعاملني بأقصى درجات الاحترام. تطورت علاقتنا عندما أتى في البداية ليظل معنا لمدة شهر، تدربت فيها تحت يده وجعلني أشرف على كل شيء احتاجه الدكتور ايلس خلال الستة أشهر التي تلت، ومن ثم أتى بعدها في فترات مختلفة حسبما اقتضت الحاجة له.

إذا ما وضعنا أفكاره العنصرية جانبًا، فإن ريب جاكسون كان لديه قدرات لا يعلى عليها في تقنيات بناء أي مختبر وقدرته كذلك على تعليمي كيفية إدارته، إضافة إلى أنه حظي بأقصى درجات الاحترام مني.

على الرغم من أنه لم يكن طبيبًا مرخصًا، إلا أن خبرته التقنية كانت تضاهي خبرة أمهر الجراحين، فقد دربني أحسن تدريب في هذا المجال المتخصص للغاية وهيأني لأفعل كل شيء من شأنه أن يساند الدكتور ايلس. تراوحت مسؤولياتنا ما بين استئصال القلوب، وإجراء قسطرة للأوعية الدموية وتقطيب الجروح، وتجهيز المعدات والأجهزة وإدارة عمليات التخدير، وأخذ الخزع من أنسجة قلب المريض، وتحليل النتائج.

إضافة إلى التعليم منقطع النظير الذي تلقيته على يد الدكتور ايلس وريب جاكسون، فقد كان هناك عالم صواريخ استثنائي يعمل في المختبر الطبي، رجل يدعى غاري كامباجنا. لم يكن غاري حاصلًا على شهادة في الطب أيضًا، لكنه كان يفعل لجراح القلب الدكتور جيري غولدستين ما

كان ريب جاكسون يفعله للدكتور ايلس. كان أحد سكان سان فرانسيسكو، وكان رجلًا أنيقًا خفيف الظل، من أصل إيطالي، أخذني تحت جناحه، وعلمني أسلوب وأهمية الدقة في العمل. بت أعلم الآن أنه لم يكن كافيًا أن تجيد ما تفعله، وإنما أن يكون لديك اليدان البارعتان واللمسة المناسبة.

كان غاري يستخدم تعابير لا تنسى ليشدد على أهمية أساليب معينة. فيما يخص ترقيع الأوردة، على سبيل المثال، كانت الدقة أمرًا واجبًا وعلى رأس الأولويات لكي يتم التمكن من السيطرة على تدفق الدم -وإيقافه مثل سدادة الحنفية- من أجل استئصال الجزء الذي يحل محله الترقيع ومن ثم تُخاطُ المنطقة المحيطة به لمنع حدوث أي انسدادات.

لقد تعلمت من خلال العمل العيادي كيفية فعل كل ذلك، وتحديد نوع القطعة المطلوبة لاستئصال جزء من الشريان، ونوع الخياطة المستخدمة، ونوع العقد التي تجرى، وما هو نوع الترقيع المطلوب إجراؤه في نهاية العملية وفقًا لحالة الوريد. حذرني غاري من ارتكاب الخطأ الشائع في محاولة التعامل مع الوريد على عجالة: «اضغط عليه بلطف، لا تقم بوخزه.»

كان هؤلاء الثلاثة -غاري وريب وبوب ايلس- يعلمونني كل ما يكافئ التعليم في جامعات الطب، على الأقل في هذا الاختصاص. ومع وضوح سير الخطة في ذهني، تخيلت أنني بمجرد إنهائي العمل هنا سيتسنى لي أن أطرق باب التعليم الجامعي، وسأكون مرشحًا واعدًا لأي جامعة طبية مرموقة تنتمي لرابطة اللبلاب.[158] جعلتني هذه الاحتمالية أشعر بالإثارة. أيمكنني

---

158 رابطة اللبلاب Ivy League: هي رابطة رياضية تجمع ثماني جامعات تعتبر من أشهر وأقدم جامعات الولايات المتحدة الأمريكية. سميت بهذا الاسم لأن جميعها تقع في الشمال الشرقي للولايات المتحدة. وهذه الجامعات هي: جامعة هارفارد Harvard University وجامعة ييل Yale University وجامعة برنستون Princeton University وجامعة بنسلفانيا University of Pennsylvania وجامعة كولومبيا Columbia University وجامعة براون Brown University وجامعة دارتموث Dartmouth College وجامعة كورنيل Cornell University.

حقًا فعل ذلك؟ أيمكنني الوصول لذلك الحد؟ تردد صدى كلمات أمي في مسمعي: "بالإرادة تفعل كل شيء."

لم تكن المكانة المرتقبة والأموال التي ستهل عليّ إذا ما أصبحت جراحًا هما السبب وراء شعوري بالإثارة تجاه هذا المجال، بالنسبة لي كان الأمر تحديًا، وبحثًا عن المعلومات، وفرصة لصب تركيزي في مكان يتطلب مني أن أتعلم ما يعادل تعلم لغة أجنبية. بدأت أفهم أن هنالك لغة محددة لكل شيء، وبأن القدرة على تعلم لغة أخرى في مجال واحد -سواء كان مجال الموسيقى، أو الطب، أو الموارد المالية- من شأنه أن يسرع من عملية التعليم في مجال آخر أيضًا. كان أمرًا ممتعًا بالنسبة لي أن أجيد اللغة العلمية، ليس فقط المصطلحات الطبية ومعانيها ولكن أيضًا ذلك الشرح العادي، بوتيرته السريعة وطريقته الدقيقة في شرح الظواهر الغريبة وسير العمليات. إن إدراكي هذا لسير العملية برمتها -كيفية الانتقال من هنا إلى هناك- كان الفخ الحقيقي الذي أوقعني في شباك الطب، وجعلني أرغب في تعلم المزيد. ولأنني كنت متحمسًا جدًا وفضوليًا بالفطرة لذا كانت عملية التعلم سهلة بالنسبة لي.

ما إن تعلمت لغة الطب، حتى تفتحت أبواب جمعية المحاربين القدامى ومستشفى جامعة كاليفورنيا في سان فرانسيسكو حرفيًا أمامي، عندما جاء بي الدكتور ايلس وأجلسني للتحدث مع ألمع الزملاء في مجال الطب. في هذه السياقات قلة كانوا يعرفون بأنني لم أدخل كلية الطب ولم أكن طبيبًا، فضلًا عن أنني لم أكن يومًا طالبًا في أي كلية أخرى، وبالكاد استطعت إنهاء المرحلة الثانوية. وبالطبع كانت هنالك لحظات شعرت فيها بافتقاري للتعليم، لكني اكتشفت أنني بدلًا من التظاهر بمعرفتي لشيء لم أكن أعرفه فقد كان هنالك طريقة للسؤال: «الآن أنا لم أفهم ما فعلته هنا،

هل لك أن تشرح لي؟» كان أغلب الأطباء تسعدهم جدًا الإجابة على أسئلتي.

أصبح بوب ايلس في هذه المرحلة على يقين تام بمدى براعتي في العمل على بحثنا، لدرجة أنني أصبحت أشاركه في كتابة عدة بحوث عن المحافظة على الفوسفات في وجود طاقة عالية في عضلة القلب، بحوث كانت تنشر في مختلف مجلات الطب والكتب. حتى أن بعضًا من خريجي كليات الطب في جامعة هارفرد لا يستطيعون الادعاء بأن بحوثهم نشرت بذلك الشكل الواسع.

"أين أكملت تعليمك الطبي؟" كان سؤالًا حتميًا لابد أن يطرح علي، خاصة على لسان الأطباء المتمرنين تحت إشراف الدكتور ايلس والدكتور غولدستين. كان أمرًا محيرًا بالنسبة للدكتور ايلس أن الكثير من متدربيه، ممن كانوا في مرحلة التخصص الجراحي، لم يكونوا واعين كفاية على المستوى التطبيقي. لم تكن لديهم اليدان البارعتان ولا العينان الفاحصتان، ولم يكونوا على دراية بالأجهزة أو الإجراءات. البعض منهم لم يكن يعرف حتى كيفية التعامل مع الأدوات الطبية. وبدلًا من تضييع وقته في تعليمهم لتلك الأساسيات كان يرسلهم للتدرب تحت إشرافي. وفجأة كل تلك الأسئلة التي كنت أسألها: «ماذا تفعل؟»، «كيف تقوم بفعل ذلك؟»، «لماذا تفعل ذلك؟»، «هل لي بتجربة ذلك؟» أصبحت أنا من يجيب عنها.

جميع المتدربين كانوا بارعين في عملهم ويعرفون ماذا يعني علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء، وعلوم الأحياء، والكيمياء لكن قلة منهم امتلكوا يدين بارعتين. غالبًا ما كنت أجد في نبرة صوتي الانفعالية مزيجًا يجمع غضب ايلس وريب وغاري في آن واحد. خلال التجارب التي تضمنت إجراء جراحة قلب مفتوح على الكلاب، كانت مشاهدتهم وهم يتعاملون بمنتهى العنف أمرًا يدفع إلى الجنون، كما هو الحال في أحيان كثيرة لدى

تعاملهم مع شرايين الكلاب البوليسية المريضة وأعضائها الرقيقة. أما في مختبري، كما كان يسميه الدكتور ايلس، فقد كان لي مطلق الحرية في قول: "لا، لا تسحب بقوة. اضغط بالتدريج."

عندما كان أحد المتدربين يرمقني بنظرة وكأنه يقول: «من أنت لتملي عليّ ما أفعله؟» كنت أتصرف معه بعناد أكبر، وأرفع نبرة صوتي وأقول له مرة أخرى: «لا، لا تفعلها بتلك الطريقة، هذه ليست سيارة تلقي عليها نظرة من تحت غطاء المحرك.»

لربما كان هناك بعض من المتعصبين نظرًا لحقيقة أن جميع المتدربين في تلك الفترة كانوا ذكورًا بيضًا وخريجي كليات وجامعات طبية مرموقة، ولم أكن أنا سوى رجل أسود غير حاصل على شهادة الطب يتحدث قائلًا: «لا، لا أريد أن تفعل ذلك! أعطني المقص!» لكن على ما يبدو أن ما كان يجعلهم يسيطرون على أعصابهم هو أنهم كانوا مجبرين على فعل ما أقوله. فقد أوضح الدكتور ايلس لجميع المتدربين الذين جعلهم تحت إشرافي: «هنا عالم غاردنر. أي شيء يقوله ينفذ بالحرف الواحد. هو المسؤول عن كل شيء هنا.»

كنت أبذل كل ما بوسعي كي أساعد أي متدرب أراد أن يتعلم أو كانت لديه الرغبة في المحاولة للتعلم. لكن البعض منهم كانوا متغطرسين للغاية لدرجة أنهم كانوا يرفضون مساعدتي على الفور دون تفكير، وما يقولونه بألسنتهم هو أقل بكثير مما يبدونه بلغة أجسادهم التي أظهرت عدم رغبتهم في الإصغاء لي. في مثل هذه الحالات كل ما كان علي فعله هو إخبار الدكتور ايلس: «ثمة متدرب يدعى ستيف - لن أساعده بعد الآن.» وينتهي الأمر. بعد ذلك كنت لا أرى المتدرب مرة أخرى. في بعض الأحيان كنت أصبح أكثر تحديدًا في كلامي: «ذلك الرجل الذي يدعى ريتشارد - لا يريد

أن يصغي لي. لا تضع وقتي، ولا ترسله مرة ثانية إلى مختبري.» كان الدكتور يكتفي بهز رأسه موافقًا، ويحترم رأيي ويقدر كم كنت شغوفًا في مهنتي لأنه كان يملك نفس الشغف.

أما متدربي الدكتور غولدستين في جراحة القلب فقد كانوا أكثر شراسة من متدربي الدكتور ايلس. كانوا يتصرفون معي بطريقة غير لائقة تمامًا عندما كنت أشكك في عدم أهليتهم، وأذكرهم بطريقة غاري كامباجنا: "اضغط عليه بلطف، لا تقم بوخزه".

كان البعض من أولئك المتدربين وقحين كفاية ليسألوا: «ما هي بالضبط مؤهلاتك؟» كانت إجابتي بكل واقعية تتلخص فيما يلي: «ليس لدي شهادة في الطب، لكن هذه المكان يعود لي. لقد دعيتم إلى هنا. أنتم مجرد زائرين، وأنا أقوم بعملي. إن كان بوسعي مساعدتكم، فسأفعل، لكن عليكم أن تصغوا لما أقوله.»

في بعض الحالات الأخرى، استطعت أن أرى تعابير الامتعاض تعلو وجوههم بأنهم لم يسبق لهم أن تلقوا أوامر من رجل أسود يملي عليهم أفعالهم، لم يصادفهم من قبل أن يكون رجلًا أسود هو المتحكم في زمام الأمور. استطاع البعض منهم أن يتجاوز هذه العقبة، والبعض الآخر لم يستطع. بالنسبة لي، كان عليّ أن أتعلم ألا أشعر بالإساءة إزاء تصرفاتهم الفوقية، وبالطريقة ذاتها لم أستطع أن آخذ الأمور على محمل شخصي عندما أوكل لي الأطباء تلك المكانة المهيمنة. الحقيقة الجبارة التي انبثقت من أجلي كانت شيئًا حاولت أمي أن تخبرني عنه عندما كنت أصغر سنًا: "لا أحد باستطاعته أن يأخذ منك شرعيتك أو يعطيك إياها إن لم تطالب بها أنت بنفسك."

كنت قد اعتذرت لأمي قبل أن أرحل إلى القوات البحرية، لأنني لم

أكمل تعليمي الجامعي، لأنني كنت أعرف أن هذا الأمر سيجعلها تفخر بي كثيرًا. لكن أمي فاجأتني بقولها: «أن تأخذ شهادة من الرب خير لك من أن تأخذها من أي مكان آخر في نظام هذا الكون. إن حصلت على شهادتك من الرب، فلن تحتاج لكل تلك الأشياء الأخرى.»

لم يتطلب كلام أمي معرفة عميقة بالإنجيل أو بالدين، وإنما كانت تتحدث عن معرفة النفس، وعن منظومة الاعتقاد الراسخ، وعن الشعور الداخلي للشخص الذي لا يمكن لشيء أن يهزه. يمكن للآخرين أن يشككوا في أوراق اعتمادك، وأوراقك الرسمية، وشهاداتك، ويمكن لهم أيضًا أن يستخدموا شتى أنواع الطرق كي يقللوا من قيمتك لكن لا أحد يستطيع أن يسلب منك ما في داخلك أو يلوثه. هذه هي قيمتك، وكينونتك الحقيقية، وشهادتك التي ستذهب معك أينما ذهبت، تجلبها معك في اللحظة التي تدخل فيها أي مكان، والتي لا يمكن لأحد أن يتلاعب فيها أو يزعزع مكانتها. مهما بلغت شهاداتك، ومهما كان نسبك، وحتى وإن امتلكت وثائق اعتماد، فكل ذلك ليس بمقدوره أن يجعلك شرعيًا إن لم يكن لديك ذلك الشعور بنفسك. مهما امتلكت، فعليك أن تشعر بالشرعية بداخلك أولًا.

كان لما قالته أمي في هذه المرحلة من حياتي صدى كبيرٌ في داخلي، ليس فقط عندما كنت موضع شك بالنسبة للآخرين وإنما أيضًا عندما كنت أنا من يشكك في نفسه. مرت أوقات شعرت فيها بالشك أثناء الاجتماع مع أكثر من مئة طبيب -من ألمع العقول في مجال الطب- عندما كنت أنظر من حولي وألاحظ أنني الشخص الأسود الوحيد في المكان. لكن إن لم تكن تلك مشكلة بالنسبة لي، فلا داعي أن يكون الأمر كذلك بالنسبة للآخرين.

كانت بشرتي السوداء هي حقيقة لا يمكنني تغييرها، لكني كلما أصبحت أكثر ارتياحًا وزادت ثقتي بخبراتي، كلما قلت نسبة تمييزي وتحديد

شخصيتي من خلال لوني، وأصبحت أكثر تماسكًا في التعامل مع الأشخاص البيض ممن هم في منزلة أعلى أو أقل مني. ما كان يميزني هو معرفتي، وبراعة تعاملي مع المعلومات التي كانت تصب في مجرى البحث الذي كان الدكتور روبيرت ايلس يسعى وراءه. أمدني هذا الوعي بثقة جبارة جعلتني أنجح في هذا المجال، فنجاحي كان يعني كل شيء بالنسبة لي. كان ذلك هو السبب الذي جعلني أصبح مستعدًا للصمود في وجه أي شيء يعترض طريقي، حتى لو كلفني الأمر خمس عشرة سنة أخرى من عمري لأحصل على كل الشهادات المطلوبة كي أتمكن من ممارسة مهنة الطب.

مهما تكبد الأمر من عناء كنت أهلًا له، وكنت أيضًا أبذل قصارى جهدي في الدراسة والتعلم، يومًا بعد يوم، وكنت في بعض الأحيان أعيد إجراء الاختبارات مرارًا وتكرارًا، مثل حداد يضرب السندان كل يوم دون أن يكل أو يمل.

لم يكن في طريقي سوى عثرتين: النقود والجنس. بالرغم من أن الدكتور ايلس واكب على زيادة راتبي حتى وصل إلى ثلاثة عشر ألف دولار في السنة في أوائل عام 1976، لكن كان هناك القليل جدًا مما يستطيع استحصاله من الميزانية الكلية لمشروعه. حتى بالنسبة لشخص كان على استعداد أن يتحمل حياة الفقر، فإن سان فرانسيسكو كانت مكانًا مكلفًا للعيش.

صدقوني عندما أخبركم أني كنت أعيش حياة فقيرة تمامًا في تيندرلوين، في نفس الحي الذي شابهَ العيشُ فيه إقامتي في جمعية الشبان المسيحيين لكني عشت في شقة لي وحدي في 381 من شارع ترك. كان راتبي ينتهي بسرعة رغم أنني لم يكن لدي أقساط سيارة أو تأمين. وبما أنني لم أستطع تحمل كلفة شراء سيارة، لذا لم أشغل نفسي بالحصول على رخصة للقيادة، على الرغم من أنني كنت أعرف كيفية القيادة وفي

بعض الأحيان كنت أقضي مهامي في العمل عن طريق استخدام شاحنة المستشفى. تصاعدت الحاجة لإيجاد عمل ثانٍ، ومن ثم مرة أخرى، كان بحثي عن عمل آخر يأخذ وقت فراغي كله، ولا يبقي لي أي مساحة لأتمتع بالحياة الاجتماعية.

استطعت تحمل ضائقة المال المستمرة، لكن الوقف المفاجئ لسعيي الناجح -حتى الآن- وراء الجنس الآخر كان بمثابة صدمة لجسدي. ماذا كان يحصل لي؟ ففي مدينة مثل سان فرانسيسكو المليئة بالنساء العازبات الجميلات، لم أستطع أبدًا مهما حاولت أن أعرف السبب وراء عدم استطاعة أي واحدة منهن إصابة قلبي بسهم العشق. لا لأنني أردت الوقوع في الحب، وإنما ما أردته حقًا هو أن أمارس العلاقة الحميمية.

كان هناك طبيبة بدأت أخرج معها، واحدة من بين النساء الأمريكيات القلة من أصل إفريقي اللاتي شاهدتهن في المستشفى. كانت جاذبيتها تتمثل في ذكائها وطموحها لكنها كانت محافظة جدًا فيما يتعلق بموضوع الجنس، لذا لم يحدث بيننا أي تجاذب. ثم كان هناك أيضًا ممرضة جميلة وكان جميع من في المستشفى معجبًا بها. كانت لطيفة، ورشيقة، وذات شعر طويل ناعم يشبه الصوف، وذات بشرة سمراء بلون الكراميل. قبلت دعوتي للذهاب إلى السينما، وبدأنا نتسكع سوية. بدا الأمر وكأنه دهر حتى دعتني لمنزلها، وبعد أن حصل الأمر أخيرًا، لعب القدر لعبته القذرة معي، فقد كنت متعبًا جدًا من العمل في ذلك اليوم لدرجة أنني تمددت قليلًا على السرير لأنعم بقسط من الراحة معها لذا غططت في النوم سريعًا.

صحوت فجأة على تلك المرأة اللطيفة وهي تهزني بازدراء من كتفي مشيرة إلى باب الخروج. جررت قدمي متجهمًا، وخرجت من منزلها وأنا أعتذر طول الطريق.

حال خروجي من الباب صفعتني عاصفة رياح رطبة وكأنها هي الأخرى كانت تشعر بالازدراء. قلت لها: «يا له من جو بارد هنا.» آملًا أن تغير رأيها.

"يا له من أمر مؤسف." أجابتني: «فالجو دافئ هنا.» ومن ثم أغلقت الباب في وجهي.

كانت تلك هي حالتي المؤسفة فيما يخص حياتي خارج نطاق العمل في ذلك اليوم الربيعي الجميل الذي لا ينسى عندما كنت خارجًا لوحدي أقف في ساحة الاتحاد، وجاء الرجل الكبير الذي كان يحمل معه حقيبة مستندات وحاول فتح حديث معي حول سان فرانسيسكو وكونها باريس المحيط الهادئ!

مضى الوقت واقترب المساء، لم يكن هنالك أي شيء غير طبيعي في كلامه عندما قال: «سأذهب إلى البار لأحتسي الشراب. أترغب في المجيئ معي؟» رغم أنني لا أشرب كثيرًا، لكنني قلت في نفسي: لم لا؟ فأنا ما زلت أتعرف على المدينة ولم أكن متأكدًا من أماكن تواجد النساء، لذا ذهبت معه وكلي حماس.

اتضح فيما بعد أن البار -مطعم يدعى طاحونة سوتير- لم يكن بالمكان الذي تتواجد فيه النساء. في الحقيقة فور دخولنا ذلك المكان الحالك في السواد وبينما كنت أحاول التركيز في الظلام، لم أر أي امرأة. لم أر سوى رجال فقط، وكان هناك شخصان يجلسان في الزاوية ويتبادلان القبل. وبالطبع أدركت حينها أنه كان بارًا خاصًا بمثلي الجنس.

قلت للرجل وكأنني قد نظرت لساعتي لأول مرة: «أتعلم شيئًا، لدي نوبة عمل في الصباح الباكر، وآه، لقد سعدت بلقائك، لكنني مجبر على الذهاب.» وقبل أن ينطق بكلمة كنت قد ذهبت.

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يتحرش فيها رجال مثليي الجنس

بي في سان فرانسيسكو. لم يكن لدي أي مشكلة عادة في أن أشرح لهم أنني لست مثلي الجنس. في الحقيقة ومقارنة مع المواقف التي واجهتها في القوات البحرية، فإنني أجد نفسي متساهلًا إلى حد كبير. لكن، ورغم وضعي التعيس وما عشته من حالة كآبة الحرمان من النساء في حياتي، فإنني لم أكن في مزاج يسمح لي أن أتصرف بأدب. ومع عدم قدرتي على إنشاء علاقة هنا في سان فرانسيسكو، كنت غالبًا ما أجد نفسي أرفع سماعة الهاتف وأتصل بحبيبتي البعيدة شيري دايسون التي لم أستطع التغلب على مشاعري تجاهها منذ أن رأيتها مع ذلك التيشيرت خلف نافذة متجر جيش البحرية.

في هذه المرحلة من حياتي، كانت شيري قد عادت إلى فيرجينيا بعد نيلها شهادة الدارسات العليا وعملت خبيرة تعليمية في مادة الرياضيات. وبالإضافة إلى اتصالاتنا المعتادة، فإنها كانت تزورني عدة مرات، رغم أن كلينا لم يتطرق أبدًا في أي زيارة إلى أن علاقتنا يجب أن تنتقل إلى مرحلة جدية أكثر.

ذات ليلة أثناء حديثنا، خطر ببالي فجأة أن لا أحد يفهمني مثل شيري، لا أحد يستطيع أن يقول لي بمنتهى البساطة: «كريس، أنت شخص مليء بالتفاهات.» في الوقت الذي كنت فيه معتدًا بنفسي كثيرًا، ولم أتخيل أحدًا سواها يقاسمني مشوار الحياة الذي كنت أسعى إلى تحقيقه.

في لحظة اندفاع رومانسية، ومن حيث لا أعلم، كدت أسمع نفسي وأنا أردد الكلمات، فقمت بتغير الموضوع الذي كنا نتحدث فيه وسألتها: «حسنًا، إذًا متى سنتزوج؟» دون أن تلتقط أنفاسها قالت شيري: «حسنًا، ماذا عن الثامن عشر من حزيران؟»

كان ما زال أمامي الكثير من الاستكشافات والتجارب الجنسية التي

لم أخضها بعد. لم أكن متأكدًا مما كنت قد أقدمت عليه وفعلته للتو لكنني ودعت حياة العزوبية وكآبة الحرمان من النساء وأعددت نفسي لدخول القفص الذهبي.

...

عشت في السنوات الثلاث القادمة حياة أشبه بالقصص في بعض النواحي. تم حفل الزواج كما هو مقرر في الثامن عشر من حزيران من عام 1977، وكان الحفل أشبه ببطاقة معايدة في غاية الكمال: جميل، وحسن الذوق، وبسيط، وكنا قد أجريناه في متنزه بالقرب من منزل والدي شيري؛ مكان قد أصبح مرادفًا في عقلي لمعنى الاستقرار والأمان.

حضرت أمي الزفاف، وكانت تزهو بالفخر. انسجمت أمي مع شيري على الفور. وحضر صديقي الجندي ليون ويب، الذي كان عليه أن يتوجه إلى سان فرانسيسكو قريبًا؛ ليكون أشبيني، وكانت فرحته بي لا توصف. كنا جميعنا مبهورين بمنزل عائلة دايسون. لم يكن هناك أي شيء فوق الاعتيادي، كان المنزل أشبه بالصور التي نراها في المجلات؛ ذا طابع جنوبي ساحر، تعلو جدرانه لوحات فنية نادرة، وتتدلى الثريات من سقفه ذي المستويين، بالإضافة إلى وجود ما لذ وطاب من الأطعمة، وبار مليء بالنبيذ والخمور المستوردة من جميع أنحاء العالم.

جسدت طريقة حياة عائلة دايسون المنزل المثالي الذي كان يقبع في أروقة أحلامي منذ اللحظة التي شاهدت فيها أوز الساحر، عندما كنت طفلًا صغيرًا. حتى أنني حلمت لفترة من الوقت بالانتقال إلى كانساس عندما كبرت بسبب تلك الصورة التي شعت بالأمان والهدوء النفسي. كان هناك في قصة أوز سحرة وقرود مجنونة طائرة ونفس الشعور بحالة الجنون الوشيكة التي كانت تحدق بنا في أرجاء منزلنا. كان سكان كانساس طبيعيين ولطفاء،

لذا لم يشكل تهديدًا بالنسبة لنا عدم معرفة ما قد يحدث فيما بعد، وكم هي المسافة لأقرب نقطة هاتف عمومي، وهل ستأتي الشرطة في الوقت المناسب، أو هل ستعود للمنزل لترى أمك مقتولة أو إحدى أخواتك.

كان جزءًا من انجذابي وارتياحي للمكان هو بلا شك توقي لأن أنتمي إلى العالم الذي جاءت منه شيري، عالم تربت فيه وحظيت باهتمام والديها الكلي، كونها الطفلة الوحيدة، وكونها عاشت في كنف أبيها وأمها في نفس المنزل، وشعورها بوجود مرساة ترتكز عليها دون الشعور بالفوضى والعنف اللذين صاحبا طفولتي. لم يمانع والداها أنني أتيت من عالم مختلف، وكانا كريمين للغاية ورحبا بي كفرد من أفراد عائلتهم. لقد أحسَّا بالتأكيد ما أحسته شيري تجاهي، من إمكانيات وبأنني كنت أسير في طريق راسخ لأصبح طبيبًا معالجًا، رغم أن الطريق كان ما يزال طويلًا أمامي.

ومع هذا فقد بدأت الشكوك تساورني حول الزواج منذ اللحظة التي طرحت فيها سؤالي بعفوية، وأرجعت السبب في ذلك إلى أنها كانت مجرد مشاعر قلق اعتيادية ما قبل الزواج.

كان أول من أخبرته بزواجي في سان فرانسيسكو هو الدكتور ايلس. لو كنت أبحث عن شخص ليجعلني أعيد التفكير في مسألة الزواج فإن روبيرت ايلس لن يكون ذلك الشخص. لأنه كان فرحًا حقًا من أجلي، ومن شدة فرحه ذهب ليقرضني المئة دولار التي احتجتها لأشتري بدلة العرس، ومن ثم فاجأني أكثر عندما اقترح: «خذ يوم إجازة إضافي.» بالنسبة لشخص مهووس بالعمل كبوب الجاموس فإن أمرًا كهذا لم يكن مألوفًا.

كانت محطتي التالية هي منطقة بيع المجوهرات في شارع السوق، حيث وجدت فيه بأعجوبة خاتم ألماس بتسعمئة دولار ابتعته بالدين. بدا قديم الطراز، مرصعًا بعناقيد ألماس صغيرة على هيئة زهرة وطوق، اتضح

فيما بعد أنه ذهب أبيض. في طريقي إلى فيرجينيا، وأنا على متن الطائرة، كنت متوترًا للغاية وأنا أحمل في جيبي خاتم الماس لدرجة أنني كنت أتأكد من وجوده في مكانه كل خمس دقائق وبأنه لم يُسرق بطريقة غامضة. كان أحلى شيء اشتريته لأحد في حياتي، وكنت متأكدًا أن شيري ستنبهر به.

تلاشت كل شكوكي في اللحظة التي تعانقنا فيها أنا وهي لدى وصولي. كان يجمعنا حب عميق، وارتياح، وولع وكان هذا هو كل ما يهم حقًا. أعجبت بشيري أكثر وأنا أشاهدها تتولى أمور الزفاف. خططت شيري لكل شيء، وتكفل والداها بتكاليف العرس، وكل ما كان عليّ فعله هو الحضور فقط. أحببت طريقة كلامها وتصرفاتها، وثقتها، وذكاءها، وحسها الفكاهي، وأسلوبها الحيوي الذي كان محط انجذاب الآخرين في العموم. كان جمالها يشرح القلب بطريقة مميزة، أما ساقاها فكانتا رائعتين للغاية. أحببت شخصيتها القوية وحقيقة أنها امتلكت آراء حاسمة حول ما أحبته وما كرهته. لذا، لم يزعجني أبدًا أنها لم تكن متيمة بالخاتم.

طمأنتني قائلة: «آه، إنه جميل، لكنه لم يكن الحجر الذي حلمت به بالضبط.»

لم يكن لدي أدنى فكرة ما الذي كانت تتحدث عنه لكنني أردتها أن تحصل على ما أرادته، لذا اتفقنا على أن نذهب ونستبدل الخاتم بآخر عندما عدنا إلى سان فرانسيسكو. كل ما كنت أعرفه هو أن ما أرادته حجر الزركونيوم المكعب، ليس حتى الماس. وكان ذلك شيئاً آخر أحببته في شيري، أنها كان باستطاعتها أن تثقفني ذوقيًا بشأن الأشياء الفاخرة في الحياة. انهمكنا في الاحتفالات، ودخل كلانا في زوبعة كبيرة، ولم تسنح لنا فرصة ليختلي أحدنا بالآخر كعروسين جدد إلا في صباح اليوم التالي بعد أن أقاموا لنا حفل فطور توديعي. لم يقل أي منا الكثير، لكن الحياة

الواقعية كانت قد حلت أخيرًا. كان كلانا على الأرجح يتساءل ما إذا كنا قد اتخذنا القرار الصحيح.

ومع ذلك، ومع حياتنا التي كانت تنتظر أمامنا، فإننا قمنا بتوضيب كل حاجيات شيري التي كانت تمتلكها ووضعناها في سيارتها الداتسون الزرقاء موديل بي 210، وتوجهنا في طريقنا الطويل إلى سان فرانسيسكو. بالرغم من إصرار والدة زوجتي على تجديد رخصة قيادتي عندما كنت في رتشموند، إلا أن شيري تولت القيادة معظم الوقت. وبالرغم من حرارة الصيف التي رافقتنا منذ بداية الطريق وحتى وصولنا إلى الطريق السريع 80، وضعف هواء التكييف في السيارة، ومع قيلولاتي المتكررة، كان لدينا الكثير من الأمور لنتحدث عنها ونخطط لها كي نجعل هذه الرحلة أقل مشقة مما هي عليه على الأقل.

كانت شيري قد زارتني من قبل في تيندرلوين وكانت متهيئة نوعًا ما للجو البائس الذي رحب بنا حال وصولنا، رغم أنها كانت متمسكة برأيها في أن ننتقل من 381/ شارع ترك بأسرع وقت ممكن. لم يمض وقت طويل حتى حصلت على عمل في تدقيق مستحقات التأمين، وبعد ذلك بفترة قصيرة استقبلتني بالخبر الذي حبس أنفاسي: «لقد وجدت شقة في منطقة هيز.» وقعت في حب المنزل على الفور. كان في الطابق الثالث، واحتوى على أرضيات خشبية متينة، ونوافذ بارزة، بالإضافة إلى الشبابيك الفرنسية!»

كان كل شيء غريبًا بالنسبة لي لكن إن كان يجعلها سعيدة فقد أسعدني أنا أيضًا. كنا لم نزل نقيم في نطاق الحي، وكانت المنطقة تعرف باسم وادي هيز، واحتوت على مجتمع أسود حيوي يسهل التعايش معه، فضلًا عن أننا كنا خارج تيندرلوين، لذا دخلنا في مرحلة بناء عش الزوجية حيث حولت شيري شقتنا الجديدة إلى بيئة دافئة ورحبة. زينت

المكان بطريقة مدهشة وضمن حدود ميزانيتنا: بنبتات الأصيص مثل فيكس بنجامينا ونبتة اليهودي الزاحف التي تزينت بها الرفوف وتدلت من السقف، بالإضافة إلى سرير نحاسي جميل، وكرسي الخوص المتأرجح، وأريكة عصرية، وأدوات مطبخ وأواني تقديم طعام جديدة. شاطرتها نفس الحماس والاهتمام في تحويل فسحة معيشتنا إلى بيت يجمعنا سوية.

كان وقوف شيري في المطبخ حلمًا تحول إلى حقيقة. يا إلهي، كم كان طبخها لذيذًا، كان باستطاعتها أن تعد: غذاء الروح[159] الذي تضمن أطيب دجاج مقلي أكلته في حياتي، والباستا بكل أشكالها، وأطباقًا رفيعة المستوى من شأنها أن تنافس أمهر الطباخين في سان فرانسيسكو. كانت دائمًا ما تأتي بأطباق جديدة اخترعتها من ذاتها. وكانت تقول: «أتذكر الطريقة التي أعدوا بها ذلك الطبق في المطعم الفيتنامي، سأقوم بطبخ شيء من هذا القبيل.» فيتضح أن الطعم أشهى بكثير.

انتقلنا مرة أخرى إلى مكان أفضل بعد أن التقت بي شيري ذات ليلة عند الباب وقالت: «انتظر حتى ترى المكان الذي وجدته في بيكر. إنه في إحدى تلك البنايات ذات الطابع الفيكتوري التي لفتت انتباهي. كريس سوف تحبه! يحتوي على خمس غرف ومنظر خلاب لضوء الشمس.»

ضحكت فقط وتماشيت مع ما كانت تخطط له، وكنت أفكر بمدى

159) غذاء الروح Soul Food: هي مجموعة متنوعة من المأكولات التي ظهرت في جنوب شرق الولايات المتحدة والشائعة في المناطق التي لها تاريخ من المزارع القائمة على استخدام العبيد. حافظ على شعبيته بين السود الأمريكيين؛ وهو الآن المطبخ الإقليمي الأكثر شيوعًا في المدن الجنوبية مثل (تشارلستون) و(ساوث كارولينا) و(نيو أورليانز) و(لويزيانا) وهيوستن (تكساس) وشارلوت (نورث كارولينا) وبرمنغهام (الأباما) وأتلانتا (جورجيا). ربما نشأت عبارة «غذاء الروح» في منتصف الستينيات، عندما كانت كلمة «الروح» كلمة شائعة تستخدم في وصف الثقافة الأمريكية السوداء.

استمتاعها وهي تعيد خلق نفس البيئة التي تربت فيها في فيرجينيا من أجل حياتنا في سان فرانسيسكو، وليس هذا فحسب، وإنما كم كنت محظوظًا أيضًا لأنها كانت تعلمني، وترفع من حس الثقافة والأناقة في داخلي. جعلتني أطلع على معنى البناء، وعلى الطراز الفيكتوري، وهو أمر لم أعهده من قبل، وكانت أيضًا توسّع مداركي للتعرف على نمط حياة تضمن المسرح، والكوميديا، واللقاءات الاجتماعية التي تخللها حديث فكري آسر. كنا نستغل ليالي العطل القليلة لدي للذّهاب في نزهات إلى النوادي الفكاهية لمشاهدة عروض الممثل ريتشارد بريور[160] أو حفلات عشاء مع مجموعة أشخاص وقورين ومبدعين في منزل ابن عم شيري، كاتب يدعى روبيرت أليكساندر. كلما ذهبنا إلى هناك، كنت أنجذب في الحديث إلى نفس المجموعة المكونة من ثلاثة أشخاص أذكياء ورائعين ونشيطين في مجال الفنون. كان أحدهم يدعى بيري «شبكة» هينلي[161]، أما الاثنان الآخران فكان اسمهما داني غلوفر[162] وساموبل إل جاكسون.[163] لم أعرف حينها أنهم سيكونون من ألمع النجوم في عالم التمثيل على المسرح وعلى شاشات التلفاز.

بالرغم من أن إطار الحياة الزوجية السعيد هو ما كان كلانا يطمح إليه، على ما يبدو، لكن بعد مرور عامين بدأت أواجه شعورًا عميقًا بأن

160) ريتشارد بريور Richard Pryor: ولد في 1 كانون الأول 1940 وتوفي في 10 كانون الأول 2005، وهو ممثل كوميدي معروف وأحد أوائل السود الذين أدوا أدوارًا فكاهية. كان الأكثر شعبية من ممثلي جيله في السبعينيات والثمانينات، ثم قلص من نشاطاته لأسباب صحية بدءًا من 1986.

161) بيري الشبكة هينلي Barry “Shabaka” Henley: ولد في 15 أيلول عام 1954. وهو ممثل أمريكي. ظهر في عدة مسلسلات تلفزيونية وله العديد من الأفلام. جاء لقبه (الشبكة) من فرعون من سلالة مصر الخامسة والعشرين، الذي حكم من 721-707 قبل الميلاد.

162) داني غلوفر Danny Glover: ممثل أميركي من أصل إفريقي، ولد في سان فرانسيسكو، كاليفورنيا، بالولايات المتحدة الأمريكية. داني غلوفر هو ابن سان فرانسيسكو المولود عام 1946.

163) ساموبل إل جاكسون Samuel L. Jackson: ولد في 21 كانون الثاني، ١٩٤٨ هو ممثل ومنتج أميركي. بعد أن شارك في حركة الحقوق المدنية، اتجه صوب التمثيل في المسرح ثم في الأفلام.

شيئًا ما كان مفقودًا. لو كنت أجيد التحدث عن مشاعري أو لو كنت قد أخذت الوقت الكافي لأحاول أن أجد حلًا لأي شيء لم يكن نافعًا بيننا، لكان الوضع سيكون أفضل بكثير من تجاهلي وهروبي من المشاكل.

بعض من تلك المشاكل كان لها علاقة باختلاف بيئتينا وبالأشياء التي نحبها أو نكرهها. أحبت شيري المطاعم الفاخرة في منطقة مرسى الصيادين، وأحببت أنا حركة الثقافة المضادة في شارع هايت. بالنسبة لي كانت المطاعم الجيدة يمكن التنبؤ بها لكن أي شيء بسيط وأي جو يسوده طابع هيبي في شارع هايت كان يعد مكانًا غير متحضر بالنسبة لشيري، كانت شيري محافظة إلى حد كبير، ومواظبة على الذهاب إلى الكنيسة الأسقفية.[164] تلك العقلية لم تشبه أبدًا المكان الذي تربيت فيه: معمودي مستقيم، وهذا كل ما كنت أعرفه. ذكرني زائري الأسقفية بالكاثوليكيين الذين يزورون الكنيسة ويفعلون حركات أشبه برياضة الجمباز عند الإيعاز: يقفون ويركعون بعدها، ومن ثم يقفون ويركعون من جديد، ويتلوون السطور بتوافق وانسجام، تسودهم حالة من الهدوء، والتجلي، والخضوع. بدا أن التعبير عن المشاعر لديهم هو أمر غير محبذ. كانت الدموع تمسح بمناديل أو تحبس في العين ببساطة. لم يكن الأمر مماثلًا في كنيسة المعمودية[165]

164) الكنيسة الأسقفية Episcopalian: يطلق عليها أحيانًا الكنيسة الأسقفية البروتستانتية وأيضًا الكنيسة الأسقفية الأمريكية هي كنيسة بروتستانتية وطائفة أنجليكانية رئيسة في الولايات المتحدة، تعد من أكبر الطوائف البروتستانتية في أمريكا الشمالية حيث يبلغ عدد معتنقيها 2125012 أمريكي. ورغم أنها كنيسة أمريكية بروتستانتية إلا أنها تنتشر في هندوراس وتايوان وفنزويلا وهايتي وجمهورية الدومنيكان وكولومبيا والجزر العذراء البريطانية والإكوادور كطائفة بروتستانتية. مقرها في نيويورك.

165) المعمودية Baptist Church: هي طقس مسيحي يمثل دخول الإنسان الحياة المسيحية. تتمثل المعمودية باغتسال المعمد بالماء بطريقة أو بأخرى. ويعتبر سر المعمودية أحد الأسرار السبعة المقدسة في الكنيسة الأرثوذكسية والكاثوليكية وأحد السرين المقدسين في الكنائس البروتستانتية.

حيث تعالت الصراخات التنافسية. لم يكن هنالك أي وجه مقارنة بين الاثنين، ففي الكنيسة المعمودية، حيث ترعرعت، عندما كانت تأخذنا الخالة تيتي أنا وأختي الكبرى، كنا نشاهد الناس وهم يغنون، ويرقصون، ويبكون بحرقة، ويبلبلون بألسنة[166] غير معروفة ويجرون محادثات مع الواعظ ومع الرب في نفس الوقت، كي يستحضروا الروح القدس بطرق مؤثرة للغاية. كانت النساء يرفعن أيديهن تضرعًا، ويصرخن، ومن ثم يغمى عليهن! أما الرجال فكانوا يقفزون ويصرخون! وفي كل يوم أحد كان هنالك شخص ما ينجرف بمشاعره أكثر من اللازم. كوني طفلًا صغيرًا فإنني لم أكن أعرف حينها ماذا كان يجري وماذا كانوا يفعلون، لكن الأمر كان بالنسبة لي مبهجًا وحقيقيًا ومثيرًا أيضًا. كانت الكنائس الأسقفية رائعة أيضًا، بالكاد تستطيع أن ترى قطرة عرق تسقط. أما بالنسبة للكنيسة التي كنت أرتادها حيث ترعرعت، فقد كان الجميع ينتشي بفعل المشاعر الجياشة التي تسود المكان. لم تستطع تلك المراوح التي كان يحملها الجميع أن تفعل أي شيء لتهدئتنا.

مما لا شك فيه أنني استمتعت أيضًا بالذهاب إلى الكنيسة مع شيري وأنا كلي إيمان أنها سوف توسع مداركي لأتعرف على أشياء جديدة. لكن المكان كان يفتقر إلى الصراخ والاحتدام. كنت في قرارة نفسي قد بدأت أواجه ببطء حقيقة أنني لم أرد عيش صورة لحياة، سواء كانت تعني أن علي أن أرتقي إلى دور الطبيب الذي كنت أسعى جاهدًا الوصول إليه، أم أن

166) بلبلة الألسنة Speak in Tongues: هي التحدث بلغة غير معروفة خلال فترة التعبد وتعد أحد هبات الروح القدس. يرجع أصل هذا المصطلح إلى قصة ترد في الكتاب المقدس في سفر التكوين، تفترض أن البشر كانوا يتكلمون بلغة واحدة، وبعد بناء برج بابل كمحاولة من سكان بابل بلوغ السماء، غضب عليهم الرب وأوقع اختلاف في كلامهم، لكيلا يتفقوا مرة أخرى على التطاول على الآلهة، ونتج عن ذلك التنوع اللغوي البشري.

الأمر كان متعلقًا بزواجي. لابد أن شيري كانت تعاني من مخاوف مشابهة، خاصة مع كل تلك المواكب من الضيوف التي كانت تنهال علينا.

عندما أتى صديقي العزيز ليون ويب ليحصل على عمل في الطب الإشعاعي، مستكملًا الطريق الذي بدأه في القوات البحرية، لم تكن تلك بمشكلة، رغم أنه أقام معنا في المنزل لثلاثة أو أربعة شهور. كانت العلاقة بين شيري وليون لا بأس بها. لكن عندما أتى صديق طفولتي غارفن ليبقى معنا لفترة، لم تنسجم شيري معه أبدًا. لقد كان هذا منزلها في النهاية، لذا أصبحت أشجّع غارفن على أن يجد مكانًا آخر ليقيم فيه قريبًا، وللأسف الشديد زعزع ذلك الموقف صداقتنا. وبالطبع لو كانت الأمور أكثر سلاسة مع شيري من نواحٍ أخرى، لما كانت الأمور قد وصلت إلى هذا الحد.

لقد كانت المشكلة الحقيقية التي استغرقتني وقتًا طويلًا لأعترف بها هي ما كان يحدث أو لم يكن يحدث في غرفة نومنا. لقد أحببنا بعضنا بشدة وبعمق. كان يشجع أحدنا الآخر ويدعمه في أي شيء يحبه أكثر مما يتحمس لنا الآخرون، لكن علاقتنا الحميمية رغم أنها كانت جيدة، وروتينية، وهادئة إلا أنها كانت تخلو من الإثارة. لقد أردت أن أعوض عن عدم سفري حول العالم ولقاء كل تلك النساء المثيرات. كنت قد جربت الخروج مع واحدة أو اثنتين من النساء الداعرات، لكنني أردت تجربة المزيد، ماذا يمكنني القول بعد هذا كله؟ لكن بدلًا من أن أقول أي شيء أو أن أصرح بما أردته، فضلت الالتزام بالصمت.

لربما قد كنا عاجزين منذ البداية عن البوح بمشاعرنا لكن في النهاية لقد بنينا علاقتنا الرومانسية عبر أسلاك الهاتف وأوراق الرسائل، وموسيقى فيلم صيف 42 التي لطالما كنا نسمعها سوية. في بداية علاقتنا، كان الأمر مثيرًا للغاية كوني شابًا يافعًا على علاقة بتلك البنت المثقفة

المتعلمة جامعيًا. أما الآن فأصبحت أنتظر منها أن تضفي على حياتنا إثارة أكثر، لكنها لم تعرف حقيقة مشاعري، ولم أعرف أنا أيضًا كيف أكسر ذلك الروتين الممل.

من عجيب المفارقات أن المنزل الآمن المستقر الذي لطالما حلمت به منذ طفولتي اتضح أنه منظم للغاية، ومرتب للغاية، وجامد للغاية. استطعت فيما بعد أن أنظر إلى الأمور على المدى البعيد وأدركت أنني قد انتقلت من مؤسسة القوات البحرية إلى مؤسسة الزواج دون أخذ استراحة كافية ما بين الاثنتين. في ذلك الوقت لم أتوقف عن التفكير بالموضوع ورؤيته على هذا الأساس لكني أدركت أنني ربما قد أكون تعلمت الدرس التقليدي: "احذر مما تتمنى لأنه قد يتحقق."

من الواضح أنني كنت أعاني من بعض الصراعات الداخلية الكبيرة بشأن ما تعنيه الحياة السعيدة بالنسبة لي. لكني وضعت جانبًا كل تلك الشكوك وتبكِيت الضمير عندما أخبرتني شيري بأنها حامل. كان الخبر مثيرًا ومختلفًا ومرعبًا في نفس الوقت. أجلت التفكير في كل الشكوك التي سايرتني حول مسألة ارتباطي بالزواج، وفجأة بدأت أشكك، لأول مرة، بمدى ارتباطي بفكرة أن أصبح طبيبًا. رغم أنني كنت أجني ستة عشر ألف دولار في السنة إلا أن المبلغ لم يكن سيكفي ليعيل عائلة ويدفع مصاريف دخولي كلية الطب. لذا قمت بإيجاد عمل آخر.

لم يكن قد مضى على حمل شيري ثلاثة شهور حتى أجهضت، وشكل الأمر خيبة أمل لكلينا لكننا استطعنا اجتياز المحنة بسلام. والآن بعد أن واجهت ضرورة حاجتنا للمزيد من المال، حافظت على عملي الثاني في حراسة الأمن في فترات الليل وأيام العطل، وتم الأمر على ما يرام حتى أرسلت لأحل محل أحدهم في نوبة حراسة ليلية في مرفأ سفن بحري لأحرس سفينة

قديمة غير مستخدمة تصدر أصواتًا مخيفة. بدأت حراستي وجلست على كرسي ولم يكن معي سوى ضوء مصباح، وأصبت بالهلع من الأصوات المرعبة التي كنت أسمعها لكني كنت منهكًا للغاية لذا غطظت في النوم، إلا أنني صحوت على شيء كان يفرك رجلي. أول فكرة خطرت في بالي هي تلك القطط التي كانت تزورني في كوابيسي بسبب منزل تلك الساحرة في ميلواكي. لكني عندما شعرت بتلك الحكة مجددًا نظرت إلى الأسفل، فرأيت جرذًا بحجم قطة كبيرة، فاتحًا فكيه يريد أن ينقض علي. وليكن ربي شاهدًا أنني بالرغم من قضائي فترة في القوات البحرية، إلا أنني لم أكن يومًا على متن مركب ولم يكن لدي أدنى فكرة عن وجود جرذان على متنها ولم أحلم يومًا بأنه يمكن للجرذان أن تكون بذلك الحجم اللعين. صرخت كفتاة وقفزت مباشرة من الكرسي. صرخ الجرذ أيضًا وركض كلانا في اتجاهين متعاكسين. لم أتوقع حصول كل هذا أثناء مهمة حراستي.

ومنذ ذلك الحين فصاعدًا تمكنت من العمل في بعض الأشغال هنا وهناك في ساعات فراغي، واشتغلت أعمالًا مثل دهان المنازل في أيام العطل، وعملت أيضًا لدى شركات النقل.

رغم أن شيري لم تقل شيئًا، إلا أنها لاحظت ربما أنني كنت أقضي وقتًا قليلًا في المنزل، ليس بسبب تلك الأشغال الإضافية فحسب وإنما لأنني كنت اتطلع لكسر الروتين بيننا. كنت أذهب في بعض الليالي لوحدي لسماع الموسيقى في شارع هايت، وفي أوقات أخرى كنت أتسكع مع بعض الشخصيات التي التقيت بها في الحي، وأشاهد معهم مباريات كرة القدم، وأدخن الحشيش، كي يمضي الوقت. لم تكن شيري مولعة ببعض من أولئك الشخصيات لاسيما اثنان منهم حيث أنهما كانا يملكان مؤسسات مالية لم تكن أعمالها شرعية. في إحدى أفعالي الخفية للتمرد ضد نظامها

الصارم الذي فرضته على حياتنا، بالغت بردة فعلي وحاولت أن أجري صفقة مالية إضافية دون علمها. بغض النظر عن حقيقة أنني فشلت فشلًا ذريعًا فيها، إلا أنني كدت أقتل نفسي فعلًا عندما أتى رجال عصابة خطيرون ولوحوا بأسلحتهم نحوي ليستحصلوا على نقود لم تكن بحوزتي. تمكنت بطريقة ما من الحصول على تلك النقود بسرعة. لم يتجاوز المبلغ ثلاثمائة دولار، لكن بالنسبة لولد مثلي ترعرع في حي الغيتو فقد كان الأمر مؤلمًا. عندما عرض عليّ عدة أصدقاء فيما بعد أن أدخل معهم في عملية نصب على شركة التأمين، رفضت الموضوع بكل أدب.

كان لحياتي القصيرة في عالم الإجرام أثرٌ سريع الزوال، جعلني أصبح ممتنًا لما كنت أملكه في المنزل وفي العمل، وعلمتني أيضًا مبدأ مهمًا جدًا، مفاده أنه ليس هنالك ما يدعى بالنقود السهلة. الضرب على ذلك السندان كان هو الحل، ومع ذلك فقد كان الأمر محبطًا أن تمر خمس سنوات دون أن أستطيع شراء سيارة. كانت سيارة شيري الداتسون طراز بي 210 لم تزل وسيلة تنقلنا الوحيدة، وحمدًا لله أننا استطعنا الاستفادة من نظام المواصلات العامة الممتاز في سان فرانسيسكو. كان هنالك أيضًا زميلتي في العمل وصديقتي لاتريل هاموند التي كانت توصلني معها صباحًا إلى العمل.

"كريس، اسمعني." هي عبارة كانت لاتريل تستهل بها كل صباح عندما أركب سيارتها الفورد فالكون طراز 1961، ليمونية اللون، والمُساءِ استخدامها كثيرًا، بعد أن كانت تأتي لتوصلني معها. كانت في كل صباح تأتي بنصيحة جديدة -غالبًا ما كانت جيدة- لتبيعها لي. امتلكت لاتريل شخصية قوية، وامتلكت أيضًا هبة الثرثرة حيث إنها كانت من أكثر النساء اللاتي يتحدثن بسرعة ويثرن فضائح مطلقة، وكانت أيضًا لديها القدرة على أن تبيعك أي شيء؛ كأن تبيعك حذاءك الذي كنت ترتديه.

جمعتني بلاتريل علاقة أفلاطونية متشددة. كانت هي وشيري صارمتين في التعامل، لذا كانت تضع مصلحة زواجي في أولويات اهتماماتها طوال الوقت. ومع ذلك، كان هنالك عدة مناسبات جعلتني أتساءل فيما إذا كانت تضع نجاتي من قيادتها في أولويات اهتماماتها. كانت تصرفات لاتريل مخزية لكن بسبب قدرتها على الثرثرة، فإننا مهما كنا نصل متأخرين إلى العمل -كان التأخير متأصلًا فيها- فإنها استطاعت دومًا أن تتلافى الموقف. منذ اللحظة التي أركب فيها سيارتها، محاولًا أن أجاري آخر جملة من حديثها، ويجلس كلانا على مقعدي سيارتها التي لم تحتو على حزام أمان، كانت لاتريل تغامر بنا وهي تضع مكياجها، وتشرب قهوتها، وتدخن وتتحضر للإشارة الخضراء كل ذلك في نفس الوقت.

كانت تتصرف دون أن تدرك تمامًا أنني كنت أدعو بصوت عال: «أرجوك يا إلهي لا تدعني أموت في هذه السيارة ليمونية اللون.»

إن كانت جميع إشارات المرور خضراء أمامنا فهذا يعني أننا سنصل إلى العمل في غضون خمس عشرة أو ست عشرة دقيقة. لم يكن ذلك بالأمر الجيد أيضًا لأننا كنا بالفعل متأخرين. كان الحظ سينفد منا في حال صادفتنا إشارة حمراء واحدة فقط. رغم أنني اخترت ألّا أتعب نفسي بالمحاولة لخلق أعذار في حضرة غرفة مليئة بالمتدربين، الذين كانوا في انتظار وصولي، فإنها، وبصورة لافتة للنظر، استطاعت بشكل يومي أن تخلق عذرًا جديدًا لقسمها، ولم يشكك رؤساؤها يومًا في أعذارها.

أما شيري فقد كانت امرأة متناقضة جدًا. كان هناك صباح واحد، على حد علمي، كانت قد غادرت فيه المنزل دون أن يكون منظمًا، ودون أن يكون كل شيء في مكانه حسب الأصول. عرفت السبب فيما بعد عندما عادت في المساء من العمل واعترفت لي بأن خطبًا ما قد أصابها.

هل كانت تلك هي المحادثة التي لطالما كنت آمل حدوثها وفي نفس الوقت كنت خائفًا منها؟ سألتها: «ماذا بك؟»

"شيء ما قد أصاب كاحلي على ما أظن."

"كاحلك؟"

"كنت أمشي بطريقة غريبة طوال اليوم، ولم أستطع معرفة السبب." أردفت قائلة.

كوني رجل طب يحب الاستقصاء اقترحت عليها: «دعيني ألقي نظرة.» عندما فحصتها في البداية لم أر شيئًا غير طبيعي. لكن فيما بعد أدركت، وانفجرت ضاحكًا، أنها أصبحت ضحية موضة أطلقت عليها اسم «حديقة حذاء» لأن شيري كانت قد كدست هكذا مجموعة من الأحذية، لذا احتفظت بها بترتيب وعناية فائقة في سلة في غرفتنا. لكن وبطريقة ما، كانت على عجلة من أمرها لتصل إلى العمل في الوقت المناسب لذا قامت بارتداء فردتين مختلفتين.

ضحكت معي عندما رأت الأمر بنفسها. ما حدث لم يكن يشبهها على الإطلاق لكنه سلط الضوء على مدى دقة ورتابة روتينها اليومي.

بعد مرور وقت قليل على تلك الحادثة، كان لدي ردة فعل لجملة قالها الممثل ريتشارد بريور وأصبحت مؤشرًا لمدى توقي لحدوث تغيير في حياتنا الجنسية الرتيبة. كان بريور يتحدث عن أشياء مجنونة كالجنس الفموي وماذا يستطيع أن يفعل بالناس. كنت في ذلك الوقت قد جربته لمرة واحدة لكنني لم أحصل على المتعة التي تحدث عنها الجميع. كان بريور يتحدث عن كيفية تأثيره على الإثارة الجنسية، وكان يخبرني كيف أنه كان يصل إلى النشوة ويقوم باختلاق أشياء جامحة، كأن يقول لزوجته: «حبيبتي، أريدك أن تذهبي الآن إلى السطح وسأركض أنا حول المنزل ثلاث

مرات، وفي المرة الثالثة أريدك أن تقفزي على وجهي.»

لم تضحك شيري ولم أضحك أنا أيضًا. لكن بدلًا عن ذلك فكرت في نفسي: «آه، نعم، ستكون هذه فكرة رائعة.»

كان هذا هو كل ما يدور في ذهني. لذا عندما التقيت بامرأة لطيفة، ومحبوبة، وممتلئة الجسم بعض الشيء، لكنها مغرية تمامًا، وذات شعر قصير طبيعي صادف أن يكون لديها بيت صغير ولطيف وصادف أيضًا أن قالت لي: «أنا حقًا أريد أن أمارس الجنس معك فمويًا.» لم أرفض عرضها. عندما وافقت وتبين لاحقًا أن تلك المرأة المثيرة كانت خبيرة بالجنس الفموي، بدأ الأمر يخرج عن السيطرة. كان من الغباء جدًا أن أدعها تفعل لي ذلك، لكن الأغبى من ذلك أنني ذات يوم قمت بدعوتها إلى مسكني عندما كانت شيري في عملها وقمت بأخذ استراحة من العمل في فترة الظهيرة.

كنت طوال الوقت أشعر بإحساس جميل وأنا أقوم بممارسة العلاقة الحميمية معها لكن في اللحظة التي أنتهي فيها كنت أستعيد عقلي، وأدرك أن ما حدث هو من أسوء الأشياء التي فعلتها في حياتي على الإطلاق. ليس فقط لأنه أمر خطأ من كل النواحي، وإنما لأننا في المرات الأخيرة التي تواجدنا فيها معًا بدأت أدرك أن هذه المرأة مجنونة وخالية المشاعر كالحجر. في المرة المقبلة التي رأيتها فيها في منزلها، أعلمتها أنه على الرغم من أن ما حصل بيننا هو شيء في غاية الروعة لكننا يجب ألّا نلتقي مرة ثانية.

"ما الذي تحاول أن تقوله لي؟" سألتني، والغضب يملأ عينيها.

"حسنًا، لا أرغب في رؤيتك بعد الآن."

"هل تريد أن تقطع علاقتك بي؟"

أدركت أنها لم تع ما أقوله، لذا حاولت أن أذكرها بأن علاقتنا لم تكن بالطريقة التي تتصورها، وبأننا لسنا حبيبين في المقام الأول. قلت لها:

«أنت الأفضل بلا شك، وسأظل أتذكر أوقاتنا معًا، لكن لن يحدث أي شيء آخر بيننا. دعينا نصبح صديقين فقط.»

لم أعرف الآن ما إن كانت منزعجة لأنني صارحتها بالأمر بتلك الطريقة أم أنها كانت مجنونة فقط، لأنني بعد مرور بضعة صباحات صحوت لأجد أن سيارة شيري الداتسون قد خُرّبت بوحشية. ألقيت علبة دهانٍ بيضاء على سقفها، وسكبت خطوط بيضاء من الدهان على النوافذ وعلى ماسحات الزجاج الأمامي، وعلى كل مكان. كانت العجلات مشقوقة، وخزان الوقود مملوءًا بالسكر، وكان هنالك رسالة مطبوعة بشكل بارز بأصابع اليد من خلال الدهان تقول: اللعنة عليك!

كنت أعلم من فعلها لكنني لم أستطع إثبات ذلك. لم أستطع إخبار شيري. وقفت أمام السيارة وكلي غضب من نفسي أكثر من أي شيء آخر، وقررت أنّه عليّ أن أختلق كذبة بارعة، وأقول لها أنني لم يكن لدي أدنى فكرة عن هوية الشخص الذي قد يقدم على فعلة شنعاء كتلك. لابد وأنه تصرف عشوائي بالتأكيد.

اقترب مني رجل يسكن في الحي، وكأنه أوشك على بدأ محادثة معي وقال لي:

"مرحبًا يا رجل، دعني أصرخ عليك للحظة."

كنت في غنى عن أي حديث، التفت وذهبت بعيدًا ليعرف: «حسنًا، لنتحدث فيما بعد.»

دلكنه ألح واستهجن قائلًا: «كنت أحاول فقط أن أخبرك من فعل ذلك بسيارتك.»

وماذا عساي أن أقول غير: «آه؟»

"إنها تلك السمينة اللعينة ذات الشعر القصير" قالها ضاحكًا.

حسنًا، أنا أعلم من فعلها، وبات الشارع أيضًا يعلم، لكن حمدًا لله أن شيري لا تعلم، وأن شركة التأمين وافقت على تغطية تكاليف إصلاح السيارة، وذلك بعد أن سألوني: «ما الذي حدث يا سيد غاردنر؟»

"لا أعلم." أجبتهم بنبرة استياء قوية. "لقد أتيت ورأيت السيارة على هذا الحال. لابد أنني قد أغضبت أحدهم لكنني لا أعلم من يكون. ربما قد ارتكب خطأ، أيًا كان من فعلها. أنا فقط لا أعلم من هو." لكن موظف التأمين أكد على أن: «وجود رسالة مثل تلك هي مؤشر على أنه فعل متعمد وليس عشوائيًا أو عن طريق الخطأ، لكنني سأدع الموضع ينتهي إلى هنا.»

بات الأمر واضحًا في الأيام اللاحقة -من خلال التهامس والنظرات التي رأيتها من حولي- من أن الشائعات قد انتشرت. مرت الحادثة بسرعة لكنها ظلت ذكرى قبيحة تقبع في عقلي. لم تبد شيري أي تصرف دل على أنها كانت تعرف شيئًا، لكنها أصبحت كثيرة التدقيق حول استيائي من علاقتنا، وكانت غالبًا ما تسألني إلى أين كنت ذاهبًا أو مع من كنت أسهر عندما كنت أعود متأخرًا.

عندما قمنا أخيرًا بالتحدث عن الأمر، مع اقتراب عام 1979، وبحلول عيد ميلادي السادس والعشرين، واجهتها بتغيير خططي المهنية. لقد قررت ألا أصبح طبيبًا.

ارتبكت شيري باحثة عن كلمات لتقولها: «لماذا؟ أقصد...» ومن ثم نظرت لي فقط وقالت: «أليس هذا هو حلمك الذي لطالما كنت تسعى لتحقيقه؟»

عرفت شيري أن روح التحدي في داخلي تلاشت. لقد تحدثنا عن الأمر من قبل. كنت ذلك الفتى النابغ في الطب بالفعل لكن كان عليّ أن أقضي عشر سنوات أخرى في التعليم قبل أن أستطيع أن أمارس بشكل رسمي

ما كنت أمارسه حاليًا. لكن الأمر لم يكن هكذا فحسب، كما أوضحت لشيري. بدأ القلق يساور معلمي الدكتور ايلس بشأني، وفتح عيني على بعض من الاتجاهات الطبية التي كانت على وشك أن تغير مجرى الرعاية الصحية جذريًا. بلغة أبسط قال لي: «كريس، أنت تحتاج حقًّا إلى أن تعيد النظر في أن تكون طبيبًا لأن الطب سيصبح مهنة متغيرة بشكل واسع.»

المشهد السائد حينئذ هو نماذج من الطب المؤمم أو الطب المجتمعي، ما أصبح يعرف لاحقًا بمنظمات الحفاظ على الصحة(167) كما تنبأ بها الدكتور ايلس بالفعل، وهذا يعني أن أي جراح محترف كان يجني آلافًا من الدولارات من العملية الواحدة سيتقاضى بضعة مئات من الدولارات جراء أدائه لنفس الخدمات في العقود القادمة. هذا لا يعني أن خطط التأمين الجديدة ستغطي تكاليف أي عملية بسعر أقل فحسب وإنما سيتم التشديد أيضًا على المعالجة الوقائية التي تتضمن العلاج دون الحاجة للتدخل الجراحي وخلق نظام حكومي من شأنه أن يضع هيكلية رسوم موحدة. أوضح بوب ايلس الأمر جيدًا بأنه كان مؤمنًا بقدراتي، وبأنني أمتلك الموهبة والهمة للنجاح، والأهم من ذلك أنني قادر على المساهمة بتقديم المساعدة للآخرين.

فيما عدا تلك المرة التي أخبرتني فيها أمي أنني لا أستطيع أن أصبح مثل مايلز ديفيس، فإنه لا أحد سواها على الإطلاق استطاع أن يضع يده على كتفي ويوجهني نحو مسار معين لذا كان عليّ أن أصغي لكلام أمي. واصلت شرحي لشيري بأن هنالك الكثير من الاختيارات أمامي في مجال الطب، ولربما

167) منظمات الحفاظ على الصحة Health Maintenance Organization: هي منظمة توفر التغطية الصحية لقاء رسم شهري أو سنوي. وهي عبارة عن مجموعة من موفري التأمين الطبي، التي تحد من تكلفة المساعدات الطبية التي يقدمها الأطباء الذين يخضعون لعقود المنظمة.

في مجال الإدارة، أو المبيعات، أو الأدوية، أو في مجال التأمين وأنني أستطيع أن أتقصى المعلومات عن بعض من تلك الخيارات بأسرع ما يمكن.

غمرني شعور بالارتياح. لم يعد مفروضًا عليّ أن ألعب دور طبيب المستقبل بعد الآن. لكن شيري لم تكن مرتاحة على الإطلاق. فقد شكّل ذلك المستقبل جزءًا من صفقة الزواج بي: كريس غاردنر المتخرج من الكلية، وطالب الطب، والطبيب. لقد كان لديها كل الحق في أن تصاب بخيبة الأمل، رغم أنها عبرت عن دعمها لي أيًا كان قراري.

بعد أن سبق وقمت بخيانتها، عقدت العزم بطريقة لا رجعة فيها على ألا أكرر تلك الغلطة أبدًا. إلا أن علاقتنا بدأت تنهار شيئًا فشيئاً، وبدأت اختلافاتنا تظهر على السطح بشتى الطرق.

بدأت علاقتنا تنهار تمامًا في يوم سبت بعد أن توجهنا إلى مرسى الصيادين لنستمتع بمعالم المدينة ونتسوق، عندما لم أستطع منع نفسي من ملاحظة تلك المرأة الجميلة التي كانت تتنزه في نفس المكان. لم أرغب في أن أرمقها بنظرة غرامية لكن قضيبي انتصب لدى رؤيتها. كل من كانوا في المكان لاحظوا أنني كنت أمشي مع وجود نتوء كبير في بنطالي.

مر أحد الرجال من جانبي وعلق: "ما زال منتصبًا بقوة، أليس كذلك؟»

ماذا عليّ أن أفعل؟ كنت محرجًا بعض الشيء، تطلعت نحو شيري وصدمت لدى رؤيتها وهي تشتعل من الغضب: «إنه مقرف.» قالتها بنبرة غضب جنونية.

كان هنالك جزء في داخلي أراد أن يغضب أيضًا وأن يخبرها بأنه ليس مقرفًا، وبأنه أمر طبيعي. لكن كان هنالك جزءًا آخر نادمٌ على أنني لم آخذ فترة عزوبية كافية ولم أطلق العنان لرغباتي بشكل كاف.

إنه لأمر مضحك كيف يمكن للحياة أن تنقلب جراء حدث طفيف غير مخطط له كانتصاب عفوي مثلًا أو تعبير في غير موضعه. في تلك اللحظة كان المسرح مهيئًا ليسدل ستاره على زواجنا. سأحب شيري دايسون حتى آخر يوم في عمري لأن ما أعطته لي كان أكثر بكثير من مجرد صورة لحياة كنت أتطلع لها، ولربما أعطتني أكثر من أي امرأة أخرى فيما عدا أمي. وهبتني شيري نعمة الإيمان بنفسي، وأن أبذل قصارى جهدي في ألا أضع سقفًا لطموحاتي، وعرفتني أنني كنت أستحق الوصول إلى مكانة عالية في الوقت الذي كنت قد نسيت فيه أنني أستحق ذلك. وسواء كانت مستعدة لتعترف بالأمر أم لا، فإنها وحتى من قبل أن نتزوج، كانت قد شعرت أيضًا بالتناقض حول تطلعاتنا المستقبلية على المدى البعيد، وبالرغم من كل شيء فلطالما كان حبها لي مطلقًا بلا شروط. أصبحت أقرب صديقة لي في الوجود على مدى السنوات اللاحقة، على الرغم من أنها عانت على المدى القريب من حزن أليم كنت أنا السبب في مرارته.

كانت نقطة التحول الحقيقية التي غيرت مجرى زواجنا وحياتنا قد أتت بعد فترة قصيرة من ذلك اليوم في رصيف مرسى الصيادين عندما ذهبنا إلى حفلة معًا وكانت زوجتي المستقبلية -على هيئة إلهة سوداء مذهلة تدعى جاكي- قد رأتني أتفحصها وأرمقها بنظرة. امرأة ذات طول جذاب يصل إلى مئة وثمانية وسبعين سنتيمترا، وجسم ممتلئ، ترتدي فستانًا متلألئًا وكأنها مصبوبة بداخله، تقطر طاقة جنسية من كل الجوانب. بدون أي تردد أو تروٍ من أي نوع، تقدمت نحوها، أمسكت بمؤخرتها وابتسمت. كانت مؤخرتها نوعي المفضل، وكأنها كرة سلة. ظلت يدي على مؤخرتها فترة طويلة. لم تصفعني، ولم تقم بأي حركة انفعالية، رفعت حاجبها فقط وابتسمت، وكأنها تقول لي: «لماذا تأخرت كل ذلك الوقت لتجدني؟»

تسرعت بتهور للدخول من باب فتح لي نحو عالم موعود بالمتعة الجنسية المطلقة، التي لم أستطع حتى أن أبدأ بتخيلها، عالم قدر له أن يتحول أيضًا إلى كابوس مرعب، وهذا ما كان الأمر عليه بكل بساطة.

الفصل الثامن

رأسًا على عقب

(مقدمة تمهيدية)

للمرة الثانية في مرحلة البلوغ، كنت أتحضر لأتعلم الدرس من جديد في أن أكون حذرا مما أتمنى كي لا يصبح حقيقة. خلال الثلاثين يومًا التالية كل ما كنت عليه وكل ما تمنيت حدوثه تبخر في الهواء. بالكاد عرفت اسمي. بعد مضي ستة وعشرين عامًا من حياتي وأنا أقاتل عجزي مع حاجتي للسيطرة، وحاجتي لصفاء الرؤية، ألقيت بحماس ما تبقى لي من سيطرة على مشاعري وقفزت عاليًا نحو الفراغ لأسقط نحو أعماق مجهولة كانت تنتظرني في الأسفل. في مكان ما في ذاكرتي استحضرت أمثولتا «الإلياذة[168]"و"الأوديسا[169]"، والفضل يعود لشغفي بعلم الأساطير الذي

168) الإلياذة Iliad: ملحمة شعرية تحكي قصة حرب طروادة وتعد مع الأوديسا أهم ملحمة شعرية إغريقية للشاعر الأعمى المشكوك في وجوده هوميروس. يعود تاريخ الملحمة إلى القرن 9 أو 8 قبل الميلاد. وهي عبارة عن نص شعري. ويقال إنه كتبها مع ملحمته الأوديسا وقد جمعت أشعارها عام 700 ق.م. بعد مائة عام من وفاته. وتروي قصة حصار مدينة طروادة .

169) الأوديسا Odyssey - باليونانية οὐνταξις: هي ملحمة شعرية وضعها هوميروس في القرن 8 قبل الميلاد. وتتكون من 24 جزءًا. تبدأ الملحمة من منتصف القصة، ثم تروي ما حدث في البداية وتنتهي بوصول البطل أوديسيوس إلى الجزيرة. هي ثاني أقدم عمل أدبي أنتجته الحضارة الغربية بعد الإلياذة.

جعلني أقرؤهما في وقت مبكر من عمري. وحتى بعد أن تذكرت قصة أوليسيس[170] -الذي حاول أن يصد سحر حوريات البحر اللاتي دمرت أغنيتهن السحرية عقول البحارة وأرسلت سفنهم إلى شواطئ بحر أيجه الصخرية ليلقوا حتفهم هناك- بدأت إشارات التحذير تحذف صوبي من كل الجهات.

في غضون أيام من لقائي مع جاكي -التي عاشت على مقربة مني ومن شيري، على بعد خمسة مربعات سكنية- تحولت السفينة التي كنت أبحر فيها إلى حطام بينما ركبت سفينة جديدة متوجهًا نحو المجهول. كانت تلك هي بداية النهاية لكل شيء كان قد حدث من قبل وبداية لكل شيء سيحدث من الآن فصاعدًا.

عندما كنت أزور جاكي في شقتها كنا نمارس العلاقة الحميمية على سريرها النحاسي المريح، وعلى الأرض، وفي المطبخ، ومقابل الحائط، وتحت الدش، وفي بعض الأحيان كنا نمارسها في كل الأماكن وفي نفس الليلة، وكأنه ليس هنالك غد. استمرينا على هذه الحالة ثلاثين يومًا، وكنا نلتقي قبل وبعد أوقات العمل، أو لعدة ساعات في الليل، أو في ساعات النهار الباكرة، ولعدة أيام بأكملها عندما كنت أتخلف عن الذهاب إلى العمل، وعلى الرغم من محاولتي الحفاظ على الحالة الطبيعية عندما كنا أنا وشيري نلتقي في منزلنا، أو عندما حاولت أن أستعيد تركيزي في المختبر، إلا أن حياتي أصبحت أشبه بضباب تسيطر عليه الرغبات الجنسية. بت أفكر وأنا في حالة الإثارة المحمومة تلك بأنني سأصل إلى حد الشبع، وستهدأ شهوتي لكن جاكي داومت على جعل الأمور في كل مرة تصبح أكثر إثارة، فكانت تأخذني

---

170) أوليسيس Ulysses: الاسم اليوناني لأوديسيوس.

معها إلى الأبعد متجاوزة كل الحدود. عندما جاء أقرباؤها لزيارتها وأقاموا في شقتها دعتني إلى سطح البناية؛ حيث فتحت لي معطفها لتكشف لي أنها لم تكن ترتدي شيئًا سوى كعب حذاء عال، وجوارب طويلة مخرمة مع حزام جارتر. كنت مبهورًا ومفتونًا بالمنظر، ومن شدة ذهولي لم أستطع أن أنتظر ماذا سيحدث لاحقًا. كل شيء افتقدته من قبل أصبح حقيقة، كما حدث في قصة الساحر أوز عندما تحول الفيلم من الأبيض والأسود إلى تصوير بالألوان. كانت العلاقة الحميمية معها شيئًا يفوق حدود هذا العالم، شيئًا لا يصدق، لدرجة أنني كان عليّ أن أخبر نفسي: «كريس، أنت لم تعد تعيش في كانساس!»

خلال الثمانينيات أصبح الكوكايين -وهو أحد أنواع المخدرات المحظورة التي تستخرج من نفس المادة التي تصنع منها الكوكاكولا-[171] فجأةً منتجًا أمريكيًا شائعًا. لم أتأثر كثيرًا لدى تعاطيه أول مرة، لكنني قمت بتجربته في مرة قبل فترة قليلة من ممارستي العلاقة الحميمية مع جاكي وعندما ارتمت علي ووضعت لسانها على قضيبي، واستخدمت شفاهها ويديها وأصابعها بطرق استحقت أن تحصل عليها جائزة بوليتزر[172] للشعر،

171) كوكا كولا Coca Cola: في 8 آيار 1886 تمكن صيدلي أمريكي يدعى جون ستيث John Stith بمبرتون في أتلانتا بولاية جورجيا الأمريكية من تركيب منتج بديل للكحول من خلال إضافة ثاني أكسيد الكربون إلى المياه مع محليات سكر ومادة «الكوكا -Coca الاسم العلمي Erythroxylum coca وهو نبات يتواجد في أمريكا الجنوبية تستخرج منه مادة الكوكايين- ونكهة «الكولا» المشتقة من بذور نبتة الكولا التي تحتوي على مادة الكافيين، وتوصل إلى إنتاج الشراب المعروف اليوم باسم «كوكاكولا.»

172) جائزة بوليتزر Pulitzer Prize: هي مجموعة من الجوائز والمنح تقدمها سنويًا جامعة كولومبيا - نيويورك في الولايات المتحدة الأمريكية، في مجالات الخدمة العامة والصحافة والآداب والموسيقى. تحظى هذه الجوائز، التي مولت في الأساس بمنحة من رائد الصحافة الأمريكي جوزيف بوليتزر بتقدير كبير، وتمنح في شهر مايو من كل عام منذ عام 1917.

عرفت حينها لماذا كان كل ذلك الهوس بشأن الجنس الفموي بحرارته وجموحه، واشتعاله وانطفائه. كنت مع جاكي إنسانًا هالكًا لا محالة. لقد اقتلعتني من نفسي وقلبتني رأسًا على عقب.

العقل والمنطق، صديقاي القديمان، كانا قد فارقاني في نقطة معينة في ذلك الشهر. كانت بوصلتي الأخلاقية، كما يسمونها، قد تعطلت هي الأخرى. حالما عدنا إلى أرض الواقع بعد مرور ذلك الشهر المجنون، بدأت جاكي تضغط عليّ لتعرف نيتي على المدى البعيد حول علاقتنا. كنت آمل على الأرجح أن تجري مغامرتنا مجراها الطبيعي لأنني صدقًا لم أكن أرغب بالطلاق. لكن الأمر بات واضحًا بالنسبة لي أنني لم أكن مستعدًا على الإطلاق أن أخرب ما كان يحدث بيني وبين جاكي.

أقنعتني أن أذهب معها إلى الشرق لترى بعضًا من أقاربها. قضينا وقتًا ممتعًا في لقائهم جميعًا ورؤية القليل من مدينة نيويورك -التي حلق جمالها في مشاعري بقدر جمال مدينة الزمرد في أوز، فقد كانت ساحرة وخطرة في نفس الوقت، وكأننا نحتاج لكلمة مرور معينة كي يسمح لنا بدخولها- لكن البقاء مع أفراد العائلة أخمد ملحمتنا الجسدية بشكل كبير. فبعد أن كنا نمارس العلاقة الحميمية في أي وقت وأي مكان طيلة ثلاثين يومًا وثلاثين ليلة، لم تعد لدينا أي خصوصية لنفعل أي شيء وأصبح ألمي لا يطاق. عندما توجهنا أخيرًا إلى مطار جون أف كيندي لنعود إلى كاليفورنيا، كنت أعد الدقائق حتى نصل إلى شقتها.

لكن إن استطعت أنا الانتظار فليس من طبع جاكي أن تنتظر. ففي مطار كيندي، عندما صادف أن كنا نسير بالقرب من سير استلام الحقائب وحيث لم يكن أحد هناك، قوست حاجبها ونظرت لي نظرة أصبحت أعرف معناها الآن جيدًا، ودفعتني نحوها وانحنت قبالة عمود، ورفعت ثوبها،

وانسابت يدها للأسفل وبدأت تداعب نفسها، وأمرتني بصوت منخفض لكنه كان صوتًا مثيرًا وملحًا: «مارس الجنس معي، الآن في هذا المكان!»

أثارني كثيرًا ما قامت به لكنه جزئيًا أصابني بالهلع أيضًا: كونها هي من كانت عدوانية في سلوكها الجنسي. كنت أحاول أن أنافسها، لكنها غالبًا ما كانت هي التي تبادر، وتحدد متى وأين نمارس العلاقة الحميمية. كنت قد سمعت بمصطلح نادي الميل العالي[173] ولطالما فكرت في تجربة ممارسة العلاقة الحميمية في رحلة داخل مرحاض الطائرة. لكن لم يخطر على بالي أبدًا أن أفعلها في ممر استلام الأمتعة الفارغ في مطار جون أف كندي. لقد كان لدينا متسع من الوقت قبل بدأ الرحلة لذا أطعت أمرها بعد أن تأكدت من أننا كنا لوحدنا.

ما بين تأوهاتها وكلامها وتصاعد أصوات المتعة، كنت أشعر بالخجل والهلع بالطبع، لكنها كلما كانت تتلوى بجسدها نحوي أكثر، كلما زادت شراستي، ومن فرط الإثارة -وهي تقف مسندة مؤخرتها على ذلك العمود وأنا أقف قبالتها- نسيت حتى أين كنت. ولكي تجعل الأمور أكثر إثارة قامت بلف ساقيها حول خصري، حتى فقد كلانا السيطرة. بقينا على هذا الحال ونحن نتأوه ونتصبب عرقًا. لقد فاقت الإثارة كل حدود الوصف. كانت أبعد حتى من أكثر خيالاتي جموحًا.

كنا نتأوه ونتنفس بكل جوارحنا، ومن ثم لمحت بطرف عيني وأصبت بالفزع لدى رؤيتي عامل حقائب لوحده قد خرج من مكتبه ليشاهد

---

173) نادي الميل العالي Mile-high club: هو مصطلح عامي يطلق عامة على الأفراد الذين يمارسون الجنس على متن الطائرة. لا يوجد نادٍ رسمي معروف بهذا الاسم. لكن بما أن «العضوية» في هذا «النادي» تأتي من مجرد تأكيد الفرد بأنه مؤهل ليكون عضوًا، فهذا يعني أن مؤهلات العضوية مفتوحة لتفسيرات مختلفة.

العرض غير مصدق لما كان يراه. وبدلًا من أن يكون هو جمهورنا الوحيد، التفت بطريقة عرفت من خلالها أنه سيدعو حشدًا ليشاهدوا معه، ولربما سيقوم بأخذ رسوم دخول مقابل المشاهدة.

كانت عينا جاكي مغلقتين، ولم أستطع التوقف لأني كنت على وشك الوصول إلى الذروة، على الرغم من أنني أدركت وجود أربعة عمال حقائب آخرين وهم يحدقون بنا مبتسمين. لم أعرف أن الأمر بإمكانه أن يصل حدًا أسوء من ذلك، لكنه وصل عندما قام أحدهم بالضغط على زر سير ممر الأمتعة كي يبدأ السير بالتحرك ومن ثم ازدادت سرعة تحركه وقرر أحدهم أن يشجعني فصاح: «أنه ما تفعله يا رجل!»

لم ينته الأمر إلى ذلك الحد فحسب. لقد وصلت الحقائب وأتى الناس لاستلامها! ولك أن تتخيل أن تتم مقاطعتك أثناء ممارستك العلاقة الحميمية! والكل يبتسم بسره. غطت جاكي نفسها بسرعة بعد أن حصلت على بعض المتعة، ولبست أنا أيضًا ملابسي بأسرع ما يمكن، وكنت غاضبًا أكثر من كوني محرجًا، لكنني فعلت كل ما باستطاعتي لتجنب الصدمة التي اعتلت وجوه الركاب الذين شاهدوا بالطبع كل ما كان يجري. أصبحت أكره عمال الحقائب حتى يومنا هذا.

كان هناك مواجهة حاسمة في طريقها إلينا. في عالم مثالي كانت شهوتي في التجوال في الجانب الجامح ستأخذ مجراها الطبيعي، لكن الواقع كان يقول بأن العالم ليس مكانًا مثاليًا، وهذا ما بدأت أدركه الآن جيدًا. لم تكن علاقتي معها ستجري على ما يرام ولم أكن سأستمتع بها أبدًا. ولسوء الحظ فقد كانت يداي مكبلتان، الأمر الذي زاد من شعوري بالندم وبالذنب الرهيب في أواخر ربيع عام 1980 عندما أخبرت شيري بأنني سأرحل. كل ما فعلته، وما قلته، وكيف فعلته، وقلته، كان قد حطمها، وآلمها وسيبقى

يؤلمني لآخر يوم في حياتي لأنني أفسدت علاقة ستظل إحدى أهم علاقاتي في الحياة. انتقلت شيري سريعًا إلى أوكلاند، وبرغم تواصلنا القليل، إلا أن الطلاق أصبح رسميًا بعد تسع سنوات، يرجع السبب جزئيًا إلى أن الأمر كان مؤلمًا للغاية وجزء آخر يعود إلى المآسي الأخرى التي كانت تجري بيننا.

وحتى وإن لم تصبح جاكي حاملًا بعد تسعة عشر يومًا من لقائنا -جاء الحمل عاملًا حاسمًا لانتقالي للعيش معها حيث هناك كنت أعتقد أن مسؤولياتي تقع- كنت على الأرجح سأتخذ القرار نفسه. كان الأمر كله يدور حول الجنس. لقد انقلبت حياتي رأسًا على عقب ولم يكن هناك أي مجال للرجوع.

...

شاء القدر أن يكون «التدريب أثناء العمل"[174] شعاري الذي سيرافقني وأنا أدخل عالم الأبوة. غيرت ولادة كريستوفر جارريت ميدينا غاردنر الابن في الثامن والعشرين من شهر كانون الثاني لعام 1981، في مستشفى سان فرانسيسكو العام كل تفكيري، وأولوياتي في الحياة. من المؤكد أنه كان الرضيع الأجمل، والألمع، والأذكى، والأكثر بديهية، والأعلى حسًا بالموسيقى، والأكثر عاطفة، والأقوى جسديًا من بين جميع الرضع الموجودين في ردهة المستشفى. كانت تحيطه هالة من الحكمة والعظمة منذ أول يوم ولد فيه بلا شك، عندما حملته بين ذراعي لأول مرة انتابني شعور غريب بالألفة، وكأننا كنا نعرف بعضنا في حياة سابقة. أقسمت، دون قول أي كلام، بكل شيء وبكل شخص مقدس في حياتي، وأعدت تأكيد

---

174) التدريب أثناء العمل OJT On the Job Training: أو التدريب في موقع العمل وهو عبارة عن تدريب من فرد إلى فرد آخر يتم تنفيذه في موقع العمل، حيث يقوم أحد الأفراد الملمين بكيفية تنفيذ المهام بعرض أداء تنفيذ المهام لفرد آخر.

قسمي الذي أقسمته مدى حياتي بأنني سأعتني به دائمًا ولن أغيب عن حياته أبدًا.

تطلع كريس الابن نحوي، وكأنه يقول لي بتعمد: «حسنًا يا أبي، أنا أعتمد عليك.» ومن ثم حدق بي بطريقة لم أعلم أن الأطفال بإمكانهم أن يفعلوا ذلك، وكأنه كان يراني وأنا طفل صغير لا يعلم من هو والده أو أين هي والدته. كان ذلك من وحي خيالي بالطبع، لكنه بدا فعلًا وكأنه يقول لي: «وأنت أيضًا تستطيع أن تعتمد عليّ.» جعلني ابني إنسانًا أفضل، أصبح لي هدف ومعنى في الحياة إلى حد لم أعهده من قبل، واستطعت تقدير معناه الحقيقي لاحقًا.

أثناء الشهور التي سبقت ولادة كريس، تلقيت تدريبًا أثناء العمل مع جاكي التي كشفت عن جوانب في شخصيتها لم تكن معروفة حتى الآن. عندما التقينا، كانت توشك على التخرج من كلية طب الأسنان في جامعة كاليفورنيا. توقعت حال تخرجها أنها ستكون قادرة على أخذ إجازة، وستستريح لبعض الوقت، ومن ثم ستؤجل حصولها على عمل كي تستطيع أن تدرس شهادة البورد. أما الآن بعد أن انقشع الغبار وبانت العلاقة على حقيقتها نوعًا ما بعد نشوب أول خلاف بيننا، كان واضحًا أن لديها خطة مرسومة ومحددة، ونظرة طموحة جدًا في التقدم في الحياة. في البداية لم تضغط عليّ كثيرًا بأن الوقت قد حان كي أترك جمعية المحاربين القدامى، وهو أمر كنت أؤجل القيام به خلال الفترة التي أصبحت فيها حياتي الشخصية مليئة بالصراعات. وحيث أننا كنا بالفعل منسجمين مع حلقة من الشبان السود الطامحين -كل واحد منهم يتخذ مهنة ما: طبيب، أو محامي، أو مدير هندي- فإن امتهاني الطب كان أمرًا رائعًا بالنسبة لجاكي. ومع ذلك، وبالرغم من أنها اعترفت بأنني كنت أقوم بعمل هام في البحث

تحت إشراف الدكتور ايلس، إلا أنها لم تكف عن التعليق على الأجور التي لم تكن شيئًا مقارنة بما كان يجنيه أصدقاؤها وأزواج صديقاتها.

لم تزعجني تلك التعليقات لأنني كنت أعرف مسبقًا أنني لم أكن أجني ما يكفي ليعيلنا كعائلة. لربما كان النشر في عدة مجلات طبية مرموقة أمرًا مثيرًا لكنه لم يسدد فواتيرنا، الأمر الذي جعلني أقتبس سطرًا من الرجل العظيم بيري غوردي(175) -أحد أبطالي وأحد رجال الأعمال السود القلة ممن كنت أعرفهم- الذي صادف أن قام بكتابة أغنية «النقود: هي كل ما أريده.» لم يكن الحديث عن المال هو ما كان يزعجني. ما أزعجني حقًا هو إلحاح جاكي المتزايد في طرحها لسؤال بعد قضاء نصف مدة حملها، كان علامة وكأنها تظهر من حيث لا أعلم، عندما سألته لي لأول مرة في أحد المساءات بينما كنا نجلس على العشاء.

"هل تعلم يا كريس.." بدأت جاكي حديثها بتلك العبارة، وكنت أستطيع أن أفهم من نبرة صوتها أنني لم أكن سأحب ما سأسمعه. تابعت كلامها: «لابد لي أن أسألك، كيف ستصبح أبًا وأنت لم يكن لديك أب؟ كيف تعلم ماذا تعني الأبوة؟»

جلست وتطلعت فيها دون أن أقول أي كلمة، لكن قلبي كان يتقطع. كيف استطاعت أن تسألني سؤالًا كهذا؟ لقد عرفت منذ البداية هذا الشيء عني: أنني لدي حساسية مفرطة حول عدم وجود أبي في حياتي. كانت تعلم أنني سأفعل أي شيء باستطاعتي، لأكون الأب الذي لم أمتلكه

---

175) بيري غوردي Berry Gordy: ولد في 28 تشرين الثاني 1929 وهو منتج، وكاتب أغانٍ، ومنتج أفلام ومنتج تلفزيوني. معروف باسم مؤسس علامة «موتاون» المسجلة وشركاتها التابعة لها التي كانت تسجل أعلى الأعمال الأمريكية - الإفريقية من حيث كسب النقود. كانت أغنية «النقود: هي كل ما أريده» أول أغنية ناجحة لمؤسسة موتاون.

يومًا. أصبت بصدمة شديدة مما قالته وكأنني قد طرحت أرضًا.

"حسنًا ماذا ستفعل؟» سألتني، علمت أنها كانت تحاول أن تضغط عليّ لكني لم أكن متأكدًا من السبب. هل كان سؤالها امتحانًا لي لتتأكد من أنني لن أتركها؟ إن كان كذلك، فإنه من القسوة أن تفعل ذلك بي لأنها كانت تعرف من خلال تاريخ حياتي، أنني لن أترك طفلي وأكرر خطأ والدي أبدًا.

غيرنا الموضوع وزال التوتر. وعندما فتحت نفس الموضوع مرة ثانية، مستخدمة نفس الكلمات: «كيف ستصبح أبًا وأنت لم يكن لديك أب؟ كيف تعلم ماذا تعني الأبوة؟» علمت حينها أنها كانت طريقة أخرى لتضغط علي. عندما كان الأمر يتعلق بضغطها علي من الناحية الجنسية، كما هو واضح، كنت أرحب على الفور. لكن هذا النوع من الأسئلة كان يتركني مستاءً، حتى وإن -في دفاعها عن نفسها- كانت تعبر عن مخاوفها الفعلية من المستقبل.

أما في المرة الثالثة والرابعة التي كانت تفتح فيها نفس الموضوع، كنت أصرخ قائلاً: «ألا تعتقدين أنه قد تأخر الوقت كي أملأ طلب استمارة الأبوة؟»

"ما الذي تقصده؟"

"ربما كان عليك أن تستفسري حول سيرتي الذاتية قبل أن تصبحي حاملًا لأنك كنت تعلمين أنني لم يكن لدي أب!»

بلمح البصر استحالت جاكي لامرأة صامتة يكسوها البرود.

بالرغم من الوضع المتزعزع بيننا إلا أنها نجحت بالفعل في أن تجعلني أفكر حول المعنى الحقيقي للأبوة، وكان هذا هو الجزء النظري من المعادلة الذي أصبح موضع نقاش لحظة ولادة كريستوفر. أما الآن وقد أصبح لدينا طفل فإن الواقع يشير إلى أننا أصبحنا عائلةً، ووجب عليّ أن أتعلم ماذا

يعني أن أكون أبًا صالحًا يخضع للتدريب أثناء العمل، وكان هذا هو الجزء العملي الذي بدأت أسعى إليه على الفور. كان ذلك يعني أن أنجح حتى لو كلف الأمر حياتي. إن لم أستطع النجاح أو القدرة على إعالته فسيكون الأمر بمثابة خيانة لكل شيء كنت قد عاهدت نفسي عليه، مذ وعيت على هذه الدنيا.

كانت المساحة مشكلة كبرى يصعب إيجاد حل لها، فسرعان ما احتل مهد ضخم الاستوديو ذا الغرفة الواحدة الذي كنا نعيش فيه، إضافة إلى طاولة تغيير الحفاظات، وجميع أغراض العناية بالطفل الأخرى التي لم أعرف عنها شيئًا حتى الآن. أما المشكلة الثانية التي كان عليّ حلها هي إيجاد رعاية نهارية للطفل أثناء ذهاب جاكي إلى جامعتها وذهابي إلى العمل. جعلتني هذه الأمور أدرك تمامًا التفاوت المعقد في النظام الترتيبي الخاص بالعناية بالطفل، ابتداء من المربيات بدوام كامل، وجليسات الأطفال بدوام جزئي، والمربيات اللاتي يأتين لساعات محددة من اليوم، وحتى جليسة الأطفال تحت الطلب (مع تشكيلة واسعة من الأجور حسب الساعة ومستويات مختلفة من المؤهلات)، ومن ثم يأتي التسجيل في الحضانة الخاصة عالية التكلفة على قوائم الانتظار الخاصة بها، وكل برامج الرعاية بالطفل التي تمولها المدينة، والتي تكون تكاليفها أقل لكنها معتمدة في نفس الوقت، وصولًا إلى الرعاية في المنازل غير المرخصة والأقل تكلفة على الأرجح لنساء يعتنين بالأطفال بأجور يومية. لحسن حظنا كنا قادرين على تحمل أجور الاختيار ما قبل الأخير وهو تسجيل كريستوفر في مركز الحي للرعاية النهارية الذي يقع على مقربة من مكان إقامتنا.

كانت نوعية الرعاية ممتازة حقًا، رغم أنني اعترفت لجاكي بأنني أردت مكانًا أرقى لطفلنا.

"هل تعلم يا كريس..." بدأت جاكي حديثها. كنت أعرف تلك النبرة. بدأ صبرها ينفد بشأن موعد تركي لجمعية المحاربين القدامى. قبل ولادة الطفل، كانت تتطرق إلى الموضوع برقة لكنها الآن أصبحت تعتمد على الخطط الهجومية. «ما الذي يجعلك ما زلت متمسكًا بعملك هذا؟ أنت تعلم أنه لا يدر عليك بمال وفير. لقد أخبرك ايلس أنه ليس بمقدوره أن يدفع لك مالًا أكثر.» كان كلامها صحيحًا فقد رفض المعهد الوطني للصحة الذي يمول بحثنا طلب منحة لزيادة راتبي.

"أنا أعلم." قلت لها، محاولًا أن أتغدى بها قبل أن تتعشى بي.

"توقف عن قول إنك تعلم وافعل شيئا! عليك أن تتقبل الأمر. أنت لا تخطط للعمل في مجال الطب، أليس كذلك؟ لقد حسمت أمرك ولن تسعى وراء هذا المجال، أليس كذلك؟ لديك طفل لتعيله وتحتاج لمزيد من المال، لذا اترك عملك هذا واحصل على وظيفة براتب أعلى!»

رغم أنها كانت محقة، إلا أن ما قالته لم يسهل عليّ الأمر لأجد عملا جديدًا. ولم يسهل عليّ الأمر أيضًا لأتخلى عن مكانتي العالية في المختبر وأبدأ مسيرتي من أولها في عمل جديد، أضطر فيه إلى أن أرتقي السلم من أول درجة مرة أخرى. لكنني بدأت أخيرًا أبحث بجدية عن عمل جديد أيًا كانت طبيعته. امتلكت جاكي كل الحق في أن تصاب بالإحباط. فهي كانت تتحضر في هذه الفترة لنيل شهادات البورد التخصصية كي تصبح طبيبة أسنان ممارِسَة، وكان من الواضح أنها قد دخلت عالم الأمومة رغمًا عنها. فجميع صديقاتها اللاتي كن معها في كلية الطب كن قد حصلن على شهادة البورد وكن يتحضرن ليمارسن المهنة أو يتزوجن بأزواج يزاولون ممارسات مهنية. لم أكن في تلك المكانة بعد، حتى وإن كانت لدي الإمكانية. كان عليّ أيضًا أن أواصل ثقتي بنفسي وأنا أحاول أن أفهم مشاعرها، لأعرف أنني

حتى وإن كان وضعي ما زال غير معروف فإنني سأحقق شيئًا عاجلًا أم آجلًا.

بدأت أسمع صوتين مختلفين يضربان على طبلة في رأسي. كان الصوت الأول عبارة عن قرع طبل ثابت وقوي يذكرني بالعائلة والعمل، والروتين المألوف، ويخبرني بأنني صياد يبحث في الطرقات عن وظيفة. أما الثاني فقد كان قرعًا غير منتظم، حتى أنني بالكاد أحسست بوجوده في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى كان يدوي في رأسي كطبلة كبيرة تقرع بشؤم على آلة الصنج(176) لتذكرني بالضغوط المنزلية. نشأت بيني وبين جاكي مشاجرات صغيرة، فالنقود لم تكن تكفي، ولم تكن تأتي بسرعة كافية أيضًا. كنت أحيانا أنا من يصاب بالإحباط، وأحيانا كانت هي من تصاب به. كانت جاكي متقلبة المزاج معي، تارة تكون رقيقة وتارة تصبح عنيفة. تغيظني، فأغضب عليها ثم أهدأ قليلا فتصبح هي دفاعية. أصرخ عليها فتعاقبني، ومن ثم يمر الموضوع، ونمارس العلاقة الحميمية وننسى ما حصل ويعود الوضع طبيعيًا مرة أخرى.

بعد ذلك احتدم النقاش من جديد، وفي أحد الأيام تغيرت طريقة نقاشها جذريًا عندما عدت للمنزل وكان سلامها عبارة عن إعلان: «كريس، لم يعد الأمر ينفع ولا أظن أنه سينفع أبدًا، لربما الأجدر بك أن ترحل.»

كانت صدمتي لا توصف، حملقت بها قائلًا في نفسي: «ما هذا الذي قلتيه؟»

"عليك أن تنتقل من المنزل. لا أريدك أن تعيش هنا بعد الآن."

وعدتها بأن ذلك لن يحدث، فأنا بحاجة لأن أكون مع ابني، وهي تعلم

---

176) آلة الصنج Cymbal: آلة موسيقية إيقاعية عبارة عن قرصين من النحاس، تشد إحداهما باليد اليمنى والأخرى باليسرى ويكون الإيقاع هابطًا وصاعدًا، ظهرت في عصر الفراعنة وتستعمل في الفرق العسكرية.

ذلك جيدًا. بدأت أنظر من حولي ولم أجد كريستوفر.

ذعرت وقلت لها «أين الطفل؟»

"لا تستطيع أن ترى الطفل الآن."

لا تستطيع أن ترى الطفل؟ سماعي لهذه الكلمات وهي تصطف جنبًا إلى جنب أصابني بغضب شديد. لقد تحول فيلمنا العائلي الذي كان يتخلله بعض الصراعات، وتسوده الفكاهة والحب إلى فيلم رعب الآن. غمرتني مشاعرٌ قوية ومظلمة من الخوف وقلة الحيلة. وقفت هناك لا أعلم ما الذي ينبغي عليّ فعله، تملكني غضب لم أستطع حتى تحديد ملامحه أو نوعه، مثلما تضرب عاصفة رعدية فجأة وتختفي فجأة. لا يوجد أي قرار معلن أو أي اعتذارات كما لو أنه كان نوعًا من الاختبار.

مرت العاصفة، وهدأ أيا كان ما يحرضها، وعدنا إلى حياتنا الطبيعية. لكن وضعي لم يكن مستقرًا، لم أعرف ما إذا كانت في المرة المقبلة ستنفذ تهديدها بأخذ ابني مني. بدأت مخاوفي القديمة جميعها بمطاردتي. فعلى الرغم من أن فريدي الذي كان يسكن في الجانب الآخر من البلد قد بدأ العمر يتقدم به وأصبح مريضًا لا يقوى على أذية أمي مجددًا، إلا أنني كنت ما زلت منحصرًا في دائرة انتظار فأس ليقع عليه، ولم أعرف ما الخطر الذي كان يحدق بي. توجّهنا لنرى بعض الأصدقاء في يوم ما، وتجادلنا فيما إذا كان علينا الذهاب، وكنت أقف في الخارج على الرصيف منتظرًا قدوم جاكي ومعها كريستوفر -الذي أصبح الآن يبلغ ستة أشهر- جالس في عربته، وفجأة بدا الأمر وكأنهما لن يأتيا. آه لا، لن تفعل بي ذلك، صرخت من الأسفل لتسمعني من الشقة. في اللحظة التي خرجت فيها جاكي من المنزل صدمت من نفسي وأنا أذهب نحوها وأخطف العربة منها مع وجود كريستوفر فيها، وكأننا كنا نلعب لعبة شد الحبل، وأخبرتها: «لن أتركك

تأخذين ابني مني!»

لربما كان ذلك أقبح شيء فعلته في حياتي على الإطلاق، كان تصرفًا لن أسامح نفسي عليه أبدًا. لم يكن هنالك أي كلام سيصف لها، أو لابني، أو حتى لنفسي كم كنت مخطئًا. أصبح الوضع حرجًا للغاية. كل ما كنت أسمعه هو النشاز المدوي على تلك الطبلة وهي تقرع على رأسي لكني قمت أخيرًا بانتزاع عربة الطفل من يدها وحملته معي إلى نهاية الشارع ومشيت وعبرت عدة شوارع حتى لمحت أمامي كنيسة فجلست على أعتابها. بدأت أشتكي لابني ذي الستة أشهر: «حالتنا مزرية للغاية يا رجل! هل سيستمر الوضع هكذا مدى العمر؟»

جعد كريستوفر حاجبه، وكأنه كان يحاول أن يفهم ما أقوله، وتمتم كلامًا غير مفهوم.

"لا أستطيع أن أدع أي أحد يأخذك مني." شرحت له.

كان يفهمني على ما أعتقد، لأنه كان يغمض عينيه نصف إغماضه وكأنه يدرك ما أقوله، أو ربما كان منهكًا ويحتاج إلى النوم.

على أي حال، هناك حقيقة واحدة فقط مهمة: إنه ابني وأنا أحبه، ولن أتخلى عنه أبدًا، مهما كلف الأمر.

عدت به أخيرًا إلى المنزل، وواجهت الخوف، وحجم المجهول الذي كان يحدق بي وعاد لينتقم، وقمت بحسم المشكلة في عقلي، كما كنت أفعل حينما كنت طفلًا، من خلال إشغال نفسي بالقيام بعمل ما. أدركت أن النقود هي العلاج لكل شيء.

استكملت في الشهور اللاحقة ما كنت أجنيه في جمعية المحاربين القدامى بالقيام بوظائف جانبية، حيث كنت أقوم بأي عمل إضافي كان يأتيني كما كنت أفعل في السابق. ولكي نقلل من تكلفة الإيجار ونوفر

لأنفسنا مساحة أكبر، انتقلنا للعيش في بيركلي، حيث كان بإمكاننا إيجاد بيت صغير في زقاق احتوى في مقدمته على شجيرات ورود كان وجودها أمرًا غريبًا في مكان كهذا. مع تيسر الحالة المادية، تمكنا من شراء سيارة سيدان الاقتصادية المتواضعة، كي نستطيع التنقل في سان فرانسيسكو من وإلى مكان العمل والجامعة.

كنت ما زلت أبحث عن وظيفة تنقلني إلى مكانة أعلى من البحث، وتبقيني في مجال الطب، لذا حاولت أن أبهج نفسي معتقدًا أنني إن استطعت فقط توظيف نفسي في المكان الصحيح، فإنني سأحصل على المال الكثير وسيخف الضغط علي. لم تسر الأمور على ما يرام مع جاكي لكن في هذه المرحلة كنت أنا المحتاج لتوفير مزيد من المال لا هي. كوني أنا المعيل الوحيد للعائلة، فإنني لم أكن مسؤولًا عنا نحن الثلاثة فحسب، بل إنني أصبحت أعير انتباهًا أكثر لوارداتنا ومصروفاتنا. في الماضي، عندما لم أكن مسؤولًا سوى عن نفسي بشكل أساسي -حتى عندما قمنا أنا وشيري بجمع أموالنا سوية- كان الأمر مختلفًا تمامًا. أما الآن فقد كان الأمر متعلقًا بتوفير الطعام لابني الذي كان يكبر، ولجاكي ولنفسي. والأهم من ذلك، أن الأمر كان يتعلق بخلق خطة من شأنها أن تعيلهم في المستقبل كي لا نضطر أن نعيش حياتنا ضمن حدود الراتب فقط.

كنت متفائلًا، وعاقد العزم، وكان انتباهي كله متوجهًا نحو تلك الخطة. لكن شيئًا ما كان يعيق تقدمي، كرة قديمة تُعيق قدمي، رفضتُ الاعتراف بوجودها كل ذلك الوقت، حتى مع شكوك جاكي بأنني لم أكن أعرف ما تعنيه الأبوة إن لم أمتلك يومًا أب. فلولا كريستوفر وكتاب كنت أقرأه له في ظهيرة أحد الأيام بينما كنا جالسين في شرفة مدخل المنزل بعد فترة قصيرة من عيد ميلاده الأول، لكنت حتى الآن عاجزًا عن إدراك مدى

التأثير السلبي الذي خلفه حرماني من أبي في داخلي.

كنا في وقت سابق جالسين في الخارج في الظل، نلعب بالكرة ونقضي بعض الوقت معًا، مستمتعين بهواء كاليفورنيا العذب، وراودني حينها شعور عارم بالفرح عندما توقفت لبرهة فقط، كي أنظر إلى كريستوفر. لم نكن قد قصصنا شعره بعد، كان شعره أفرو مجعدًا ومموجًا يتمايل كالعلم في الرياح بينما كان يلعب دون مبالاة أو خوف.

كانت الفكرة التي راودت مشاعري هي: «يا إلهي، لابد أن تكون هذه هي الجنة.» لم يهمني شيء سوى أنني كنت هنا في هذا المكان وهذا الزمان، مع هذا الولد الصغير الجميل الذي كان يعني لي العالم بأجمعه. حينها خطرت الفكرة على بالي، أن ما يحدث الآن بيني وبين ابني هو أمر يفترض به أن ينتقل من جيل إلى جيل: آباء يلعبون بالكرة مع أبنائهم، يجلسون جنبًا إلى جنب لينظروا إلى الكتب سوية. كان أمرًا لم أعهده من قبل عندما كنت ابنًا.

أما الآن فأنا لدي ابن يحب القراءة ويريد أن ينظر إلى أحد كتبه التصويرية المفضلة.

سألني كريستوفر من خلال مناغاته المترابطة بعض الشيء: «ما هذا يا أبي؟» أو شيئًا من هذا القبيل عندما أشار إلى رسمة تحتوي على مهر صغير يقف مع عائلته.

لكي أفسر له مفهوم العائلة، أشرت أنا أيضًا، وأريته المهر، وأباه الحصان، وأمه الفرس: هذا هو الحصان الصغير، وهذا هو أبوه الحصان، وهذه هي أمه الفرس أومأ كريستوفر برأسه، ولمعت عيناه، وبدأ يشير معي وأنا أعيد عليه مجددًا شرحي لأفراد عائلة الحصان.

"حسنا! وأنت أيضًا يا كريستوفر لديك أب وأم. والحصان الصغير

لديه أب وأم مثلك تمامًا.»

أشار وقال، وكأنه فهم تمامًا ما كنت أقوله، «ماما» و"بابا".

حسنا، لقد كان الأمر رائعًا، لذا استرسلت بالحديث، وأخبرته أن كل شخص في العالم لديه أم ولديه أب مثل ذلك الحصان الصغير. «أمك لديها أم ولديها أب.» بدأت الكلام، متسائلًا ما هي الطريقة الأفضل لأشرح مفهوم الجد والجدة لطفل يبلغ من العمر عامًا واحدًا. ثم أدار كريستوفر وجهه نحو وجهي وفي عينيه نظرة تساؤل، ثم أشار لي، وكأنه كان ينتظر أن أخبره أنني أنا أيضًا لدي أب وأم.

جعلتني نظرته تلك أهتز في مكاني، والمضحك في الأمر أنني لطالما تخيلت أنني سألتقي بأبي يومًا ما، حتى لو كانت مرة واحدة فقط لأواجهه عن سبب عدم تواجده في حياتي. لكنني ها هنا الآن، وقد قارب عمري على الثامنة والعشرين، ولم ألتق به أبدًا. كيف لي أن ألتقي به؟ لم أعرف. هل كان على قيد الحياة؟ لم أعرف إجابة ذلك السؤال أيضًا. لم أعرف أين مكانه أو كيف كان يبدو شكله. لكن في اللحظة التي أبدى فيها ابني ملاحظته السابقة لأوانها، عرفت أن الوقت قد حان كي ألتقي بأبي.

في اليوم التالي، عندما ذهبت إلى العمل في المختبر، قمت بالاتصال بدليل المعلومات لأستعلم عن اسم توماس ترنر في مونرو، لويزيانا. كانت تلك هي المعلومة الوحيدة التي تدبرت الحصول عليها من أمي بأساليب احتيالية طوال تلك السنوات.

أخبرني عامل الهاتف بوجود خمسة أسماء مدرجة تحت ذلك الاسم، فطلبت منه أن يعطيني خمستهم، قررت أن أجرب حظي وأتصل بهم. عندما قمت بأول اتصال، سألت الشخص الكبير في السن الذي أجابني: «هل توماس ترنر موجود؟»

"توماس ترنر ميت" أجابني الرجل العجوز فاعتذرت له.

قمت باتصال آخر، على أمل أنني لم أفوت فرصتي، وشرحت للمرأة التي ردت على الهاتف أنني كنت أبحث عن شخص يدعى توماس ترنر، كان ربما على معرفة ببيتي غاردنر.

شعرت المرأة بالراحة وهي تخبرني: «أتعلم شيئًا؟ يمكنني التفكير بشخصين يحملان هذا الاسم: الأول يشرب، والثاني اعتاد أن يشرب، لكنه أقلع الآن.»

سرت خلف إحساسي وسألتها: «كيف لي أن أتواصل مع توماس ترنر الذي أقلع عن الشرب، وكيف لي أن أعرف محل إقامته.» أعطيت العنوان لعامل دليل لأتأكد من أنني قد حصلت على رقم الهاتف الصحيح.

نظرت إلى الرقم، أخذت نفسًا عميقًا، لم أكن متأكدًا بماذا سأبدأ حديثي إن أجابني توماس ترنر الذي كنت أبحث عنه. طلبت الرقم دون أن أعرف، وسمعت صوت السماعة وهي ترفع وأجابني صوت ذكوري قوي: «من معي؟»

كل ما خطر على بالي لأقوله هو: «هل تعرف بيتي غاردنر؟ أنا ابنها كريس وأنا أحاول أن أجد أبي. هل...» وقبل أن أنهي كلامي، قاطعني.

"نعم." قال أبي، "لقد كنت أنتظر اتصالك منذ وقت طويل."

...

حالما توصلت أخيرًا إلى حل اللغز الذي استمر قرابة ثمانيةٍ وعشرين عامًا، حدث تغيير جذري في مستوى إدراكي الداخلي ما بين ليلة وضحاها. لم يكن الرجل الذي تحدثت معه على الهاتف أكثر من مجرد صوت، لكنه شجعني على أن آتي إلى لويزيانا لألتقي به وجهًا لوجه، وألتقي أيضًا ببعض الأقارب الذين لم أعرف عنهم شيئًا أبدًا.

في حين أنني وعدته أن أذهب إليه حالما أتمكن من بالقيام بالترتيبات، اتضح لي أن بحثي اليائس لإيجاد مكاني المناسب في عالم العمل، أصبح فجأة مهمة من أسهل ما يكون. ركزت كل انتباهي صوب الاحتمالات المتاحة أمامي في عالم الأعمال، وحصلت بسرعة على وظيفة مندوب مبيعات لشركة تجهيزات ومعدات طبية تدعى «سي. أم. أس.» كان مقر الشركة في مدينة سان برونو، في قلب منطقة وادي السليكون(177) التي أصبحت فيما بعد منطقة رائدةً في مجال التطوير والاختراعات الجديدة، وكانت الشركة تبيع منتجاتها بالدرجة الأولى للمختبرات والمستشفيات. كنت سأستحصل في بداية عملي معهم ما يصل إلى ما يقارب الثلاثين ألف دولار في السنة، أي ما يعادل ضعف ما كنت أكسبه في عملي في البحث، ومع إمكانية الحصول على ضعف ذلك المبلغ فإنني كنت سأتساوى مع ما كان يكسبه أصحاب الدخول الأعلى.

مما لا شك فيه أن أولئك الكسبة كانوا قد قضوا عشرين عامًا في مجال هذا العمل؛ حيث كانوا يؤسسون مناطقهم، ودفاترهم التجارية، وعلاقاتهم. ولم أظن أبدًا أنني مندوب مبيعات موهوب. ومن ناحية أخرى، وكما قال ويل روجرز(178) عني، بأنني كنت قد ذهبت إلى الجامعة مع كل شخص قابلته في حياتي، وبأنني صادفت شخصيات استغلالية إلى حد

177) وادي السليكون Silicon Valley: هي المنطقة الجنوبية من منطقة خليج سان فرانسيسكو في كاليفورنيا، الولايات المتحدة الأمريكية. هذه المنطقة أصبحت مشهورة بسبب وجود عدد كبير من مطوري ومنتجي دائرة تكاملية، وحاليًا تضم جميع الأعمال التقنية العالية في المنطقة، حيث أصبح اسم المنطقة مرادفًا لمصطلح التقنية العالية وأصبحت الأولى في مجال التطوير والاختراعات الجديدة، في مجال التكنولوجيا المتطورة ويساهم في ثلث العائدات الاستثمارية في مجال المشاريع الجديدة في الولايات المتحدة الأمريكية.

178) ويل روجرز 1879 – 1935 Will Rogers اسمه بالكامل وليام بين أدير روجرز وهو ممثل كوميدي أمريكي اشتهر بتعليقاته وأسلوب لف الحبل على طريقة الغرب الأمريكي.

بعيد، كان باستطاعتها أن تبيعك قطرات المطر المتساقطة على رأسك. كان بإمكاني تعلم فن البيع إضافة إلى أنني كنت على دراية بقوة المعلومات وكنت أعرف طريقة التعرف على قادة العمل وطريقة تعلم ما يفعلونه وكيف يفعلونه لأكون شخصًا ناجحًا. الأمر الذي زاد من ثقتي بنفسي هو حقيقة أنني رغم عدم معرفتي بلغة عالم الأعمال، إلا أنني كنت بارعًا جدًا في لغة الطب، ولدي دراية حول عقلية الشراء إضافة إلى معرفتي بخبراء المبيعات في شركة سي. أم. أس.

وهكذا ودعت طبيب المستقبل كريس غاردنر، وودعت ارتداء قفازات العمليات. كان شعور الندم الوحيد الباقي دائمًا في نفسي، هو حقيقة أنني امتلكت يدين بارعتين. لكنني عندما كنت أنظر إلى نفسي في المرآة وأنا أرتدي بدلة رجال الأعمال -سترة جميلة، وربطة عنق لا بأس بها- كنت أتشجع أكثر على المضي قدمًا في هذا المجال. كان هذا العمل عالمًا جديدًا وتحديًا بالنسبة لي. أحيا شعوري بالإمكانيات روح المثابرة في داخلي من جديد.

بصفتي مبتدئًا في عالم المبيعات، فقد جعلني الأمر أتلقى ضربة ثلاثية الأبعاد تمثلت في تسلمي منطقة حديثة أؤسس من خلالها علاقاتي، وتمثيلي لشركة ناشئة في المنطقة، إضافة إلى أنني كنت الموظف الأسود الوحيد في شركة سي. أم. أس. في هذه المرحلة، كان لدي خبرة كبيرة في مسألة كوني الأمريكي من أصل إفريقي، الوحيد الذي يعمل ضمن كادر خبراء بيض، لذا لم تكن تلك بمشكلة. مشكلتي الرئيسة كانت تكمن في أنني كنت أبتدئ من الصفر تمامًا وهذا ما اكتشفته بين ليلة وضحاها من خلال الاطّلاع على بعض من أساسيات المبيعات: (أ) يرغب المشترون بشراء أشياء من أشخاص يعرفونهم، و(ب) ويرغبون بشراء منتجات معروفة.

بدلًا من أن أكون محبط العزيمة، وجدت أن المنافسة شيء ممتع.

بقدر ما كنت قلقًا إلا أنني كنت سعيدًا حقًا بحصولي على فرصة، لذا بدلًا من أن أهتم بالتحديات التي واجهتني غيرت مسار تركيزي ووجهته نحو الأسئلة التالية: كيف لي أن أحصل على أعمال أكثر؟ ما هي المعلومات التي أحتاجها لأوسع فرصي وأبني علاقاتي؟ لقد كنت في السابق قادرًا على أن أجد خبيرًا وأسأله تلك الأسئلة، لكن تلك لم تكن هي المسألة في شركة سي. أم. أس. فكما تبين لي لاحقًا، فإن مدراء المبيعات -الذين كانوا يحصلون على نسبة مما يجنيه المندوبون- كانوا يقضون معظم أوقاتهم في تعزيز كبار المنتجين لديهم. أما بالنسبة للمبتدئين أمثالي، فقد كان المدير يسلمني دفتري التجاري[179]، يربت على كتفي، ويقول: «اذهب ونل منهم.»

أصبحت متدربًا أثناء العمل مرة أخرى، وكنت أبذل كل ما بوسعي، وأقطع مئات الأميال في الأسبوع في سيارتي الرياضية الجديدة، نيسان، ذات الباب الخلفي المكتظة بالكتيبات، وعينات المنتج، والمعدات التي أعرضها على الناس، وكنت أسافر يوميًا من بيركلي إلى أبعد الأماكن في منطقة وادي السليكون، وأقوم بإفراغ وحمل مواد المبيعات لمرات لا تعد ولا تحصى في اليوم. وبناء على فلسفة الضرب على السندان، وافقت وأنا على يقين بأن نجاح المبيعات هو مجرد لعبة أرقام. وتعلمت أيضًا من خلال تكرار المكالمات أنني كلما كنت متواضعًا ولبقًا في التعامل ومحترمًا أكثر، وكلما تذكرت أسماء السكرتيرات والتفاصيل الصغيرة حول المشترين، فإن فرصي ستصبح أكثر. ومن هنا بدأت أرقام مبيعاتي تقلع نحو السحاب.

أما جوانب العمل السلبية فقد كانت تكمن في امتداد الجو التنافسي إلى ما بعد ساعات العمل، حيث كان المدراء والمندوبون يسهرون سوية

179) دفتر تجاري book: يستخدم الدفتر التجاري لتوضيح مركز التاجر المالي وما له من حقوق وما عليه من التزامات متعلقة بتجارته، وذلك بتسجيل كل ما يقوم به من معاملات مالية.

ليشاهدوا من بإمكانه أن يشرب أكثر. أدركت أن النميمة والشرب كانا جزءًا من اللعبة لكنها لم تكن اللعبة التي تناسبني. أما الآن وقد أصبحت في عالم الأعمال، فإنني كنت جادًا بشأن زيادة أرقامي، وبشأن كسب نقود أكثر. لكن ذلك لم يجعلني أنال رضى شركة سي. أم. أس. غير أن مسؤولي قسم التوظيف في شركة فان واترز أند روجرز، وهي إحدى الشركات المنافسة الأكثر رسوخًا في مجال التجهيزات والمعدات الطبية، كانوا مبهورين بطموحي لذا وظفوني على الفور.

لم يمض وقت طويل على بداية عملي الجديد حتى أصبحت قادرًا على شراء تذكرة طائرة لي ولكريستوفر للسفر إلى مونرو، لويزيانا. أثناء رحلة طويلة ومتعبة للأعصاب من سان فرانسيسكو إلى ممفيس، ومن ثم ركوبنا طائرة صغيرة أخرى إلى مونرو، ومعي كريستوفر الهادئ على غير عادته، والجالس في حضني طوال فترة الرحلة. استرجعت الإهانات التي تلقيتها في طفولتي، والتي امتلأت بمقولة فريدي بأنني لم يكن لدي «والد لعين.» ما الذي كنت سأقوله لوالدي البيولوجي حينما أراه؟ عندما تحدثت معه على الهاتف لم أتمكن من أن أسأله عن سبب عدم اتصاله بي، أو عدم محاولته لقائي أبدًا، رغم أنه أخبرني بأن إخواني وأخواتي قد سمعوا عني الكثير. ماذا كنت سأفعل في حال تأزم مشهد لقائنا ورغب بالرحيل؟ أو إن شعر كريستوفر بالانزعاج؟

في الحقيقة لم يكن لدي أدنى فكرة ما الذي كان ينتظرني، وها هي اللحظة الحاسمة قد أتت وأنا أسير بابني إلى أسفل سلم الطائرة الكهربائي، ونظرت حولي فرأيته يقف هناك. طوله متران، ووزنه مئتان وثمانون رطلًا، ولون بشرته أسود كالليل. رجل ريف أمضى طوال حياته في لويزيانا. تقدم نحوي، لم يكن الرجل الذي تخيلته على الإطلاق.

أول شيء خطر في بالي هو: حسنًا، أعتقد أنني لن ألكمه، لكني عندما كنت طفلًا تخيلت دائمًا أن تكون تلك هي ردة فعلي الأولى عندما سأراه.

كان حضوره مهيبًا وساحرًا. كانت ابنتاه، أختاي غير الشقيقتين، تقفان إلى جانبه. كنا جميعنا نتشابه كثيرًا، بدوت وكأنني نسخة طبق الأصل منه، لا يوجد أدنى شك في ذلك.

كان المشهد غاية في الغرابة، إلا أنه كان يبدو مرتاحًا للغاية. عرفت فيما بعد أن السبب في ذلك يعود إلى أن هذا المشهد قد تكرر عدة مرات سابقًا. النكتة التي أخبرتني بها أخواتي لاحقًا هي أن الأمر يشبه إلى حد كبير ألعاب الأولمبياد: كل أربع سنوات يظهر أحد ما. لا داع لأن تسأل أي سؤال، كل ما عليك فعله هو أن تنظر لهم لترى الشبه، افتح الباب ودعهم يدخلون.

حتى بعد اكتشافي لأصولي من الناحية العلمية، فإنني كنت ما زلت مذهولًا بمعجزة الجينات؛ فقد كنا أنا وأختاي ديبرا وجانس نبدو وكأننا توائم متطابقة. عندما وصلنا إلى منزل توماس ترنر وجلسنا لنتحدث قالت ديبرا: «أتعلم شيئًا؟ أنت تشبه أبي أكثر من أي أحد منا، حتى إنك تملك شعرًا على ظهر يدك مثل أبي بالضبط.»

ضحكت غير مصدق أنهما كانتا تتفقدانني إلى تلك الدرجة، ثم نظرت إلى يدي ومن ثم إلى يديه، لقد كانتا على حق.

خلال الأربعة أيام التي قضيتها معهم بدأت أتعرف على الشخصيات التي تسكن هذه النسخة السوداء المختلفة تمامًا من مسلسل الأيام السعيدة، وعلى طريقة لويزيانا، كان جوها حارًا جدًا ورطبًا لا يشبه أي طقس شهدته من قبل، حتى إنه لا يشبه جو القوات البحرية في أورلاندو، وكأن ملابسنا قد خرجت لتوها من الغسالة، حتى إن شعرنا وأظافرنا كانوا

يتصببون عرقًا.

مع مرور الأيام لم أستطع تمالك نفسي فاتصلت بأمي لتعلم أنني قد ذهبت إلى ريفل، موطنها القديم، وبأنني قد قضيت وقتًا مع أبي. كنت قد أخبرتها قبل أن آتي بأنني كنت ذاهبًا إلى لويزيانا؛ ليس لألتقي به من أجلي فقط وإنما من أجل كريستوفر كي يلتقي بجده. أما الآن وقد أصبحت هنا بالفعل، كان أمرًا مهمًا جدًا أن أعلمها بأنني قد حللت اللغز أخيرًا. كانت سعيدة من أجلي، لكنني عندما سألتها: «أمي، أترغبين بالتحدث مع أبي؟» لم تتردد في إجابتها حينما قالت: «لا.» عرفت من خلال جوابها الحاسم، القليل عن علاقتهما، سواء كانت علاقة أم لم تكن، وكان هذا حدًا فاصلًا ونهائيًا للنقاش في ذلك الموضوع. لم أعرف أبدًا ما الذي جرى بينهما وبذلك استمر موروث السياسة المتبعة: «لا تسأل، ولا تخبر.» بالتناقل في العائلة.

تضمنت دائرة التعرف على التربة الأولى التي نبعت منها جذوري رحلة إلى الهند حيث غياب الأنوار، ومصابيح النيون، وإشارات الشوارع والسيارات، قد حول فترة الليل إلى ظلام دامس لم أر مثله أبدًا، وبدت النجوم كمصابيح كهربائية ترسم بوضوح جميع المجموعات النجمية. كان جمال النجوم أخاذًا لدرجة أنني لم أستطع منع نفسي من التحديق، متسائلًا كيف كانت ستبدو حياتي لو أنني قد ترعرعت في هذا المكان. ألتقينا برئيسة العائلة، جدتي، امرأة سوداء رائعة صغيرة الحجم تدعى أورا ترنر. رغم أنها لم ترني من قبل إلا أنها حينما رأتني فتحت لي ذراعيها وحضنتني؛ فقد كنت حفيدها.

"كنت أسأل أباك عن مكانك دائمًا." قالت جدتي، ومشت إلى الداخل وأدخلتني معها، وأومأت برأسها معلنة موافقتها. «لم يكن يعرف شيئًا، كنت دائمة السؤال عنك.»

كان الشيء التالي الذي أرادت معرفته هو أين عُمّدتّ. لوهلة، لم أستطع أن أتذكر.

انزعجت جدتي -امرأة مسيحية بامتياز- واقترحت: «يا ولدي، علي أن آخذك إلى هناك الآن، آخذك إلى الخارج، وأعود بك إلى جدول النهر الصغير ذاك، وأعمدك بنفسي. يا إلهي، فلتحل علينا رحمتك!»

ما قالته أرعبني جدًا. كانت ليلة حالكة السواد، لم يكن هناك أي مصدر للضوء سوى النجوم والقمر، وأنا سأغطس في جدول النهر! كان ذلك كل ما احتجت سماعه كي أتذكر بأن الخالة تيتي عمدتني في الكنيسة عندما كان عمري ستة أعوام. حلت عليّ رحمة الرب واطمأنت جدتي.

إضافة إلى معرفة ديب وجان، التقيت أيضًا بإخواني غير الأشقاء: جونير وديل وماري الذين كانوا يعيشون في شريفبورت. التقيت أيضًا بأعمامي وعماتي وأبنائهم، كانت إحدى بنات عمي جميلة لدرجة جعلتني أندم أننا كنا أقرباء. أينما كنا نذهب كان الجميع معنا كريمًا ومضيافًا، عاملوني كما لو كنت شخصًا مشهورًا. كانت عاداتهم الاجتماعية لا تشبه عاداتنا وكان إيقاع الحياة مختلفًا عن ميلواكي، لكننا كلما قضينا وقتا أكثر وتحدثنا أكثر، ومع تناقل قصص العائلة والنكات، شعرت أن الاختلاف ما بيننا قد بدأ يتلاشى شيئًا فشيئًا. بقدر ما كنت أرى نفسي أنني أنتمي لعائلة غاردنر من جميع النواحي، إلا أنني أصبحت أعرف الآن أنني حصلت على بعض الجوانب من ملامحي وشخصيتي من جينات عائلتي من جهة ترنر.

حدثت أكثر لحظة لا تنسى في رحلتي في نهاية ليلة، عندما قررت أن آخذ كريستوفر معي ونستقل القطار إلى شريفبورت لألتقي بأختي ماري، وذهب أبي معنا إلى المحطة. لم يكن الوقت قد تأخر بعد، لكنها كانت ليلة من ليالي المدينة الحالكة، لا شيء لينور محيطنا سوى تلألؤ النجوم

الفضية، وضوء القمر ونحن ننتظر في الخارج قرب سكك الحديد خلف المحطة. بعيدًا على الجانب، كان هناك مجموعة من السكك المتوجهة في مسار آخر بدت في ناظر كريستوفر أمرًا مثيرًا للاهتمام. وصلنا باكرًا إلى المحطة، لذا لم أر أي شيء يستدعي القلق في أن يذهب ابني ليرى عن قرب قضبان سكك الحديد مع جده، لاسيما أن الاثنين قد توطدت علاقتهما جيدًا منذ البداية.

جعلني منظرهما وهما يمشيان معًا على سكة الحديد ألتقط أنفاسي. فها هنا أبي، حيث كان في ذلك الوقت رجلًا في منتصف الخمسينيات، ضخمًا كشجرة بلوط سوداء، وأبا لذرية أكثر مما يمكن لأي أحد منا أن يكون على علم بوجودهم، يمشي مع ابني الثرثار المفعم بالنشاط الذي يبلغ أربعة عشر شهرًا. أمسك أبي أصابع يد كريستوفر الصغيرة بحرص وفخر.

كانت واحدة من تلك الذكريات التي تلتقطها وتعلق في ذاكرتك وتبقى ثابتة مهما مرت السنين، خلق منظرهما وهما يمشيان في تلك الليلة، ردة فعل مفاجئة في داخلي، وظل شعوري بها ذاته في كل مرة كنت أستعيد ذكراها. كان أول شيء أومض في ذاكرتي وفي قلبي هو: كيف يمكن ألّا يكون ذلك قد حدث معي؟ لماذا لم أحصل على فرصة فعل ذلك مع أبي؟

مع مرور الوقت، أدركت بأن شعوري لم يكن غضبًا بالطبع، لكنني كنت غيورًا من ابني الصغير، رغم سخافة الموضوع. تحت تلك الطبقة من جلدي، وصميم تكويني، كان ألمًا بسيطًا، لكن الخزان الذي ضم كل سنين الحرمان تلك كان قد تفجر عندما رأيت ذلك المنظر وأصبح حجم الألم في داخلي لا يوصف.

عندما أصبحت في المطار برفقة الاجتماع الطارئ لأفراد عائلتي التي جاءت كي تودعنا، ومع كل الوعود التي قطعتها لأخواتي بأني سأظل على

تواصل فيما بيننا، نظرت إلى كريستوفر وتأملت كيف أن ما تحدثنا بشأنه عن الآباء والأمهات قد أوصلني إلى هنا. وبذلك استطعت أن أعود حاملًا معي شعورًا بالاكتمال. رغم أنني لم أكن قد أدركته بعد، إلا أن الضغينة التي رافقتني طوال الثمانية والعشرين عامًا كان حملها قد انزاح عن ظهري. وبعد عناء طويل، تمكنت من التخلص من كآبة الحرمان من الأب. لقد أصبح لدي أب، رغم أنه كان أبًا لم ولن أعرفه جيدًا، لكنني لم أعد طفلًا بلا أب، ولم تعد تلك أنشودتي التي سأرددها بعد اليوم.

عدنا أنا وكريستوفر إلى كاليفورنيا، رحلة بدت وكأنها قد استغرقت نصف الوقت الذي استغرقته للوصول إلى لويزيانا. لم يكن هنالك أي نكران بأن الدائرة قد أغلقت. كانت الدائرة متكسرة نوعًا ما، ولم تكن مثالية، لكن الفجوات كانت قد امتلأت فيما يتعلق بفهمي في معرفة من أنا ومن أين أتيت. وعلى الرغم من أن بعض الأسئلة ظلت معلقة حول ما كان سيحدث لو أن الأمور قد جرت بطريقة مختلفة في فترة نشأتي، إلا أن تفكيري لم يعد منحسرًا حول ذلك الجزء من الماضي. نعم، كنت ما زلت متألمًا جدًا عندما كنت على متن الطائرة، وأنا أفكر بأبي وابني وهما يمشيان على سكة الحديد، يدًا بيد، بينما كنت أقلب ذلك السؤال في ذهني مثل مكعب روبيك[180]: كيف يمكن ألا يكون ذلك قد حدث معي؟

180 مكعب روبيك: Rubik's cube مكعب روبيك هو لغز ميكانيكي ثلاثي الأبعاد اخترعه في عام 1974 النحات وأستاذ العمارة المجري إرنو روبيك، وسُمي المكعب في الأصل بالمكعب السحري ماجيك كيوب. في مكعب روبيك الكلاسيكي، يُغطى كل وجه من وجوه المكعب الستة بتسعة ملصقات، وكل وجه يُلصق بملصق واحد من بين الألوان الستة الصلبة: الأحمر، والأبيض والأزرق والبرتقالي والأخضر والأصفر، وتمكن آلية محورية بتدوير كل واجهة بشكل مستقل، وبالتالي يمكن خلط ترتيب الألوان، ولحل اللغز يجب أن يكون كل وجه بلون واحد، وقد أنتجت ألغاز مماثلة مع أعداد مختلفة من الملصقات، وليس كلها من صنع روبيك، وقد احتفلت النسخة الأصلية (3×3×3) بعيدها الأربعين في العام 2014م.

لكن في الوقت الذي حطت فيه الطائرة، بدأ الألم يتلاشى، وشعرت بالتجدد والارتياح في داخلي، وكنت على استعداد لأن أغزو العالم، وأنا كلي ثقة بنفسي وبدت الأمور واضحة وضوحًا لم أعهده من قبل. شعور داخلي أخبرني أن القادم سيكون أحسن.

الفصل التاسع

رأسًا على عقب

(مقدمة لأحداث لاحقة)

كان بوب رسل -الرجل الذي شغل المنصب الوظيفي الأعلى لدى شركة فان ويترز أند روجرز- يتبختر في المكان وكأنه الطاووس المعظم الموجود في شعار محطة أن. بي. سي. هيئة الإذاعة الوطنية الأمريكية.

لم أستطع أن أفهم الجلبة التي كانت تدور حوله والتي جعلته يصبح منتجًا رائعًا هكذا، لكن كان عليّ أن أكتشف سره عندما عرفت أنه كان يحصل على جميع الأعمال، وليس هذا فحسب، بل إنه كان يجني ثمانين ألف دولار في السنة، مقارنة بمرتب أول تعييني، والذي كان يبلغ ثلاثين ألف دولار.

كنت مخطئًا في تفكيري عندما ظننت أن رحلتي للقاء أبي ستعطينا أنا وجاكي الفرصة التي نحتاجها لنقدر بعضنا البعض أكثر، وستساعد في وضع كل شيء في منظوره الصحيح، فقد عاد الضغط ليمارس عمله من

حيث انتهى؛ الأساليب نفسها والجدالات نفسها. لطالما كان إحباطها تجاه نفسها، وتجاهي، وتجاه أحلامها التي لم تتحقق يشعرني بالحاجة لكسب نقود أكثر. لذا عندما علمت بما كان بوب رسل يربحه، أصبحت الثمانون ألف دولار الرقم السحري بالنسبة لي. فكرت: إن استطعت يومًا الوصول لذلك الرقم، فلن أتمنى شيئًا آخر أبدًا. في ذلك الوقت لم أستطع حتى أن أحلم أي حلم أكبر. لكن إن استطاع بوب رسل تحقيق ذلك الرقم فأنا أيضًا سأستطيع.

كان الأمر واضحًا، من أن ثقتي بنفسي لم تنل إعجاب مدير المبيعات باترك الذي كان من الواضح أيضًا أنه لم يكن له أي دخل في تقرير مصير تعييني. لربما طولي الفارع ولون بشرتي لم يساعدا أيضًا في ترجيح كفة التعيين لصالحي خاصة أن باترك كان أطول قليلًا من القزم.

كان باترك الأمريكي من أصل أيرلندي، شخصًا دقيقًا صعب الإرضاء، وكان «رجل القلم" كما أطلقت عليه. كان ينهي كل جملة يلفظها بنقرة على قلمه، مشددًا على كل نقطة يطرحها بنقرات إضافية، وكان عدد النقرات لا يعد ولا يحصى بما أنه كان يعرف كل شيء والأشخاص الجدد مثلي لا يعرفون أي شيء.

ما تعلمته لم يتعلق كثيرًا بفكرة «كيف أصبح مندوب مبيعات أفضل.» بقدر تعلقه بأن لا أرضخ لأحد. لذا عندما بدأ السيد قلم يلمح بأنه لم يكن معجبًا بي، وجدت طريقة لأعلمه بها: «أنا أيضًا لست معجبًا بك.» إن كان قد تلطف بالتعبير ساخرًا، فإنني وبدلًا من أن أصرخ في وجهه، كانت ردة فعلي هي انحناءة فقط، لأذكره بطريقة غير مباشرة أنني طويل وهو قصير، ولأخبره بأدب مزيف: «أنا آسف، ما الذي قلته؟»

احمر وجه باترك بشكل لم يستطع إخفاءه. بالطبع، عندما أغضبني

كثيرًا تصرفت بوقاحة أكثر، ووضعت يدي خلف أذني وكأنني لم أسمع ما قاله، وانحنيت ثم قلت له: «ماذا قلت؟ لا أستطيع سماعك من هنا وأنت هناك في الأسفل.»

كان جوابه الوحيد في مثل تلك المواقف هو استمراره بالنقر بقلمه. أفضت عدائيتي تجاهه بطريقة ما إلى إقناعه أن يعلمني أمرًا أو أمرين بشأن خط مبيعات فان واترز أند روجيرز. على سبيل المثال: أثناء مكالمتي مع مشترٍ ما، وبعد أن كنت قد بدأت بتسجيل طلبه، كان يقاطعني ليذكرني أنه من المهم التأكيد على أنه بالرغم من امتلاك المنافسين للمنتج نفسه، إلا أن شركة فان واترز أند روجرز تمتلك منتجات أكثر تميزًا وبأقل كلفة. وفي مرة استوقفني وسألني: «غاردنر، أين العينات؟ كان عليك أن تجلب العينات قبل أن تكتب الطلب.»

في مثل تلك المواقف لم أستطع أن أنفجر في وجهه وأسأله لماذا لم ينتظر ليخبرني فيما بعد وأصر على إذلالي أمام المشتري، على قدر غضبي الشديد من الموقف إلا أني تعلمت تلقائيًا أن من أهم الأمور هو أن أفرق ما بين المنتج الذي كنت أبيعه والمنافسة بوصفها أكثر تميزًا وبأُقل كلفة. وتعلمت أيضًا أن هناك مراحل تمر بها عملية البيع، وكان هناك أيضًا العديد من القواعد الغامضة التي لن تجدها في كتيب معين، وإنما في فطرة العمل السليمة. بعض المهارات يمكن تعلمها وتطويرها لكنني سرعان ما اكتشفت حقيقة الأمر؛ أن أفضل مندوبي المبيعات يولدون ومعهم تلك المهارة. وليس بمقدور الجميع اكتسابها، وليس بمقدور الجميع العمل في هذا المجال. هل كان لدي المهارة المطلوبة؟ لم أكن أعرف بعد. لكن تبًا لذلك الرقم، ثمانون ألف دولار؟ ما الذي امتلكه بوب رسل وأحتاج أن أمتلكه أنا أيضًا؟

أيًا كان العائق، فإنني رفضت أن تحبط عزيمتي، حتى لو تطلب

الأمر أن أقود أميالًا تفوق الحدود من بيركلي إلى كل محطة توقف في وادي السليكون، ومن سان ماتيو إلى سان جوز، ولاسيما الطريق المؤدي من مطار سان فرانسيسكو. لكن أهم مكالمة أجريتها في حياتي على الإطلاق كانت في داخل المدينة في مستشفى سان فرانسيسكو العام، حيث ذهبت لأوصل العينات والكاتالوج إلى لارس نيلسون الذي كان يدير مختبرًا كان ينبغي لنا أن نقوم ببعض الأعمال معه. بالرغم من أن المكالمة جرت على أتم وجه، وتوقعت أن أعود من أجل الطلبية، إلا أنني عندما خرجت من البناية، كانت العملية الحسابية التي أجريتها في ذهني تخبرني بأن الطريق ما زال طويلًا أمامي لكي أتنافس مع بوب رسل، لكن لم يكن أمامي أي خيارات.

في تلك اللحظة، بعد أن حجبت للحظة ومضة من وهج الشمس الرؤية عني، رأيت سيارة الفيراري تسير في موقف السيارات. كان مالك السيارة -الذي كان يرتدي تلك البدلة المثالية، والمستفيد من مكاني في الموقف، والذي أجاب سؤاليَّ: "ماذا تعمل؟" و"ما هي الطريقة؟"- رجلًا محترمًا يدعى بوب برجيز، سمسار بورصة يعمل مع شركة دونالدسون وشركة لوفكين وجينيرت، ويجني ثمانين ألف دولار في «الشهر»!

توقفت برهة لأفكر. ليس عليّ أن أكون نابغًا في الرياضيات لأقارن ذلك الرقم بالثمانين ألف دولار التي كان بوب رسل يكسبها في «السنة.» فليذهب بوب رسل إلى الجحيم!

في هذه المرحلة من حياتي بت أعرف عن وول ستريت، والأسهم، والسندات، وسوق رأس المال، والتمويل العالي بقدر ما يعرفه أغلب الناس عن حفظ الفوسفات عالية الطاقة في عضلة القلب. لكني وقبل جلوسي لتناول الغداء مع بوب بريجيت، كي أتعلم أكثر عن عمل سمسار البورصة بالضبط والطريقة الصحيحة للقيام بهذا العمل، أصبحت بالفعل أرى

نفسي في ذلك المجال. كيف يمكن لهذا العمل أن يختلف عن أي عمل آخر قمت به في السابق؟ مرورًا بعملي في دار رعاية هيرت سايد ومستشفى القوات البحرية في معسكر لوجين في عيادة الجراحة العامة وأمراض المستقيم، وإدارتي لمختبر في مستشفى المحاربين القدامى ومركز جامعة كاليفورنيا الطبي، لغاية تحولي إلى ذلك الشخص الواعد الذي يعمل في المبيعات في وادي السليكون، أكون قد عملت في وظائف دون أن أعرف أي شيء عنها لكنني نجحت وأجدت جميع تلك المجالات. ولم أكن متميزًا فحسب بل كنت فوق الممتاز. رغم أن نجاحي لم يكن ساحقًا فيما يتعلق بالمال، إلا أنني تجاوزت الحد المتوقع فيما يخص المهارة والتطور.

كل ذلك كان كافيًا بالنسبة لي كي أفكر أن بإمكاني فعل نفس الشيء كسمسار بورصة. ورغم حقيقة أنها كانت المرة الأولى التي أفكر فيها بأهمية هذا الشأن، لكنني منذ هذه اللحظة فصاعدًا لم يكن لدي أدنى شك في أنني قد وجدت ضالتي وفي أنني سأسعى وراء مهنة في ذلك المجال سعيًا مثيرًا ومثابرًا. لأسباب لا يمكنني شرحها كنت متيقنًا في قرارة نفسي أن هذا هو ما كانت تعنيه الندوة التي حضرتها مع بيل.

قد يبدو ذلك اليقين لأي رجل أو امرأة عاديين في الشارع خيطًا من الجنون. إضافة إلى أنني لم أذهب إلى الجامعة، فأنا لا أعرف أي أحد وليس لدي أي علاقات أو امتيازات خاصة لتساعدني كي أضع قدمي على أول الطريق في هذا المجال. لا أعرف أحدًا سوى بوب برجيز الذي لا أعلم عنه أي شيء سوى حقيقة أنني أعطيته مكاني في موقف السيارات.

إضافة إلى ذلك، عندما ذهبنا لتناول الغداء وسألته: «ماذا يفعل سمسار البورصة؟» وصف لي بكل صبر وكرم كيف يمر يومه العادي.

قال بوب إنه ببساطة، يذهب كل يوم إلى مكتبه الصغير الجميل

ويجلس هناك، يتلقى عدة اتصالات هاتفية، ويدون شيئًا ما على الورقة.

"دعني أفهم ما قلته جيدًا." أعدت وراءه: «تتلقى اتصالًا ومن ثم تدون شيئًا ما على الورقة وهذا كل ما في الأمر؟»

تابع بوب قائلًا: «حسنًا، نعم، وأتصل بالناس أيضًا وأتحدث معهم. أخبرهم قصصًا حول الشركات، ويقومون بإرسال نقود لي.»

أومض ضوء آخر في ذهني. هذا الرجل -الذي يرتدي بدلة أخرى جميلة فصلت خصيصًا له، بكلفة تصل لبضعة آلاف من الدولارات بمنتهى البساطة- يبيع، مثلما أنا أفعل بالضبط. لكنه بدلًا من أن يقود سيارته في الطرقات السريعة هنا وهناك لكي يجد أماكن مبهمة ومختبرات، ويحمل معه مخزونًا صغيرًا في صندوق سيارته، كان يذهب إلى مكتب واحد، ويجلس هناك، ويتحدث على الهاتف. أردت قول: «تبًا لذلك الحذق!» لكنني استمعت له بانتباه وهو ينقل لي سر نجاحه.

كان بوب مصدر تحفيز ذاتي، قال لي وهو يحدثني عن أهدافه: «عندما أجلس كل يوم هناك وأتحدث على الهاتف أقول لنفسي: لن أترك المكتب حتى أجني أربعة أو خمسة آلاف من الدولارات.»

كانت الأرقام خيالية مجددًا. يجلس هناك ويتحدث إلى أشخاص لغاية حصوله على أربعة أو خمسة آلاف في ذلك اليوم. وأنا أقتل نفسي لأجني أربعة أو خمسة آلاف دولار في الشهر! لكي أتأكد من أنني لم أسئ فهمه سألته: «بوب، دعني أرى إن كنت قد فهمتك جيدًا: تبدأ في التحدث مع أشخاص، البعض منهم لا تعرفه وبعضهم الآخر عليك أن تتعرف عليه، وتقوم بإخبارهم قصصًا حول تلك الشركات وأفكار الاستثمار والفرص، فيرسلون النقود لك؟»

"هذا ما أفعله." أجابني بصدق تام.

فقلت له بصدق تام: "أستطيع فعل ذلك."، ولكي أشدد على كلامي أضفت قائلًا: «حتمًا أستطيع فعل ذلك. أتعلم شيئًا؟ أنا أريد أن أفعل ذلك!»

ضحك بوب -سواء آمن بأنني أستطيع فعلها أو لا- وعرض عليّ أن يعرفني على بعض من مدراء الفروع في شركات البورصة المختلفة في المدينة. أخبرني أن حقيقة عدم ذهابي إلى الكلية قد تشكل عائقًا لكنه قال أيضًا بأن هنالك برامج تدريبية في تلك الشركات المتنوعة، أستطيع من خلالها أن أكون مؤهلًا، دون الحاجة لامتلاكي شهادة جامعية، وأن أتلقى تدريبًا في كل جانب من جوانب العمل -من أساسيات الاستثمار إلى التخطيط المالي ونطاق الاقتصاد الكلي والموارد المالية- ريثما أدرس من أجل امتحان ترخيص السماسرة. لكن لكي يتم تعييني بدوام كامل -كي أعمل ما يعمله هو- يجب عليّ أولًا أن أحصل على ترخيص.

ظننت أن الأمر سيكون بمنتهى السهولة. أصبح كريس غاردنر سمسار بورصة. هذا هو المكان الذي يفترض أن أكون فيه. عرفت منذ ذلك الغداء فصاعدًا أن الأمر يستحق العناء، على الرغم من كابوس التنظيم والتخطيط الذي عشته بعد ذلك.

أصبحت الجغرافيا العائق الأساسي الأول بالنسبة لي. عندما قام بوب بترتيب المقابلات من أجلي، كانت معظمها منتشرة في مختلف أنحاء حي المال في وسط مدينة سان فرانسيسكو، وكانت جميعها ضمن أوقات ذروة العمل التي تبدأ من التاسعة صباحًا ولغاية الخامسة عصرًا. لم يكن لدي وقت للفطور ولا حتى لتبادل الأحاديث. حيث إن معظم طلبات المبيعات التي كنت أقوم بها لصالح شركة فان واترز أند روجرز في الوادي، كانت ضمن أوقات العمل التي تبدأ من التاسعة ولغاية الخامسة أيضًا،

فهذا يعني أنني إما سأصل متأخرًا أو ستفوتني المقابلات التي رتبها لي رئيس عملي السيد الذي يستخدم القلم ببراعة.

جرت معظم مقابلاتي في الشركات الكبرى التي تحتوي على برامج تدريب، مثل ميرل لينتش وبين ويبر وإي. أف. هيوتن، ودين وتر، وسميث بارني، وهي شركات كان لبوب صلة بمدراء فروعها. إن كان هناك أي احتمالية أن تنهزم عزيمتي على يد العراقيل التي كان عليّ مواجهتها، فإن وجودها انتفى في اللحظة التي وطأت فيها قدمي أول شركة سمسرة زرتها. لقد انقلبت حياتي رأسًا على عقب بحق! زيارة واحدة فقط كانت كفيلة بأن توقعني في شباك السمسرة، وكأن هناك شيئًا ما في جو المكان أشعرني بالقوة والنشاط على الفور.

كنت جالسًا هناك أنتظر موعد مقابلتي، وإذ بي أشعر بالأدرينالين وهو يجري في عروقي، كما لو أنني كنت أشعر بانتشاء نفسي[181] فقط من خلال مشاهدتي لجميع الأنشطة التي كانت تحدث في الوقت ذاته: الهواتف ترن، وشريط أسعار البورصة يشتغل، والسماسرة يصرخون على الطلبات، والتحويلات ويختمون بآلات تاريخ الطابع الزمني. كانت جميعها تحدث في آن واحد وكأنك تزور بلدًا غريبًا ومن ثم تعود إلى وطنك.

كان التأثير بالضبط كالذي شعرت به أول مرة عندما سمعت فيها مايلز ديفيس ورأيت كيف يمكن لموسيقاه أن تغير المزاج بأكمله لأي شخص يسمعها. كان لقسم المتاجرة وقع مشابه. كان مركزًا عصبيًا مرتبطًا بأفعال وأحداث ملايين من الأشخاص الآخرين عبر العالم. يا لها من فورة نشاط! بعض الفورات أتت وانتهت، لكن هذه الفورة لم تتبدد أبدًا. كانت تستديم بقوة.

181) انتشاء نفسي Contact High: انتشاء لا يحدث عن طريق المخدرات لكنها حالة ذهنية يشعر فيها الشخص بإحساس شديد بالإثارة والانتشاء نتيجة لتواجده بقرب شخص تحت تأثير المخدرات. تتضمن هذه الحالة نقلًا افتراضي لحالة الثمالة فسيولوجيا.

لم أنزعج من انتظار موعدي في ذلك اليوم، لأنني كلما استوعبت ما كان يحدث أكثر، كلما زاد تأكدي من أنني أستطيع أن أفعلها. لم يكن هناك أي أشخاص سود غيري في المكتب، أو على الأقل لم أستطع أن أرى أيًا منهم. لكن هذا الأمر لم يهز ثقتي بنفسي، خاصة مع وجود فرصة لكسب ثمانين ألف دولار في الشهر!

لربما كنت ساذجًا بتفكيري أن ذلك الرقم هو تسعيرة أغلب السماسرة. وبرغم ذلك، فقد كان سببًا من الأسباب التي أشعلت فتيلة هذا العمل في داخلي. كانت أمي قد أخبرتني أنني أستطيع كسب مليون دولار إن كانت لدي الإرادة الكافية لفعل ذلك. ثمانون ألفًا في الشهر ضرب اثني عشر شهرًا، وبدل ساعات عمل إضافية ومكافآت، تصورت أنها مجرد مسألة وقت وسأكسب ذلك المليون دولار في السنة! إن استطاع بوب برجيت فعلها فأنا أستطيع أيضًا.

أما الآن وقد عرفت كيفية سير الأمور لأفعل ما أنا مؤمن بأنني أستطيع فعله، لم يتبق أمامي سوى أن أتعرف على شخص واحد ليكفلني في إحدى الشركات التي تحتوي على برنامج تدريبي للمبتدئين. لم يكن ذلك بالأمر السهل. أجريت مقابلات عدة، والأجوبة تنوعت، لكن جميعها أفضت إلى الرفض. ومع كل رفض كانت تنتظرني هدية وداع. كنت دائمًا ما أجد مخالفة الوقوف الصفراء موضوعة خلف مساحة الزجاجة الأمامية عندما كنت أخرج مسرعًا إلى سيارتي. كان ذلك يعني أن عليّ أن أدفع مبلغًا آخر لم أكن أملكه، تراوح ما بين خمسة عشر إلى خمسة وعشرين دولارًا، وتذكيرًا آخر بأنني سيتوجب عليّ أن أستقطع من وقت العمل كي أذهب إلى المحكمة، لألتمس النظر في قضيتي لتخفيف مبلغ المخالفات أو إسقاطها. برغم كل هذا لم يكن الاستسلام ضمن خططي.

لم تكن العنصرية المسألة الأساسية التي واجهتني، رغم أنها كانت جزءًا منها. فلقد فهمت أخيرًا أن رفضهم الدائم لي كان بسبب «عنصرية المكان.»[182] المسألة كلها تمحورت حول العلاقات والتوظيف. ما هي علاقتي بعالم الأعمال؟ ما هي علاقتي بأقراني؟ بما أنني لم ألتحق بأي كلية أبدًا؟ أظهرت سيرتي الذاتية خبرة عالية لكن الاعتراضات تكاثرت حول ما لم يكن موجودًا فيها. أنت لا تنتمي لعائلة لها باع في السياسة. أنت لا تملك مالًا خاصًا بك. من الذي سيدخل في مشروع معك؟ ما هي علاقتك بالنقود؟

عنصرية المكان جعلت الأمر يبدو منطقيًا، لكنني استمررت في إخبار نفسي: «أنا أعرف أنني أستطيع فعلها.»

في مكتب شركة دين وتر في سان فرانسيسكو، كان هناك سمسار بورصة يدعى مارتي وهو من كنت ألجأ إليه بين الحين والآخر لينصحني، حتى وإن لم يكن لدي موعد لمقابلته. عندما حولني إلى مكتب أوكلاند التابع لشركة دين وتر، ظننت أن لون بشرتي هو السبب، حتى بعد أن ذهبت إلى ذلك المكتب، الكائن في منطقةٍ أغلبُ ساكنيها سود، لم أر أي موظفين ملونين في المكان. لم أعر انتباهًا لذلك فكل ما كان يهمني في تلك المرحلة هو الدخول ضمن برنامجهم التدريبي. مضت بضعة أشهر دون أن يبدي أي أحد منهم رغبة بي، وبدأت الشكوك تساورني من أنني قد غامرت بالوظيفة التي كانت لدي، مع وجود رجل القلم الذي كان يحمي ظهري. كان الواقع يقول بأن الوضع بدأ يصبح أكثر صعوبة شيئًا فشيئًا، ومع تفكيري المستمر بهذا الشأن مشيت نحو مكتب مدير فرع أوكلاند وتحضرت لأنهاء الأمر، لا لأرمي نفسي عليهم ولكن لأسألهم: «متى سأبدأ العمل؟»

تحت عنوان «أسوأ مقابلة أجريتها في حياتي على الإطلاق.» جلست

---

182) عنصرية المكان Place-ism: أن يتم معاملة الشخص بعنصرية بناء على المكان الذي يعيشون فيه.

هناك في مكتب هذا الرجل المطل على بحيرة ميريت، وبينما كنت أتحدث، حدق النظر إلى أعلى كتفي، وقاطعني قائلًا: «آه، يا له من أمر شيق، لقد قفز حصان في بحيرة ميريت.»

أردت أن أقول له: «اللعنة على ذلك الحصان.» فبعد كل شيء لم تكن بحيرة ميريت بذلك العمق، لذا لم يكن الحصان في خطر. لكن الأمر كان واضحًا جدًا أنه لم يبد أي قدر من الاهتمام بما كنت أقوله. حاولت أن أكون مِهَنيًا قدر الإمكان، وقفت وقلت له: "من الواضح أنني قد أتيت في وقت غير مناسب، لذا ما رأيك في أن نحدد موعدًا آخر لإجراء هذه المقابلة؟»

وافق على اقتراحي، وأذنت لنفسي بالخروج، فقط لكي أعدو كالحصان نحو سيارتي، لأزيح مخالفات الوقوف عن الماسحات، وأتجه نحو الوادي حيث كان من المفترض أن أصطحب باتريك لكي نذهب ونسأل عن أحد الحسابات. كنت على عجلة من أمري لذا نسيت أن أخفي كومة التقارير السنوية التي كنت أكدسها من شركات السمسرة -دين وتر وبين ويبر وإي. أف. هيوتن- التي كانت تجلس على الكرسي الأمامي في سيارتي.

لاحظت وجود تلك الكومة في ذلك الجزء من الثانية الذي أوشك فيه باترك على الصعود في سيارتي. بذعر خفي مددت يدي لأمسك الأوراق في نفس اللحظة التي سألني فيها بصرامة: «غاردنر؟»

بدأت كلامي بقول: "نعم..."، وكنت واثقًا من أنني أخفقت.

حدق باترك بي والشك يساوره، ثم سألني: «هل ستقوم بفتح حساب عمولة سمسرة؟»

"آه، نعم..." أجبته، محاولًا أن أبدو طبيعيًا، وشعرت بالراحة. «نعم، أنا أفكر بفتح حساب."

لكن حينها، ولكي يريني فقط بأنه لم يصدق ما قلته، رمقني بنظرة

استهزاء ونقر على قلمه. في الأيام اللاحقة، بدأ باترك يتفحص أمري عن كثب. على الرغم من أنه لم يكن يعلم تمامًا أنني كنت أجري مقابلات مع شركات أخرى، إلا أنه كان من الواضح أنه بدأ يشك بوجود أمر ما، خاصة عندما لاحظ أنني كنت أقوم بإلغاء بعض المواعيد وأصل متأخرًا في مواعيد أخرى.

بدأت الأمور تصبح أكثر صعوبة مع تلميحات جاكي المستمرة بأنني كنت أخدع نفسي حينما أفكر أنني سأنجح في وول ستريت. كانت وجهة نظرها سديدة بما فيه الكفاية: «حسنًا، ألا تظن أن أغلب الأشخاص في تلك المهنة يمتلكون شهادات عليا في إدارة الأعمال؟»

مهما شرحت لها عن برامج التدريب وبأن الشهادة العليا ليست مطلوبةً دائمًا، لم يكن لديها أي دليل بأن ما قلته كان صحيحًا. فصديقها الذي كان يعمل في هذه الشركة كانت لديه شهادة عليا، وزوج صديقتها الذي كان يعمل في تلك الشركة كانت لديه شهادة عليا أيضًا. ثم أضافت: «كريس، أنت لا تمتلك شهادة بكالوريوس أيضًا. أليس عليك أولًا أن تكون لديك شهادة من أي نوع لتؤهلك للعمل في هذا المجال؟»

لقد كان جدل الشهادات نفسه يتكرر من جديد: «أنت لا تمتلك شهادات.» هذا ما كنت أسمعه دائمًا من المرأة التي كنت أعيش معها، وأم ابني.

سترين ماذا سأفعل، استمررت أعدها. سأقوم بهذا العمل. لقد رأيته، وذقت طعمه، وشممت رائحته. وعلى الرغم من اشتداد الضائقة المالية التي كنا نعيشها أكثر من ذي قبل، وانتظار ذلك القزم الأيرلندي فرصة لينال مني، ومع قلق جاكي، عرفت أن الوضع لن يبقى على ما هو عليه.

وعندما ظننت أن جميع الفرص نفدت مني، كانت تنتظرني مقابلة

متابعة في شركة إي. أف. هيوتن: توجت سلسلة المحادثات بأن مدير الفرع لم يرفضني. قال لي: «حسنًا، سأعطيك فرصة.» مشى معي إلى باب المكتب، صافح يدي، وأخبرني أنه سيراني بعد أسبوعين، في الساعة السابعة صباحًا، كي أبدأ برنامجي التدريبي معهم.

عندما خرجت من مكتبه كان من الممكن أن أرقص رقصًا نقريًا(183) على طريقة جين كيلي(184) تحت مطر منتصف صيف سان فرانسيسكو. شعرت كما لو أنني كنت أطير فعلًا، قبلت مخالفات الموقف المتروكة على سيارتي وسميتها مخالفات الحظ، ووعدت نفسي بأخذ يوم إجازة للذهاب إلى المحكمة والاهتمام بموضوع المخالفات جميعها. وأخيرًا ثبتت صلاحية عدم جنوني! وأنني لم أكن مجنونًا! بدأ حسابي البنكي يرن بقدوم عمولات السمسرة.

على الرغم من أنني نويت تصفية بعض المسائل المعلقة بمبيعات لشركة فان واترز أند روجرز خلال الأسبوعين القادمين، كانت هناك شائبة طفيفة ظهرت بعد مرور بضعة أيام عندما أعلن باترك: «غاردنر، نحن لا نظن أن الأمر سينفع. أنت لم تحرز أي تقدم في عملك. نحن نحاول أن نطور مكاننا، وأنت لا تمتلك الصفات المطلوبة.»

ارتحت لكلامه، أعترف أن ما قاله كان أمرًا أشاطره الرأي فيه، فقد

183) الرقص النقري Tap-Dancing: هو نوع من أنواع الرقص الذي يؤدى باستخدام الأصوات الناتجة من ضرب الحذاء النقري للأرض لتصدر نوعًا من الإيقاع. يوجد نوعان مختلفان من الرقص النقري هما: النقر الإيقاعي (الجاز) ونقر برودواي. نقر برودواي يركز على الرقصة نفسها، فهو يؤدى بكثرة على المسرح الموسيقي. أما النقر الإيقاعي فيركز على الموهبة الموسيقية، ويعتبر ممارسو هذا النوع أنفسهم جزءًا من تراث الجاز.

184) جين كيلي Gene Kelly: ولد في 23 آب 1912 وتوفي في 2 شباط 1996 كان راقصًا وممثلاً ومغنيًا ومخرجًا سينمائيًا ومنتجًا ومصممًا للرقصات. كما عرف بأسلوب رقص ذي طابع رياضي مليء بالحيوية، بالإضافة إلى مظهره الحسن والشخصيات المحبوبة التي تقمص دورها على الشاشة.

كانت أمامي فرص أخرى أردت السعي وراءها. قلت له: «أنت ترتكب خطأ كبيرًا" في اللحظة التي قلت فيها عبارتي وقبل أن أنهي الموضوع بدبلوماسية، قاطعني باترك بنقرة قلمه وتحضر ليستعجلني بالخروج من مكتبه. سألته، للتوضيح فقط، ما إن كان ذلك يعني إشعارًا لمدة أسبوعين، لكنه أوضح لي بأن العقد فيما بيننا سينتهي في الحال، وبأنهم سيرسلون لي صكًا بمستحقاتي عبر الإيميل.

هذا أمر رائع، يا لها من فكرة مثالية: أعود إلى المنزل، وأنتظر أسبوعين، وأعيش فترة نقاهة البطالة لأسبوعين، وأقضي بعض الوقت مع عائلتي، ومن ثم أتوجه إلى وول ستريت، حيث هناك سأجني نقودًا أكثر مما يجنيه بوب رسل، وباتريك أيضًا.

ما ظننت أنه صرف صك إنهاء العمل، تبين فيما بعد أنه مبلغ مستقطع للوقت الذي سبق وأن عملت فيه، علمت ذلك لأني: "استقلت." ولم يكن هناك أي نقود مقابل الأسبوعين اللذين كان بإمكاني أن أعمل بهما ولم يكن هناك أي تعويضات أيضًا. لقد كان ذلك بمثابة عائق، لكن بما أنني خططت لغزو عالم سوق البورصة قريبًا، لم أهتم للأمر.

بعد تجربة يمكن لها أن تصنف تحت عنوان «حتى أفضل الخطط الموضوعة يمكن لها أن تنتهي بالفشل.» وبعد أن استمتعت بأسبوعَي الإجازة -التي لم أكترث خلالها للاهتمام بمخالفات السيارة- ولكي أترك انطباعًا جيدًا أتيت قبل موعدي بثلاثين دقيقة في يوم الإثنين وبدا ألّا أحد هناك كان يعرف من أكون.

تفاجأت من عدم التنظيم، وسألت عن رئيس عملي الجديد الذي كان يعمل مديرًا للفرع أيضًا، وهو نفس الشخص الذي قام بتعييني، وقال

لي: «سوف نعطيك فرصة.»

قال أحد السماسرة: "آه، لقد فصل من عمله يوم الجمعة."

لأول مرة في حياتي كشخص بالغ، أصبحت مدركًا لمدى قوة عضلتي العاصرة التي تمنعني من التبول على نفسي وأنا أقف هناك بالقرب من مكتب الاستعلامات. قد يبدو ذلك للبعض مدعاة للسخرية، ولربما مدعاة للفكاهة أيضًا، لكن ليس بالنسبة لي، فلا يوجد هناك ذرة فكاهة في داخلي فلقد شعرت بالرعب، وخرجت من البناية لأرى أنها كانت تمطر بغزارة لكنني لم أكترث حتى لاستخدام مظلتي. كيف يمكن أن يحصل ذلك؟ فالوظيفة التي تركت بسببها وظيفتي لم تعد موجودة.

لم يعد لدي أي دخل مادي، زوجتي تشتكي مني، ما العمل بحق السماء؟ لا أعرف.

كل ما أعرفه في الساعات والأيام القادمة ألّا شيء يزيد من توتر العلاقة بين الرجل وزوجته أكثر من عدم امتلاك الزوج لوظيفة؛ فالرجل دون وظيفة ليس رجلًا على الإطلاق، أو على الأقل هكذا تعلمت خلال نشأتي في العالم الذي أتيت منه، أي رجل هو رجل بالفعل حينما يرعى عائلته ويوفر لها كل احتياجاتها. حتى فريدي السكير الكهل كان لديه عمل يذهب إليه كل يوم، لذا كان من غير المقبول بالنسبة لي أن أصحو في الصباح ولا يكون لدي أي مكان لأذهب إليه. بعد أن تأكدت تمامًا من أنني كنت في طريقي لدخول عالم وول ستريت وكنت أعرف أن ما حدث يقع على مسؤوليتي، لأنني أنا من اتخذ القرار فيما فعلته. أستطيع تخيل ردة فعل جاكي كيف ستكون وكيف ستتقبل الأمر.

أستطيع أن أشير إلى ما حدث في تلك الفترة فيما بعد إلى أنه سلسلة

من الأحداث والظروف قد تكون بمجملها خير مثال لقانون مورفي.[185] إن تعقيد هذه القوانين كان السبب في بداية انهيار العلاقة مع جاكي. عندما أتيت إلى المنزل لأخبرها بما حدث، لم تقل أي شيء على الإطلاق. ماذا كان بإمكانها أن تقول؟ «آسفة يا صديقي، ابق قويًا.» لكنها لم تقل ذلك. لم يكن لدينا أي مدخرات، أو أي دخل، سوى فواتير واجبة الدفع، لم نكن مسرفين في معيشتنا، كانت مجرد فواتير عادية جدًا تضمنت: الطعام، والإيجار، ومخالفات السيارة، والحضانة، وحفاظات البامبرز.

كان أول بند في برنامج الأعمال هو تدبير بعض من النقود على الفور. لذا عدت إلى القيام ببعض الوظائف الجانبية التي كنت أفعلها في السابق لزيادة راتبي الذي كنت اتقاضاه من جمعية المحاربين القدامى. كسبت في ذلك اليوم خمسين دولارًا جراء عملي في دهان المنازل طوال اليوم من أجل صديق يعمل في مجال المقاولات. حسنًا، ذلك كان يعني أننا سنأكل في ذلك اليوم وسندفع فاتورة الغاز. في اليوم التالي دبر لي صديقي عملًا في تسقيف السطوح، وفي اليوم الذي تلاه نظفت قبوًا، وعملت في يوم آخر في تنظيف حديقة. كنت أقوم بأي عمل استطعت تدبره بأي شكل من الأشكال، حتى وإن لم أكن خبيرًا أو مسرورًا بالقيام به، لكنني كنت أعمل بإرادة.

كان ذلك، يعني في تفكيري، فشلًا ذريعًا وطريقًا عاثرًا. لكنه لم يكن

---

185) قانون مورفي Murphy's Law: هي ليست قوانين بالمعنى الدارج لدى العامة وإنما هي عباره عن مجموعة من القواعد الكوميدية الخرافية. ولد هذا القانون في قاعدة إدواردز الجوية في الولايات المتحدة عام 1949. سمّي نسبة إلى الكابتن إدوارد مورفي والذي كان يعمل مهندسًا آنذاك في مشروع قياس مدى احتمال الجسم البشري للتباطؤ المفاجئ في السرعة. جاءت بعد أن قام أحد الفنيين بغلطة في التوصيلات الكهربية فنهره مورفي قائلًا له: «لو كان هناك احتمال حدوث خطأ ما فسوف يحدث.» وسمعه المسؤول عن المشروع وسرعان ما تحولت هذه العبارة إلى قانون مورفي بين العاملين. من قوانينه الشهيرة أيضًا: إذا توفرت الإمكانية لشيء سيء أن يحدث، فسوف يحدث. وكل شيء يتعطل في الوقت نفسه.

نهاية المطاف بأي حال. كل ما كنت أفكر به وأنا أعمل في تلك الوظائف هو العودة إلى المسار الصحيح من الطريق، وإيجاد ذلك المدخل، وتلك الفرصة الواحدة التي ستجعلني أنجح.

في خضم الجدالات حول النقود ومع تزايد التوتر اليومي في المنزل، وخلال تلك الفترة من صبغ المنازل، وتنظيف النفايات وجز العشب، انبثقت في رأسي خطة. كانت الاحتمالية الوحيدة التي بقيت أمامي هي الذهاب إلى شركة دين وتر التي لم تقبلني لكنها لم ترفضني بشكل قطعي. كان التحدي هو أن أتغلب على إشكالية التوظيف: ما هي علاقتي بعالم الأعمال؟ ما هي خبرتي؟ والتحدي الأكبر هو أن أشرح سبب بطالتي الحالية، بعد أن استغني عني في وظيفتي الأخيرة في المبيعات. اعتقدت أن الأمر سيشكل فرقًا كبيرًا لو استطعت أن أجد شخصًا ما يكفلني، ربما شخص مثل جو ديوتن، وهو رجل أعمال أمريكي من أصل إفريقي يعمل في حقل التكنلوجيا الحديثة كنت قد التقيت به في حلقة دراسية عن إدارة الأعمال.

عندما اتصلت بجو لأسأله أن يسديني خدمة، كان سعيدًا بتقديم يد المساعدة لي. وبهذا، كنت قادرًا على التحضر للمقابلة في شركة دين وتر. لم أكن متأكدًا مما سأفعله إن رفضوني هذه المرة، لذا كانت المقابلة مسألة حياة أو موت بالنسبة لي.

تساءلت فيما بعد كم كانت الأمور ستختلف لو أنني قد وفقت في برنامج التدريب ذاك وأن الشخص الذي عينني لم يطرد. هل كان ذلك سيغير الأحداث المضطربة التي عشتها في منزلي؟ فعدم وجود النقود قلب كل شيء إلى أسوأ حال، إضافة إلى وجود مشاكل أخرى. فمن وجهة نظر جاكي، كان تدخيني للحشيشة، كي أخفف من وطأة الوضع، أمرًا لا يطاق، كذلك الأمر بالنسبة لصراخي في بعض الأحيان وانتقاداتي الحادة. لكن من

وجهة نظري أنا، لم يكن لدى جاكي أي ثقة بي مما جعلني أشتاط غضبًا. وحذرني حدسي من أنها كانت قادرة على استخدام كريستوفر وسيلة انتقام مني.

حدثت المواجهة بيننا في ليلة الخميس بعد سماعنا خبر موت ابن لاتريل الصغير، سيباستيان في الشارع عندما كان يلعب على دراجته ثلاثية العجلات فصدمته سيارة. لم يكن ما حدث هو سبب جدالنا وإنما سماعنا للخبر المفجع ضاعف من حالتنا العصبية عندما بدأنا بتعرية جميع شكوانا في جدال لفظي ملحمي لدرجة أننا شعرنا بالتعب فخلد كلانا إلى النوم دون التوصل إلى أي قرار. في منتصف صباح يوم الجمعة، وفي اللحظة التي نهضنا فيها من على السرير ووطئت قدمانا أرضية الغرفة، استأنفنا جدالنا من حيث ما انتهينا.

كنت أصاب بالذعر عندما كانت تتهيأ لارتداء ملابسها لكي تذهب إلى عملها، فقد كان هذا مؤشرًا بالنسبة لي -كوني لم يكن لدي أي مكان أذهب إليه- بأن ألبس كريستوفر ملابسه وأهيئه للذهاب إلى الحضانة، حيث لم يكن لدينا المال لكي ندفع لرعايته، لكن كان علينا أن نبقيه فيها كي لا نخسر مكاننا في حال وجدت عملًا. تحركت جاكي مسرعة نحو الباب الأمامي، وتبعتها أنا، مطالبًا أن أعرف: «أين ستذهبين؟ علينا أن نجد حلًا لوضعنا، لن تذهبي إلى أي مكان قبل أن نجد حلا لكل شيء!»

رفضت أن تعيرني أي انتباه، ونزلت أعتاب الدرج، فركضت وراءها وحاولت أن أمسكها من يدها كي تستدير وتنظر إلي. لكنها دفعتني، فأمسكتها من معصميها فدفعتني مرة أخرى محاولة أن تهرب مني. انزعجت كيف أنني تدنيت لهذا المستوى، لذا أفلت قبضة يدي، فقط لكي أشاهدها وهي تقع بين شجيرات الورود.

شاهدتها وهي تقف وتنظف نفسها من أغصان الورود التي علقت بها، وبدت مخدوشة قليلًا، وبينما حاولت ابتلاع كرامتي اللعينة والاعتذار لها، كانت جاكي تغلي وقالت بغضب شديد: «سوف تخرج من المنزل اللعين.»

عدت لأتشاجر معها: «كلا، لن أذهب إلى أي مكان.» غضبت أنا أيضًا وأغلقت الباب بعنف وعدت إلى المنزل لأحمم كريستوفر.

ما أعقب تلك الحادثة هي سلسلة من الأحداث التي اتخذت مسارًا لولبيًا سار سرعة فائقة كالنيزك، نتج عنها تعقيدات قانونية ظلت غامضة ليومنا هذا؛ بسبب قرار جاكي النهائي بعدم توجيه أي تهمة لي بسبب حادثة شجيرات الورود. غير أنه في بادئ الأمر كان واضحًا أن ذلك ما كانت تنوي فعله، فبعد مرور عشر دقائق من ذهابها سمعت طرقًا على الباب الأمامي، ففتحت الباب وأنا أحمل كريستوفر وهو ملفوف بمنشفة الحمام لأجد شرطيين من بيركلي يقفان على عتبة بابي. وبالخلف منهما كانت جاكي تقف على الرصيف.

سألني أحدهما: «هل أنت كريس غاردنر؟»

"نعم، أنا هو." أجبته باستهجان ولم أكن أفهم ما الذي كان يجري.

شرح لي الشرطي الآخر: «وردتنا شكوى من السيدة التي تعيش هنا مفادها أنك ضربتها.»

"ماذا تقول، كلا، لم أضربها." قلت له معارضًا بشدة.

سألني الشرطي الأول كيف احتوى جسدها إذا على كل تلك الخدوش، فأشرت أنا إلى شجيرات الورود، شارحًا له كيف أنها وقعت. لكن الشرطي الثاني قال: «كلا يا سيدي، لقد قالت بأنك ضربتها، وولاية كاليفورنيا تعد العنف المنزلي جنحة يعاقب عليها القانون.»

في اللحظة التي أوشكت فيها على الانفجار غضبًا حول حقيقة أنني

كنت ملمًا بموضوع العنف المنزلي، وأعلم بأنه جنحة يعاقب عليها القانون، وأعلم كيف تبدو المرأة وهي مضروبة، وكيف أنني كنت سأسلم نفسي إلى الشرطة قبل أن أفعل جريمة كهذه، شاهدت الشرطي الأول وهو يتوجه نحو سيارتي ليسجل رقم اللوحة.

بعد أن تيقن من أنها سيارتي، أعلن الشرطيان أنهما سيأخذانني معهما إلى مركز الشرطة.

عندما اعترضت قائلًا: «كلا، عليّ أن أهيئ طفلي لآخذه إلى الرعاية النهارية.» قالا بأنهما سيسلمان الطفل إلى أمه كي تعتني هي بالأمر. كنت في صدمة من أمري، وشعرت بالعجز وأنا أراهما يسلمان طفلي الملفوف بالمنشفة إلى جاكي، وأراها وهي تحمله إلى داخل المنزل، مغلقة الباب دون أن تنظر نحوي. في غضون ذلك الوقت، تكبلت يداي ووضعت في المقعد الخلفي في سيارة الشرطة.

كنت في حالة ذهول تام، الأمر الذي جعلني ألعن جاكي في داخلي طوال الطريق نحو المركز. كنت سأتحمل مسؤولية استيائها تجاه أي شيء اقترفته بحقها، لكن كلما كانت المسافة تزداد بعدًا عن كريستوفر، كلما شعرت بأنني سأخسره. وما جعل الأمر أسوأ هو ما علمته فيما بعد بأن إضافة إلى تهمة الضرب الموجهة إلي، وجّهت إليّ أيضًا تهمة الدين المستحق جراء مخالفات وقوف السيارة غير المدفوعة، التي بلغت ألفًا ومئتي دولار. أصبحت الآن مجنونًا بشكل رسمي، أفسح غضبي المجال ليتملكني الخوف، وشعور غامر بالعجز لا يمكن وصفه. كان هذان الشعوران الشيطانيان يحومان فوق رأسي، وعلى أهبة الاستعداد ليظهرا فجأة متى ما حدث أي ظرف وخرج عن السيطرة.

بعد أن قاما بحجزي وأخذ بصماتي، قاداني إلى زنزانة الحجز حيث

علمت هناك أن شكوى جاكي لم تكن هي سبب حجزي؛ فإن كانت هي السبب فبإمكاني إخراج نفسي بكفالة. لكني إن لم أدفع ديون المخالفات فعلي أن أترافع عن نفسي أمام القاضي. وهنا أصبح الأمر أشد وطأة، بينما انتظرت ليتم أخذي إلى المحكمة. لكنه يوم الجمعة، وسرعان ما أصبحنا في المساء. بعد أن انتظرت في زنزانة حجزي، رأيت أحد رجال الشرطة الجالسين على مكاتبهم يتقدم نحوي ويقول: «آه، بالنسبة لمخالفات وقوف السيارة فإن القاضي يقول إن الوقت قد تأخر اليوم كي نحسم قضيتك. سوف ينظر في أمرك يوم الإثنين.» توقف عن الكلام قليلًا، ثم أضاف: «عليك أن تبقى هنا، لا تستطيع الذهاب ريثما ترى القاضي.»

"أتخبرني أنه عليّ أن أنتظر في الحبس حتى يوم الإثنين كي أرى القاضي؟» أجبته بصوت عال وغاضب.

وكأنني قد أهنته شخصيًا، رد الشرطي قائلًا: «أنت مدين بالنقود لولاية كاليفورنيا، وبما أنك موجود هنا معنا، فسوف نجد حلًا للموضوع.»

ينص قانون مورفي على أن الأشياء يمكن لها أن تزداد سوءًا. وبالفعل ازدادت الأمور سوءًا على الفور عندما اصطُحبت إلى زنزانة أخرى ووضعوني مع ثلاثة مساجين آخرين، من أقذر وأحقر وأبشع وأفظع أوغاد رأيتهم في حياتي على الإطلاق: قاتل، ومغتصب، ومضرم حرائق. والآن أنا هنا معهم فقط لأنني لم أدفع مخالفات؟ استرجعت ذكريات ثقيلة على قلبي للمرة الوحيدة التي دخلت فيها السجن لسرقتي سروالًا من مركز التخفيضات، وتذكرت سخرية الشرطة مني عندما بدأت أقرأ كتابي في الزنزانة، لذا لم أنطق بكلمة واحدة بينما كنت أستمع للجميع وهم يتحدثون كل على دوره ويخبرون قصص دخولهم السجن. وبالطبع كان أول شيء تعلمته هو درس سرعان ما عزز صحته المسجونون الآخرون: لم يرتكب أي شخص الجريمة

التي يقضي بسببها عقوبة السجن. كانت جميعها عبارة عن قضايا تَشابه أسماء أو شخص ما، لم يقل الحقيقة. كل واحد من أولئك الملاعين كان يردد نفس الكلمات الأربع: "لم أقم أنا بفعلها."

بانسجام واحد، أدار ثلاثتهم رقابهم الغليظة باتجاهي، وحدقوا بي، وسألوني جميعهم في ذات الوقت السؤال نفسه: لماذا أنا هنا. لم أكن سأعترف لهم بأنني سجنت جراء مخالفات وقوف سيارتي، وإنما تحدثت بصوت منخفض جدًا، وخزرتهم بعيني وقلت لهم: «أنا هنا بسبب محاولة قتل، وسأعاود القتل مرة ثانية، فهمتهم؟» ولكي أبين لهم المنطقة الخاصة بي من الزنزانة، أشرت إلى المكان الذي سأنام فيه وأعلمتهم: «هذا هو سريري الذي سأبات فيه.»

كوني أسود كالفحم، وأضخم من كل الموجودين في الزنزانة، وكنت غاضبًا إلى حد الجنون، نجحت حيلتي بامتياز وصدقوا ما قلته لدرجة أنني حصلت على أثمن شيء في عالمهم يمكن لأي شخص الحصول عليه في السجن: سجائر.

الأمر المثير للسخرية هو أنني كنت قد بدأت التدخين في القوات البحرية عندما كنت أعمل في مناوبات ليلية طويلة في المستشفى. في هذه المرحلة أقلعت عن التدخين، لأنني لم أستطع تحمل تكاليفه، لكن على ما يبدو كان قضاء عطلة نهاية الأسبوع في السجن كفيلًا بإرجاعي إلى عادتي تلك مرة أخرى. كان التدخين أفضل بكثير من سندويشات النقانق البائتة والقهوة الباردة التي كانت تقدم لنا في أطول وأقسى عطلة نهاية أسبوع في حياتي.

طال انتظار صباح يوم الإثنين الذي أبت شمسه أن تشرق. عندما أتى الصباح ووقفت أمام القاضي، بالكاد نظر إلى الأعلى وازاح نظره عن أوراقه

وقال لي: «سيد غاردنر، أنت مدين لولاية كاليفورنيا بألف ومئتي دولار.»
"كيف تريد أن تحل الأمر؟»

سألني إن كنت أعمل، وهززت رأسي مجيبًا بكلًا. سألني إن كنت أستطيع سداد المبلغ، وللمرة الثانية هززت رأسي مجيبًا بالرفض.

شعرت للمرة الأولى خلال هذه المحنة العصيبة بأكثر من مجرد غضب أو خوف، شعرت بحزن لا يصدق بينما كنت أتصارع مع واقع تلك الظروف التي أمر بها. «لا أملك المبلغ.» تمتمت، من شدة حيرتي.

"حسنًا، سيد غاردنر، أنت لم تترك لي أي خيار سوى الحكم عليك بعشرة أيام في سجن سانتا ريتا." ثم ضرب مطرقته، مناديًا على القضية التالية.

أتى حارس على الفور وكبل يدي، وقادني للخروج من قاعة المحكمة، واصطحبني إلى الحافلة المتوجهة إلى الأماكن النائية في الوادي المركزي، في كاليفورنيا الشمالية ذات الجو المحتبس حراريًا، نحو سجن المقاطعة المزدحم والآيل للسقوط، في سانتا ريتا حيث يتواجد فيه أكثر المحكومين شهرة -السفاح المكسيكي المجنون القاتل بالفأس- خوان كورونا.(186) دهشت عندما نظرت حولي ورأيت كلب البيتبول هذا يجلس جنبي في الحافلة؛ ما هي جريمتي؟ لم تكن الاعتداء المزعوم حسب شكوى جاكي الأولى، وكان الأمر ما زال غير واضح، ما إذا كانت ستتخذ إجراء، وتطالب بمزيد من الجدل القانوني. لكن أن أسجن بسبب مخالفات؟ لم يكن هناك

186) خوان كورونا Juan Corona: أخطر سفاح في تاريخ أمريكا اتهم بقتل 25 مزارعًا من المهاجرين، ودفنهم في بساتين الفاكهة في ولاية كاليفورنيا عام 1971. وصفت جرائمه بأنها من بين الأكثر شهرة في تاريخ الولايات المتحدة. وأدين كورونا بـ25 تهمة، وبارتكاب جريمة قتل من الدرجة الأولى في عام 1973 ويقضي حاليًا عقوبة بالسجن مدى الحياة في سجن ولاية كوركوران.

أي محاكمة، إنها وثائق واقعية في السجلات تثبت تجاهلي للقانون لأني كنت أحاول التقدم بحياتي في هذا العالم. إن لم تستطع أن تدفع، عليك أن تبقى في الحجز. وهذه هي النهاية، سأقضي عشرة أيام في هذا المكان.

أين محامي الدفاع الذي سينوب عني؟ كل شخص آخر لديه محامي دفاع عام. لقد قضي الأمر على ما أظن. ليس لدي أي وسيلة ألجأ إليها، ليس هنالك أي مفر. لم يعينوا لي أي محامٍ. بينما كانوا ينزلونني من الحافلة، حاولت أن أشرح للسائق الأمريكي من أصل إفريقي الذي بدا متعاطفًا معي، بأنني أحتاج أن أعود إلى المحكمة، أو ربما، كنت آمل حقًا أنه سيقوم بإطلاق سراحي، لكنني في اللحظة التي خطوت فيها خارج خط وقوف المساجين، بدأ حراس السجن بهز سلاسل يدي، وأرجعوني إلى الخط.

إن كان هناك شيء قد ساعدني في أن أتعايش مع مهانة السجن فهو الوقت الذي قضيته في العسكرية. لم تكن المسألة هي ارتدائي زي السجن البرتقالي والصندل الهلامي الشفاف فحسب، بل هي السيطرة الكاملة والنظام الصارم الذي عشته في تلك الفترة، فالنظام الغذائي كان عبارة عن نقانق غير مستساغة، وقهوة مقرفة، إضافة إلى محاولة التأقلم مع الجو الأشبه بفرن حار. لم يكن هنالك أي نسائم تهب من المحيط الهادئ، أو رياح سانتا آنا، لا شيء سوى درجات حرارة لا تطاق. كان الجو بالنسبة لي وصفة مثالية كي أدخل في جدال مع أحد الحراس عندما أدركت أن عدساتي اللاصقة كانت تتحجر في عيني كقشور السمك، نظرًا لعدم وجود محلول ملحي لأضعها فيه. كنت مقتنعًا بأنني سأصاب بالعمى، لذا طلبت رؤية الطبيب، وعندما لم يجب الحارس على طلبي، تمتمت بشيء عبقري مثل: "تبا لك."

قوبلت تمتمتي برحلة سريعة إلى السجن الانفرادي الذي اتضح أنه كوخ مبني بالطوب دون سقف، بحجم حمام، لا يكفي حتى لأستلقي فيه، يطلقون عليه الصندوق الحار. شعرت في هذا الصندوق بالوحدة، وشعرت أيضًا فجأة باشتياقي لمحادثات السجن التي كانت في بادئ الأمر تقودني إلى الجنون. من حسن حظي أنني كنت أتحدث مع نفسي معظم أيام حياتي، لذا بدأت أجري محادثة ثنائية بيني وبين نفسي قائلًا بصوت عال: «آه يا رجل، أصبح الأمر من سيء إلى أسوأ.»

"لا تقل ذلك الهراء يا رجل." رثيت نفسي بأفضل ما يمكن.

"إذًا لماذا يقولون بأنهم سيبردون قلبك في الصندوق الحار؟ لربما كانت نوعًا من عبارات التناقض اللفظي!» بدأت أكتوي بأشعة الشمس الحارقة، وأصبح الجو حارًا بطريقة جنونية. ومن ثم، مرة أخرى، لربما قد تمطر، ولن يكون هناك شيء يمكنني فعله سوى أن أتبلل.

عندما نفدت مني أحاديثي الصغيرة مع نفسي، بدأت أغني، لكن لم يكن يصدر عني سوى صوت ضجيج، في محاولة مني لأطرد الخوف من داخلي: كيف حدث كل ذلك؟ ماذا كان سيحدث الآن؟

استطاع الصندوق الحار أن يبرد قلبي، فقط بالقدر الذي جعلني أحاول أن أطلب بصورة منطقية جلسة استماع كي أحضر جنازة سيباستيان، فأنا أعرف أن حضوري سيعني الكثير للاتريل، لكنني بعد أن التمست طلبي بكل هدوء وصمت، قوبلت بالرفض.

بعد انقضاء مدة الحبس التي بلغت عشرة أيام بدلًا من دفع المخالفات، لم تعد تلك بمشكلة. أما الآن بعد أن انتظرت بضجر انتقالي إلى سجن بيركلي حيث كان بإمكاني الحصول على جلسة الاستماع لأجد إن كان هناك إدانة بسبب شكوى جاكي، واجهت ما كنت أعده المشكلة الأكبر

في هذه المحنة بأكملها. تحدد موعد مقابلتي مع شركة دين وتر في صباح اليوم التالي. شهور من الجهود المبذولة كانت قد تلخصت جميعها في فرصة أخيرة مع الرجل الذي كان باستطاعته أن يقبلني، أو أن يغلق الباب بوجه مستقبلي كسمسار في سوق البورصة. لكن إبان وصولي إلى سجن بيركلي، علمت أنني لن أستطيع رؤية القاضي حتى صباح اليوم التالي. ما العمل؟ كيف يمكنني الوصول إلى شركة دين وتر وأنا ما زلت في السجن؟

أتتني الإجابة على هيئة حارس، رجل لاتيني لابد أنه حظي بنوم هانئ في الليلة السابقة، لأنه وافق على أن يدعني أجري مكالمة هاتفية كي أحاول أن أحدد موعدًا آخر للمقابلة. ربما كان توسلي هو السبب أو ربما كان شرحي له بأن لدي فرصة حقيقية في تلك الوظيفة، وأنني كنت أحتاجها حقًا.

أيًا كان السبب، فإنه قام بطلب الرقم لي وناولني سماعة الهاتف من خلال قضبان الزنزانة حيث كنت هناك، خلف القضبان، أتصل بالسيد ألبانيز في شركة دين وتر. عندما أجاب الهاتف، سلمت عليه بحرارة وقلت له: «مرحبًا سيد ألبانيز؟ معك كريس غاردنر، كيف حالك؟»

"بخير." أجابني.

تشجعت وقلت له: « لدي اجتماع معك يوم غد لكن طرأ أمر ما، أحتاج أن أعلم إن كان بإمكاني تحديد موعد آخر في اليوم الذي يليه؟»

تبسمت لي السماء عندما أجابني: «حسنًا، لا توجد أي مشكلة، كن هنا في تمام الساعة السادسة والنصف صباحًا.»

الحمد لك يا إلهي، صليت على الفور أمام الحارس؛ لقد قال لي السيد ألبانيز إنه كان يتطلع إلى مقابلتي، لقد أخبرته بأنني سأراه بعد يوم غد.

استمرّت محنتي القانونية مع جاكي إلى صباح اليوم التالي حيث كان علينا أن نلتقي في المحكمة. كانت نيتي أن أتبع معها نهجًا أخلاقيًا، وأعتذر

وأجد طريقة عادلة في تقاسم المسؤولية معها مناصفة للعناية بكريستوفر. كان الأمر واضحًا أن علاقتنا انتهت، لذا اقتضت خطتي التوجه إلى المنزل، كي آخذ أشيائي، وأجد مكانًا لأبيت فيه، لكن جاكي جاءت مسلحة برغبة معاقبتي على ما يبدو، ونتج عن هذه الرغبة موعد محكمة لاحق تقرر بعد عدة أسابيع. عندما شاهدتها ترحل في ذلك اليوم، وبالرغم من أسلوبها البارد، لم أفقد الأمل في أن لقاءنا في المحكمة لن يكون له أي داعي.

كان عزائي الآخر هي الإمكانية التي لوحت في الأفق، إمكانية أن تفتح لي مقابلة الغد الباب نحو مستقبلي. في الوقت الذي ركبت فيه القطار عائدًا إلى منزلنا حيث خططت أن أحزم أمتعتي بسرعة، وأن أقضي بعض الوقت في اللعب مع كريستوفر، وأن أجد حلًا في مكوثه معي حيثما حطت قدمي بعد ذلك، كنت متفائلًا لدرجة أنني كنت مستعدًا لصرف النظر عن حدس شعرت به بشأن الطريقة التي تصرفت بها جاكي معي، في ذلك اليوم، وكأنني كنت أتوقع أن تتفاقم الأمور أكثر من ذلك. لكن بعد كل ما عانيته بسببها، لم يكن تفاؤلي في محله أبدًا، لذا تخليت عن أملي.

لم ألاحظ أي شيء غير اعتيادي عندما مشيت في طريقي إلى المنزل وصعدت السلالم وتوجهت نحو الباب الأمامي لكني صدمت عندما لمحت النافذة ولم يكن هناك ستائر. ما الغريب فيما رأيته؟ انفجرت القنبلة في رأسي عندما أمعنت النظر داخل النافذة ورأيت أن البيت كان خاليًا تمامًا. جاكي غير موجودة، وكريستوفر غير موجود، والأثاث غير موجود، والستيريو والقدور والمقالي والملابس، كلها غير موجودة. السيارة لم تكن مركونة في الشارع. وأقفال الباب استبدلت بأخرى.

تعثرت أثناء مشيي على الرصيف من شدة فزعي وإحباطي، محاولًا الاقتراب من أي شخص ليخبرني: «أين ابني؟ أين جاكي؟» سألت الجيران

والناس الغرباء على حد سواء.

كان هناك تلك المرأة صديقة جاكي، وأحد مالكي البناية التي لم تخبرني شيئًا غير أنها وبختني بعنف: «لم يكن ينبغي عليك أن تضربها، لا تسألني عن مكانها، لأنني لا أعرف أي شيء.»

من الواضح أنها كانت تعرف كل شيء. في الحقيقة كنت أشعر بالخزي المضاعف من أن الجميع كانوا يعرفون ما قد حدث إلا أنا. كان الوقت قد تأخر لأدافع عن نفسي ضد أي شيء قد قالته جاكي عني. كل ما كان يهمني هو أن جاكي وكريستوفر قد اختفيا عن وجه الأرض وكان عليّ أن أعثر عليهما.

لكن أولًا كان عليّ أن أجد مكانًا لأنام فيه ليلًا، وكان عليّ أن أذهب إلى المقابلة في صباح اليوم التالي وأنا أرتدي بنطال جينز وتيشيرت وسترة ماركة «للأعضاء فقط» كستنائية اللون (تطابق لونها مع لون سيارة رياضية كنت أمتلكها يومًا)، وحذاء ماركة أديداس المبقع بالطلاء، الذي أصبح الحذاء الخاص بأداء الوظائف الجانبية؛ وهي نفس الملابس التي كنت أرتديها عندما ذهبت إلى السجن وقضيت معظم وقتي فيه وأنا أرتديها فيما عدا بجامة السجن البرتقالية والحذاء هلامي الشكل.

بعد مرور أيام على دفن ابنها، تلقت السيدة لاتريل هاموندس المنهارة معنوياتها اتصالي، ولم تمانع في ذهابي لزيارتها وغسل ملابسي في منزلها، ونومي في تلك الليلة على الأريكة. كان من الصعب عليّ أن أخلد للنوم خاصة عندما خطر ببالي أن هذه الأيام والليالي التي مرت منذ أن أخذني رجال الشرطة إلى المركز، هي المرة الأولى التي أنفصل فيها جسديًا عن كريستوفر. عندما استسلمت أخيرًا للنوم، لم أحلم بشيء على الإطلاق لكن السؤال ظل صاحيًا يضغط بإلحاح على عقلي طوال الليل: أين ابني؟

الفصل العاشر

الحلم الكاليفورني[187]

"التوصيل في الجزء الخلفي." قال السيد ألبانيز الذي يعمل في شركة دين وتر، وهو يتطلع إليّ من خلف فنجان قهوته وجريدة وول ستريت، بينما كنت أدنو من مكتبه في تمام السادسة والربع في صباح اليوم التالي.

لحسن حظي، لم يكن أي أحد في هذا القسم من الشركة قد وصل قبلي، لذا لم أكن مضطرًا لتحمل نظرات الإحراج بسبب ارتدائي ملابس السجن. على الرغم من أن بنطالي كان مغسولًا، وسترتي التي تحمل شعار «الأعضاء فقط» لم تكن مجعدة كثيرًا، لكن حذائي المبقع بالصبغ جعلني أبدو تمامًا مثلما كان السيد ألبانيز يظن بي: "عامل توصيل أو رجل ما من

187) الحلم الكاليفورني California Dreamin: أغنية مشهورة غنتها فرقة روك أمريكية شعبية تدعى The Mamas & Papas عام 1965. كتبها جون فيليبس وميشيل فيلبس، أصبحت هذه الأغنية علامة تمثل الثقافة المضادة في الستينيات للنظام المؤسسي. تمثلت بأشكال ثقافية جديدة وروح عصر نشطة كان أبرزها الهيبيز.

الشارع أتى ليتجول هنا."

قلت له وأنا أتقدم نحوه وأعرفه بنفسي: «أنا كريس غاردنر. لدينا موعد مقابلة في هذا الصباح في الساعة السادسة والنصف، وأنا أعتذر عن قدومي باكرًا.»

"لا بأس بذلك، أنا أستيقظ مبكرًا." أجابني.

"وأنا أيضًا" هززت رأسي مجيبًا بكل حماس. بعد أن تنبهت إلى أنه بدأ يتفحصني عن كثب، شعرت بحاجة إلى تفسير عبقري لعدم ارتدائي بدلة عمل رسمية. بدأت قولي بعد برهة: «قد يكون اليوم هو الأهم في حياتي العملية، وعليّ أن أعترف أنني لا أرتدي الزي المناسب لهذه المناسبة.»

لم يكن منبهرًا بمحاولتي للسخرية من ملابسي على ما يبدو، لكنه شاطرني الرأي: «وهذا رأيي أنا أيضًا.» ثم أضاف: «ما الذي حدث؟»

أيٌّ من الأكاذيب التي يمكن أن أختلقها في هذه اللحظة، إما ستكون غريبة أو معقولة بما يكفي للإجابة على سؤاله. لذا قررت أن أقول الحقيقة فيما عدا الجزء المتعلق بذهابي إلى السجن، لكن إجابتي تخللت تقريبًا كل شيء حدث معي مؤخرًا: تفريغ جاكي لأغراض المنزل، وأخذها كل شيء، بما فيه سيارتي، وخاصة أخذها لابني وعدم معرفتي بمكانهما في الوقت الحالي.

كان السيد ألبانيز يصغي باهتمام، لكنه قاطعني قبل أن أكمل جملتي الأخيرة: «أتظن أن ما تمر به ظرفًا صعبًا؟ جرب أن تتحمل ثلاث نساء يفعلن بك نفس الشيء!» اتضح أنه تزوج وتطلق ثلاث مرات، وفي كل مرة كنّ يصطحبنه إلى المحكمة لتجريده من كل شيء، وبدأ يقص لي عن سلسلة من القصص حول زيجاته السابقة. مرت عشرون دقيقة وهو يتحدث عنهن بغضب شديد. في اللحظة التي ظننت فيها أننا سنستكمل حديثنا عن مستقبلي، تذكر شيئًا آخر: «ومن ثم تلك الفتاة التي كنت

أواعدها، دعني أخبرك ماذا فعلت بي.»

الحقيقة هي أنني أتيت إلى هنا لأخبره بأنني سأكون عضوًا قيمًا لشركة دين وتر في برنامج الشركة لتدريب المبتدئين، وبأنني لست مهتمًا كثيرًا بمآسيه. لكن على ما يبدو أنه كان شخصًا بارد الأعصاب للغاية، لذا استمعت له وهززت رأسي وكنت أعلق في مواضع مناسبة وأقول: «آه، يا إلهي!»

لكنه أخيرًا انتهى من رثائه لنفسه وبدلًا من أن يستمع إلي أو يسألني أي سؤال، وقف من خلف مكتبه، وأخذ رشفة من فنجانه وقال: «كن هنا في صباح يوم الإثنين، وسأدخلك إلى جلسة التدريب بنفسي.»

بكل تلك البساطة فتحت لي أبواب وول ستريت التي كانت مغلقة في وجهي حتى الآن. لقد دخلت عالم البورصة! لم يكن الأمر كما لو أنني قد حصلت على مليون دولار في جيبي، أو مفتاحٍ لسيارة الفيراري التي أملكها، لكنه كان بالتأكيد إثباتًا بأنني قد دخلت هذا العالم. الجزء المضحك في الموضوع أنني بعد أن كنت قلقًا على ملابسي. عرفت لاحقًا أن جاكي علمت نفسها قيادة عصا مبدل السرعة اليدوي، كي تستطيع قيادة سيارتي التي لم أرها مرة ثانية، وأنها أخذت كريستوفر إلى الساحل الشرقي، إضافة إلى أخذها مفتاح حجرة التخزين حيث كنت أضع فيها جميع حاجياتي. كانت قصتي حول عدم ارتدائي الزي المناسب هي من جعلت علاقتي تتوطد مع ألبانيز. لقد حدث كل هذا ليتبين أن مشيئة الرب تكمن في الخفاء.

لم يكن هناك أي ضمانات بالطبع. كوني أصبحت متدربًا فهذا يعني أنني سأتقاضى راتبًا شهريًا قدره ألف دولار، وإضافة إلى عملي في ساعات التدريب الفعلية، ومساعدة السماسرة حول المكتب في وقت لاحق، ودراستي في الساعات المتبقية من اليوم، فإنه لن يتبقى لدي أي وقت لكسب أي دخل إضافي. كان هذا يعني أيضًا أنني سأمر بأيام عجاف، وسأضطر

لمواجهة بعض المسائل الهامة لحين حصولي على صك ذلك الراتب الأول في نهاية الشهر الأول.

بحلول يوم الإثنين المقبل ذاك ضمنت إقامتي في منازل عدة أصدقاء، واستطعت توفير وجبات الطعام، واقتراض ما يكفي من المال لأستقل مواصلات بارت للذهاب إلى عملي، واستطعت أن أجد صديقًا يقرضني بدلة وزوجًا من الأحذية كي أذهب بهم لاستلام ذلك الصك الأول. كانت البدلة أصغر من مقاسي بقياسين وكان الحذاء أكبر من مقاسي بقياسين. ومع هذا فإنني كنت أمشي بعنفوان متجهًا نحو أول يوم لي في العمل، وتفاجأت لدى رؤيتي لشخص كنت قد رأيته هناك قبل بضعة أشهر. كان رجلًا أسود يدعى بوب -أو بوب ربطة عنق الفراشة، كما أسميته بسبب ارتدائه الدائم لربطة عنق الفراشة ونظارة تحتوي على جوانب مرصعة، وكان شخصًا جبانًا، متطبعًا بأطباع النادي الريفي- تخرج من جامعة ستانفورد وكان أول أمريكي من أصل إفريقي يدخل برنامج التدريب للمبتدئين. بعد أن كنت قد التقيت به في السابق عندما بدأت أزور هذا المكان، كنت متحمسًا للتحدث مع أي شخص وسعيدًا لرؤيتي رجلًا أسود آخر يعمل هناك. عرّفته على نفسي قائلًا: "واو أنت تعمل هنا؟ واو! كيف استطعت أن تحصل على عمل هنا؟ ما الذي أحتاج فعله كي أعمل هنا؟ ما الذي فعلته أنت؟"

كان بوب ذو ربطة عنق الفراشة، في بداية تلك الأحاديث الأولى التي جرت بيننا قد بدأ تدريبه في البرنامج مؤخرًا، وبدا مهتمًا بالتحدث عن تخرجه من جامعة ستانفورد، حيث كان يلعب هناك ضمن فريق الغولف، أكثر من اهتمامه بالتحدث حول موضوع كسره لحاجز لون البشرة الذي أدى إلى دخوله عالم المال. كان الأمر واضحًا أنني لم أمتلك أي شهادات، ولم أدرس في أي كلية، ولم أنتم لأي نادٍ، ولم أكن ألعب الغولف. لم يكن

لديه أي سبب يدفعه للتحدث معي على الإطلاق، على الرغم من أن نظراته لي كانت تتكلم بوضوح وتقول لي ما معناه: «من أين أتيت؟»

كل ما أعرفه أن بوب ذا ربطة عنق الفراشة، ربما يكون قد ترعرع في واتس. لكنه كان قد درس في جامعة ستانفورد -وهذا أمر لم يسترع انتباهي على الإطلاق- حيث بدأ وأنهى فيها تاريخ حياته كله، وكان قد قولب نفسه ليصبح أبيض رجل أسود رأيته في حياتي. كان هذا على الأقل هو انطباعي الأول عنه.

في انعطافة مثيرة للأحداث، اكتشفت أن بوب كان ما زال يعيش في القبو، وفي نفس البرنامج التدريبي، لأنه لم يكن قد اجتاز الامتحان بعد، بعد أن حاول عبوره ثلاث مرات. أثناء تلك الفترة انتقل من كونه بوب ذا ربطة عنق الفراشة الأنيق، إلى بوبي سيل[188] المتطرف. وبدلاً من ترحيبه بي في البرنامج، كان سلامه عبارة عن مجرد نقل للتحديات التي سألاقيها في الامتحان، ولكي يحيطني علمًا بأن الامتحان كان «متحيزًا ثقافيا».[189]

"أحقًا ما تقوله؟» قلت له، متسائلًا عمّا إذا كان ذلك صحيحًا.

ثم حذرني قائلًا: «ذلك الامتحان سوف يكون ضربة قاضية بالنسبة لك يا رجل، سوف يقضي عليك.»

لقد كان الأمر واضحًا لي منذ أول يوم، بأن عليّ أن أبذل قصارى

188) بوب سيل Bob Seale: ولد في 22 تشرين الأول 1936 وهو ناشط سياسي أمريكي. وقد شارك هو وزميله الناشط هوي ب. نيوتن في تأسيس حزب النمر الأسود.

189) الانحياز الثقافي Cultural Bias: هو التفسير والحكم على الظواهر أو الأشياء وفقًا للمعايير الملازمة لثقافة الفرد. ويعد الانحياز الثقافي أحيانًا مشكلة مركزية في العلوم الاجتماعية والإنسانية، مثل الاقتصاد وعلم النفس والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع. وقد حاول بعض الممارسين في المجالات المذكورة آنفًا تطوير أساليب ونظريات للتعويض عن التحيز الثقافي أو القضاء عليه.

جهدي في أول مرة لي وأنا أقف على أعتاب قاعة الامتحان. العمل هو العمل، فمهما أرادت أي شركة الترويج عن الفرص المتكافئة، إلا أنني كنت متأكدًا من أنه لم يكن هنالك أي مجال لإدراج رجلين أسودين فشلا في الامتحان، في قائمة كشوفات الرواتب. مهما كانت الظروف فلدي فرصة واحدة فقط. كان ذلك هو السبب وراء تجنبي الاختلاط مع بوب، وكأنما أيًا كانت مشكلته فهي ستطالني. بعد أن بدأ يتكلم ولعدة مرات عن شكايته بشأن الانحياز الثقافي، ضقت ذرعًا به وقلت ساخرًا: «بوب ألم تدخل جامعة ستانفورد؟ هل عاملوك بـ"تحيز ثقافي"؟ ما الذي تتحدث عنه بحق السماء؟ أنت من بين الجميع عليك أن تكون ، لأن الجامعة هي المكان الذي يعلمون فيه معنى هذا المصطلح.» كانت تلك هي آخر مرة تقريبًا تواصلت فيها معه.

كعادتي في البحث عن أشخاص يمكنني أن أتعلم منهم شيئًا، قمت بتوطيد علاقتي مع آندي كوبر، رجل يحتل منصبًا رفيعًا في المكان، وأحد كبار المنتجين في الشركة ممن كانوا يعملون في إدارة صفقات الملجأ الضريبي، قبل أن تتغير قوانين الضرائب في تلك الحقبة من الزمن. هذه الصفقات -عادة ما تحدث في معاملات العقارات، أو النفط، أو الغاز الطبيعي- تقوم على التقليل من نسبة الضرائب المستحقة للدولة بشكل مهول قد تصل إلى النصف أو إلى الربع. كانت الطريقة الأساسية لبيع صفقات الحمايات الضريبية تلك هي أن تتصل وتدعو المستثمرين المحتملين للحضور إلى ندوة. تمكنت من خلق معايير أخلاقية انضباطية نتيجة إلى ما نصحني به بوب بريجيت بشأن عدد الاتصالات التي كنت أجريها كل يوم، إضافة إلى المئتي اتصال المطلوبة مني يوميًا، مهما كانت الردود غير مشجعة. منذ أن رأى كوبر مدى انضباطي في تعاملي مع الاتصالات، فإنه قام بإعطائي وظيفة

الاتصال بمدراء الملجأ الضريبي كي يحضروا إلى الشركة بأنفسهم، ثم كان يأتي دوره في مخاطبتهم، وإتمام الصفقة وأخذ كل العمولات له. كوني ما زلت متدربًا فقد كنت أقوم بالجزء الصعب من المهمة دون أي مقابل، الأمر الذي لم أع أهميته تمامًا حتى وقت لاحق. لكن في الحقيقة لم يهمني الأمر، فكل ما كان يهمني هو النجاح في هذا العمل، وتعلم كل شيء وأي شيء من شأنه أن يكسبني خبرة قدر المستطاع.

عندما لم أكن أقضي وقتي في التدرب، أو العمل، أو الدراسة، فإن كل ما كان يشغل بالي هو إيجاد مكان كريستوفر والعيش معه من جديد. لكن ذلك القلق ساهم في تصعيد مشكلتي الحالية في عدم امتلاكي لسكن سوى منزل والدة السيدة لاتريل الخلفي، حيث كان لدي غرفة، أرمي فيها نفسي منهكًا على الأرض لأنام بالقرب من سرير ليون ويب الصغير، وأيضًا كان لدي مكان في شقة صديق الطفولة غارفن، أو في بعض الأحيان كنت أبيت مع عدة نساء لم يكن يمانعن مشاركة أسرتهن وأكلهن معي، ولم يكن لدي ما أقدمه لهن في المقابل سوى امتناني اللامتناهي.

كان الوضع مجهولًا بالنسبة لي، لكني حاولت صقل مقدرتي على التنقل الكثير والمستمر، دون أن أدرك مدى الخطورة التي ستؤول إليها هذه المهارات. بعد استلامي لراتبي الأول، ذهبت على الفور لشراء بدلة رسمية تناسب مقاسي. ومع بدلتي التي كنت أرتديها، والأخرى المعلقة في كيس الملابس المتدلي على كتفي، وبعض من أدوات الحمام، وكتبي، شعرت باكتفائي ذاتيًا. فضلت عدم ترك حاجياتي في منزل أحد، واعتدت الاحتفاظ بكل شيء معي أينما ذهبت. في أحد المساءات عندما كنت في العمل ولم يكن لدي أي مكان أبيت فيه، خطر في بالي أنني كنت دائمًا آخر من يغادر المكتب وكنت عادة أول من يصل إلى هناك في الصباح أيضًا، لذا لن ينتبه

أي أحد لي في حال نمت تحت مكتبي.

كانت ليلتي الأولى التي قضيتها في المكتب غريبة، شعرت بأن أحدًا ما سيكتشف أمري؛ ليس لأنني نمت في مكان عملي، وإنما لأنني ليس لدي أي مكان آخر لأعيش فيه. لكن الحقيقة كانت أنني لم أكن مثل بوب ذي ربطة عنق الفراشة الذي ظلت الفرص تنهال عليه، ولم أكن أيضًا مثل دونالد ترنر الذي كان معي ضمن برنامج التدريب، والذي كان أخوه من كبار منتجي الشركة: سواء كان الأمر صحيحًا أم لا فإنني لم أكن كبقية الرجال الذين امتلكوا عوامل مساعدة في حياتهم. كان دونالد سريع الغضب وعاقد العزم على النجاح في عمله، لكن إن لم يكن كذلك فقد كان لديه أخوه ليسند ظهره دون شك. لم يكن الأمر يتعلق بشعوري بالأسى على نفسي، لأن ذلك لن يساعدني في عملي، لكن كان عليّ أن أواجه بعضًا من الحقائق: لا يوجد لدي أي خطة بديلة، ولا أي شبكة أمان، وليس مطلوبًا مني أن أنجح كي أحسّن من صورة أي أحد. كان الأمر كله يقع على عاتقي أنا وحدي. إن احتجت النوم تحت المكتب، فهذا ما سأفعله.

بعد مرور عدة ليالٍ، اكتشفت أن النوم في مكان العمل لم يكن مناسبًا فحسب وإنما أسقط عني أجرة المواصلات ولم يكن لدي سرير لأرتبه. كنت أستلقي هناك فقط، وأنام، وأصحو قبل أن يصل أي أحد، وأغسل وجهي، وأنعش نفسي قدر المستطاع، وأغسل أسناني، وأمشط شعري، وأرش الماء على جسدي من حوض المغسلة، وأنشف نفسي بفوط ورقية، وأستخدم مزيل العرق. كنت في بعض الأحيان أرتدي نفس الملابس، وفي أحيان أخرى كنت أبدل قميصي وبدلتي، اللذين كنت أحتفظ بهما في كيسي المعلق على كتفي. في الوقت الذي كان يصل فيه الآخرون كنت أقوم بالاتصالات، لأتأكد من أنني كنت أسبقهم بمئتي اتصال في اليوم. كنت

أنهي عملي في المساء باكرًا، وأتأكد من أنني لم أكن أجري اتصالات في وقت متأخر ومن ثم أعود لأستكمل دراستي.

خلال الأسابيع اللاحقة، استطعت التغلب على أي مشاعر قلق كانت تجتاحني، كان تركيزي في دراستي يلهيني -إن استطعت أن أصب كل تركيزي على الاتصال الذي أقوم به، أن أكون إيجابيًا وودودًا لكنني في نفس الوقت أظل ملتزمًا في الكلام عن العمل، بطريقة منتجة ووقت كاف- وأخلق ذلك الانضباط الذي يجعلني أمضي قدمًا، وأستمر باتصالاتي، فإنني سأتمكن من مواصلة نشاطي حتى الليل كي أستطيع أن أتهيأ لدراسة الكتب التقنية المملة جدًا، لكنني أقنعت نفسي بأنها ساحرة كسحر أعظم القصص التي قيلت على الإطلاق. اعتادت أمي إخباري لسنوات أن المكتبة العامة هي أخطر مكان في العالم لأنك تستطيع أن تدخل إلى هناك وتتعرف على كيفية القيام بأي شيء شريطة أن تكون قادرًا على القراءة، لذا أقنعت نفسي أنا أيضًا بأن كل تلك المعلومات التي تعلمتها استعدادًا لامتحاني كانت ستزودني بتلك الميزة التنافسية للتغلب على المنافسين كي أنجح من أول مرة.

كلما أراد عقلي الاستسلام، كانت ردة فعلي هي مواصلة دراستي وكأنني كنت في السجن؛ لأن المعرفة تجلب القوة والحرية. رافقتني طوال فترة دراستي صورة مالكوم أكس في السجن، وهو يعلم نفسه بنفسه من خلال دراسته لكل كلمة وجدت في القاموس.

مع كل ما كان يدور من حولي، لم يحالفني الحظ في إيجاد مكان جاكي وابني. في الحقيقة كانت هي من خططت لاقتفاء أثر مكاني وبدأت بإجراء سلسلة من المكالمات التعذيبية. اتصلت بي أول مرة في منزل السيدة لاتريل، أجبت الهاتف لكن جاكي لم تنطق بحرف واحد، لم أكن أسمع سوى صوت كريستوفر وهو يصرخ بالخلف منها. لذا اكتفيت بالصمت،

وشعرت بألم في معدتي. كانت تلك هي المرة الأولى لكنها لم تكن الأخيرة، وسواء كان اتصالها محض صدفة أم لا، فإنها في كل مرة كانت تتصل بها، حيثما كانت تجدني، كان كل ما أسمعه هو صوت كريستوفر وهو يبكي. في كل مرة كنت أشعر بمعاناة تسري في سائر جسدي. لكن من خلال تدريبي في القوات البحرية، ومن خلال السكون الذي شاهدته في أمي عندما كانت تهان، تعلمت ألا أنطق بشيء وعندما كانت تعجز عن استفزازي كانت تغلق الخط. ظل صدى صوت السماعة وهي تغلق، يرن في إذني لمدة طويلة بعد أن كنت أترك السماعة من يدي.

في كل مرة كنت أتهيأ ذهنيًا وكأن عقلي يحتوي على مذياع أستطيع تغيير قنواته، والانتقال إلى القناة التي تجعلني أستمع إلى ما كنت أدرسه. في بعض الأحيان كان التفكير في بوب ذي ربطة عنق الفراشة يحفزني على الدراسة أكثر، ويذكرني بمتطلبات الاختبار. مع وجود نسبة رسوب تصل إلى ستين بالمئة أو أعلى، غطت الأسئلة السلسلة الكاملة عن وول ستريت -من صكوك مالية، ومنتجات، وأسهم، وسندات، وسندات البلدية، وسندات الشركات، وأسهم قابلة للتحويل، والأسهم الممتازة، والأنظمة- بتفصيل وشمولية نادرًا ما تستطيع تغطيتها مقررات كلية إدارة الأعمال، أو حتى بعض من برامج الدراسات العليا. احتوى الاختبار على مئتين وخمسين سؤالًا متعدد الخيارات، واحتوى أيضًا على عدة أقسام، وكان عليّ أن أنجح بنسبة سبعين بالمئة في أسئلة البورد التي تضمنت الاختيارات، وحقوق ملكية المساهمين، والديون، ومالية البلدية، ومالية الشركات، والأنظمة، والقوانين. وكان الرسوب في قسم واحد يعني الرسوب في الاختبار بأكمله.

استطعت من خلال راتبي أن أجد نزلًا يحتوي غرفًا للإيجار بسعر لا بأس به في أوكلاند، في مكان لا يبعد كثيرًا عن وسط المدينة وبحيرة ميرت.

كان نزلًا رديئًا، لكنه كان نظيفًا باستمرار، وتضمن تقديم ثلاث وجبات في اليوم أو أي شيء كان باستطاعتي أكله أثناء تواجدي هناك. كانت الإقامة فيه مختلفة تمامًا عن أي مكان عشت فيه من قبل، مع وجود أشخاص بالكاد استطاعوا أن يسدوا حاجاتهم، والبعض منهم كان يعاني من مشاكل نفسية أو إدمان ما، والبعض الآخر كان يتهاوى على شفا حفرة التشرد. لم أكن في مكانة تسمح لي أن أصدر أحكامًا عليهم، لكنني لم أستطع الاختلاط معهم. كان ذلك النزل خيارًا مؤقتًا ذا تكلفة معقولة حيث يمكنني النوم فيه، والدراسة، وتناول الطعام في الأوقات التي كنت أعود فيها في وقت تقديم الوجبة في المساء.

استطعت لفترة معينة أن أتناول الطعام خلال فترة النهار متى ما كان يطلب مني أداء وظائف جانبية تقتضي مثلًا تحضير قاعة المؤتمرات لآندي كوبر. كوننا متدربين، لم نكن أنا ودونالد ترنر مسؤولين عن إجراء المكالمات الأولية مع المدراء ومتابعة المراسلات، وإجراء مكالمات أخرى فحسب، بل كنا أيضًا نقوم بترتيب السندويشات والمرطبات الخفيفة قبل بدء المؤتمر. إذا لم يحضر أحد، فإن السندويشات بالتأكيد لن تذهب سدى. ولأنني كنت أجوع باستمرار لذا لم أمانع عندما كانوا يطلبون مني أداء تلك المهمة.

بدأت في نفس الوقت أنظر إلى ما وراء الامتحان، إلى تسلق سلم شركة دين وتر، لكنني لم أكن متأكدًا ما إن كانت كثرة تواجدي ضمن طاقم عمل آندي كوبر هي فكرة سديدة. لم يكن أمام دونالد ترنر -الذي كان أخوه يعمل مسبقًا إلى جانب كوبر- الكثير من الخيارات. لذا فإن جزءًا من سبب غضبه لتلك الدرجة كان يكمن في الضغط الحقيقي الذي كان يقع على عاتقه كي يرتقي لمستوى التوقعات المبنية على أداء أخيه الذي لا يعلى عليه.

كان على دونالد أن ينتج، خاصة أن عالم إدارة الأعمال كان يغرف له بالملعقة -ليس في كل الوقت ولكن في معظم الأحيان- من خلال معارف أخيه، وهذا ما جعل دونالد يبدو شاحبًا طوال الوقت وبشرته أنصع بياضًا. كان في عمري تقريبًا، حليق الذقن، ذا شعر أحمر ممشط من الأمام مثل طريقة تمشيط أولاد المدرسة، وكان يمتلك صوتًا رفيعًا ناعمًا وطريقة ينهي بها عروضه ومكالماته من خلال قول: «حسنًا، مع السلامة.»

أردت أن أدنو منه فقط لأخبره: «لمن بحق السماء تقول مع السلامة؟»

كان يمتلك فن القيادة، أما أنا فكنت أقوم بالاتصالات الباردة.[190] لم أكن أعرف المتصلين، ولم يكونوا يعرفونني، لكنهم كانوا يعرفون اسم الشركة لذا كانوا يجيبون على اتصالي. سمح لي التدريب أثناء العمل بتطوير ثلاث مهارات مهمة: أولًا كان عليّ أن أقوم بحصتي من المكالمات، ومن ثم كان عليّ أن أتعلم كيفية التقييم السريع إذا ما كان الاتصال مجرد دردشة عادية، أم أنه يستحق السعي وراءه، وأخيرًا كان عليّ أن أعرف متى يحين الوقت لإنهاء المكالمة. أصبح هذا الأمر لعبة بالنسبة لي، أن أعرف ما إذا كان العميل المحتمل مستعدًا لقول لا أم أنه سيغلق الخط في وجهي. كان صوت تعويذة المانترا في داخلي يخبرني: سأقوم بإغلاق السماعة في وجهك قبل أن تغلقها في وجهي، لكنني غالبًا ما كنت أقول للعميل: «شكرًا جزيلًا لك، يومًا سعيدًا.» وكأنها كلمة واحدة طويلة.

بهذه الطريقة مهما كانت النتيجة فإنني كنت رابحًا بكل الأحوال. ولكيلا أبدو فظًا كنت دائمًا أقول نفس الشيء: «شكرًا جزيلًا لك، يومًا

---

190) الاتصالات الباردة Cold Callings: هي تقنية يستخدمها السمسار ليحاول بيع الخدمات للعملاء المحتملين عن طريق الهاتف. تعد هذه التقنية أسلوب بيع فعالًا إذا ما طبّقت على الوجه الصحيح.

سعيدًا.» بأوضح وأسرع طريقة ممكنة. ولكي أظل مؤدبًا وعمليًا، لم أكن مضطرًا لسماع كلمة لا أو سماع الأصوات الغاضبة وهي تغلق سماعة الهاتف في وجهي، فالمكالمات لا تنعكس سلبًا عليّ أو على الشركة، ومن ثم كنت أقوم بأجراء المكالمة التالية، أطلب الرقم بالطريقة القديمة المعتادة مع الهاتف الدوار، وكأنني أقوم بتدوير عجلة حظ.

عندما كنت أتوقف عن العمل، ومع عدم وجود أي شيء لأركز فيه، لم يكن لدي أي مكان آخر أذهب إليه في عقلي سوى قلة حيلتي في إيجاد كريستوفر ورؤيته.

علم المتدربون الآخرون أنني كنت انفعاليًا على ما يبدو، لكنني لم أر وجود أي داع لإخبار أي أحد عن مكان إقامتي، أو الظرف الصعب الذي كنت أمر به في حياتي الشخصية. ساعدني ذلك في التفكير مليًا بشيء قالته أمي لي سابقًا عندما كانت تراودني الأوهام في أن أصبح ممثلًا؛ عندما طلبت منها أن تعطيني خمسة دولارات، اقترحت عليّ أن أمثل أن لدي خمسة دولارات. كان ذلك كافيًا ليعدل رأيي عن فكرة التمثيل. لكن كان هناك شيء آخر وراء قولها هذا الذي أصبح وثيق الصلة بما كنت أمر به الآن. مهما كان المبلغ الموجود في جيبي، ومهما بلغ ثمن بدلتي، فإن أحدًا لا يستطيع أن يمنعني من تمثيل دور الشخص الرابح. لا أحد يستطيع أن يمنعني من تمثيل دور الشخص الذي كانت مشاكله على وشك أن تنتهي. سرعان ما أصبح تمثيلي مقنعًا لدرجة أنني بدأت أصدق به أنا أيضًا. بدأت أفكر بالأحداث المستقبلية، كما لو أنني قد تجاوزت الاختبار بالفعل وأصبحت أهتم بتقييم ما سيأتي لاحقًا.

كان هذا ما جعلني في حيرة من أمري بينما كنت أركب مواصلات بارت من أوكلاند ذهابًا وإيابًا كل يوم، وكل ليلة. لقد انتابني القلق حيال

ما يعرف بنظام المحاباة للخدمات المتبادلة بين الموظفين. فقد أدركت من خلال مرافقتي الدائمة لآندي كوبر أنني سينتهي بي المطاف بشكل أو بآخر بأن أعمل لصالحه ملتقطًا ما سيفيض منه. كانت هذه هي إحدى طرق العمل في هذه المهنة، والحجر الأساس للتقدم فيها، ولربما كانت الأكثر أمانًا، لكنها في النهاية ستظل الطريقة الأقل مكسبًا. أما الطريقة الخطرة فقد كانت تكمن في شق مكاني المناسب في العمل بنفسي، وبناء قاعدة من الصفر. بالنسبة لشخص جديد لم ينجح في اختباره حتى الآن، فإن اتخاذ قرار في تبني هذه الطريقة سيفوق الغرور بمراحل وسيكون ضربًا من الجنون. ومع هذا، ومن خلال ما كنت أتعلمه من عملي في المكتب، أدركت أن اللاعبين المهمين كانوا قلة من السماسرة الذين كانوا يعملون بأسلوبهم الخاص؛ حيث إنهم كانوا يكرسون وقتًا في البحث ويجمعون بين الطرق المألوفة وغير المألوفة للحصول على الربح الأكبر لعملائهم ولأنفسهم.

كان ديف تيرس أحد الرجال الذين كنت أراقب عملهم. كان يتاجر في أحد أكبر المكاتب في الشركة بينما يجلس ذوو النفوذ الواسع دون فعل شيء، أما نحن السماسرة الجدد فقد كنا نجلس خلف الستار، ومتى ما استطعت، كنت ألتفت كي أشاهده وهو يعمل بأسلوبه الخاص. كان يعمل بإتقان، بثبات وتماسك وبدون أي خطأ. ربما لم يكن يجني أكثر من آندي كوبر لكنه كان منفردًا في إدارة عمله وكان هذا محط إعجاب بالنسبة لي. اتخذت قراري. بيد أنه كما اتضح في وقت لاحق، لو أنني كنت قد عملت في صفقة الملجأ الضريبي الناجحة حيث كان آندي ورجاله يستمتعون بالعمل بها، لكنت قد تعرضت لنفس الدمار الذي واجههم جميعهم عندما تغيرت قوانين الضرائب.

أتى يوم الامتحان. أصبح دونالد ترنر أكثر عصبية من ذي قبل،

كان يبدو مرهقًا للغاية لدرجة أنني ظننت أنه سيقتل نفسه إن لم ينجح. لم يجر بوب ذو ربطة عنق الفراشة الاختبار الخاص بهذا الامتحان مرة أخرى؛ لأنه على الأرجح كان مشغولًا برفع الشكاوى بسبب الانحياز الثقافي. لربما كان استرخاء أعصابي مصدر إزعاج بالنسبة لدونالد وبعض المتدربين الآخرين. لكنني لم أكن كذلك، فقد تصاعد في داخلي الأدرينالين والتوتر وكأنني محارب يخوض معركة، مجالدًا يستعد لتحدي أكثر خصومه فتكًا، إذا اقتضى الأمر. لكنني كنت مستعدًا، ولم يكن هناك أي شيء يربكني، لم تكن هناك أي أسئلة مفخخة. ولم يكن هناك أي انحياز ثقافي أيضًا. لقد عرفت الإجابات لأن الاختبار كان سهلًا للغاية. في الحقيقة استطعت أن أكمل جواب نصف الأسئلة وتبقى لي الكثير من الوقت، فأخذت الاستراحة وأجبت النصف الآخر عندما عدنا لننهي النصف الثاني من الاختبار.

كان علينا الانتظار لثلاثة أيام كي نعرف النتيجة. كانت هذه مدة كافية لتحدث أخيرًا ردة فعل الفزع المتأخرة في داخلي. ماذا لو لم يكن الاختبار سهلًا كما ظننته؟ ماذا لو لم أميز وجود أي أسئلة مفخخة أو أسئلة احتوت على انحياز ثقافي؟ ماذا لو كان هذا الاختبار على وشك إعلان هزيمتي في نهاية المطاف؟ قمت بتوبيخ نفسي وأعدت تكرار تعويذة المانترا بأنه لا يوجد أي شيء في الاختبار لم يمر عليّ مسبقًا وأن كل شيء سار على ما يرام.

مر وقت طويل حتى أتت المكالمة أخيرًا. كان أحد مدراء الفرع على الطرف الآخر عندما أجبت الهاتف في غرفتي.

"لقد انتهى وقت التشويق." بدأ بقوله هذا، وانتظر ليسمع ردة فعلي.

انتظرت أنا أيضًا، ولم أقل أي شيء.

"لقد اجتزت الامتحان يا غاردنر." قالها ضاحكًا، ولربما كان يعي تنهيدة الراحة والخلاص التي تدفقت من رئتي. استطرد قائلًا: «فبعد كل شيء لقد أحرزت نسبة ثمانية وثمانين بالمئة، لقد أبليت بلاء حسنًا.»

لم أكن فرحًا أو متفاجئًا، كنت ممتنًا فقط. جلست على حافة سريري في غرفتي المؤجرة، أصفي ذهني، ولا أفعل شيئًا سوى التنفس. لم يكن لدي أي أحد لأحتفل معه بنجاحي، لا أحد يفهم ماذا كان يعني لي الأمر. ولم أعرف إن كان دونالد قد اجتاز الاختبار أم لا، لكنني عرفت أن زميلي بوب ذا ربطة عنق الفراشة لم يكن سيفرح بنجاحي.

ماذا كان يعني؟ أن أجتاز الاختبار، لكنه لم يكن سوى اختبار واحد فقط. كان الأمر كما لو أنني ربحت في سباق تأهيل للمشاركة في الأولمبياد. انتهى تدريبي وأصبحت مستعدًا الآن للمنافسة. عدت الآن إلى نقطة الصفر، وعدت إلى إجراء المكالمات الباردة من خلال استخدام دليل الهاتف. كنت سأنشئ دفتري التجاري الخاص بي مهما كلفني الأمر، أقوم بإجراء عدد لا يحصى من المكالمات التي أخاطب فيها العميل أنجز الصفقة، وأعثر على المكانة التي تناسبني. عندما وضعت الشركة استثمارًا في تدريبي أصبح مستوى المنافسة في بعض النواحي أعلى من ذي قبل. لقد تمت العملية بنجاح، وحان الوقت لكي أكون عنصرًا منتجًا، لكن شيء ما قد تغير، لم أعد مضطرًا لإثبات أي شيء بعد الآن؛ أصبحت ثقتي بنفسي كبيرة مثل المحيط الهادئ. لقد نجحت، وأصبحت شرعيًا أخيرًا.

...

في أحد مساءات يوم جمعة، التقيت مع جاكي في مقهى بيركلي بعد مرور شهر تقريبًا، وحاولت جاهدًا ألا أفقد أعصابي مهما قالت لي من كلام جارح.

لقد مرت أربعة أشهر على تركها لي وأخذها لابني ولسيارتنا التي لم أرها مرة ثانية، تاركة إياي في رعاية العدم والإهمال. كان هذا لوحده أمرًا غريبًا، لكننا كنا قد عدنا لتونا من المحكمة حيث اتخذت الأمور منحى غريبًا آخر.

في الأيام التي سبقت يوم المحكمة كانت قد أجرت بعض الاتصالات وتكلمت معي بالفعل، رافضة أن تدعني أتكلم مع كريستوفر أو أن تعطيني أي معلومات عن مكان تواجده. لكنها رمت لي طعمًا بخصوص بعض التفاصيل مثل حقيقة أنها علمت نفسها قيادة عصا مبدل السرعة اليدوي كي تتمكن من قيادة السيارة عبر البلاد، وأنها قامت بتوكيل محامٍ. كان محاميها "أخًا أسود" شخصًا سأشير له بمصطلح «ممل اجتماعيًا» جاف المشاعر ومضجر، لا يمثل أي مصدر للتهديد. رغم أنني كنت أظن أنها كانت تعني أخاها المحامي، لكني عندما دخلت إلى جلسة الاستماع مع محامي -الذي كلفتني أجوره معظم راتب الشهر الأول في وظيفة السمسرة- إلا أنني وجدت أن تمثيلها الادعائي تألف من شخص تابع لمكتب محاماة محلي، يمثل الولاية، وضابط الشرطة الذي ألقى القبض علي.

كانت المفاجئة الثانية هي قرار جاكي بعدم رفع دعوى ضدي، بمنتهى البساطة. أما تحليلي للأمر كله، سواء كان خطأ أم صوابًا، فهو أن كل ما حدث كان وسيلة اتخذتها جاكي لكي تتواصل معي، وقد أيد ذلك اقتراحها بأن نذهب إلى مكان ما لكي نتحدث.

لا بأس في ذلك، ها نحن هنا. يبدو أنها تعرف محل إقامتي، وكأنها كانت تضعني تحت المراقبة، مما يشير إلى أنها تعلم بنجاحي في الاختبار لكن ليس لديها ما تقوله حيال الأمر. من المؤكد أنها تشعر بالمرارة؛ فبعد كل شيء، هي لم تؤمن أبدًا بقدرتي على النجاح دون امتلاكي لشهادة كلية، أو ربما

كانت تبرز أمامي عدم شعورها بالأمان، أو ربما كان هناك أشخاص يخبرونها بأنها فوتت فرصتها في لحاق حلمها بينما كنت أنا أسعى لتحقيق حلمي. أيًا كان السبب، فهي بالطبع لم تهنئني على حصولي على رخصة مزاولة المهنة. ولكن من ناحية أخرى، كانت تملك شيئا لم أكن أملكه: ابننا، وبالطبع كان لديها أغراضي. لم يكن الأمر يعني أنني احتجت استخدام أغراضي في الحال، نظرًا إلى محل إقامتي المؤقت الذي لن يتغير على المدى القريب.

عدم الانضمام لجماعة كوبر لم يكن القرار الأصوب في بادئ الأمر؛ فمن حيث العمولات، كنت أكسب ما يقارب الألف ومئتي دولار في الشهر، وعلى الرغم من أنه كان باستطاعتي أن أكسب أكثر من ذلك المبلغ إن كان لدي استعداد لمساعدة آندي في التخطيط لصفقات أكبر كي يحصل على عمولة لنفسه بينما أستحوذ أنا على بعض من صفقاته الصغيرة متى ما أصبحت متوفرة. عوضًا عن ذلك أردت الاستيلاء على الصفقات الصغيرة والكبيرة لي وحدي، حتى وإن لم يكن هناك أي وعود بأنني سأحصل على أحداهما. كان ذلك اختياري؛ كان لدي طموح كبير وإمكانيات قليلة. اقتربت من لعبة الأرقام بعيون مفتوحة، وأنا مدرك تمامًا أن (س) رقم من المكالمات يساوي (س) رقم من العملاء المحتملين ويساوي (س) رقم من المبيعات ويساوي (س) رقم من العملاء ويساوي (س) رقم من العمولات الإجمالية، أو الدولارات في جيبي. من أصل مئتي اتصال، كان المعدل في أحسن حالاته يصل إلى عشرة عملاء جدد أتعامل معهم لأول مرة، وكان نصف هذا العدد يتحول إلى عملاء مكررين، وهنا كان يكمن منبع المال. كنت أؤدي عملي الخاص بي، كما لو أنني كنت خط تجميع يقوم بتدوير مهمة الاتصال، ويطلب الرقم، ويبتسم. كنت بارعًا في عملي لدرجة أن بعض السماسرة الأقدم مني أصبحوا يقدمون لي عروضًا للتعاون معهم،

كي أساعد في زيادة أرقامهم. متى ما كانوا يأتون لي، ودون أن أكون جاحدًا، كان جوابي المعتاد: «لا، لا أعتقد أنني سأوافق على ذلك، أنا فقط أريد أن أنشئ دفتري التجاري الخاص بي، لكنني أشكركم لأنكم فكرتم بي.»

هذا الأمر جعلني أحصل على لقب "سمسار اليوم" باستمرار. في البداية كان هذا اللقب يبدو بمثابة تكريم بالنسبة لي، وخطوة إلى الأمام. سمسار اليوم كان المرشد الذي يقصده أي عميل ليس لديه سمسار أو حساب لدى الشركة. عادة ما كان هؤلاء العملاء يأتون بغرض معرفة معلومة معينة أو كان لديهم فكرة مسبقة عن شيء قد يرغبون بشرائه. رغم أن الطابع الغالب على سان فرانسيسكو كان السلام والحب الحر منذ سنوات ليست بالبعيدة، إلا أن الانحياز العنصري كان حاضرًا أيضًا في عام 1982، فسرعان ما تبين أن هؤلاء العملاء لم يتوقعوا رؤية سمسار أسود. أضاف ذلك حلقة أخرى إلى سلسلة التحديات التي واجهتني، لكنني تصرفت وكأنها لم تكن مسألة مهمة وكنت أعرض عليهم مساعدتي الكاملة: «كيف حالك؟ لقد فهمت أنك ترغب بالاستثمار لدى المؤسسة الوطنية الحكومية للإقراض العقاري؟ سوف أشرح لك التفاصيل.» أو: «هل ترغب في ادخار بعض النقود من أجل أحفادك؟ نعم دعني أخبرك ببعض الاقتراحات.»

بعد أن كنت قد أرسيت قواعد العمل وقمت بتحرير السند أكثر من مرة، كنت أعلم فيما بعد أنني لم أحصل على عمولتي. لماذا؟ كان مدير الفرع يجيبني في مثل تلك المواقف: «في الواقع، لقد أرادوا شخصًا يمتلك خبرة أكثر.» أول مرة حدث فيها موقف كهذا شعرت بغضب شديد، لكنني في المرة الثانية واجهت رئيس عملي: «دعني أرى إن كنت قد فهمت الأمر جيدًا، إنهم في الأساس يشترون سهمًا في شركة كومنويلث إديسون، أليس كذلك؟ كي يحصلوا على العائد الربحي، والإيراد، وهذا لن يتغير بناء على من

سيحصل على العمولة. السهم نفسه، والشركة نفسها لكنهم أرادوا شخصًا ذا خبرة أكثر قليلًا؟ شخصًا يحصل على العمولة التي أضع أنا الأساس لها؟"

لم يتطلب الأمر الكثير من الذكاء. الواقع كان يقول إن معظم الأشخاص لم يتعاملوا من قبل مع رجل أسود ولم يرغبوا بذلك، بالرغم من أنني كنت أعمل ببراعة وكنت أجلب لهم المال. لكنني تعلمت أنه كان بمقدوري أن أرفض لقب سمسار اليوم، لذا عدت إلى إجراء المكالمات والابتسامة. الدرس هنا لا ينطبق بالضرورة على بقية الأشخاص، ولكن الأمر أصبح واضحًا بالنسبة لي أن عملي في المكالمات أفضل من التعامل المباشر مع العملاء. وإن كان بإمكاني أن أجعل أحدهم يشعر بالإثارة حول وجود فرصة لكسبه بعضًا من المال، وإن كان بإمكاننا أن نتواصل عبر الهاتف، فستكون هذه هي الوسيلة لمواصلة الدرب. إضافة لذلك، كان باستطاعتي أن ألجأ إلى استخدام أي لهجة في أي وقت، وأي يوم، لذا لم يكن صوتي ليدل على أنني شخص أسود عبر الهاتف. لربما نبع ذلك من خلال براعتي في تعلم لغات أخرى: كلغة الموسيقى، والطب، والمالية، والأنجلوسكسوني، أو أي لغة أخرى. ثم إن اسم كريس غاردنر لا يوحي بوجود أي أصل عرقي، لذا كنت أستطيع أن أكون أي شخص من أي خلفية.

أصبح الهاتف درعي الخفي. في الحقيقة كنت لا أشجع العملاء الجدد على زيارتي في المكتب، وكانت تلك هي إحدى الطرق التي يحبذها سماسرة آخرون في إتمام صفقاتهم مع العملاء. «حسنًا، هذا ما سنقوم بفعله.» هذا ما كنت أقوله حالما نقرر أننا سنعمل مع بعضنا: «دعنا نفتح لك حسابًا، أرسل لي شيكًا مصرفيًا، وسوف تقوم الشركة بإرسال التأكيدات لك، وسوف نتابع عملنا معك بصورة مستمرة. هل ستقوم بإرسال الشيك اليوم أم أنك ترغب بإرسال حوالات مصرفية؟»

عندما كان العملاء يرغبون بالقدوم إلى المكتب، كنت أقول لهم بمنتهى السهولة: «لا داعي للمجيء، لأن الأمور هنا تكون حافلة بالجنون. دعونا ننهي الأمر عن طريق الهاتف.»

بعد مرور أربعة أشهر على ترك جاكي لي وأخذها لكريستوفر، كنت قد بدأت بالفعل أنجح بعملي، لكن لم يسفر عن ذلك أي تغيير ملحوظ في مستوى دخلي؛ لم يكن لدي أي مؤشر ظاهري لنجاحي إلى الحد الذي يجعلني أتبختر أمام جاكي.

بدلًا عن ذلك، سمحت لها بمعرفة القليل عني مثلما كانت تفعل هي بعدم السماح لي بمعرفة إلا القليل عن ابني. لكنها قامت أخيرًا بتمرير مفتاح لي وأخبرتني عن مكان الخزانة التي تحتوي على حاجياتي، غير أن أكثر ما كنت أريده، رفضت إعطائي إياه: ابني. دون أن ترتسم على وجهي أي ردة فعل معينة، وضعت المفتاح في جيبي ورحلت، لكنني كنت أتهاوى من الداخل.

حسنًا، أعتقد أنني، قبل أن أعود لأوكلاند لم يكن لدي أي مكان بعد لأضع فيه حاجياتي، لكن على الأقل، كان بإمكاني أن أخرج بعضًا من الملابس، وحقيبة مستنداتي الأمينة التي اشتريتها قبل عام تقريبًا عندما قمت بأول غزوة على عالم الأعمال.

في وقت لاحق من تلك الليلة في الغرفة المأجورة، وبينما كنت أعرض بدلتي للهواء وألمع حذائي الذي أخرجته من الخزانة، وقفت وقفة إعجاب بملبسي، وبحقيبة مستنداتي الجلدية، بنية اللون، ماركة هارتمن -أنفقت عليها ما يقارب المئة دولار لكنها كانت تعادل ضعف ثمنها- في تلك اللحظة سمعت صوت طرق قوي على الباب. ذكرني وقع الطرقات الثلاث -طرقة قصيرة ثم قصيرة ثم طرقة طويلة- بطريقة جاكي في طرق الباب لكنني

استبعدت أن تكون هي.

فتحت الباب ووجدتها تقف أمامي، لم تكن لوحدها، فقد كانت تحمل بين ذراعيها كريستوفر. ابني، طفلي! لقد أصبح تسعة عشر أو عشرين شهرًا الآن، لكنه بدا وكأن عمره ثلاث سنوات، وأكثر جمالًا مما كنت أتصور في صحوتي ومنامي. ما بين صدمتي ونشوتي، لم أعرف ماذا عليّ أن أقول.

صدمت أكثر وشعرت بنشوة أكبر عندما سلمته جاكي لي بينما قالت لي: «تفضل.» أخرجت من خلفها حقيبة ضخمة مصنوعة من القماش الخشن مليئة بالأغراض وعربته الزرقاء الصغيرة، ومن ثم قالت مرة أخرى: «تفضل.»

حملت كريستوفر وحضنته بكل قوتي غير مدرك ماذا كان يحدث.

بدأت أدرك ببطء أنها لم تكن مجرد زيارة عادية بل جاءت في الحقيقة لتترك كريستوفر تحت رعايتي. رغم أنها لم تقل إلا القليل، لكنني كنت أعرفها معرفة كافية جعلتني أدرك أنها طفح كيلها ولن تستطيع أن تعتني به أكثر من ذلك.

أصبح الأمر واضحًا من خلال حديثنا المختصر أنها شعرت بالضغط جراء تربية طفل كأم عزباء، في نفس الوقت الذي كانت تؤسس فيه لحياتها العملية. شعرت أيضًا بندمها لأخذه مني خارج الولاية وعدم ترتيبها للقاء مشترك فيما بيننا في وقت سابق، لكنها لم تعبر عن أي مما سبق من خلال الكلام. لكنها قالت لي ماذا كان يوجد داخل الكيس المملوء، من ضمنه رزمة ضخمة من حفاظات البامبرز، وما يحتاج أن يأكله وكم عدد الوجبات، وما كان يمنع من تناوله "الحلوى ممنوعة" ومن ثم ودعت كريستوفر ورحلت.

أخبرت كريستوفر مرارًا وتكرارًا: «لقد اشتقت لك! اشتقت لك!»

"أنا أيضًا اشتقت لك بابا." أصبح الآن يتحدث جملة كاملة مستخدمًا إحدى تعبيراته الحكيمة، وكأنه قد كبر وتغير وأصبح يعرف بأننا قد نواجه طريقًا صعبًا.

أو لربما هذا ما فكرت به. لكن أيًا كان ما سيحدث، هناك شيئان كنت متأكدًا منهما: الأول أن ابني أصبح في حضني ولا أحد على وجه الأرض يستطيع أخذه مني مرة ثانية، تلك قاعدة الكون الآن. وثانيًا -وكنت أعلم مسبقًا أنها حقيقة- لقد أصبحنا مشردين في التو واللحظة.

...

يتغير الوقت عندما تصبح مشردًا بلا مأوى، ويختل ترتيب فصول السنة، كل هذا حدث في يوم واحد، خاصة في سان فرانسيسكو التي تحدث فيها الفصول الأربعة على مدار السنة. شعرت خلال ساعات العمل في النهار، أن الوقت يمضي بسرعة، أما ساعات الليل وعطل نهاية الأسبوع فقد كانتا قصة ثانية؛ كانت الساعات تمشي وكأنها سلحفاة مشؤومة تزحف ببطء.

حتى ذاكرتك تتغير عندما تصبح مشردًا؛ تتجول دائمًا حول مكانك، الجغرافية تتغير، لا تمتلك أي عنوان، ولا أي نقطة ارتكاز تعود إليها عندما يطرأ معك أي حدث. يصبح من الصعب عليك أن تتذكر سواء حدث شيء قبل أسبوع أم قبل شهر، أم حدث البارحة أم قبل ثلاثة أيام.

كيف أصبحت مشردًا في لحظة واحدة، خاصة أنني أصبحت الآن سمسارًا يعمل لصالح شركة دين وتر؟ لأن الأطفال لم يكن يسمح لهم بالتواجد في الغرفة المؤجرة. لم يكن هناك أي استثناءات. حتى الأيام التي كنت أنام فيها على أريكة أحد الأصدقاء انتهت أيضًا. كنت أفرض نفسي بما فيه الكفاية عندما كنت ضمن برنامج تدريب المبتدئين، لكن أن أطلب مكوثي لبضع ليال وأضيف قائلًا: «آه، بالمناسبة، معي ابني أيضًا؟»، لم

يكن الأمر ليجدي نفعًا. أما النساء اللاتي كنت أعرفهن فقد كن مولعات بي في السرير لكنهن لم يكن سيعجبن بي وأنا قادم لهن ومعي طفل صغير فضولي وثرثار.

كانت ضربة الحظ الوحيدة لدى محاولتي لإيجاد مكان جديد هي أن ذلك اليوم كان جمعة، عندما أتت جاكي ومعها كريستوفر، الأمر الذي منحني تلك الليلة لأبيت فيها في الغرفة المؤجرة قبل أن يتم طردي في اليوم التالي. منحني ذلك أيضًا مهلة نهاية الأسبوع كي أجد لنا مكانًا لنبيت فيه، ومركز رعاية نهارية ابتداء من يوم الإثنين.

انطلقنا أنا وكريستوفر إلى الطرقات في يوم السبت بكل سرعتنا، وكان كريستوفر يجلس في عربته، بينما كنت أنا أتدرب على وضع التوازن الذي كان سيصبح شيئًا اعتياديًا، متوجهين نحو عارضة «هاوسترو»(191) كي أبحث عن سعر بعض من عروض الفنادق. أصبح يدور في داخلي جدال كبير حول الأسئلة التالية: ماذا سأفعل؟ كيف سأتخطى هذا الظرف؟ قالت إحدي خيوط أفكاري: «لدي ابني، ولن أتخلى عنه، وهذا خيار غير قابل للجدل.» صوت آخر في داخلي ذكرني: «لا توجد خطة بديلة هنا، وليس هنالك فارس سيأتي ليساعدنا.»

وصلت تكلفة مركز رعاية الأطفال النهارية في سان فرانسيسكو إلى أربعمئة دولار في الشهر وهو مبلغ لا يمكن تدبره. أما مبلغ الإيجار فيمكن أن يصل إلى ستمئة دولار على الأقل، وهذا من شأنه أن يقضي على راتبي كله

---

191) هاوسترو Hostro: هي نموذج متعدد الصفحات مصمم لخدمات عروض الشقق والمنازل المتوفرة. يلاحظ في الكتاب الأصلي أنه شُدّد على أول مقطع من هذه الكلمة، حيث إنها كتبت بهذا الشكل HO-stro وكذلك هو الأمر بالنسبة لكلمة الفنادق HO-tels وأماكن تجول بائعات الهوى HO-stroll، ويشير الكاتب في نفس المقطع إلى أن التشديد على هذه المقاطع من تلك الكلمات لم يكن محض صدفة.

بعد استقطاع الضرائب، لذا لن يتبقى لنا أي مبلغ للطعام، أو المواصلات، أو الحفاظات. اتصلت ببعض الأصدقاء عبر الهاتف العمومي لأسألهم إن كان لديهم أي اطلاع على تسهيلات مركز الرعاية النهارية في شرق الخليج. وجدت أحد المراكز الجميلة لكن تبين أيضًا أنه يفوق ميزانيتي، إضافة إلى أنهم لا يقبلون الأطفال الذين لم يُدرّبوا على استخدام القعادة.

أخبرته بينما كنا نهم بالخروج: «حسنًا يا كريستوفر، سوف نجد حلًا لذلك، حسنًا يا ولدي؟»

وبينما كنت أنظر من حولي، آملًا أن لا يمضي وقت طويل حتى أتمكن من تحمل تكاليف دخوله في مركز كهذا، لاحظت أن إدارة الرعاية النهارية تضع لافتة على الحائط تعلن فيها أن المركز هو مكان "السعادة[192] - أتش - آي - بي - بي - "واي - أن - أي - أس – أس."

للحظة بدأت أشك في عقلي كيف يمكن لمكان يرعى الأطفال ألا يستطيع كتابة إملاء كلمة «السعادة» بشكل صحيح. من بين جميع الأشياء التي كان عليّ أن أقلق منها لم تكن تلك إحداها. ومع هذا وأثناء سيرنا في الشارع شعرت بحاجاتي إلى أن يعرف ابني الإملاء الصحيح لتلك الكلمة وبأنها تكتب بحرف «آي" وليس «واي»: أتش - آي - بي - بي - "آي" - أن - أي - أس - أس.

"حسنًا يا بابا." قال كريستوفر، وبدأ يردد قول حروفها: " أتش، آي، بي، بي، "آي"، أن، أي، أس، أس."

"تلك كلمة كبيرة." قلت له، متمنيًا أن يكون بإمكاني توفير السعادة له ولنفسي أيضًا في المستقبل القريب.

---

192) سعادة HappYness: كتبت الكلمة بإملاء خطأ بوجود حرف Y بدلاً عن I ولذلك تمت تسمية الكتاب الأصلي بهذا الشكل.

لم تكن القدرة على معرفة الإملاء الصحيح شغلي الشاغل عندما اتصلت بالأرقام التي أعطيت لي، وكان الرقم الأول للآنسة ليولين التي تعمل في مركز رعاية نهارية والآنسة بيسي التي تعمل في مركز رعاية أخرى، ومركز آخر يقع في شارع خمسة وثلاثين: عبارة عن نساء يقمن بمجالسة الأطفال على أساس منتظم لكنه لم يكن كتلك المراكز المرخصة والمسجلة. أخبرتني المرأة في شارع خمسة وثلاثين أن أحضر كريستوفر يوم الإثنين في الصباح الباكر، وأخبرتني أنني أستطيع أن أدفع لها بشكل أسبوعي مئة دولار. لم يكن لدي مدخرات حقيقية فيما عدا تلك التي كنت سأدفعها لدى ذهابي. على الرغم من أن ذلك المكان لم يطمئنني بأن كريستوفر سيتلقى فيه الرعاية الأفضل، لكنه كان أفضل من لا شيء.

استطعت توفير غرفة لنا لنبيت فيها في ذلك اليوم بغرب أوكلاند في شارع ويست، في فندق النخيل الذي سمي بهذا الاسم تيمنًا بالنخلة الموجودة في فناء الفندق ونخلة ثانية في الركن على بعد مئتي قدم. ما لاحظته أن النزلاء الوحيدين الموجودين هناك، إضافة إلينا، كانوا بائعات هوى. لم يزعجني وجودهن، فكل ما كان بإمكاني فعله في الوقت الحالي هو توفير غرفة بأسرع ما يمكن، ومن ثم أغلق الباب جيدًا، وأرفع صوت التلفاز عاليًا لأتأكد من أننا لن نسمع أي أصوات من أي نوع.

كلفتني الغرفة خمسة وعشرين دولارًا في اليوم حيث تضمنت وجود تلفاز ملون، وسرير واحد، ومكتب، وكرسي، وحمام. لكن لا بأس، فها نحن هنا الآن. هذه هي فلسفتي الجديدة: أينما سنكون، فنحن هنا، وهذا هو مكاننا، وسوف نستغل أفضل ما فيه، بالنسبة للوقت الحالي.

عندما تمكنت من إزاحة غشاوة المكان والزمان عن عيني والنظر إلى الصورة الكبرى، كان الواقع يقول بأنني قد أصبح لدي العمل والفرصة التي

كانت ستغير من أوضاعنا، وحياتنا إلى الأبد. لا يمكن لأي شيء أن يزعزع اقتناعي، ولا حتى حساباتي العقلية والفعلية لما تبقى لي بعد تكلفة فندق النخيل ومجالسة الأطفال، أو حتى صراخ كريستوفر ونحيبه الذي بدأ لحظة دخولنا إلى مكان مجالسة الأطفال.

آلمني صراخه، ولربما استطاع أن يشعر بترددي في تركه مع أناس غرباء والرحيل عنه، لكن لم يكن لدي خيار آخر. كل ما استطعت فعله هو طمأنته: «سأعود إليك، سأعود إليك.» ابتعدت عنه ودموعي تنهمر، وبقيت أكرر: «سأعود إليك.»

عندما عدت لآخذه في ذلك المساء، ركض نحوي وقفز بين ذراعي، ذكرته: «ألم أقل لك بأني سأعود إليك؟»

لكن في صباح اليوم التالي كان الأمر أسوأ؛ كانت معاناة بالنسبة لي أن أخرجه من الفندق وأضعه في عربته، وكان ينحب في اللحظة التي كنا نصل فيها ناصية شارع خمسة وثلاثين، أما أنا فكنت أغني له طوال الطريق: «سأعود إليك، سأعووود إليك، سأعوووووود إليك.»

بدأت الأيام والصور تطاردني وأصبحت الليالي أطول، والهواء أبرد وأرطب. كنت عادة بعد مروري لإحضار كريستوفر من المركز آخذه لنأكل شيئًا في مكان دافئ ورخيص، حيث أستطيع أن أرفّه فيه عن نفسي مع صديقي الصغير، وأقول له: «لا، لن ينفع الأمر. فندق النخيل غالٍ للغاية، يا رجل. أتذكر منزلنا؟ ذاك الصغير في بيركلي، لقد كان ملكنا، هذا المكان مؤقت ولن يستمر إلى الأبد.»

جعد كريستوفر حاجبه متجهمًا.

كيف لي أن أشرح له أو لنفسي؟ فالأمر لا يتعلق ببائعات الهوى، ومدمني المخدرات، ومدمني الخمر، وحياة الشارع البائسة فقط، وإنما هو

الشعور بعدم الاستقرار، وألا يكون لدي بيت أو أشخاص يدعمونني. هو ذلك الشعور بالضوضاء والأضواء الخارجية كون الفندق يطل مباشرة على المنطقة التي ترتادها فتيات الليل، مع مرور العربات، وأصوات أبواق السيارات، وعزف الموسيقى، وصراخ الناس. ساعد التلفاز بتقليل بعض من تلك الأصوات، بما يكفي لأفكر مليًا بكل الخيارات المتوفرة أمامي، لأركز فيما سأفعله وكيف سأفعله.

بين الحين والآخر كانت صفة الطيبة تظهر لي من حيث لا أدري، وفي أقل الأماكن المتوقعة، كما حدث معي في أحد المساءات عندما عدنا إلى الفندق، واقتربت منا إحدى فتيات الليل التي تعمل في الشارع. كانت هي وزميلاتها قد رأيننا أنا وكريستوفر الجالس في عربته في كل صباح وكل ليلة، ومن المحتمل أنهن عرفن ما كان يحدث معنا. رجل أسود مع طفله الصغير في عربته، أب أعزب، لم يصادفن مثل حالتنا من قبل.

"مرحبًا، أيها القواد الصغير." قالت لي عندما اقتربت مني، وفي يدها لوح شوكولاتة تريد إعطائه لكريستوفر: «تفضل خذه.»

"لا، لا" أصررت عليها كي لا تعطيه، محافظًا على قاعدة جاكي بعدم تناوله للسكر.

أصيب كريستوفر، بكل أسف شديد، بخيبة الأمل وبدأ يبكي. «لا تبكي.» قالت له، وأدخلت يدها في فتحة صدرها الساحرة وأخرجت خمسة دولارات وأعطتها له.

هل كان لدي أي اعتراض؟ كلا، كان كريستوفر سعيدًا للغاية، بدا وكأنه قد فضل المال على الحلوى، يا له من ولد ذكي.

تمتمت قائلًا: «حسنًا، شكرًا لك.» لم أكن أدرك ما إذا كانت تعلم بأن هذه الخمسة دولارات ستمكننا من تناول العشاء في مطعم موسيل،

الذي يقع على ناصية الشارع، وهو مطبخ تقدم فيه مأكولات غذاء الروح التي أحببناها أنا وكريستوفر.

بدأت نفس الفتاة وبعض من فتيات الليل الأخريات، بإعطاء كريستوفر خمسة دولارات على نحو منتظم. في الحقيقة، مرت أيام لم نكن سنأكل فيها من دون مساعداتهن. في أكثر اللحظات جوعًا التي مررنا بها، عندما كنا لا نملك أي نقود، كنت أقوم بدفع العربة عن قصد من جانب الرصيف الذي كن يقفن على ناصيته، أتحرك ببطء تحسبًا ألا يكن قد بدأن عملهن بعد. كان هناك نقاء في مساعدة تلك النساء لنا، ودون أن يطلبن أي شيء بالمقابل. كانت طيبة مطلقة بمنتهى البساطة والنقاء. في الأيام التي لم نكن نعلم فيها كيف ستمر علينا، كنت أتخيل أننا نجول في الصحراء، وأنا أعلم بأننا كنا ننقاد إلى أرض موعودة وبأن الرب كان يرسل لنا المن[193]، ليطعمنا بأكثر الطرق تفردًا.

منذ ذلك الحين فصاعدًا لا أحد كان يستطيع أن يقلل من شأن أي فتاة ليل أمامي. بالطبع أنا لا أؤيد الدعارة لكن هذا هو عملهم وليس عملي.

كان عملي هو وول ستريت، فقط لا غير.

في العمل كنت أقوم بإجراء الاتصالات وأبتسم وكنت سأصبح قريبًا سيد الهاتف، ورجل مبيعات الاتصالات الباردة الأعظم. كان عملي هو قوة حياتي. كنت أجري مئتي اتصال ومع كل واحد من هذه الاتصالات كنت أحفر لأخرج نفسي وأخرج كريستوفر من حفرة الفقر، ولربما كنت أحفر بملعقة شاي صغيرة، لكني كنت أتقدم شيئًا فشيئًا. تصاعدت

---

193) المن Manna: وفقًا للكتاب المقدس والقرآن الكريم، هو غذاء سماوي منّ به الرب على بني إسرائيل وكان يسقط عليهم من السماء خلال أسفارهم في الصحراء، عندما ابتلاهم بالتيه لأربعين سنة بعد كفرهم وعنادهم.

الحاجة الملحة لتغيير وضعنا، وكانت تزداد حدتها أكثر عندما كنت أنظر إلى ابني وأضطر لتركه كل يوم، وأنا أعلم أنني لا أملك حتى رفاهية التحلي بالإيجابية ومواظبة الصبر. لا، لابد لي أن أذهب إلى هناك «اليوم.» ليس الأمر أنني أستطيع أن أمرح قليلًا، ومن ثم أبدأ في «الغد.» بالطبع لا، فلابد لي من الاهتمام بكل شيء "الآن." فليس هناك من يسلمني الأعمال باليد، فأنا لست دونالد ترنر الذي يعمل أخوه في الطابق الأعلى، ولست أحد المخضرمين في هذا المجال ممن لديهم دفاتر تجارية ويقومون فقط بخدمة العملاء. الأمر كله يقع على عاتقي أنا وحدي. كل مكالمة أجريها هي فرصة لأقترب أكثر من امتلاك مكان خاص بنا، ولعيش حياة أفضل، ولتحقيق حياة السعادة لي ولابني.

دون أن أبدي أي إيضاحات، كنت أُحضر كريستوفر للعمل معي في عدة مناسبات، وكانت هذه علامة أخرى لاجتهادي بالنسبة لزملائي في العمل. بعد ذهاب الجميع، عادة في الساعة الخامسة مساءً، أو الخامسة والنصف على أبعد تقدير، كنت أبقى وحدي، وأستمر بإجراء المكالمات، ثم كنا أنا وكريستوفر نتمدد وننام تحت المكتب. أما بقية أرجاء المكتب فقد كنت أستخدمها لأغراض بقائي لوقت متأخر، ولم يشك أحد في وجود أي شيء غير طبيعي على الإطلاق. كان البعض من زملائي مسرورين بي، ويشجعونني بكلماتهم المعتادة: «اذهب ونل من المتصلين.»

في الصباح كانوا يتصرفون بنفس الطريقة عندما كان يصل أغلبهم في الساعة السابعة والنصف، أو الثامنة ليجدوني على مكتبي، أجري اتصالاتي، أما كريستوفر فقد كان مشغولًا بكتاب تصويري أو كان يخربش على الورقة. ولكيلا يسترعي انتباه أحد إلى وجوده معي، كانت لديه موهبة غير طبيعية في اللعب لوحده كي لا يشتت انتباهي عن عملي.

الشخص الوحيد الذي بدا متحيرًا من الأمر كله هو مدير الفرع الذي عادة ما كان يصل أول شخص كل يوم. لم يقل يومًا أي شيء، لكنني كنت متأكدًا أنه كان يتساءل عن طريقة تمكني من الوصول قبله، ومعي طفلي أجرجره معي في كل مكان.

لا أحد هناك على حد علمي كان يعرف أنني كنت أنام تحت المكتب مع كريستوفر، في تلك الليالي عندما لم يكن لدي أي مكان آخر لأذهب إليه، أو أنني كنت آخذه إلى مجالسة الأطفال في الصباح الباكر، وأعود لآخذه في المساء، ومن ثم أعود إلى المكتب في نفس اليوم. كل ما كانوا يعرفونه هو أنني كنت متعطشًا للنجاح، لكنهم لم يتخيلوا مدى تعطشي حرفيًا.

كانت ظروفي جزءًا مما كان يدفعني للمضي قدمًا. وكوني عقدت العزم على إنشاء دفتري التجاري الخاص بي، فإن الأمر كان سيستغرق وقتًا أطول قبل أن أرى الدولارات تتدفق في جيبي. بدأت بداية بسيطةً، في بناء الثقة مع العملاء، وتطوير العلاقات، وكأنني كنت أزرع بذورًا، وأقوم بسقيها، وأنتظرها لتكبر حتى يحين وقت الحصاد. كانت عملية لها مدارها الخاص بها، استمرت غالبًا من أربعة إلى ستة أشهر، وفي بعض الأحيان كانت تستغرق وقتًا أطول. هذا التشبيه الزراعي أخذ مني وقتًا طويلًا حتى وجدت نفسي قد أصبحت في فصل الشتاء مباشرة، وعلمت حينها أن الأحوال ستضيق للغاية حتى يحين فصل الربيع. لذا قمت بتقليل إنفاقنا، وحرصت على أن أكون قد أخذت كل حاجياتنا معي كل يوم، حاملًا حقيبة القماش الخشن، وحقيبة المستندات، وكيسي البلاستيكي المتدلي على كتفي، ورزمة البامبرز، والمظلة وقمت بالانتقال من فندق النخيل، حيث بلغت تكلفة الغرفة في الليلة الواحدة مع وجود تلفاز ملوّن خمسة وعشرين دولارًا، إلى فندق شاحنات وفر لنا غرفة مع تلفاز أبيض وأسود بتكلفة

بلغت عشر دولارات في اليوم. أصبح جيراننا الآن أغلبهم سائقي شاحنات وبائعات هوى يقدمن الطعام لأولئك الزبائن المارين قبالة الطريق السريع. وقع على عاتقي حمل ثقيل جديد، فبعد تناول الطعام كنا نعود إلى غرفتنا كل ليلة ونغلق الباب علينا جيدًا، رافضين الخروج حتى لو كان الجو جميلًا في الخارج.

أما خلال عطل نهاية الأسبوع، عندما لم يكن هنالك مطر، كنا نستغل متنزهات سان فرانسيسكو العامة لنحصل على أوقات ممتعة بالمجان. كانت إحدى محطات توقفنا المفضلة هي ملعب الأطفال في متنزه البوابة الذهبية، حيث كان كريستوفر يلعب في صندوق الرمل أو يتسلق ألعاب الغابات بينما كنت أجلس في أرجوحة، أفكر كيف سنتمكن من تخطي اليوم إلى الغد. ذات يوم تبقى لدي من النقود ما يكفي لأحد الأمرين: إما لإعادتنا إلى أوكلاند من خلال ركوب مواصلات بارت والبقاء في فندق الشاحنات، أو ليجلب لنا ما نشربه ونأكله من عربة تبيع الوجبات الخفيفة والمرطبات.

"لن تشرب شيئًا يا كريستوفر." حاولت أن أهدئ من روعه حينما بدأ يبكي. "سوف نشرب شيئًا ونأكل فشارًا في المرة المقبلة." لقد آلمني هذا الموقف جدًا.

واجهت نفس المعضلة في المرة التالية، فاشتريت له ما أراده، لأنني لم أستطع أن أرفض هذه المرة. كانت هذه واحدة من الليالي ذات الهواء المعتدل بالقدر الكافي الذي يسمح لنا بالنوم، أو محاولة النوم على زاوية عشبية في ساحة الاتحاد، بمكان ليس ببعيد عن ذاك الذي رأيت فيه الرجل الذي حاول أن يتحرش بي والذي أطلق على سان فرانسيسكو «باريس المحيط الهادئ.»

نمنا قريبًا من جانب المتنزه الذي يقع أسفل فندق حياة في ساحة الاتحاد، لم يكن فندقًا فخمًا كبقية الفنادق الموجودة في الحي، لكنه كان نظيفًا وحديث الطراز، وكان بمثابة منارة أمان وطمأنينة جعلتني بطريقة ما أشعر بتحسن، حتى وأنا نائم في ظلالها. على الجانب الآخر كان يبعد بشكل مائل من زاوية مكوثنا عقارات المدينة المحفوفة بالمخاطر -خاصة في الليل- التي تحدها تيندرلوين، ذلك الجانب من المدينة الذي عشت فيه أول مرة، عندما كان من السهل تدبر ظروف الحياة القاسية.

لكن هذه الظروف بدأت تأخذ منحى جديدًا في هذه المرحلة من حياتي. بعد أن تصورت أنني عرفت سان فرانسيسكو جيدًا، بدأت الآن أتعرف عليها على نحو أكثر حميمية، ليس فقط فيما يتعلق بوجود التلال أو عدم وجودها، بل أيضًا درجة زاوية انحدارها، ومستواها، وعدد الخطوات اللازمة لدفع عربة كريستوفر إلى أعلى التل، أو عدد المربعات السكنية التي سأمشيها قاطعًا مسافات طويلة كي أتجنب المرور بأحد تلك التلال، كما أنني أصبحت أعرف أماكن الشقوق في أرصفة الطرق الجانبية. لم يكن تآلفي مع تلك الشقوق وسواسًا قهريًا سعيت له بمحض إرادتي، وإنما هي مسألة بقاء على قيد الحياة من أجل مناورة طفل داخل عربة قابلة للكسر وفي حيازتي كل ما أملكه، تحت وطأة الوقت والجو.

كان المطر غزيرًا في هذا الشتاء من عام 1982 وبداية عام 1983، مقلصًا بذلك الخيارات أمامنا بفعل أي نشاطات في الهواء الطلق أو النوم في المتنزه. على الرغم من أنني كنت أتجنب الوقوف في طوابير الطعام المجانية، لكني لم أستطع تحمل الأمر أكثر من ذلك، ليس ومعي طفل جائع، وسرعان ما بدأنا نشق طريقنا نحو كنيسة غلايد في تيندرلوين، حيث كان القس سيسيل وليامز وبعض الناشطين في المجتمع يقومون

بإطعام المشردين والجائعين في قبو الكنيسة، في مطبخ موسيل، ويوفرون لهم ثلاث وجبات في اليوم، طيلة أيام الأسبوع وعلى مدار السنة.

كان أفضل جزء بالنسبة لي هو أنني في أيام الأحد بعد انتهاء خدمات الكنيسة، وبدلًا من الوقوف خارجًا في الطوابير التي تصل إلى آخر الشارع وحتى حول المنعطف، كنا نأخذ طريقًا مختلفًا عبر البناية ونزولًا بالسلالم نحو مطبخ موسيل. لكن مهما تعددت طرق وصولنا، فإنني حالما كنت أقف في طابور الكافتيريا حاملًا الصينية، فإنني لم أكن أرى في وجوه جميع من اصطفوا معي سوى الكرامة -مهما كانوا يشعرون بالضعف- وكان جميعهم أشخاصًا بالغين، لا أحد منهم معه طفل، والبعض منهم كان لديه عمل مثلي، وآخرون كانوا بالتأكيد عاطلين عن العمل.

لن تشعر أبدًا بأنك أقل من أي أحد بعد ذهابك هناك للأكل. كنت أصطف مع رجال، ونساء، سود وبيض، لاتينيين، وصينيين، كما لو أنني كنت في الأمم المتحدة، والكثير منهم كان يعاني من مراحل مختلفة لمشكلة ما كالمخدرات، أو الكحول، أو العنف، أو الفقر، أو كان لديهم اضطرابًا في العقل، أو يخضعون لعلاج، أو يمرون بظرف صعب، لكننا كنا هناك لنأكل فقط.

لم نُسأل أو نُستجوب، أو تُطلب منا أوراق اعتماد تثبت أنّنا نعاني من حالة عوز. لم أشعر أن الأمر كان صدقة، بل كان أشبه بوالدة ترغب في إطعامنا. «بني اجلس هنا وخذ شيئًا لتأكله.» وعندما كنا نبدأ بتناول الطعام، كانت خدمة نابعة من القلب، ووافرة، وشهية، ولذيذة. طعام أمريكي والمزيد من المن.

في السنوات التي تلت، كان عليّ أن أحذر كل شخص في كنيسة غلايد مما يمكن أن يحدث للأطفال عندما يبدؤون الأكل في مطبخ موسيل، فقد

وصل وزن كريستوفر فيما بعد إلى مئتين وستين رطلًا وبلغ طوله مترين. كان يأكل بشراهة في مطبخ موسيل رغم أنه كان طفلًا صغيرًا. عندما تغادر المكان لن تشعر بالجوع أبدًا، ولن يكون الأمر مجرد شعور بعدم الجوع، وإنما هو شعور بأن حالك أصبح أفضل. وستشعر بأن حالك أصبح أفضل لأنك ستكون موضع ترحيب دائم في كنيسة غلايد ومطبخ موسيل.

كانت خُطب القس تغذي روحي أيضًا، مذكرة إياي بما كنت أنساه باستمرار؛ بأن الخطوات الصغيرة محسوبة، حتى وإن لم تكن تحدث بالسرعة التي كنت أتمناها. بعد انتهاء خدمات الكنيسة، كان القس يقف خارج مكان التعبد في الطرقات أو في الخارج، محتضنًا كل شخص يخرج من الكنيسة. أي شخص كان يرغب بعناق كان يحصل عليه. في المرة الأولى التي ذهبت فيها إليه ليحضنني شعرت وكأن سيسيل ليامز كان يعرفني من قبل. كان وجهه مبتسمًا ابتسامة بدت وكأنها محفورة بشكل دائم على وجهه المدور، المفعم بالحكمة، ودائم الشباب، أما قامته فكانت استثنائية لدرجة أقنعتني بأنه أطول مما كان يبدو في الحقيقة، وكانت يداه ممدودتين نحوي وعانقني عناقًا قويًا وقال لي: «أوف بما وعدت.»

عانقته، وباركت الرب فيه وشكرته، وأخبرته بأنني سأفي بما وعدت، وسأفعل ما سأقول، وسأسير إلى الأمام.

أخبرني القس فيما بعد بأنني أثرت انتباهه لأنه لم يعتد على رؤية رجل يقف في طابور الطعام مع طفل. لم يكن هنالك أي شيء لأفسره بشأن وضعي. بدا وكأنه مطّلع على كل شيء. ليس فقط لأنه استطاع أن يرى أنني والدٌ أعزب، بل لأنه استطاع أن يرى من أنا، ومدى قربي من الرب، وكما كانت أمي ستقول: «طيبةُ روحي، وإمكانياتها هي كل ما يهم.» ربما لهذا السبب وافق على بقائي، عندما علمت بوجود الفندق الذي يُؤوي

المتشردين، والذي أسسه القس أسفل الشارع.

تجسدت الطيبة في هيئة أول فندق للمتشردين في البلد. يقع مقره في كونكورد بلازا في شارع أوفاريل وبويل، وأسسه القس سيسيل بفكرته الطموحة المتمثلة في توفير مأوى للنساء والأطفال المشردين، ليكون مرحلة انتقالية كي يبدؤوا حياتهم من جديد، ولكي يلقوا كل الدعم. عمل الكثير منهم في نهاية المطاف في مطبخ الفندق، أو في أحد العديد من البرامج المختلفة التي وفرتها كنيسة غلايد لهم. على الرغم من أن الغرف كانت مجانية للبقاء فيها ليلًا فقط، لعدة أسباب تعلقت بالأمن، والإنصاف، والاستحقاق، إلا أنه كان هنالك أنظمة إدارية يجب مراعاتها بشكل واضح.

عندما تحدثت مع القس، كنت أعرف جيدًا أنني لم أكن امرأة لكنني كنت شخصًا مشردًا ومعي طفل. والأهم من ذلك، كان لدي وظيفة، لكنني احتجت فقط مكانًا لأعيش فيه مؤقتًا حتى أستطيع أن أتدبر أمري وأحصل على شقة.

لم يفكر كثيرًا في الأمر وقال لي: «حسنًا.» لقد كان يراقبني مع كريستوفر ووثق بي. طمئنني قائلًا: «اذهب إلى الأسفل هناك.» ليعرفني إلى من أذهب وماذا أقول.

عندما دخلت المكان لأول مرة، اجتاحني بحر من اللون الأخضر الفاتح الباهت -سجادة خضراء فاتحة وورق حائط أخضر فاتح. كان يبدو إلى حد كبير مثل أي فندق من فنادق أحياء تيندرلوين الفقيرة، وكانت كنيسة غلايد قد تسلمته وكان يحتاج إلى قليل من العمل فقط- مثلما احتاج جميعنا في العديد من البرامج المتبعة في الكنيسة إلى بعض من العمل، وبعض من الحب والحنان، وبعض من الوقت. لكنه كان جميلًا بالنسبة لي على أي حال. كل ما كان يهمني هو التالي: لا يسمح بالدخول

إلى الفندق قبل الساعة السادسة مساء، وعلى الجميع مغادرته في تمام الساعة الثامنة صباحًا. لا أحد لديه مفتاح. لا أحد يستطيع الخروج بعد دخوله للبقاء ليلًا، ولا أحد يستطيع أن يترك حاجياته في المكان لأنك قد لا تجدها حين عودتك. عندما تترك المكان عليك أن تأخذ معك كل شيء تملكه لأنك لن تعطى نفس الغرفة ليلتين متتاليتين.

كان الأمر بمثابة «من يسبق أولًا يحصل على المكان أولًا.» وإن لم تصل هناك باكرًا، قبل أن يمتلئ الفندق، فستبقى دون مكان. لم يكن هنالك أي حجز مسبق، ولن يعاملك أي أحد معاملة خاصة ويقول لك: «كنا نعلم بقدومك لذا قمنا بحجز مكان لك.» كانت الغرف غير متشابهة، احتوى أغلبها على الأساسيات فقط: سرير، وحمام. وبعض الغرف احتوت على تلفاز. في الحقيقة كنا أنا وكريستوفر مهتمين بالحصول على الطعام في كنيسة غلايد وتسجيل دخولنا إلى الفندق في الليل، كي نضمن مكاننا حتى الغد، أكثر من اهتمامنا بما كان يعرض على التلفاز.

أي شيء سأفعله طوال حياتي القادمة لن يكفي لرد جميل القس سيسيل وليامز وكنيسة غلايد. كان بمنتهى الطيبة معي ومع ابني، ومع أجيال سكان سان فرانسيسكو من جميع أركان مجتمعها. كنت في كل صباح يوم أحد أدعو في الكنيسة كي أنجو من مشاكلي التي مررت بها في هذه المرحلة، وكنت أعلم أنني إن استطعت أن أتماسك وأبقى قويًا فإن كل شيء سيصبح على ما يرام ولن أحمل هم أي شيء بعد ذلك.

حسنًا، بالتأكيد، تعلمت فيما بعد أن الأمور لا تجري بهذه الطريقة. أي أحد يؤمن بأن النقود ستحل كل مشاكله فإنه لم يمتلك من قبل أي نقود في حياته، مثلي أنا في ذلك الحين. مغني الراب الراحل نوتوريوس بي

آي جي[194] صاغها على أكمل وجه حينما قال: «كثرة المال تؤدي إلى كثرة المشاكل.»[195] ما اكتشفته -عندما ظننت أن وجود النقود أمر أفضل من عدم وجودها- أنها ليست الحل لجميع المشاكل، ليس هذا فحسب بل إنها ستجلب معها مشاكل لم يستطع كريس غاردنر في فترة الثمانينات أن يتخيلها. كان وميض الأمل الوحيد الصائب في تصوري عن المستقبل هو أن أي نجاح سأحققه كنت سأتقاسم جزءًا منه مع كنيسة غلايد، كي أرجعها تحت رعاية القس سيسيل، حتى وإن لم أكن أعرف بعد الطريقة لفعل ذلك.

لم يخطر على بالي لحظة واحدة، حتى في أعظم خيالاتي الجامحة وأكثر تصوراتي المليئة بالثقة، أنني بعد مرور خمسة وعشرين عامًا من الآن سأساعد في تمويل مشروع سيسيل وليامز وكنيسة غلايد بمبلغ خمسين مليون دولار، كي نشتري مربعًا سكنيًا كاملًا مليئًا بالعقارات من أجل تهيئة سكن بتكلفة معقولة للأسر ذات الدخل المنخفض ومجمعًا يتضمن مؤسسات تجارية، ومتاجر بيع بالتجزئة من أجل خلق فرص توظيف،

---

194) نوتوريوس بي. آي. جي. Notorious B.I.G: ولد في 21 أيار 1972. اسمه الحقيقي كريستوفر جورج لوثر والاس Christopher George Latore Wallace المعروف أيضًا بالأسماء بيغي سمولز (Biggie Smalls) وفرانك وايت (Frank White). كان والاس مغني راب أمريكي مشهور، سطع نجمه في التسعينات ، أما الحروف B.I.G هي حروف مختصرة للجملة Business Instead of Game ومعناها (العمل بدل اللعب). بعد موته أصبحت: Books Instead of Guns والتي تعني (الكتب بدل المسدسات). في التاسع من مارس عام 1997 أطلقت النار على والاس حتى الموت بجانب متحف بيترسن في مدينة لوس أنجلوس حيث كان في طريقه لأحياء حفل غنائي.

195) كثرة المال تؤدي إلى كثرة المشاكل Mo' money Mo' problems: وهي أغنية شهيرة للراب نوتوريوس اشتهرت كثيرًا بعد وفاته وجاء في مقطع منها: the more money we come cross the more problem we see كلما أصبح لدينا أموال طائلة كثرت المشاكل حولنا. وهي إحدى أغاني ألبوم الحياة بعد الموت life after death الذي أطلق بعد وفاته بأشهر.

هناك في تيندرلوين حيث اعتدت عد الشقوق الموجودة في الرصيف الجانبي، على بعد شارع من ساحة الاتحاد والفنادق ذات الخمسمئة دولار مقابل الليلة، ناهيك عن ذكر المتاجر باهظة الثمن في المدينة مثل نيمان ماركوس وغوتشي.

كل ما كنت أعرفه أن أحلامي كان من الممكن لها ألّا تبصر النور لولا وجود القس في حياتي. ولربما كان شيءٌ آخر سيحدث أو شخصٌ آخر كان سيمد يد العون لي، لكن من الصعب عليّ أن أتخيل الحصول على الحظ السعيد ذاته في أن أتمكن من المضي بجانب عظمة كالتي يملكها. تزوج القس فيما بعد الشاعرة المعروفة الأمريكية من أصل ياباني جانس موريكاتاني(196)، وكان بالفعل زعيم مجتمع بارز، وشخصًا بدا واعيًا بمستوى أعلى من أغلب البشر. كل ما يهم أنه كان موجودًا بجانبي، وظل موجودًا مدة طويلة بعد أن أنعم عليّ بمساعدته، وليس فقط فيما يتعلق بخطبه العظيمة بل أيضًا الوفاء بالوعد: إطعام الناس، وتعليمهم، ومساعدتهم، وصنع المعجزات يوميًا.

بغمضة عين حدثت لي معجزة عندما قبِلنا القس سيسيل في فندقه. وبذلك يكون قد وفر عليّ مبلغًا تراوح من ثلاثمئة دولار إلى ستمئة دولار في الشهر، كنت سأنفقها في مكان ما كي ننام فيه، لذا أصبحت قادرًا على إعادة كريستوفر إلى مركز الرعاية النهارية في سان فرانسيسكو في وادي هيز، وبالرغم من تكلفة المركز التي بلغت خمسمئة دولار إلا أنني كنت واثقًا أنه سيلقى في هذا المكان الرعاية الكاملة. كنت في كل صباح وقبل أن

196) جانس موريكاتاني Janice Murikatani: ناشطة وشاعرة ولدت في 4 شباط عام 1941. في عام 1969 أصبحت مديرة في كنيسة غلايد ميموريال Glide Memorial بعد مرور عامين على نشاط هذه المؤسسة. وفي عام 1982 تزوجت من القس سيسل وليامز.

تصبح الساعة الثامنة، أكون قد جهزت كل حاجياتنا لنأخذها معنا وأنا أقوم بتأدية تقليدي السيء لرجل يدعي امتلاكه ثمانية أذرع، حاملًا المظلة فوق رأسي بطريقة أو بأخرى، بعد أن أكون قد جهزت الخيمة التي صنعتها من أغطية الغسيل الجاف البلاستيكية، لأضعها فوق عربة كريستوفر كي تحمي رأسه أثناء ذهابنا.

لم يكن الأمر يستحق ركوب الباص لأن الإخلال بتوازن حملي لكيسي البلاستيكي المتدلي على كتفي، والمظلة، وحقيبة المستندات، وحقيبة القماش الخشن، ورزمة البامبرز، ومن ثم محاولتي لثني عجلات العربة للصعود كان سيزيدني عناء أكثر من المشي لمدة خمس عشرة دقيقة زائدة حتى وإن كانت السماء تمطر. كان المشي اختيارًا جيدًا طالما كان بمقدوري تجنب صعود التلال. أما الجانب الإيجابي من كل هذا، فهو تمكني من ركن السيارة (العربة) بجانب مركز الرعاية النهارية، حيث إنني كنت أخبئ حاجياتنا في داخلها، ومن ثم أصعد الباص في وسط المدينة لأذهب إلى المكتب.

خلال عطلِ نهاية الأسبوع كان يتحتم علينا أن نخرج من فندق كونكورد بلازا أثناء فترة النهار. كانت هذه القواعد صارمة، فلم يكن يسمح لنا بأن نستلقي هناك، إما أن تذهب إلى العمل أو أن تبحث عن عمل. أصبح لدينا أنا وكريستوفر روتين يقتضي السعي وراء أي وسيلة ترفيه مجانية في المدينة. كنا نذهب إلى المتنزه، ومن ثم إلى المتحف، ومن ثم نعود إلى المتنزه ونذهب مرة أخرى إلى المتحف وهكذا، ثم لربما كنا نذهب لرؤية بعض الأصدقاء، أو إن كان لدينا بضعة دولارات إضافية فإننا كنا نستقل القطار ونذهب إلى أوكلاند، نقوم بزيارتها ونتناول شيئًا ما، ونعود في الوقت المحدد كي نضمَن حصولنا على مكان في الفندق.

طالما كان بإمكاني البقاء في الضوء، على سبيل المجاز، من خلال

تسليط تركيزي على ما أستطيع السيطرة عليه، فإن الشعور بالقلق والخوف ظل بمعزل عني. ولهذا السبب وجهت تركيزي كله نحو مهام وضعتُها نصب عيني، فلم أدع نفسي تسقط فريسة للعذاب بسبب مستوى انحدار التلة الذي أثقل رحلة صعودي، وإنما بدأت بدراسة مكان كل شق وكل صدع في الرصيف، ودراسة أصوات عجلات العربة، واكتشفت أنني أستطيع الوصول إلى ذلك التأخر في النبر. كل ذلك المجهود جعلني أشعر بالسعادة في بعض الأحيان، وجعلني أرقص في الوقت الذي كان البعض سيقول بأنني ليس لدي ما يدعوني للرقص. جعلني أشعر بالسعادة لأنني تمكنت من ادخار مبالغ صغيرة -مئة دولار أو خمسين دولار- ولأنني قمت بإيداعها ولم أسحب منها، حتى أنني نسيت أمرها تمامًا، لكني كنت أعلم أنها ستقربني من تحقيق الهدف في أن يكون لنا منزلنا الخاص بنا.

لكيلا أمد يدي على مدخراتنا، كان هناك أوقات قمت فيها ببيع دمي، وفي كل مرة كنت أقسم بأنني لن أفعلها مجددًا. لم يكن شعوري بالخزي في الذهاب إلى هناك هو ما آلمني، رغم أنني لم أشعر بالفخر من اختياري ما بين أهون الشرّين سواء كنت أبيع الدم كي أتمكن من تدبير مبلغ غرفة في حال فاتنا موعد الوصول في الوقت المحدد إلى المأوى، أو عدم استطاعتنا النوم في المتنزه. ما آلمني حقًا هو بعض أولئك المشردين الذين رأيتهم في العيادة. البعض منهم جاء لأنه اتخذ بعض الاختيارات المخطئة، والبعض الآخر جاء إلى هنا لأنه لم يمتلك رفاهية الاختيار.

في مساء ممطر بعد أن خرجت من مكتب شركة دين وتر متأخرًا بخمس عشرة دقيقة، ركضت مسرعًا لألحق الباص وأسرعت بأقصى ما أستطيع نحو غرفة كريستوفر في مركز الرعاية النهارية، وجهزت كل حاجياتنا، ومن ثم ركضت بأسرع ما يمكنني إلى تيندرلوين، لكنني وصلت

متأخرًا بفارق عشر دقائق عن الوقت المسموح به لتسجيل الدخول إلى فندق كونكورد بلازا.

كنت غاضبًا ومتعبًا ومبللًا، فتوجهت إلى ساحة الاتحاد وتمشيت مع كريستوفر تحت سقائف الفنادق والمتاجر. لم يكن أمامي سوى أسبوع واحد حتى وصول موعد استلام الراتب، وكان لدي ما يكفي لنتناول وجبة العشاء، ونستقل القطار، وهو أمر لم يكن غريبًا علي، حيث اعتدنا تمضية الليل فيه لينعم كلانا بقسط من النوم لحين حلول النهار. أدركت حينها أنني لو كان بحوزتي خمسة دولارات أخرى لكان باستطاعتنا الذهاب إلى فندق الشاحنات لنقضي الليل فيه. لفحتْ توتري وتعبي رائحة دخان سجائر كانت بمنتهى الروعة. من بين جميع الأشياء التي لم أكن سأنفق نقودي عليها كانت السجائر واحدة منها. لكن سيجارة من نوع كوول بنكهة النعناع كانت بالتأكيد ستزيح عني شعوري بالتعب.

قال لي كريستوفر بينما كنا نمر من جانب مدخل فندق حياة إمبراكاديرو: «بابا، يجب أن أدخل الحمام.»

أجبته بحماس: «حقًا؟» بما أننا كنا نتدرب على التخلص من البامبرز. «حسنًا، تماسك الآن، وسوف أدخلك الحمام.» دخلنا في ردهة الفندق وتتبعنا الإشارات المؤدية إلى حمام الرجال. بعد أن أنجز العملية بأكبر قدر من النجاح، خرجنا من الحمام ولاحظت وجود نزيل في الفندق، يرتدي بدلة وربطة عنق، ويقف بجانب آلة بيع السجائر، ويضع فيها قطع النقود المعدنية -عشرة منهم- لكن الحظ لم يسعفه في خروج السجائر من الآلة. لم يتنازل عن الأمر وبدأ بضرب الآلة وهزها حتى تقع علبة السجائر.

"سيدي."قال عامل استقبال الفندق الذي أتى ليرى ما كل هذه الجلبة، «لا بأس، لابد أن الآلة لا تعمل، اذهب فقط إلى مكتب الاستعلامات

وأخبرهم بأنك فقدت نقودك فيها وسيقومون بإرجاع المبلغ لك.»

شاهدت النزيل وهو يتوجه إلى الطابق العلوي، فلحقت به، ورأيته وهو يشق طريقه من بين الحشود المتواجدين في الردهة، ويدنو من مكتب الاستعلامات، ويسترجع نقوده.

لقد حصل على دولارين وخمسين سنتًا بمنتهى البساطة. كان الأمر سهلًا للغاية، لابد لي أن أحاول. لكن بدلًا من الذهاب نحو الآلة على الفور، قمنا أنا وكريستوفر بالدوران حولها، وتصرفنا كما لو كنا نزيلين، ومن ثم ذهبت ودنوت من السيدة الشابة الجالسة خلف مكتب الاستعلامات، وأخبرتها بأنني فقدت نقودي داخل آلة بيع السجائر.

أومأت قائلة: «أنا آسفة جدًا.» ثم فتحت درج النقود، "هناك شخص آخر فقد نقوده منذ قليل، يجب علينا أن نعلق لافتة على تلك الآلة."

"فكرة سديدة." أجبتها وقبلت مبلغ الدولارين وخمسين سنتًا بكل لطافة.

انطلت عليهم حيلتي الصغيرة، لذا قمت بتجربة نفس الشيء في فندق سينت فرانسيس، وفي عدة فنادق أخرى في نفس المساء. ومع نجاح حيلتي في خمسة وعشرين فندقًا تقريبًا في المناطق المجاورة، تمكنت في الأيام اللاحقة من تحقيق النجاح في عشرة فنادق في آن واحد، وبذلك أكون قد أحرزت خمسة وعشرين دولارًا إضافيًا في اليوم. كنت حذقًا جدًا لدرجة أنني كنت أذهب خلسة بعد تغيير مناوبة موظفي مكتب الاستعلامات، كي لا يتعرف عليّ أي أحد من المناوبة السابقة.

بعد مرور أسبوعين قررت التوقف كي لا ينفد مني الحظ. فيما بعد عندما عدت للتدخين من جديد وكنت قادرًا على تحمل تكلفة شراء علبة السجائر اعتقدت أنني سددت الثمن لشركات التبغ إلى حد كبير. أما

بالنسبة للفنادق، فقد قمت في السنوات اللاحقة بسداد دَيني المستحق للكثير منهم ولعدة مرات، على الرغم من أنني في بداية عام 1983، ليس بفترة طويلة بعد مرور عيد ميلاد كريستوفر الثاني، لم أكن أتخيل أنني سأتمكن من فعل ذلك في المستقبل.

بينما كان مبلغ المليون دولار وسيارة الفيراري الحمراء ما زالا قابعين في غياهب المستقبل، مضت فترة شعرت فيها أنني لن أستطيع الوصول إلى تحقيق أحلامي. كانت قدماي تؤلمانني، وجسدي يتوجع. بدأت تتسرب غمامة ظلام إلى سماء أيامي ليس فقط في الجو، وإنما في عقلي أيضًا. أما عندما كنت أتواجد في المكتب، فلم يكن هناك سوى سماء مشرقة، حيث سطوع إمكانياتي رفعَ من معنوياتي، وحيث المحاصيل التي كنت أعمل على زراعتها بدأت تتبرعم في أرجاء المكان. لكني في اللحظة التي كنت أغادر فيها عملي، كانت معنوياتي تغرق في يأسها؛ لأنني في قرارة نفسي كنت أعلم دائمًا أنه إذا وصل الباص متأخرًا، أو إذا لم يرتد كريستوفر ملابسه التي تلائم الأجواء الباردة بالسرعة الكافية، أو إذا وصلنا إلى المأوى متأخِرين، أو إذا لم يكن لدي الوقت الكافي لنأكل شيئًا قبل أن نذهب إلى الغرفة ونغلق الباب علينا، فإنني سيتوجب عليّ أن ألجأ لخطة بديلة على الفور.

كنت أشعر بأنني منهك القوى في كل مرة كنت أقوم فيها بتقسيم وترتيب حاجياتنا لنكون في حالة تأهب، كما هو الحال عندما كنت في العسكرية. كل شيء كان عليه أن يكون ملفوفًا وعلى أهبة الاستعداد للتنقل في أي وقت، وكان عليّ أن أعرف مكان كل شيء في أي وقت، أن أجد ما أحتاجه عندما أحتاجه: جوارب، أو بامبرز، أو قميص، أو فرشة أسنان، أو ملابس كريستوفر، أو فرشة شعر، أو كتاب تركه أحدهم في القطار وقرأته أنا، أو لعبة مفضلة. بدأ حملي يصبح ثقيلًا، كل تلك الأشياء اللعينة

كنت أحملها إضافة إلى التوتر والخوف اللّذين كانا محمولين على عاتقي طوال الوقت.

عندما أردت القيام بعمل ممتع في عطل نهاية الأسبوع لكريستوفر كي أمنحه شعورًا بعيش حياة طبيعية، كان ما زال عليّ أن أحمل حاجياتنا معنا أينما ذهبنا: المتنزهات، والمتاحف، والكنيسة.

حدث أسوأ ما في هذه المرحلة في شهر آذار تقريبًا، عندما علمت بأن الأمور كانت على وشك أن تزدهر في العمل، وفي إحدى الليالي توجهت إلى المكتب الأمامي في المأوى، حيث الكل يعرفني، وسمعت: «حسنًا يا كريس بكل أسف لا يوجد لدينا أي مكان شاغر.»

ماذا يمكنني أن أفعل؟ كنت أقف في الشارع، فتوجهت إلى محطة بارت، وسألت كريستوفر: «هل ترغب بالذهاب لرؤية الطائرات في مطار أوكلاند؟»

لقد مررنا بهذا الموقف من قبل، أن نستقل المواصلات العامة للوصول إلى أحد المطارين وأن نجد منطقة انتظار ذات مقاعد شبه مريحة؛ حيث كنا نبدو فيها وكأننا مسافرين إلى أي مكان. أثناء جولتنا المتوجهة إلى أوكلاند وحالما اقتربنا من محطة نقل ماكارثي، أخبرني كريستوفر بأن عليه الذهاب إلى الحمام، فحزمت أمتعتنا ونزلنا من القطار وتوجهنا إلى حمام منفرد كنت قد دخلته مسبقًا، وتذكرت أنه يمكن أن يغلق من الداخل. حالما أصبحنا هناك أدركت أنه ليس علينا المغادرة على الفور. نستطيع أن نرتاح قليلًا، ونغتسل، ونأخذ وقتنا، ولربما ننام أيضًا.

بدأت أشرح لكريستوفر: «سننتظر هنا، لأنها ساعة الذروة الآن. لذا سننتظر هنا وسنظل هادئين، اتفقنا؟» ابتدعت لعبة أسميتها «سكوت.» أخبرته بأنه مهما علا صوت الطرق على باب الحمام، فإن الهدف من اللعبة

هو عدم قول أي كلمة مهما حدث.

ماكارثي هي نقطة مواصلات مهمة في أوكلاند، وتعد على الأغلب أكبر محطة في نظام مواصلات بارت، فكل قطارات المترو تمر من خلالها. ومع تواجد الكثير من المسافرين في هذا المكان، فإنهم يبقون الحمامات نظيفة للغاية، لذا فهي تستخدم بكثرة. لم يمر وقتٌ طويلٌ حتى بدأ الطرق على الباب، من الواضح أن الناس لا يرغبون بالانتظار. لكن في نهاية الأمر كنا نسمع صوت القطار قادمًا فيختفي كل ذلك الطرق عندما يدرك أولئك المسافرون أنهم يستطيعون استخدام حمام منزلهم. كلما زاد تأخر الوقت ليلًا كلما أصبحت المدة متباعدة ما بين كل طرقة وأخرى.

لم يكن هناك أي شبابيك أو فتحات تهوية أو أي مصدر لدخول ضوء النهار، فقد كان الحمام مفروشًا بالبلاط من أرضيته حتى سقفه وبلغ عرضه مترًا ونصف المتر، وطوله ثلاثة أمتار، مع وجود مرحاض واحد، وحوض غسيل صغير، ومرآة مصنوعة من الفولاذ العاكس المقاوم للصدأ. عندما أطفئت الضوء غرق المكان في ظلام دامس لدرجة ستمكنني من النوم إن كنت متعبًا جدًا. كان لدى كريستوفر القدرة على النوم في أي مكان. لم أستطع البقاء في ذلك المكان لمدة طويلة، قضينا الليل فيه لمرة أو مرتين فقط، ولكن لفترة قصيرة، ربما أكثر من أسبوعين، وهبتني المرافق العامة نعمة المأوى الذي احتجته خلال أحلك ظرف عشته في حياة التشرد.

لربما كان السبب في أنني كنت قادرًا على رؤية الأمور بهذه الطريقة هو الحياة المزدوجة التي كنت أعيشها. مثّلت فترة الليل، وعطل نهاية الأسبوع، وساعات ما بعد العمل، الجانب المظلم من الحلم الكاليفورني: أن أظل في الخارج بلا مأوى، أن أدخل خلسة إلى ردهات الفنادق الراقية لكي أحتمي من المطر، أن أتمنى أن أكون في أي مكان آخر غير حمام بارت. وعندما كان يأتي

الصباح، كان يأتي معه الخلاص النابع من حقيقة أنني كنت أعيش الحلم الأمريكي العظيم، في السعي وراء الفرص، ودفع نفسي إلى أقصى حدود قدراتي، ومحبتي لكل دقيقة من هذا الحلم. أصبحت معرفتي الحميمية بمحطة بارت تمثل نعمة بطريقة أخرى. بعد مرور عدة أعوام اختيرت شركتي لتكون صاحبة الإدارة العليا لمئات من ملايين الدولارات المساهمة في هذه المحطة. أنا أؤمن حقًّا بأن صراحتي مع مجلس إدارة محطة بارت: «أنا أعرف هذه المحطة أكثر من أي أحد من هؤلاء الرجال من بنك ميرل لينتش أو بنك سولومون بروذرز الاستثماري في وول ستريت لأنني كنت أعيش في بارت.» كانت هي السبب في موافقتهم.

رغم أن كنيسة غلايد كانت شعلة الرحمة لي في ذلك الحين، إلا أني حددت سقفًا زمنيًا لنفسي لمدة بقائي فيها، وأنا أعلم أن لدي بعضًا من المدخرات المخبئة وبأن الزيادة في نسبة عمولتي كانت وشيكة الحدوث. لم يكن هناك أحد يقف على رأسي حاملًا ساعة توقيت أو تقويمًا، لكنني مع هذا، اعتقدت أنني إن استرحت لبضع ساعات أثناء وقت الذروة أو توقفت في حمام المحطة بعد النوم في المطار أو في القطار، على الأقل لكي أغتسل من أجل الذهاب إلى العمل، فإن شخصًا آخر من الممكن أن يأخذ مكاني في فندق كونكورد بلازا في تلك الليلة، أو هكذا بررت الأمر لنفسي.

كانت إحدى مميزات حمام محطة بارت هي ألّا أحد آخر على ما يبدو كان قد فكر بأن يفعل مثلي، لذا لم يكن هناك أي طابور لأقف فيه حتى أحصل على الحمام، ناهيك عن ذكر أنني لم أكن مضطرًا للاستعجال في نهاية اليوم لأضمن وصولنا في الوقت المحدد، ولم يكن هنالك أي قواعد متبعة باستثناء قواعدي أنا. في حال استطعت تدبر وصولي إلى كنيسة غلايد، وحصلت على مكان لنا في الفندق، فهذا أمر رائع. وفي حال استطعت

تدبر خزانة في محطة بارت في سان فرانسيسكو كي لا أضطر لجر أمتعتنا وراءنا لأجل ليلة، فسيكون ذلك غاية في الروعة.

نبض سؤال جنونيٌ في عقلي الآن. لماذا كنت أعرّض نفسي وطفلي لكل هذا؟ لماذا لم أتريث، وأستغرق وقتًا أطول للخروج من هذا الروتين الممل، وأسحب جزءًا من مدخراتي وأعود للإقامة في فندق النخيل؟ لماذا رفضت أن أصرف ورقة العشرين دولارًا التي كانت ستمكننا من قضاء ليلة في فندق الشاحنات؟ لقد تبعت حدسي الذي أخبرني أنني إنْ صرفتها فهذا يعني أننا لن نتمكن من الحصول على الأكل. ورقة العشرين دولارًا كانت ولم تزل مبلغًا لا يستهان به، لكن عندما تصبح هذه الورقة خمسة عشر دولارًا أو اثني عشر دولارًا أو سبعة دولارات أو أربعة دولارات، فإن المبلغ سيُصرف بلمح البصر. وجود ورقة العشرين النظيفة غير المجزأة في محفظتي منحني راحة البال والشعور بالأمان.

لكنّ الأمر لم يكن مجرد صراع داخلي حول كل مبلغ كنت أنفقه، بل كان هناك أيضًا قتال أعظم وذا أهمية مختلفة تمامًا، وكأنه صراع الجبابرة ما بيني وبين القوى التي يمكن لها التحكم بمصيري. كانت نفس القوى التي سرقت أحلام أمي، بدءًا من أبيها وزوجته التي لم تساعدها على دخول الكلية، ومرورًا بأبي الذي تركها مع طفل لتربّيه وحدها، ثم فريدي الذي كان يعنفها جسديًا ونفسيًا، وصولًا إلى نظام عدل، حبسها عندما حاولت أن تكسر قيود عبوديتها. خلال الثمانية أشهر التي قضيتها دون منزل، بدا أن صوت السخرية الذي كان يتربص بعقلي الباطن قد أصبح الآن يستجمع قواه فجأة، في نفس الوقت الذي استطعت فيه أن أرى خط النهاية. سخر مني ذلك الصوت الذي بدا وكأنه صوت فريدي، وهو يخبرني: «أيها الحذق اللعين، أتظن أنك ذكي لأنك تستطيع أن تقرأ وتجتاز الاختبار، لكن كل هذا

لا يؤهلك لأن تكون أي شيء، أيها اللعين ذو الأذنين الكبيرتين، من تظن نفسك؟» في بعض الأحيان بدا الصوت وكأنه طبيب نفسيّ لعين، يقتبس من الإحصائيات ويقول لي: «من دواعي الأسف أنّ نشأتك الاقتصادية والاجتماعية قد حدّدت مسبقًا أن الخروج من دائرة الفقر والأبوة في ظل العزوبية هو أمر مستبعد إلى حد كبير، نظرًا لحقيقة أنك تقع ضمن نسبة اثني عشر إلى خمسة عشر بالمئة من الأشخاص المشردين، الذين لديهم وظيفة لكنهم إلى الآن غير قادرين على تدبر أجور المعيشة.»

جعلني ذلك الصوت أشعر بالغضب، وجعلني أقاتل أكثر وأكثر. من كنت أظن نفسي؟ كنت كريس غاردنر، أبًا لطفل استحق حياة أفضل مما كان أبي سيعطيني، وابن بِيتي جين غاردنر التي قالت إنني إذا أردت أن أنتصر فإنني سأنتصر. كان لابد لي أن أنتصر، أيًا كانت الطريقة. أيًا كان ما سيتوجب عليّ فعله، أيًا كان العبء الذي سأحمله، فإنني كنت سأرتقي لذلك الحمل وسأتغلب عليه. لكنني كلما أسرعت بخطاي، وكلما ضغطت على نفسي أكثر، كلما أصبح صوت الشك أعلى في داخلي. «هل أنت مجنون؟ أنت توهم نفسك!» لكن عندما بلغت إرادتي أدنى درجات الاستسلام، وفي اللحظة التي أردت فيها أن أقر بالهزيمة، وأستقيل، وأن أنفق أي نقود كانت بحوزتي، وأسافر إلى أي مكان آخر، شعرت بطاقة جبارة تجتاحني -انفجار هائل من الثقة- كما لو أن شعور بالنعمة وجدني وقال لي: «تماسك.» فتماسكت.

حل فصل الربيع، وجلب معه أمطارًا أكثر، لكن الجو كان أدفأ في الخارج، بدأت أجور عملي تزداد، وأخبرني رصيد حساب مدخراتي أن لدي ما يكفي كي أستأجر مكانًا بملغ زهيد. كانت شقق سان فرانسيسكو باهظة الثمن، لذا لم يعد لدي خيار آخر سوى أن أبحث عن شقة في أوكلاند،

وبالفعل بدأت رحلة بحثي في عطل نهاية الأسبوع. لكن واجهتني العديد من الأسئلة التي شكلت عائقًا أمامي: «حسنًا، كم مضى على وجودك في وظيفتك؟»، «أنت لست متزوجًا؟»، «هل لديك طفل؟»، «ما الذي يحدث في حياتك؟»، «ما الذي يفعله رجل مع طفل؟»

بعض من تلك الأسئلة كانت صريحة، والبعض الآخر لم يكن كذلك. لكن البحث أصبح بطريقة ما عملية مثبطة للعزيمة جعلتني شيئًا فشيئًا أصاب باليأس في الأماكن التي كنت أبحث فيها وفي توقعاتي. عندما هدأ الجو قليلًا -لم يكن هنالك مطر، وظهرت خيوط من أشعة الشمس من بين الضباب- قررت، كحلٍّ أخير، أن أبحث في الأرجاء المحيطة بفندق النخيل، حيث أماكن تواجد فتيات الليل هناك.

بينما كنت أمر بالقرب من مكان في شارع الثالث والعشرين أند ويست، لفت انتباهي منظر رجل عجوز يكنس باحة أماميةً، كانت في الحقيقة عبارة عن مساحة إسمنتية صغيرة جدًا، تخلّلتها أوراق عشب متمردة ما زالت تشق طريقها من بين الشقوق. لم يكن منظر العشب هو ما أدهشني وإنما غصن الورد الذي رأيته أمام البيت الصغير. من بين جميع المرات التي لربما أكون قد مررت بها، من جانب ذلك المكان، أكاد أجزم أنني لم أر أبدًا ذلك البيت من قبل، أو ذلك الغصن أيضًا. عندما فكرت بالأمر، وجدت أنني لم أر غصنَ ورد كهذا من قبل في أي مكان من ذلك الجزء الوعر من المدينة. شعرت بالذهول، وتساءلت: كيف يمكن لأحد أن يزرع الورود في حي الغيتو؟

فتحت مجالًا للحديث مع الرجل العجوز الذي كان يدعى جاكسون. أستطيع القول من خلال كثرة التجاعيد على وجهه الأسمر أنه كان موجودًا هنا منذ سنين، أو أنه عاصر حياة قاسية. بعد أن تبادلنا أحاديثًا لطيفة

حول الجو وحول ابني الوسيم، وأثناء استمراري بالحديث، لاحظت بأن النافذة الأمامية للمنزل مغطاة بورق الحائط.

"أيعيش أحد هنا؟" سألت السيد جاكسون وأنا أنظر إلى المنزل.

أجابني: «كلا، لا أحد يعيش هنا.» موضحًا أنه هو وعائلته يمتلكون البناية لكنهم يعيشون في طابق علوي، وأنهم يستخدمون هذا المكان للتخزين منذ ثلاث سنوات تقريبًا.»

"هل هو للإيجار؟"

"يمكن تدبر الأمر." أجابني، ومن ثم عرض عليّ أن يريني المكان وما يحتاجه من عمل.

في اللحظة التي دخلنا فيها، وبينما كانت رئتي تغرق برائحة عفنة كون المكان لم يكن يدخله أي ضوء أو هواء منذ وقت طويل جدًا، وقعت عيني على مساحة في الطابق السفلي، تغطي البناية بأكملها، وأصبحت الرائحة طفيفةً فجأة. كنت عاجزًا عن الكلام فقد كان المكان جميلًا للغاية، حتى مع وجود ضوء خافت. كان هناك غرفة أمامية، ومن ثم غرفة كبيرة جدًا ملائمة لكريستوفر، وحمام، ومطبخ، توجد بالقرب منه غرفة طعام، مع مدخل صغير نحو غرفة أخرى يمكن أن تكون غرفتي.

والآن يأتي دور الاختبار. «هل أستطيع أن أؤجر المكان؟» قلت له، وقبل أن يقول لا أو يبدأ بطرح الأسئلة المعتادة، أخبرته منذ البداية: «أنا حديث عهد في وظيفتي. لدي ابني، وليس لدي زوجة لكن..»

قاطعني قائلًا: «يا بني، تستطيع أن تتوقف عن الكلام الآن. لقد أخبرتني بكل ما أرغب في معرفته، تستطيع أن تنتقل إلى هنا.»

للحظات عدة لم أثق بأن الأمر قد انتهى بتلك البساطة، وبأن ليالي التشرد الطويلة قد انتهت، وبأنني قد انتصرت. لكن السيد جاكسون أكد

انتصاري عندما قال لي إن كل ما عليّ إحضاره هو إيجار الشهر الأول، ومبلغ تأمينٍ بقيمة مئة دولار لغرض خدمة التنظيف في حال أخليت المكان.

أجبته: «ماذا لو قمت أنا بتنظيف المكان بنفسي ووفرت مبلغ المئة دولار؟»

بينما كان يتطلع إليّ بتمعن، تسارعت دقات قلبي وبدأ القلق يساورني خشية أنه سيغير رأيه لكنه قال: «حسنًا، يا بني.»

حُسم الأمر. كانت تلك أجمل بقعة في العالم بالنسبة لي، مكان أستطيع القول إنه منزل لي ولابني. لا يمكن لأي طيف من أطياف السعادة أن يقترب ولو قليلًا من الشعور الذي اختبرته في تلك اللحظات، وفي ذلك اليوم الربيعي الجميل، وفي كل يوم تلا بعد ذلك، ومتى ما عدت بذاكرتي لرؤية ذلك الغصن من الورود في حي الغيتو، ووجوده الذي قادني إلى أول منزل لنا بعيدًا عن طريق التشرد.

تلاءم وقت انتقالي إلى المنزل مع قدوم عيد الفصح[197]، احتفالاً بالإحياء والبعث، وموعدًا للبدايات الجديدة، والطرق الجديدة. ولكي أستذكر هذا الوقت، فإنني منذ تلك الأيام وما أعقبها جعلتها عادة في أن أحاول العودة إلى كنيسة غلايد؛ للاحتفال بعيد الفصح كل عام -مهما كنت

197) عيد الفصح Easter: ويطلق عليه أيضًا عيد القيامة هو أعظم الأعياد المسيحية وأكبرها، تُستذكر فيه قيامة المسيح من بين الأموات بعد ثلاثة أيام من صلبه وموته، كما هو مذكور في العهد الجديد، وفيه ينتهي الصوم الكبير الذي يستمر عادة أربعين يومًا. يرتبط عيد القيامة بعيد الفصح اليهودي في كثير من رمزيته، وبخلاف اللغة الإنكليزية والألمانية لم تشتقّ كلمة عيد القيامة "Easter" و"Ostern"، من فيساح أو بيساك أي الكلمة العبرية للفصح، ولكن من الاسم القديم لشهر نيسان Eostremonat Ostaramanoth. تختلف عادات الفصح في مختلف أنحاء العالم المسيحي، غير أن الهتاف بتحية عيد الفصح، وتزيين المنازل، وعادة البيض، ووضع قبر فارغ في الكنائس، وأرنب الفصح، هي من العادات الاجتماعية المرتبطة بالفصح، أما رتبة القيامة الدينية فتتمثل بقداس منتصف اللّيل أو قداس الفجر.

بعيدًا أو مشغولًا- ليس لأحيي من جديد تلك الذكريات المؤلمة للأماكن التي عشت فيها من قبل ولكن لأحتفل بالمعجزات التي حدثت لي بعد ذلك.

الجزء الثالث

الفصل الحادي عشر

ورود في حي الغيتو

الكل أراد مساعدتي حالما بدأنا حياتنا في منزلنا الجديد في أوكلاند، كاليفورنيا، نسخة من داخل مدينة كانساس. منذ أن اتّصلت بأصدقائي الذين لم أتواصل معهم منذ فترة، بدأت العروض تنهال علي. عرض علينا صديق طاولة للعب الورق كانت موجودة في قبوه ويمكن لنا أن نستفيد منها، وعرض علينا صديق آخر سريرًا وفراشًا، ومجموعة من الأطباق والمنشفات التي لم تكن مستخدمة. طالما كان بإمكاني أن أجد طريقة للنقل بنفسي فإن الأغراض أصبحت لنا.

أصرت صديقتي الوفية لاتريل هاموند على أن أذهب إليها لآخذ الخمسة أرطال من عظام الرقبة التي أشترتهم في ذلك اليوم. ما هذا! أنا لم أطبخ عظام رقبة من قبل، لكني ذهبت إليها وجلبتهم، وفكرت بأنني قد تلقيت بعض التدريبات أثناء عملي في المطبخ، ومن ثم خرجت لأشتري فريزا

مستعملًا. في متجر البقالة، أعطتني الآنسة توكي -التي كانت تكن لي مشاعر إعجاب- بعض الإرشادات الأساسية المفيدة في كيفية طبخ العظام. عندما تملكني شعور بالتعب من إمكانية اضطراري إلى تولي مهمة منزلية أخرى، لمحت أمامي أمًا عزباء تحمل أكياس بقالة وحقيبة عمل ومعها طفلان. فقلت في نفسي إن استطاعت هي أن تفعلها فأنا أيضًا سأستطيع.

أتى الأصدقاء من مختلف الأحياء والمحطات ممن عرفتهم خلال رحلتي في منطقة الخليج؛ ليساعدوني في التخلص من النفايات التي كانت في المنزل، ولينظفوا معي المكان الذي سرعان ما أصبح في حالة أفضل جراء دخول الهواء وضوء الشمس، مما أدى إلى القضاء على معظم الرائحة العفنة التي كانت تسيطر على الجو. بدا المكان رائعًا. لقد كان بمثابة تاج محل مقارنة بالمكان الذي كنا نبيت فيه.

كان كريستوفر مساعديَ الأول، ليس فقط من خلال التزامه الكبير في التنظيف وإنما مساعدته في تنظيم مهامنا وتذكيري بما علينا فعله. «بابا!" سألني قبل أن ننتقل إلى المكان: «هل نستطيع ترتيب الفناء الخلفي؟»

ذهبت إلى الفناء الخلفي لأتحقق من الأدغال النامية طوال ثلاث سنوات دون عناية وأخبرته: «ليس بعد، يا بني، يجب علينا أولًا أن يكون لدينا منجل هنا، وأنا لا أملك واحدًا الآن.» لكننا خطوة بخطوة، قمنا بترتيب كل شيء داخل المنزل بوقت قياسي.

بعد قضائنا أول ليلة في منزلنا الجديد، وبينما كنا نتحضر لنغادر باكرًا في صباح اليوم التالي، كي آخذ كريستوفر إلى مركز الرعاية النهارية ومن ثم أغادر أنا مستقلًا القطار كي أصل إلى المكتب في الوقت المحدد، كان كريستوفر قلقًا جدًا من أننا سننطلق من غير أمتعتنا معنا.

شرحت له: «لا بأس.» وسحبت مفتاح المنزل الوحيد من الباب لأريه

لماذا لم نكن مضطرين لأخذ كل شيء معنا: «أصبح لدينا مفتاح، أترى يا كريستوفر؟»

نظر إلى المفتاح البسيط في راحة يدي لكنه لم يستوعب الأمر. «بابا!" قال لي، مشيرًا إلى حقيبة القماش الخشن التي تحوي حاجياتنا وكيسي المتدلي الذي يحتوي بدلتي الثانية: «يجب علينا أن نحملهما.»

"لا يا بني.." أخبرته، "ليس علينا أن نحمل أي شيء؛ أصبح لدينا مفتاح الآن. دعنا نترك كل شيء هنا، اتفقنا؟ وبإمكاننا أن نذهب بعدها."

ابتسم ابتسامة محيرة، أراد أن يتأكد من أنه قد فهم ما قلته له جيدًا: «نستطيع أن نترك كل شيء هنا؟"

انحنيت نحوه وقربت وجهي من وجهه، ابتسمت ابتسامة محيرة أنا أيضًا، لكنها كانت ابتسامة مريحة في نفس الوقت، وأعدت عليه ما قلته له: «أجل، نستطيع أن نذهب ونترك كل شيء هنا.»

قمنا سوية بإغلاق الباب بالمفتاح ونحن نضحك، ومن ثم توجهنا للذهاب إلى محطة بارت، دون الحاجة لخوض كل ما كنا نفعله في السابق في طريقنا إلى هناك.

كان الأمر ما زال غريبًا بالنسبة لي كيف أننا تنقلنا في دائرة كاملة، وعدنا إلى نقطة البداية منذ اللحظة التي وجدت فيها غرفة لنا في فندق النخيل. لماذا لم أر هذا المكان من قبل؟ لقد تغير العالم بالنسبة لنا منذ ذلك الحين، ومع هذا فإن رحلة الذهاب والإياب التي تستغرق أربع ساعات يوميًا حملتنا مباشرة نحو ناصية الشارع حيث أماكن تواجد بائعات الهوى اللاتي تذكرننا من قبل.

"مرحبًا أيها القواد الصغير." كن ما زلن ينادين كريستوفر بهذه التسمية، رغم أنه كبر ولم يعد يجلس في العربة الزرقاء، وأصبح الآن يمشي

يدًا بيد معي أو يلعب لعبة صغيرة أحب كلانا لعبها كي لا نشعر بالوقت عند ذهابنا إلى محطة بارت والعودة منها، نتبادل الأدوار في ضرب قنينة عصير بلاستيكية فارغة. «مرحبًا أيها القواد الصغير!" كانوا ينادون عليه وفي بعض الأحيان كانوا يعطونه خمسة دولارات، كما كنّ يفعلن في السابق.

كان ذلك ما زال بمثابة المنّ بالنسبة لنا. فمن ناحية، كنا نعود من المدينة في الساعة التاسعة ليلًا عادة، لذا لم يكن الطبخ أمرًا كنت أتوق لفعله، ناهيك عن ذكر أنني لم أكن قد أتقنت فنه بعد. ومن ناحية أخرى كانت النقود ما زالت شحيحة، رغم أن الإيجار لم يكن باهظًا. لذا كانت ورقة الخمسة دولارات تجلب لنا وجبة عشاء في مطعم موسيل، حيث كان صندوق الفونوغراف الآلي يعزف أغنية كريستوفر المفضلة، «صاروخ الحب» لستيف وندر. في كل مرة كنا ندخل فيها المطعم كانت الأغنية لا تنفك تدار بطريقة أو بأخرى، وكان هذا سببًا لكريستوفر لينبهني: «بابا، إنه ستيف. ستيف!» كان لديه بالفعل ذائقة ممتازة في الموسيقى وفي الطعام أيضًا.

بعد أن كنت أطلب الطعام، كان هو من يباشر التهام الأكل أولًا، ومن ثم كنت آكل ما تبقى منه. كلما كان ينمو كانت شهيته تزداد، لذا كنت أحرص على طلب كل ما يقدمونه كي تمتلئ معدته حد الشبع مثل الفاصولياء الحمراء مع الرز وخبز الذرة. أصبحنا زبونين منتظمين لدرجة أن مالكي المطعم بعد فترة سمحوا لي بالحصول على ميزة الدفع بالتقسيط، حيث إنهم كانوا يسلمونني فاتورة تقتضي تسديد ثمن الوجبات كل أسبوعين، عندما كنت أقبض راتبي. كنا نطلب دائمًا الطبق نفسه، حتى بعد حصولنا على تلك الميزة. فعادات التشبث بالحياة يصعب تغييرها، خاصة وأنني استمررت في البحث عن أي فرصة من شأنها أن توفر النقود لنا.

لكن عندما كان طبق الرز والفاصولياء يأتي إلينا، كان عليّ أن أتفاخر بإنفاق بعض النقود على آلة الفونوغراف كي يستطيع كريستوفر الصغير سماع «صاروخ الحب» مرة أخرى. يا لها من صورة مبهجة؛ ابني يمضغ الطعام بينما كان يستمتع بسماع أغنيته المفضلة، ويغني معها ويهز رأسه. لا تعدُّ آلام الجوع وسيلان اللعاب بالضرورة تعبيرًا عن البهجة، خاصة في إحدى الليالي عندما شاهدته يأكل عشاءه بشراهة. رآني أشاهده، فوضع شوكته جانبًا وقال: «لماذا لا تأكل؟»

"لا، كل أنت يا بني." هذا ما قلته له، لكنني بصراحة، كنت أفكر: «اللعنة، سوف تقوم بأكل كل هذا الطعام؟» طفل بعمر سنتين ونصف تقريبًا، كان بإمكانه أن يأكل مثل حصان صغير. يبدو أنه كان قد تعلم منذ صغره أن عليه أن يأكل طالما يوجد طعام أمامه.

كانت تلك هي المسألة ذاتها مع ندوات سهرة البيتزا التي كانت تستضيفها شركة دين وتر بناء على توصية المستشار بل غوود، الذي كانت خبراته تؤهله لإعداد مستثمرين محتملين في مجال الهاتف. كنت قد بدأت أصبح بارعًا في هذا المجال لكني كنت دائمًا منفتحًا على التعلم من الكبار. كان مفهوم العمل يقتضي أن مجموعة مكونة من ستة أشخاص تقريبًا تبقى في الشركة بعد أوقات العمل، ويقوم الجميع بالاتصال بكل شخص موجود في دفترنا التجاري ويخبرونهم مثلًا بأن هنالك عروضًا لأسهم جديدة تطرحها شركات مثل غاز المحيط الهادئ والإلكترونيات. وسط الابتسامات والاتصالات، كنا نستمتع بأكل البيتزا في دين وتر. كنت أذهب إلى مركز الرعاية النهارية، لآخذ كريس الصغير، وأعيده فيما بعد. طالما كان باستطاعته الحصول على البيتزا فقد ضمنت أنه سيبقى لطيفًا وهادئًا.

"كل طعامك يا بني." أخبرته في أول سهرة بيتزا عندما عدت إلى العمل

في نفس الوقت الذي أتت فيه البيتزا، وكان الاتصال على وشك أن يبدأ، «اجلس هنا وتناول البيتزا، بابا عليه أن يتحدث في الهاتف، فهمت؟»

"بابا، هل ستتحدث في الهاتف مرة أخرى؟"

"أجل، سأتحدث في الهاتف مرة أخرى."

"بابا، سوف تواصل حديثك؟"

"أجل، أنا ما زلت أتحديث.»

"بابا، هل تحب أن تتحدث؟"

"نعم، يا بني، أحب أن أتحدث. تناول قطعة أخرى من البيتزا."

سرعان ما كنت أضحك وأطلب الرقم، وكذلك كان حال الموجودين في المكتب أيضًا.

حيث أن كريستوفر كان متلهفًا جدًا للمساعدة، أيًا كانت المهمة التي ستلقى على عاتقه، لذا خطر ببالي أن عليّ توظيف مساعدته من خلال تسجيله في مركز الرعاية النهارية في أوكلاند، حيث أخطؤوا في كتابة إملاء كلمة السعادة. إن استطعنا تدبر الأمر فذلك من شأنه أن يسهل علينا تنظيم أيامنا الطويلة التي نغادر فيها منذ الساعة الخامسة صباحًا، ولا نعود حتى التاسعة ليلًا. العقبة الوحيدة التي كانت تواجهنا هي تدريب القعادة. كان من حين إلى آخر يخبرني عندما يحتاج الذهاب إلى الحمام لكنه لم يهتم للأمر في معظم الأوقات.

أثناء تواجدنا في القطار في طريق عودتنا بعد سهرة البيتزا، قدمت له مقترحي: «يا بني، أتريد مساعدة بابا؟»

"نعم!"

"الطريقة التي ستساعد بها بابا.." قلت له، "هي عندما تشعر بأنك قد تحتاج إلى الذهاب إلى الحمام، ارفع يدك مرة واحدة فقط، عندما

تشعر بأنك في حاجة إلى أن تقضي حاجتك أرفع يدك مرتين. اتفقنا؟»

"حسنًا" أجابني، وابتسم فرحًا لأنه حصل على مهمة أوكلت له فقط.

جعلناها لعبة فيما بيننا، وبعد مرور أسبوعين من التدريب أصبح قادرًا على استخدام القعادة بشكل جيد، وتم تسجيله في مركز الرعاية النهارية الذي يقع مباشرة بالقرب من محطة بارت. كان روتيننا الجديد أقرب ما بإمكاني تخيله في تلك المرحلة عن الاستمتاع بعطلة. في الصباح، في تمام الساعة السابعة كنت أترك كريستوفر في مركز الرعاية، ثم أذهب لأستقل القطار، وأصل إلى عملي مبكرًا. وفي المساء كنت أعود في الموعد المحدد لآخذه في تمام الساعة السادسة؛ كي نذهب لنتناول وجبة عشائنا الرخيصة والمعتادة: غذاء الروح، وبعد ذلك كنا نتوقف لنزور جو تي في الذي كان يمتلك متجرًا يحمل نفس اسمه لبيع وإصلاح أجهزة التلفاز المستعملة.

لم يكن جو، ذلك الرجل الذكي واللطيف، يمانع إن توقفنا قليلًا لنتكلم معه ونشاهد التلفاز لبعض الوقت. لقد عرف على الأغلب أننا لم نكن نملك جهاز تلفاز، لكنه لم يعلق على الأمر أبدًا. في الحقيقة عندما كان يعرض على التلفاز حدثًا رياضيًا مهما مثل ملاكمة محمد علي كلاي، التي شاهدتها هناك في مرة من المرات، كنا نضبط موعد وصولنا كي يتبين أن قدومنا كان مجرد مصادفة لمشاهدة أي شيء كان يبث.

بعد انتهائنا من وجبة العشاء، ومشاهدة القليل مما كان يعرض على التلفاز، وزيارة جو تي في، كانت محطتنا الأخيرة قبل التوجه إلى المنزل هي التنزه بالقرب من فندق النخيل، حيث أماكن تجمع السيدات هناك، كل حسب موقعها، وكان البعض منهن ينادي علي وعلى ابني: «مرحبًا يا كريس! مرحبًا أيها القواد الصغير.»

كن قد أصبحن الآن بمثابة عائلة بالنسبة لكريستوفر. كان يرد

سلامهن: «مرحبًا!» وهو ويعرف أننا حتى وإن كنا قد تناولنا العشاء، فإنه لربما سيحالفه الحظ كفاية، وسينال تلك الخمسة دولارات التي اعتاد الحصول عليها منهن.

بعد ذلك كنا نمضي بعض الوقت في الشارع ونعود بعدها إلى منزلنا. كنت طوال فترة تنزّهنا أبقي يدي في جيبي، لأتأكد من أن المفتاح ما زال في مكانه. ذكرني هذا الموقف بخاتم الألماس الذي كنت أحمله في جيبي لشيري، وبمدى توتري طوال رحلتي خوفًا من أن أفقده، لكنّ المفتاح كان يساوي عشرة أضعاف قيمة ماسة الأمل[198] بالنسبة لي. ما الذي جعلني أحبه لتلك الدرجة؟ لم أكن أعلم. لم يكن معلقًا بسلسلة مفاتيح أو حلقة مفاتيح، كان مجرد مفتاح صغير فقط، لكنه كان مفتاحنا.

لم يختفِ أبدًا ذلك الشعور بالفرح الذي كان يغمرني في كل مرة كنت أرى فيها الأزهار وهي تتفتح في حي الغيتو أمام منزلنا، وعندما كنت أضع قدمي على عتبة الباب، تلك الدرجة الأولى من السلم. في كل مرة كنت أضع فيها قدمي على عتبة الباب والمفتاح بيدي، أفتح الباب ومن ثم أدخل أخيرًا إلى المنزل، كان شعورًا يستحيل عليّ وصفه. كان إحساسًا معاكسًا تمامًا لشعوري بالعجز، وكان ترياقًا للتغلب على الخوف من عدم معرفة ما الذي كان يحدث في تلك الليلة، أين سنذهب، وكيف سنتدبر أمرنا. كان المفتاح بمثابة مفتاح لمملكة، دليلًا يثبت أني قد قطعت كل تلك المسافة من حيث ما كنت، في أسفل قعر الحفرة، وصولًا لمكاني الآن، عملية تحول

198) ماسة الأمل: Hope Diamond هي واحدة من أكثر الجواهر شهرة في العالم، وترجع سجلات ملكيتها لأربعة قرون. تتميز باللون الأزرق النادر ويبلغ وزنها 45.52 قيراط. يعتقد أن الماسة جُلبت من منجم كولار بالهند، وقد نقلها تافرنييه إلى فرنسا عام 1642 وكان لويس السادس عشر ملك فرنسا أحد ملّاكها، وقد استقرت أخيرًا في متحف التاريخ الطبيعي عام 1949 هديةً من هاري وينستون.

لا تصدق.

هل كان الوضع ما زال صعبًا؟ بالطبع كان كذلك، لكنه كان وضعًا بإمكاني تحمله. أما الآن وقد استطعت تأمين هذا المنزل لنا، ومركز الرعاية، والمواصلات، والطعام، فقد شعرت بأنني أستطيع أن أنظف عقلي وأفرغه من كل شيء، مثلما فعلت مع المنزل، ومن ثم أتهيأ لتحقيق مستوى أعلى في العمل. لم يكن الأمر كما لو أن جميع مخاوفنا كانت قد أصبحت وراءنا، فقد كان ما زال عليّ أن أواجه واقعًا حدث في بداية انتقالنا إلى مكاننا الجديد، عندما فاتني موعد تسديد فاتورة الكهرباء لعدة مرات وقُطعت خدمة التيار الكهربائي.

أشعلت الشموع، وأخبرت كريستوفر: «تعال سأحممك على ضوء الشموع.» محاولًا ألّا أشعره باستيائي، ومدى إحباطي حول ما كان في الحقيقة مجرد عائق بسيط في مخطط سير الأمور.

وعلى الرغم من ذلك، وبينما كنت أدعك ظهر كريس الصغير في حوض الاستحمام، لم أستطع منع نفسي من القلق حول الطريقة التي يمكن من خلالها تحقيق ما كنت أطمح له إذا ما استمرت تفاصيل اليوم الصغيرة بسحبي إلى الوراء. نعم، بالطبع، لاحظت وجود تقدم، لكن المكان الذي أردت أن أكون فيه ما زال يلوح بعيدًا في الأفق. أكثر ما كان يشغل فكري هو أنني "لست سوبرمان".

في تلك اللحظة تحديدًا، ومن حيث لا أدري، وقف ابني في حوض الاستحمام، وعلت وجهه نظرة جدية جدًا تسلط ضوء الشمعة عليها، وقال لي: «بابا، أتعلم شيئًا؟ أنت أب جيد.»

ارتحت كثيرًا، ونسيت جميع مخاوفي، وتلك التفاصيل اليومية الصغيرة، وعرفت أنني سأصبح بخير. تلك الكلمات التي خرجت من طفلي

الصغير، كانت كل ما احتجت سماعه. لطالما كان كريستوفر قادرًا على إبهاجي أو إعطائي أي شرارة أمل احتجتها في ذلك الوقت.

التقطت لنا صورة بعد فترة ليست ببعيدة من كلام كريستوفر، تلخّص فيها كل ما كانت عليه تلك الفترة. أسميتها «صورة أسدين" كنا نجلس فيها أنا وكريستوفر جنبًا إلى جنب أمام منزلنا، على تلك الدرجة الأولى من السلم، وأنا أنظر إلى أعلى عدسة الكاميرا، وكأنني أتطلع نحو الأفق، كأسد تعلو وجهه نظرة كبرياء وعزم، وكأنه يقول: «من أين ستأتي وجبة طعامنا التالية؟»، وتعلو وجه ابني، الشبل، نظرة تقول: «أنا جائع، أنا جائع.»

لخص ذلك المشهد كل شيء. محت صورة الأسدين كل الشكوك التي قبعت في ذهني وأكّدت لي أنني كنت أفعل الصواب وأسير على الطريق الصحيح. لم نكن سننظر خلفنا، أبدًا. أصبح كل تركيزي موجّهًا نحو الأفق. ما الذي سيحدث لاحقًا؟ كيف سأسعى وراءه؟ ما الذي كان ينبغي عليّ معرفته كي أحقق طموحي؟

...

تنشّطت شهيتي للتعلم من جديد عندما أحضرت شركة دين وتر واحدًا من كبار منتجي الشركة، كان شخصًا ذكيًا للغاية ونشطًا يدعى غاري أبراهام من لاس فيغاس، نيفادا. كُلّف بزيارة مختلف مكاتب الأفرع ومساعدة الأشخاص الجدد في تأسيس أعمالهم. توطّدت علاقتنا أنا وغاري على الفور.

متى ما اتصلت به لكي يسديني نصيحة أو لمجرد التواصل معه، سواء عن طريق الهاتف أو وجهًا لوجه، كان يهتم ويجيبني بكل واقعية، ثم يسألني: «مرحبًا، كيف حالك؟ ما الذي يحدث معك؟»

رغم تعامل غاري البسيط إلا أنه كان حاد الذكاء، وبارعًا، ومزدحمًا بالأفكار حول ما كان يفعله وكيف أنه قد أسس عمله بنفسه. كانت إحدى المفاهيم التي ساعدني في معرفتها -أمر لم أتقنه حقيقة حتى وقت لاحق- هي فكرة أنك بدلًا من أن تخبر أحدًا ماذا عليه أن يشتري ولماذا عليه أن يشتري ذلك الغرض بالتحديد، ثمة طريقة أكثر استراتيجية وإنتاجًا وهي معرفة ما الذي يرغب العميل بشرائه. وحسب فهمي البسيط عن العرض والطلب، فإن هذه الطريقة أوضحت الكثير من الأمور لأنها كانت منطقية جدًا، على الرغم من أن تطبيقها كان سيأخذ وقتًا طويلًا.

عندما بدأ غاري عمله في فيغاس؛ حيث الازدهار الدائم ومنبع النقود الذي لا ينضب، لم يكن ينجز الأمر عن طريق الهاتف، بل كان يذهب ويستكشف الأماكن بحثًا عن تطورات جديدة، حيث كانوا يبنون منازلَ بملايين الدولارات في مختلف الولايات التي تحتوي على مشاريع الإعمار.

"كنت تذهب إليهم شخصيًا؟» سألته محاولًا أن أرى نفسي وأنا أفعل نفس الشيء.

استرجع غاري قائلًا: «بكل تأكيد. كنت أرتدي بدلتي الزرقاء الأنيقة، وأذهب وأرن جرس كل منزل من تلك المنازل، دون أخذ موعد سابق، وأعرفهم بنفسي.»

آه كم أردت الحصول على تركيبة ما كان يفعله. كل ما كان يفعله، وكيفية فعله.

لم يكن هناك أي شيء فائق البراعة حول ما كان يفعله، أصر قائلًا: «كنت أقول مرحبًا، أنا غاري أبراهام، أنا مع شركة دين وتر بفرعها هنا في لاس فيغاس، وأرغب في معرفة إن كان هناك أي شيء نستطيع مساعدتك به كي تستقر هنا، بالمناسبة هل لديك علاقة بسوق الأسهم؟»

تلك الطريقة المستقلة كانت بالضبط السبب الذي جعلني أتخذ الطريق الطويل من خلال إنشائي دفتري التجاري الخاص بي بدلًا من الالتزام بما يمليه برنامج الشركة، مثلما كان يفعل معظم الأشخاص من حولي. نظرت إلى غاري وعرفت بأن ذلك هو ما أردت فعله، وتلك هي الطريقة التي أردت إدارة العمل من خلالها.

أدركت عندما أصبح عمري تسعة وعشرين عامًا أني كنت محظوظًا بشكل مبالغ فيه لأنني حظيت بشرف التتلمذ -إما بطريقة مباشرة أو غير مباشرة- على يد أشخاص غير عاديين، وأيقونات حقيقية يحتذى بها. يا لها من مجموعة أشخاص كانت تسحبني دائمًا نحو الأمام، سواء كان الوحي الأول الذي زار طفولتي من خلال مايلز ديفيس الذي جعلني أرغب في الوصول إلى العظمة، أو إصراري الذي غرسه الدكتور روبيرت ايلس في داخلي في أن أكون ضمن الصفوف المتقدمة والمتطورة في أي عمل قمت به، أو الطموح في الوصول إلى أرقام بوب رسل عندما دخلت عالم الأعمال، أو شعلة الإيمان والشغف، التي قادتني للنجاح في عالم وول ستريت، والتي أوقد بوب بريجيت بسيارته الفيراري الحمراء شرارتها الأولى في داخلي، أم الأساليب المختلفة التي انتهجها نجوم شركة دين وتر مثل آندي كوبر وديف تيرس وغاري أبراهام.

لم يكن هناك أي شعور في داخلي بأن أولئك الأساتذة اللامعين ساعدوني كثيرًا أو قليلًا؛ لأنني كنت شخصًا أسود أو توقعوا مني الكثير أو القليل لذات السبب. إن كان الأمر كذلك فلم يكن يهمني. قرأت فيما بعد اقتباسًا لبيري غوردي[199] حول كيفية تحقيقه النقلة الكبيرة لشركة

199) بيري غوردي Berry Gordy: ولد في 28 تشرين الثاني عام 1929 وهو مؤلف أغانٍ ومنتج. اشتهر بتأسيسه لشركة تسجيلات موتاون.

موتاون[200]، ولماذا كان على يقين من أن تسجيلاته ستباع للأولاد البيض والسود على حد سواء. ظل صدى كلماته -أن نجاح عمله في الموسيقى لم يكن متعلقًا باللون الأسود أو الأبيض قدر تعلقه باللون الأخضر- يرن في أذني. في عالم المال الذي كنت أعمل فيه، كل أولئك الذين أرشدوني وعلموني كان من الممكن أن يرجع أصلهم إلى أي خلفية عرقية، وصادف أن أغلبهم كانوا من البيض، لكنهم كانوا إيطاليين، ويهود، وأجانب، ومن شمال أوروبا، ومن مختلف مستويات المجتمع الاقتصادية والاجتماعية. لم يكن النجاح في هذا المجال يتعلق بشيء أبيض أو أسود، وإنما بشيء أخضر. كانت العملة الخضراء هي المقياس، كم ستكون مساهمتك في تحريك العملة الخضراء وكم تبلغ العملة الخضراء التي تكسبها.

ساعدني غاري أبراهام، لربما من دون قصد، على معرفة نقاط قوتي كي أنتقل إلى المرحلة التالية. تصدرت قدرتي على التعامل مع تقلب الأمور قائمة نقاط القوة التي امتلكتها من خلال خبرتي في الحياة. أدهشتني هذه الحقيقة عن نفسي ذات يوم وأنا في العمل، عندما جن جنون مؤشر داو جونز[201] وتجاوز الألف نقطة، مرسلاً تذبذبًا صادمًا في سوق الأسهم.

---

200) موتاون Motown: هي شركة أسسها بيري غوردي الابن، أدرجت تحت اسم تسجيلات موتاون في ديترويت، ميشيغان الولايات المتحدة عام 1960. الاسم مشتق من كلمتي السيارة والبلدة Mobile وTown بالإنجليزية. يوجد مقرها الآن في مدينة نيويورك. تسجيلات موتاون لعبت دورًا كبيرًا في الدمج العرقي بين الموسيقى الشعبية في الستينات. كانت موتاون والشركات التابعة لها تعرف باسم صوت موتاون، وهو نمط من موسيقى السول مع تأثير البوب المميز.

201) داو جونز Dow Jones: مؤشر داو جونز أو داو 30 وهو مؤشر صناعي لأكبر 30 شركة صناعية أمريكية في بورصة نيويورك أنشأ في 26 أيار 1896. اضطرب مؤشر داو جونز أكثر من مرة متأثرًا بالأوضاع السياسية والاقتصادية في العالم، وكان أكبر انهيار له عام 1929 حيث فقد المؤشر ما يقارب الـ50% من قيمته بسبب الركود الاقتصادي الذي خيم على الولايات المتحدة لمدة أربع سنوات. ولم يعد إلى مستواه الحقيقي الذي كان قبل الأزمة إلا بعد 20 سنة. وانهار المؤشر أيضًا في سنة 1987 حيث فقد 22% في يوم واحد، وعاد بعدها للصعود حتى عام 2001 حيث وقعت أحداث الحادي عشر من سبتمبر والتي تسببت بخسائر كبيرة للمؤشر وقد وصل إلى أعلى مستوى له في أكتوبر 2007 فوق مستوى 14000 نقطة.

لكن أحد السماسرة القديمين كان يشتعل غضبًا: «هل ترى ذلك يا بني؟» قال ذلك لأحد السماسرة الجدد. «لقد انتهى الأمر. قم ببيع كل شيء.»

كنا نشاهد المؤشر عن كثب وهو يتصاعد، ويصل إلى ثمانمئة وخمسين، ومن ثم إلى تسعمئة، وعندما وصل إلى ألف في ذلك اليوم، اعتقد ذلك السمسار القديم أنها كانت نهاية العالم؛ حيث تترجم في قاموس سمسار البورصة إلى: «قم ببيع كل شيء.»

أصبح «التقلب والتغيير» شعار حياتي. إذا كان هنالك شيء واحد قد تعلمته فهو: مهما تأزّمت الأمور فلن تكون نهاية العالم أبدًا. وعلمني أيضًا أن الأشخاص من حولي لم يكونوا يعرفون أي شيء إلّا ما ندر. يا له من أمر مخجل. كانوا يقومون بتهدئة كل من حولهم، وكأنهم يعرفون كل شيء، لكن في النهاية لا أحد كان لديه أدنى فكرة ماذا سيحدث في السوق. في الواقع قلة فقط كانوا يمتلكون الموهبة في عالم البورصة. لم تكن تلك موهبتي أيضًا، على الرغم من أنني كنت على ثقة تامة أنني أعرف أفضل المحللين وأعرت اهتمامًا لما كانوا يقولونه. لكن توقع تقلبات السوق وصعود أسهمه أو هبوطها لم يكن أمرًا يثير اهتمامي.

كل ما كنت أعرفه هو أن السوق كان سيفتح ومن ثم كان سيحدث أحد الأمرين: كانت أسهمه إما ستصعد أو ستهبط. يمكنك أن تراهن بنقودك على ذلك. سمح لي ذلك الإدراك بأن أبقى ثابتًا، وأن أوفر طمأنينة غير زائفة للعملاء. كان الالتزام من بين جميع الأشياء التي استفدت منها في هذه المرحلة الاستهلالية في وول ستريت، حيث كان الأمر كله يتعلق بتحرير السندات، وكان أهم مبدأ تبنيته فإن حررت سندًا فعليه أن يكون سندًا أمينًا.

صاغها غاري أبراهام بهذه الطريقة: «حرر سندًا من شأنه أن يدبر لك سندك التالي. لا تدخل أحدًا ضمن شيء فقط لتنال قطعة من كعكة

العمل لأنها ستكون آخر قطعة ستنالها من العميل.»

كان غاري مرجعًا استثنائيًا لم أحاول اتباع نصائحه فقط بل ألّا أنساها أبدًا، كان ملمًا بكل شيء متى ما لجأت إليه. مع مرور الوقت اكتشفت أنني تعلمت أصول البيع في سان فرانسيسكو لكن نيويورك كانت هي من علمتني أصول العمل التجاري. لم أكن أعرف، حتى وقت لاحق، أن معرفة العمل التجاري والبيع هما عالمان مختلفان تمامًا. نجح غاري أبراهام في إدارة هذين المصطلحين بالطريقة الصحيحة وبدون أي جهد. أراد الناس العمل معه، رغم أنه لم يرغمهم على شيء، بل تركهم يبيعون بأنفسهم.

عرفني غاري على مدى تأثير عدم محاولة بيع الناس ما هو موجود لدي، بل أن أجد ما يرغبون هم في شرائه، أو ما سيشترونه، أو ما يملكونه مسبقًا. تلخص الأمر كله في السؤال التالي: ما هو الشيء الذي ترغب أن أريك إياه، على غرار ما تملكه مسبقًا، ومن شأنه أن يلبي أهدافك الحالية؟

كان ذلك هو الاتجاه الذي أردت السعي وراءه، تاركًا كل ما كنت أفعله في السابق؛ «لقد حصلت على هذا المنتج، وذلك الشيء الذي عليّ أن أنقله، ولا يهمني ما تريده أو إذا ما كنت تملك ذلك المنتج مسبقًا.» للأسف كانت دين وتر شركة أسهم بالوساطة شأنها شأن أي شركة وساطة أخرى، مؤسسة ضخمة تحمل أجندة لا تتوافق بالضرورة مع أجندة عملائها.

وبالرغم من كل هذا، وحتى مع تحسن معاشي نوعًا ما، وبينما كنا أنا وكريستوفر نقوم بنزهة من أجل انخراطٍ أكثر في الحياة الاجتماعية في عطل نهاية الأسبوع، بدأت أتساءل فيما إذا كان يتوجب عليّ توسعة دائرة خياراتي.

كانت الفكرة تدور في رأسي عندما تسكعنا في نادٍ يعزف موسيقى

البلوز في الحي حيث كانت الفرقة بقيادة ترويس كي[202]، ولد صغير البنية أبيض كان على علاقة مع الشابة السوداء الأجمل، والتي تعزف عزفًا رائعًا. أما الطعام، الذي كانت تطبخه شيب مقابل خمسة دولارات للطبق الواحد، فكان أكثر روعة. حالف الحظ كريستوفر في التواجد ضمن بيئة تعليم الموسيقى وفن الطبخ، حيث كنا نجلس هناك طوال الليل، نستمع إلى موسيقى البلوز، ونحاول أن نجرب كل ما هو موجود على لائحة الطعام. كانت شيب تطبخ سمك السلور مع الرز والفاصولياء والخضراوات والبطاطا الحلوة، وتشوي الأضلاع، وتقوم بتنقيع شرائح لحم الخنزير المدخن، وشرائح اللحم، بصلصة مرق اللحم وتقدمها مع قطع خبز الذرة. أما الدجاج فقد كان يقدم بشتى الطرق: مقليًا، ومدخنًا، ومحشيًا، ومشويًا. كان لابد لي أن أوقف حظر السكر على كريس الصغير ليتناول كلانا ألذ شاي مثلج محلى شربناه في حياتنا.

بعد ذلك كنا نتجول ونمر كالمعتاد من أمام ممشى بائعات الهوى، وكنا نسلم على نفس الفتيات، ونقبض منهن نفس المبلغ ومن ثم نتوجه عادة بعدها إلى منزلنا.

عندما حل الصيف، كنت أجلس خلال عطل نهاية الأسبوع على عتبة مدخل المنزل الأمامية وأقوم بإخراج كريس لكي يلعب في باحتنا الصغيرة الأمامية، ليعلم أنه لا بأس باللعب مع أولاد الحي الذين أتوا إليه، لكن يجب عليه أن يبقى قريبًا من المنزل وأن يبقى بعيدًا عن جهة الشارع على وجه الخصوص. كان شارعًا مزدحمًا للغاية بسبب حركة السيارات

202) ترويس كي Troyce Key: مغنٍ أمريكي ولد في 7 أيلول عام 1937 وتوفي في 9 من تشرين الثاني 1992. كان مهتمًا بموسيقى البلوز والروك وله عدة ألبومات منها: أصبح لدي سيارة جديدة I've Gotta New Car وأصغر من البارحة Younger Than Yesterday.

في كلا الاتجاهين، إضافة إلى أن تواجد السيارات المركونة والعديد من الشوارع المتقاطعة مع الشارع الرئيس. مضت الأيام بسرعة ونحن نجلس خارج المنزل نشاهد من يأتي ومن يذهب.

ظل جزء من عقلي يفكر كيف يمكنني أن أبيع بنفس طريقة غاري أبراهام، وفي جزء آخر من عقلي كنت أجلس ها هنا في يوم صيفي في حي الغيتو، أستمع لشتى أنواع الموسيقى العالية القادمة من السيارات المارة والستريوهات وأنظمة الصوت المحمولة، مع وجود نخلة في الزاوية وشجرة ورد صادفت أن تكون مزروعة في باحتي الأمامية.

من أحب الأشياء التي كنت أقوم بها لدى شعورنا برغبة للخروج هي أن أضع كريس داخل عربة التسوق التي حلت محل عربته الزرقاء. أصبحت هذه العربة هي وسيلة التنقل الوحيدة في حياتنا بما أنني كنت بعيدًا كل البعد عن أن أكون قادرًا على تحمل تكلفة شراء سيارة ولم يكن باستطاعتي استعادة سيارتي المشتركة مع جاكي. كان كريستوفر يسمي العربة «سيارتنا» اعتزازًا بها، وكان يتساءل كلما دخلنا لأي مكان: «بابا، أين ستركن السيارة؟»

في أيام الطقس الجميلة، كنا نتسكع في شوارع الحي ومعنا عربتنا، نمر عبر شارع تلغراف ونواصل مشينا طوال الطريق نحو بيركلي، كانت نزهة طويلة للغاية. كان المشي على الطريق ينسيني كل شيء ويجعلني أسترخي، وأنا أشعر بالذبذبات والمطبات تتسرب إلى يدي من خلال عجلات العربة. كانت عربة التسوق تصدر أصواتًا مختلفة تمامًا عن أصوات عربة الأطفال، حيث إنها كانت تصدر صوت موسيقى حي الغيتو الخاص بها، صوت يشبه، كلاك لك، كلاك لك، كلاك لك، طوال الطريق. أثناء تواجدنا في بيركلي كنا في بعض الأحيان نتوقف عند منزل والدة لاتريل، نتناول الطعام من مأدبة

الشواء، ثم نشق طريقنا الطويل للعودة إلى منزلنا.

أثناء عودتنا من إحدى هذه النزهات في «سيارتنا» تحول اليوم المشمس فجأة إلى برد ورياح، وأمطار تهطل فوق رأسينا بغزارة. «بابا!" قال كريس، وهو ينظر نحوي رافعًا رأسه إلى الأعلى، ويطرف بعينيه خلال قطرات المطر، «متى سنشتري سيارة تحتوي على سقف؟» ضحكت بصوت عال دوى كالرعد. من بين جميع الأشياء التي كان من الممكن أن يطلب تحسينها في عربة تسوقنا لم تكن أبوابًا، أو محركًا، أو مقاعد جلدية. كلا، لقد أراد سقفًا.

في يوم مشمس آخر كنت أدفع السيارة نحو متنزه يقع غرب أوكلاند، ولمحت زوجين أسودين كبيرين في السن يحملان الطعام والمؤونة داخل عربة صغيرة، ليأخذاها إلى نزهة لم شمل عائلية. مع كل المجال الموجود في عربتنا، شعرت أن الواجب يحتم عليّ أن أعرض عليهما المساعدة.

بدأ كريس على الفور بتفقد محتويات أكياسهم وحاويات الطعام.

"كريستوفر ماذا تفعل!" حاولت أن أوقفه.

لكن الزوجين لم يمانعا على الإطلاق، ووجدا أن ما فعله كريس كان غاية في اللطف والظرف. عندما وصلنا معهما إلى لم الشمل، وبينما كنت أساعدهما في إخراج الحاجيات من العربة صرخ أحدهم: «ذلك هو ابن ويلي!» تلفت من حولي ببطء ولاحظت أن أحدهم كان ينظر لي.

ماذا سأفعل؟ هل أفسر لكل الموجودين أنني لست ابن ويلي، أم أتماشى مع الأمر وأتناول الطعام مع عشيرتي؟ كانت رائحة الشواء لا تقاوم. جربت حظي، والتفت نحو الشخص الذي كان يصرخ وقلت له: «كيف حالك؟»

جلسنا على الفور معهم وتكوم الطعام في طبقينا أنا وكريس. كانوا

يعاملوننا كما لو كنا أفراد عائلة ملكية، أكلنا كملوك حقيقيّين، وكانت الأسئلة تنهال علي طوال فترة تناولنا الطعام.

"حسنًا، كيف حال ويلي؟»، «هل ما زال في السجن؟»، «متى يفترض أن تنتهي مدة حبسه؟»

كنت بالطبع لا أعرف أي شيء عن ويلي، ما الذي اقترفه، أو كم مضى على سجنه، لذا كل ما قلته كان: "حسنًا، كما تعلمون، فإن ويلي بخير."

"أنت على حق يا عزيزي، أتريد الآن بعضًا من هذا؟» قالت امرأة وقورة بينما كانت تقدم لنا وجبة طعام للمرة الثالثة، وأضافت: "اذهب وخذ حصتك من سلطة البطاطس الموجودة هناك."

يا إلهي! هذا ليس طعام المن، بل فيضانًا من نهر الحليب والعسل. بدأ الأمر يصبح أكثر روعة عندما شارفت النزهة على الانتهاء وبدؤوا بتقسيم الطعام، وأخبرونا: «سوف تأخذان بعضًا من هذا، وبعضًا من ذلك، وتلك القطعة من الكعك". كنت أعض شفتي كي أمنع نفسي من الضحك. أصبح لدينا طعامٌ مكدسٌ في عربة تسوقنا يكفينا لأسبوع. المجد للرب في العلا.

في اللحظة التي بدأنا فيها نودع الجميع، والكل يخبرني أن أبلغ تحياتهم إلى ويلي، وجدت نفسي أقف وجهًا لوجه مع امرأة شابة جميلة.

كنا أنا وابني نقضي معظم الوقت مع بعضنا البعض، لذا كان آخر ما يشغل بالي هو الفراغ العاطفي والاحتياج الجنسي. هذا لا يعني أنني أصبحت زاهدًا، أو أنه لم يكن هناك أي احتمالات لحدوث شيء في المكتب أو مع أصدقاء الأصدقاء، لكن وحتى وقت قريب، وحتى وإن وجدت نية، فلم تكن هناك أي طريقة لإنجاح الأمر.

تفاجأت بزيارة غريبة من جاكي حالما سكنّا في منزلنا الجديد، حيث إنها أتت لتزور كريستوفر. كان الأمر مثيرًا للاهتمام بما فيه الكفاية، فعلى

الرغم من أن كريس كان يسأل عنها من فترة إلى أخرى، إلّا أنه لم يتشبث بها أو يتصرف مثلما كنت أفعل أنا خلال وبعد كل مرة كانت أمي تتركني فيها. ربما كان السبب أنه لم يعد يميزها كثيرًا كالسابق، أو ربما كان ذلك نابعًا من مدى علاقتها هي بطفلها. في كل مرة كنت ألتقيها فيها كانت مشاعري تصبح أكثر تعقيدًا مما هي عليه، ولربما يرجع ذلك جزئيًا إلى أنها كانت ترسل لي إشارات متضاربة، غير أن السبب الأساسي يعود إلى غضبي المكبوت الذي لم أبح لها به أبدًا. في الواقع المؤكد، لقد تلقت جاكي هذه المرة توبيخًا قاسيًا مني، وبعدها قمنا بممارسة العلاقة الحميمية. هذا ما كان عليه الأمر، حتى أنه لم يكن رياضة جنسية من أجل الترفيه، لكنه على الأكثر، من وجهة نظري الشخصية، كان يعني تبًا لك حرفيًا. إن كان لديها أي نية في أن نعود لبعضنا بعد ما كنت أتقدم في عملي -لم أكن قد وصلت للمكانة المرجوة بعد، لكنها كانت متأكدة للغاية أنني لن أستطيع تخطي الأبواب- فإنها الآن أصبحت تعلم أن ذلك لن يحدث لذا غادرت فجأة إلى لوس أنجلوس مثلما جاءت لزيارتنا فجأة.

سألني كريس: «إلى أين رحلت؟" فشرحت له: «سوف تنتقل إلى لوس أنجلوس. سوف تراها من جديد قريبًا.» هذا كل ما كان يحتاج لمعرفته في الوقت الحالي.

قلبت الصفحة وبدأت من جديد، وها أنا ذا أحاول أن أتواعد مع هذه المرأة الجميلة التي التقيتها في لم شمل عائلة، في متنزه من منتزهات أوكلاند مدعيًا قرابتي لشخص يدعى ويلي.

بينما كنت أستعد للحصول على رقم هاتفها، تقدم نحوي أحد كبار السن الموجودين وقال لي: «أتعلم شيئًا، هذه هي ابنة عمك.»

كاد أمري أن يكشف. فكرت بسرعة، وقلت له: «آه، يا له من أمر

رائع، لم أرها منذ مدة طويلة، لذلك لم أستطع التعرف عليها.»

وضع يده على كتفي، وحدق بي نوعًا ما، ثم هز رأسه قائلًا: «أجل، أستطيع أن أفهم ما تقوله، فقد كبرت وأصبحت امرأة جميلة جدًا، لذا تمنيت على الأرجح ألّا تكون من أقربائك، أليس كذلك؟»

"لقد أصبت في قولك، لقد كبرت وأصبحت جميلة فعلًا!»

أعاد ما قلته: «أجل، لقد كبرت وأصبحت امرأة جميلة فعلًا.» ونظر إلى المرأة التي حدقت بعينيها بعيدًا ومن ثم ذهبت.

نجوت من الموقف بأعجوبة. كان الأوان قد فات على إخبارها حقيقة هويتي كي أثبت أنني لم أكن من أقربائها. بدلًا من ذلك، التفتُّ نحو الرجل وقلت له: «شكرًا لأنك أخبرتني.»

"لا شكر على واجب." أجابني، وودعني وودع كريس ومن ثم استعجلت برحيلنا من ذلك المكان.

كنت مسرورًا وأنا أدفع عربتي المثقلة بكل بقايا الطعام، ومستمتعًا كيف يمكن لحالة هوية خاطئة أن تنتهي هذه النهاية الرائعة، وأصبح ذلك اليوم علامة فارقة أخرى في حياتي. لقد مررنا بظروف قاهرة ووجدنا مكانًا في حي الغيتو وفّر لنا استقرارًا كافيًا لأقف على قدمي من جديد. وكان راتبي يحرز تقدمًا بطيئًا نحو ألفي دولار في الشهر. كانت خطوتي المقبلة، أيًا كانت، هي أن أضاعف ذلك المبلغ على الأقل. بهذا سأتمكن من تحمل تكلفة الانتقال للعيش في سان فرانسيسكو التي كانت، بدون أي شك، باريس المحيط الهادئ.

لأوّل مرة منذ وقت طويل، أو على الإطلاق، لم أشعر أن الأمر برمته كان يقع على عاتقي وحدي، وأنا أتصارع مع نفسي ومع الحياة، وأتغلب على كل الصعاب التي واجهتني. لكني بقيت حالمًا، وفي نفس الوقت أصبحت

واقعيًا أكثر من أي وقت مضى، وعلمت أن الوقت قد حان لكي أبحر نحو النجاح. رأيت مستقبلي المشرق يلوح في الأفق، كما كنت أراه في السابق. كان الفرق الآن هو أنني شعرت بالرياح تجتاح ظهري. كنت مستعدًا للإبحار.

الفصل الثاني عشر

منطقة النفوذ(203)

في كل يوم ومع اقتراب موعد الغداء، كان يأتي رجل نحيل وقصير في أواسط عمره، ويجلس في المقصورة المجاورة لي في صالة سماسرة البورصة في شركة دين وتر. كنت أقوم بعملي المعتاد على الهاتف وسط خمسين سمسارًا آخر كانوا يتحدثون ويتاجرون على الهاتف أيضًا، وبالكاد لاحظت وجوده أو أخذت بعين الاعتبار أن سبب تواجده هناك كان على الأرجح لكي يرى سوزي، السمسارة الشقراء الجميلة التي كان يجلس في مقصورتها.

عندما لاحظت وجوده، تصورت أنه كان عميلًا مخلصًا، يأتي

203) منطقة النفوذ Sphere of Influence: هي دائرة النفوذ لأي شخص يمتلك نشاطًا تجاريًا، وتشمل الأشخاص الذين يخدمهم، والمجتمع الذي يقيم فيه، والأشخاص الذين يقرون بعمله، وأولئك الذين يمكنهم الوصول إلى رسالته التي يود من خلالها طرح عرضه. هذه الدائرة من شأنها أن تزيد عدد الأشخاص الذين يهتمون بتلك الرسالة، وهذا وحده سيكون له تأثيرٌ إيجابيٌ على الحد الأدنى للنشاط التجاري.

لشركتنا كي يرى سمسارته. كانت سوزي في أواخر عشرينياتها أو بداية الثلاثينيات، لامعة ومفعمة بالحيوية، وفاتنة بتنورتها القصيرة وكعبها العالي، تمتلك صدرًا بارزًا إما بفعل جراحة تجميلية أو كانت فقط مزهوة بوجوده. كانت بارعة في عملها منذ البداية ومن المؤكد أنها كانت ستبلي بلاء حسنًا في عالم البورصة.

سواء كان عميلًا أو لا، فإن الأمر لم يكن من شأني على أي حال، لذا لم يكن لدي أدنى فكرة أنه كان يجلس هناك ليستمع إلي.

كانت صدمة حقيقية عندما أتى ليتحدث معي دون سابق إنذار في يوم ما قائلًا: «ما الذي تفعله هنا؟ أنت لا تنتمي إلى هذا المكان. تفضل بطاقتي. اتصل بي وتعال إلى مكتبي لنحتسي كوبًا من القهوة.»

اتضح أنه لم يكن مجرد رجل يأتي لرؤية سمسارته، بل كانت بالأحرى حبيبته. واتضح أيضًا أن هذا الرجل النحيل اليهودي الذي بدا وتحدث وكأنه سامي ديفيس الابن[204]، بنسخته البيضاء، هو غاري شيمانو[205]، الشريك المتضامن لشركة بير ستيرنز في سان فرانسيسكو ما هي شركة بير ستيرنز؟ كان هذا هو بالضبط ما أردت معرفته عندما نظرت إلى بطاقته. سألت عنها وكانت الإجابة أن بير ستيرنز، في الوقت الحالي، هي إحدى

204) سامي ديفيس الابن Sammy Davis Jr.: ولد في 8 كانون الثاني 1925 وتوفي في 16 أيار 1990. مغنٍ وراقص وكوميدي أمريكي، بدأ مسيرته الفنية سنة 1928 حيث امتدت لأكثر من 62 عامًا.

205) غاري شيمانو Gary Shemano: ولد وترعرع في سان فرانسيسكو. عرف بولعه بلعب الغولف منذ صغره. امتدت مهنة غاري في صناعة الاستثمار المالي على مدى أربعة عقود وشغل مناصب عديدة في أكبر الشركات المالية من ضمنها شركة (بير ستيرنز) التي تعد واحدة من أكبر البنوك الاستثمارية وشركات البورصة في الولايات المتحدة والعالم تأسست عام 1923 وأعلنت إفلاسها عام 2008 بسبب الأزمة المالية العالمية والركود الاقتصادي. إضافة إلى ذلك قام بتأسيس شركته الخاصة عام 1994. شارك غاري في تأليف كتاب Keeping on Course: نصائح عن الجولف وحول تجنب الفخاخ الرملية في عالم الأعمال اليوم، ربط فيه ما بين حياته العملية وحياة الغولف كوصفة لتحقيق النجاح.

شركات الاستثمار الخاصة الأكثر ربحًا في تاريخ وول ستريت. كان لدي معرفة بأكبر شركات الوساطات المالية مثل دين وتر وميرل لينتش وإي. أف. هيوتن وبين ويبر. قد تحتوي هذه الشركات على عشرة آلاف سمسار أو اثني عشر ألفًا أو خمسة عشر ألفًا، بجميع تعاملاتها واتصالاتها التي تجرى عن طريق الوساطة، لكن شركة بير ستيرنز احتوت على ستمئة أو سبعمئة سمسار فقط، وبدلًا من أن تكون سوقًا شاملًا[206] يضم مستثمري المحلات الصغيرة -أشخاصًا يرغبون بحسابات تقاعد فردية، وخدمات، وجميع جوانب هذا المجال الأساسية والمهمة- كانت هذه الشراكة الصغيرة تسعى وراء صيدٍ أكبر في مجال الاستثمار التجاري المؤسسي: كالبنوك، وصناديق التقاعد، وشركات التأمين، وإدارة الأموال، وأعمال تجارية أكبر.

بإمكانك من خلال البيع المباشر للأشخاص المستثمرين أن تخبر العملاء بوجود منتج جديد من شأنه أن يكون فكرة عظيمة، وتعرفهم بوجود عرض لأسهم جديدة. وسوف تقوم بنقل بعض الحصص وذلك لأنهم، في ذلك الوقت على الأقل، لم يكونوا بذلك الوعي فيما يتعلق بأمور السوق وكل ما هو متاح للشراء. كانوا يعتمدون عليك، فأنت سمسارهم الذي سيخبرهم كل شيء، غير أن المؤسسات الكبيرة كانت تعلم حقيقة السوق؛ لذا لم يكن ذلك هو سبب احتياجهم للسمسار. فهم يستثمرون مبالغ طائلة ولا يرغبون بالقليل من هذا أو القليل من ذاك، بل يرغبون بسمسار يرتب لهم الكثير من هذا والكثير من ذاك، بأكثر طرق الربح الممكنة. إن لعبة الأرقام التي تحدث خلف كواليس بيع السوق الشامل تكمن في الوصول إلى (س) عدد من الاتصالات الذي يصبح في النهاية (س)

---

206) سوق شامل Mass Market: هو مصطلح تجاري عام يصف أكبر تجمع لمستهلكي منتج صناعي محدد ويأتي في الطرف المقابل مصطلح السوق المتخصصة.

عددًا من الحسابات و(س) عددًا من الأسهم متنامية القيمة. أنت لا تلعب بتلك الطريقة مع الأعمال التجارية الكبرى. بدلًا من إجراء مئتي اتصال مع مئتي عميل محتمل، تستطيع ربما أن تجري مئة اتصال مع عميل محتمل واحد قبل أن تلتقي به.

كان الأمر كله يتعلق في حينها -وحتى الآن- بتكوين العلاقات. كانت تلك هي طريقة العمل في شركة بير ستيرنز القائمة على مبدأ ما يعرف بمنطقة النفوذ، الأمر الذي أدركت معناه بشكل أوضح في الأشهر والسنوات التالية.

لم أكن أعرف شيئًا عن هذه الشركة بعد، لكنني ذهبت لأرى مديري في الفرع بشأن الحصول على مال أكثر، بعد فترة ليست ببعيدة من إعطاء غاري شيمانو بطاقته لي. لم يتطلب الأمر أساسًا أي تفكير على حد علمي. كان الموقف المتخذ في الماضي حينما كنت أطلب مالًا أكثر من العمولات الصغيرة التي كنت أدبرها بشق الأنفس هو التالي: «لا تبال حول إجمال العمولة، سوف تصلك الدولارات بعد أن تفتح الحسابات.»

أما الآن فذهبت لأطلب مالًا أكثر لأنني كنت أستحقه، أفتح حسابات جديدة وأتبع برنامج شركة دين وتر، وهذا يعني أنني أبيع ما أرادتني الشركة أن أبيعه وأنتج طوال الوقت، وأشعر بالثقة حول ما أفعله. أثناء تواجدي في مكتب مدير الفرع، طرحت عليه السؤال بصورة عرضية لأنني كنت أخطط للقاء غاري شيمانو: «من هي شركة بير ستيرنز؟»

ضاقت عينا مدير الفرع، وقال لي: «لماذا تسألني هذا السؤال؟»

"هذا الرجل الذي يدعى غاري شيمانو أعطاني للتو بطاقته، هل نستطيع أن نجري بعض الأعمال في تلك الشركة؟» لربما كنت ساذجًا، لتخيلي أنها علاقة عمل جديدة نجحت في تكوينها، لأني لم أكن أرى الأمر

على أنه مدعاة للصراع.

لكن مدير الفرع كان يرى الأمر بهذه الصورة لأنه كان يعلم عن بير ستيرنز أكثر بكثير مما أعلمه أنا. على ما يبدو أنه كان يعلم أن بير ستيرنز لم يكن لديها برنامج تدريبي للسماسرة، ولأنهم كانوا يعملون على إنشاء عمليات بيع بالتجزئة خاصة بهم، فإن بير ستيرنز اعتادت على استكشاف المواهب في الشركات الأخرى، وسحب السماسرة الذين تلقوا تدريبًا مسبقًا ولديهم ترخيص لمزاولة العمل من شركات أخرى، واستدراجهم إلى صفهم. ذلك ما كان يعلمه مدير فرعي.

لكنني لم أكن أعلم كل ذلك، وكل ما أردت الحصول عليه هو مال أكثر.

"كلا" أجابني، ولم يترك لي أي مجال للمناقشة. "لم تفعل ما يكفي لتستحق مالًا أكثر.»

كان ذلك كافيًا لجعلي أخرج من المكان. امتعضت من ردة فعله بقدر امتعاضي عندما كانوا يجعلونني «سمسار اليوم» فقط لأهيئ العمل الذي سرعان ما كان يُسلَّم إلى سمسار أبيض لأن العميل أراد «شخصًا ذا خبرة أكثر.»

لكن الصفقة كانت قد أبرمت بالفعل في اللحظة التي دخلت فيها مكتب بير ستيرنز لأحتسي القهوة مع غاري شيمانو. غمرتني نفس المشاعر الصادمة التي شعرت بها أول مرة دخلت فيها شركة سمسرة، لكنها كانت مشاعر أقوى هذه المرة، وكانت ردة فعلي الغريزية كسابقتها: "آه حسنًا، هذا هو المكان الذي يجب أن أكون فيه."

في شركة دين وتر كنت الشخص الوحيد المتصدر بمئتي اتصال في اليوم. أما هنا فقد كان الجميع في نفس مستواي، وكانوا يجرون ذلك العدد

الكبير من المكالمات يوميًا سعيًا وراء فئة أعلى من العملاء: كبار الشخصيات على المستوى المؤسسي أو أفراد يمتلكون رأس مال كبير، أو مدراء محافظ استثمارية[207]، أو مستشاري استثمار، أو أصحاب شركات، أو أصحاب بنوك، أو مدراء تنفيذيين لشركات تأمين، أو كبير موظفي الاستثمار في ولاية كاليفورنيا، أو مدينة سان فرانسيسكو، أو مدينة لوس أنجلوس. لم يكونوا بحاجة لتلقي اتصالات من أي أحد. لذا، ولكي تجعلهم يتصلون بك لاحقًا، كان عليك أن تكون استثنائيًا في طريقة عملك.

كان الأشخاص الذين يعملون في بير ستيرنز استثنائيين بالفعل. أصبت بالذهول من مدى إمكانياتهم عندما رأيتهم لأول مرة. تصورت أنني الشخص الوحيد الذي كان باستطاعته التركيز بتلك الطريقة. شعرت للمرة الثانية وكأنني كنت عائدًا إلى منزلي، إلى مكان أنتمي إليه، وفي نفس الوقت كنت أنتقل إلى عالم ذي أبعاد جديدة تحير العقل. استطعت أن أشعر بالطاقة مع أولئك الأشخاص في شركة بير ستيرنز، وكأنهم كانوا يتعاطون منشطات أو شيء من ذلك القبيل. أما في شركة دين وتر فقد كانت بيئة العمل تبدو هادئة بعض الشيء، وذات طابع شبه رسمي. كان السماسرة يجلسون خلف مكاتبهم، مرتدِينَ معاطفهم في أغلب الأحيان، خاصة إذا كان هنالك عميل قادم. أما سماسرة شركة بير ستيرنز فقد كانت أكمام قمصانهم مكفوفة، وربطات عنقهم مرتخية، البعض منهم يحمل سيجارة في فمه أو ما بين أصابعه، والكل كانوا مشغولين بعمل ما على الهاتف، يحاولون أن يبرموا اتفاقية، أو أن يحصلون لعمليهم على سعر أفضل، أو أن يتقصوا معلومات بشأن سهم لا يمتلكها شخص آخر. كان الأدرينالين

207) محفظة استثمارية Portfolio : هي تجميع للاستثمارات تقوم بها مؤسسات أو أفراد، وهي مجموع ما يمتلكه الفرد أو المؤسسة من أسهم أو سندات في شركات مختلفة.

يتدفق منهم. يمكنك أن تشعر به، وأن تتذوقه، وأن تلمسه. لا يمكنك تجاهله، حتى أن ستيف وندر بإمكانه أن يلحظ هذا الهراء!

كان توقيت العمل معهم مثاليًا. لقد صادف أن شركة بير ستيرنز أرادت في ذلك الوقت أن تستفيد من النمو الذي حققته الشركة مسبقًا في الأعمال المؤسسية، من خلال تنسيق أعمال أكثر مع أشخاص لديهم رأس مال كبير ممن بدؤوا الآن يظهرون على الساحة في الوقت الذي كان فيه وادي السيليكون مقبلًا على مجال التطوير والاستثمار. وعلى الرغم من أن الطفرة التقنية المذهلة التي شهدتها التسعينات كانت لم تحدث بعد، إلا أن بعضًا من الأشخاص الأذكياء كانوا قد حققوا بالفعل نجاحًا في عالم التقنيات العالية[208]، وكانت شركة بير ستيرنز تسعى للحصول على حصة كبيرة مما كان يحدث. كانت تلك هي بداية الأيام المزدهرة لمبيعات الأسهم المقيدة، واكتتابات واعدة، وعملاء جدد كانوا في الماضي مهندسين يكسبون خمسين ألف دولار في السنة، لكنهم فجأة أصبحوا اليوم يكسبون ملايين الدولارات.

أرادت شركة بير ستيرنز أن تكون سباقةً في سؤال هؤلاء المليونيريين الجدد أسئلة ذات صلة: «هل ترغب في وضع أموالك في اختيار واحد أم في عدة اختيارات؟ هل ترغب في التفكير بوضع بعض النقود جانبًا لتؤمن جامعات أولادك؟ هل ترغب في شراء بعض السندات المعفاة من الضرائب؟»

لم يكن غاري شيمانو رجلًا أخرق يسهل التعامل معه على الإطلاق. دعاني لأحتسي القهوة معه وأخبرني بأنني الشخص المناسب الذي سيساعد

---

208) التقنيات العالية high-tech: هاي تيك، اختصارًا لـ (High Technology) هي التقنية المتواجدة في الوضع الأكثر تقدمًا المتوفر حاليًا. يتطرق المصطلح في كثير من الأحيان للصناعات المتعلقة بعالم الحوسبة، ولكنه يشمل أيضًا الإلكترونيات، والتكنولوجيا البيولوجية ومجالات أخرى.

شركة بير ستيرنز في الحصول على موطئ قدم في نهاية هذه الأعمال التجارية، بناء على ما رآه مني أثناء مراقبته لي في شركة دين وتر.

تنحدر أصول غاري من عائلة شيمانو المعروفة لعدة أجيال في سان فرانسيسكو، لذا كانت لديه معرفة بكل اتجاه في جميع أنحاء المدينة، فضلًا عن كونه لاعب غولف محترفًا. كان شخصًا حماسيًا وانفعاليًا لدرجة تجعله يضرب يده على الطاولة أيضًا، وهذا ما كان يفعله عندما أخبرني: «أنت تضيع وقتك في تلك الشركة، أتعلم ذلك؟ عليك أن تكون هنا معنا. هذا هو المكان الذي يجب أن تكون فيه. هنا معنا!»

ضربت الطاولة أنا أيضًا وقلت له: «أجل، أنا أرغب في التواجد هنا معكم.»

"حسنًا." قال غاري دون أن ترمش عينه: «ما الذي تحتاجه لتبدأ العمل؟ كم تريد أن تتقاضى؟»

الحق يقال، أنني طلبت ما يكفيني أنا وكريستوفر كي نحصل على منزل في سان فرانسيسكو: «خمسة آلاف دولار.» أي ما يعادل خمسة أضعاف راتبي المنصوص عليه في العقد الذي كان بيني وبين شركة دين وتر.

"حسنًا." أجابني، ولم ترمش عينه للمرة الثانية. «وسوف أعطيك خمسين بالمئة نسبة دفع تعويضات، كن هنا خلال أسبوعين كي نبدأ العمل.»

مهلًا! تساءلت للحظة ما إن كان عليّ أن أطلب أكثر. لكن ما قدمه لي كان عرضًا مثاليًا: عقد لمدة ستة أشهر مضمونة براتب خمسة آلاف دولار في الشهر، شريطة أن أجني ضعف ذلك المبلغ للشركة خلال الأشهر الستة الثانية لكي أحافظ عليه، مع خمسين بالمئة عمولةً على كل دولار أكسبه فوق ذلك المبلغ. شعرت من خلال هذا العمل بالأمان، والقوة، والحافز. يا

لها من مشاعر مثيرة.

لم تكن مغادرة شركة دين وتر بالأمر الصعب على أي من الطرفين. إن كان لدي شعورٌ واحدٌ بأني مدين لهم لإعطائهم فرصة لي؛ فإنني سددت الدين عني عندما علمت بأنهم كانوا يستحوذون على كل حساباتي وجميع ملاحظاتي التفصيلية حول الأسهم التي كانت ملكًا لعملائي، بما فيها مكان عمل العملاء، وتاريخ عائلاتهم، وأسماء حيواناتهم الأليفة وسكرتيراتهم. كل تلك الحسابات والمعلومات الثمينة التي كنت أستجمعها لعدة أشهر قاموا بتسليمها بصورة عشوائية إلى سماسرة لا يفقهون شيئًا في عملهم ولم يجروا أي اتصال في حياتهم.

في يومي الأول لدى شركة بير ستيرنز كان عليّ أن أستجمع قواي كي أعترف بأني قد أتيت دون أي من حساباتي السابقة. عندما اعترفت لغاري سخر قائلًا: «لا تقلق حيال ذلك الموضوع؛ نحن لا نحتاج لأولئك الأشخاص على أي حال.»

كانت فلسفة شركة بير هي أنه: «لا توجد صفقات كبيرة أو صفقات صغيرة، علينا أن نرمي شباكنا عليهم جميعًا.»، لكني اكتشفت أنهم كانوا يسعون حقًا وراء الصفقات الكبيرة بدلًا من الصغيرة. وكان ذلك خبرًا جيدًا بالنسبة لي، إذًا أنا معكم في ذلك.

في يومي الأول أيضًا أتتني فرصة كي ألتقي ببعض من الأشخاص الذين سيعملون معي في قسم تجارة البيع بالتجزئة، والذي كانت شركة بير ستيرنز تستعد لإنشائه. كان هناك شخص يدعى جيري دونيلي الذي كان لديه خبير مكالمات باردة خاصًا به يدعى جون آشر، المعروف بلقب «آشر البلطجي» تحببًا. وكان هناك أيضًا بوب إدغار، لاعب قمار لا يتصل بأحد، لكن هاتفه كان يرن طوال الوقت. كنت أنا العنصر الأهم ضمن مجموعة

مكونة من ثمانية أشخاص تترأس هذا المجال الجديد. مرة أخرى، كنت أنا السمسار الأسود الوحيد في الشركة، ولم يكن الأمر سيشكل أي أهمية بالنسبة لي أو بالنسبة لزملائي، من وجهة نظري.

جلست أرتب مكتبي وفي داخلي مزيج من مشاعر الفرحة والتوتر، وبينما كنت أضع أقلامي، سمعت موظفة الاستقبال تتصل من الغرفة المجاورة: «كريس، لديك مكالمة، ارفع السماعة.»

لم يكن لدي أدنى فكرة عن هوية المتصل، فلا أحد يعرف أنني هنا، رفعت السماعة وقلت: «من معي؟»

أخبرتني موظفة الاستقبال: «أنه آيس غرينبيرغ.»

قلت لنفسي: «آيس غرينبيرغ؟ وقلت بصوت عال: «من هو آيس غرينبيرغ؟»

أنا لا أعرف أحّدا بهذا الاسم، لكنّ جميع من معي في المكان قالوا لي بصوت واحد: «تلق المكالمة، تلق المكالمة!»

تلقيت المكالمة وقلت: «مرحبًا؟» غافلًا عن حقيقة أن آيس غرينبيرغ هو من كبار الشركاء والمدير التنفيذي لشركة بير ستيرنز، والمسؤول عن تأسيس الشركة للحد الذي وصلت إليه في هذه المرحلة. اتصل بي كي يرحب بي في الشركة وأضاف قائلًا: «نحن نريدك أن تعلم شيئًا يا كريس غاردنر. إن شركة بير ستيرنز لم يبنها أشخاص لديهم شهادات عليا في إدارة الأعمال، وإنما بناها أشخاص لديهم «ف. ذ. ر.!»

كنت في حيرة من أمري ما الذي يعنيه ذلك المختصر؟

لكنني وقبل أن أسأله، شرح لي قائلًا «ف. ذ. ر. تعني أي شخص: «فقير»، و"ذكي"، ولديه «رغبة شديدة» في أن يصبح ثريًا. نحن نطلق عليهم «ف. ذ. ر.» أهلًا بك في شركتنا يا كريس. قام بعد ذلك بإغلاق الخط. لابد

أنني مت وذهبت إلى الجنة! فقير، وذكي، ولديه الرغبة الشديدة في أن يصبح ثريًا. هذا أنا. أنا ملائم للوصف تمامًا، «ف. ذ. ر.»

كانت هذه المكالمة هي ركلة البداية، لقد بدأ التحدي وأنا في كامل استعدادي.

...

على مدى العام التالي لمع نجمي في شركة بير ستيرنز، ووجدت نفسي أعود مرة أخرى إلى نقطة البداية عندما انتقلنا أنا وكريستوفر للعيش مرة أخرى في المدينة، إلى شقة جميلة في الطابق الثاني في بناية ركنية على الطراز الفيكتوري تقع في شارع ميسن وهيس في حي وادي هايز. عدنا إلى الحي مرة ثانية، على بعد مسافة قريبة من مركز الرعاية النهارية المعتاد، وأصبحنا نعيش حياة سان فرانسيسكو، ليس ببذخ وإنما بأمان واستقرار.

امتلأت الشقة بالأثاث المؤجر، واحتوت أيضًا على أرضيات خشبية صلبة، وغرفتين، وغرفة معيشة كبيرة، ومدفأة. كان إحدى أكثر ميزات البناية غرابة موقف الباص الموجود أمام الباب الأمامي مباشرة: إن كانت شبابيكنا أو ستائرنا مفتوحةً، فإنه متى ما توقف الباص وخرج الناس منه، كان الأمر يبدو كما لو أنهم كانوا سيأتون إلى غرفة معيشتنا ليزورونا.

كان ذلك هو الحلم الأمريكي، في فترة الثمانينيات على نمط سان فرانسيسكو. أصبح لدينا رفاهية الاختيار، إن احتجنا شيئًا فسيكون بإمكاننا شراؤه. كان بإمكاننا أن نبقى في المنزل، وكنت أطبخ، وأعد شطيرة، أو أسخن حساء، أو كان باستطاعتنا تناول الطعام في أي مطعم. كان الاختلاف في عدم اضطرارنا للتنقل من مكان لآخر أمرًا مدهشًا. كان أعظم تدليل منحته لنفسي هو ركوبي سيارة أجرة إلى العمل كل يوم. أما الآن، فقد أصبح الأمر رفاهية. كنت أدفع ستة دولارات، إضافة إلى دولار

ونصف بقشيش للسائق، وكنت أجلس في الخلف وأقدر كل ثانية تمر من الوقت، مثلما أصبحت أفعل بعد مرور فترة وجيزة أثناء جلوسي خلفًا في سيارة ليموزين.

لاحظ غاري شيمانو أنه كان في كل مرة يراني فيها كنت أرتدي البدلة نفسها -إما الزرقاء أو الرصاصية، مع قميصي الأبيض وإحدى ربطتي العنق اللتين لم أكن أملك غيرهما- لذا قام بإعطائي سلفة كي أشتري بدلة جديدة.

كان غاري أنيق المظهر دائمًا. كان مولعًا بلبس بدل من نوع بريوني، وأحذية مصنوعة من جلد التمساح، وأحذية من نوع لوفر (بدون كعب)، وأزرار معدنية لأكمام قمصانه، وربطات عنق جميلة، ومنديل دائم الوجود في جيب سترته. لم تغيرني النقود من الداخل، لكنها بالتأكيد سمحت لي بتغيير ما كنت ألبسه عادة. مع مرور الأشهر، وارتفاع قدرتي الشرائية، كان لدي ما يكفي من المال ليس لأرتدي البدلات الأنيقة التي لطالما أحببتها فحسب، وإنما لأضيف لمسات فنية على اللون والموضة ربما يعجز بقية الأشخاص عن الإتيان بمثلها. انبهر ديف «جوارب» كرانتستون -أحد الشركاء الكبار في شركة بير ستيرنز والمعروف بطريقة لبس الإكسسوارات المميزة- بطريقة لبسي فيما بعد عندما أصبحت أرتدي جوارب ذات لون أحمر ناري مع أي لون كنت أرتديه. كأن أرتدي مثلًا بدلة زرقاء مع قميص أبيض وجوارب حمراء نارية. كان المنظر لطيفًا وقويًا في نفس الوقت. كان أول إنفاق حقيقي تباهيت به ولم أستطع تصديق نفسي بأنني فعلته هو: شرائي حزام أفعى من تصميم نيمان ماركوس. أربعمئة دولار مقابل حزام! مرت أشهر حتى تمكنت أخيرًا من التعود على تدليل نفسي بتلك الطريقة.

أما بالنسبة لكريستوفر فلم يكن هناك أي إنفاق سيكفيه مهما كان حسب ما رأيت. رغم سنه الذي لم يتجاوز الأربع سنوات، كان هو أيضًا

يفهم ما الذي يعنيه امتلاك الشخص لأشياء جديدة. سرير جديد، وملابس جديدة، وألعاب جديدة. كان فرحًا بكل تلك الأشياء. والأهم من ذلك أننا كنا مترابطين روحيًا بشكل كبير، فقد كان باستطاعته أن يشعر براحة بال. كان باستطاعتنا الخروج وفعل أشياء ممتعة في سان فرانسيسكو، لا لأننا لم يكن لدينا مكان نعيش فيه، بل لأننا أردنا الذهاب إلى متنزه البوابة الذهبية لكي نطير طائرة ورقية أو نحاول أن نركب سوية لوح التزلج الذي صنعته أنا بنفسي بدلًا من أن أشتريه؛ لأنني كنت قادرًا على صنعه. جرت الأمور الآن على عكس ما كانت عليه في تلك الأيام التي كنا نحاول فيها إيجاد مأوى لننام فيه، أو لنهرب من المطر، وكنا نقضي عطل نهاية الأسبوع الممطرة في الذهاب إلى السينما، وأحيانًا كنا نشاهد ثلاثة أفلام أو أربعة في اليوم الواحد، وأحيانًا كنا نعيد مشاهدة الفلم نفسه.

ذهبنا لمشاهدة فيلم صائدي الأشباح(209) الذي هرع فيه كريستوفر لدى مشاهدته الوحش بلسبيري دوغبوي وهو يرعد في الشوارع. «بابا» همس لي كريستوفر، «أريد أن أربط حزام مقعدي.» خلال إحدى المرات الكثيرة التي كنا نذهب فيها لنشاهد فيلم المطر الأرجواني(210) -للبطل برنس(211)- تبول كريستوفر على نفسه، ربما لأننا كنا قد قضينا وقتًا طويلاً داخل

---

209) فيلم صائدي الأشباح Ghostbusters: هو فيلم خيال علمي وفانتازيا كوميدي أمريكي صدر عام 1984. من إخراج وإنتاج إيفان ريتمان وبطولة بيل موري ودان أيكرويد. صدرت عام 2016 نسخة أخرى تحمل نفس الاسم.

210) فيلم المطر الأرجواني Purple Rain: هو فيلم دراما تم إنتاجه في الولايات المتحدة وصدر في سنة 1984 من إخراج وتأليف ألبيرت ماغنولي Albert Magnoli ومن بطولة برنس Prince.

211) برنس روجر نيلسون Prince Roger Nelson: ولد في 7 يونيو 1958 وتوفي في 21 أبريل عام 2016 مغنٍّ وكاتب وعازف وممثل أمريكي، ولد في الولايات المتحدة واشتهر في فترة الثمانينات والتسعينات. حاز على 7 جوائز غرامي وغولدن غلوب والأوسكار وقد باع أكثر من 100 مليون تسجيل له؛ ما جعله ضمن أكثر المغنيين نجاحًا، وأصبح نجمًا عالميًا في الثمانينات حيث صدرت أغان له بأسماء: المطر البنفسجي، وعلامة الأزمنة.

صالة العرض، لكني غضبت عليه وقلت له: «كل ما عليك فعله هو إخباري بأنك تريد أن تبول!»

سرنا إلى الحمام، ورأى أنني ما زلت مستاء، لا أرغب سوى أن تكون الأشياء أقل تعقيدًا، فقال لي بجدية: «بابا، لا أريدك أن تغضب بسببي. أريد أن أجعلك سعيدًا.»

ليس هناك ما يكفي من الوقت لأخبره بعد ما قاله: «أنت تجعلني سعيدًا، يا صغيري، أنت تجعلني أسعد شخص في العالم كله!»

ما قاله كريس علمني أهم درس عن الأبوة: أولادنا لا يريدون أن يشعروننا بالغضب، هم فقط يريدون إشعارنا بالسعادة.

لا يمكن تخيل عدد المرات التي ذهبنا فيها لنشاهد فيلم المطر الأرجواني؛ ليس فقط لأنه كان فيلمًا ممتعًا بل لأنه كان يحمينا من المطر اللعين. شاهدناه كثيرًا لدرجة أنه أصبح أمرًا حتميًا أننا سنلتقي بأحد نعرفه هناك، وبالفعل بعد أن عملت في شركة بير ستيرنز بفترة قصيرة، وجدت نفسي في أحد عروض الفيلم أجلس بالقرب من شخص جديد كان يعمل معنا. كان اسمه مايك كونرز، أحد أذكى الأشخاص في الشركة، وقدر له أن يكون فيما بعد أحد أصدقائي المقربين كما أنني أنشأت معه مشروعًا فيما بعد.

ساعد جوُّ العمل في شركة بير ستيرنز، المهد إلى عصر انهيار عمليات الدمج الضخمة في الثمانينات، في أن يجد كل شخص تخصصه المناسب في العمل؛ أن يجد ذلك المنتج أو ذلك القسم الذي يعرفه حق المعرفة، وأن يجد مجاميع الشركات الصغيرة التي سيسعى وراءها. قام أحدهم بالاهتمام ببنوك الادخار والاقتراض فقط، وتولى آخر شؤون أقسام أمناء الاستثمار في المصارف، وتولى آخر التحدث إلى شركات التأمين فقط. أثناء بحثي عما

قد يكون تخصصي، فعلت تمامًا مثلما كنت أفعل في المجال الطبي، متتلمذًا على يد الدكتور ريب جاكسون ويد الدكتور غاري كامباجنا، لأنني أردت أن أتعلم كل ما بوسعي في هذا المجال أيضًا وعلى يد أفضل الأشخاص وأن أتقنه على الفور.

وفي وقت قليل جدًا تعلمت كيفية معاودة العميل الاتصال بي، وليس هذا فحسب بل تعلمت أيضًا كيفية تنمية هذه العلاقات المبنية على قيادة المعلومات التي قد لا يعلم منافسوني بها، لذا إن اتصل بي بيل آندرسون فإنني كنت أستطيع القول له بكل سهولة: «أنا أعلم أن لديك سمسارًا ونحن لسنا مهتمين بالتدخل في تلك العلاقة، ولكننا نرغب في أن نكون قادرين على استكمال هذه العلاقة من خلال أن نعرض عليك واحدة أو اثنتين من العروض المتاحة لدينا.»

المستثمر الذكي كان على الأغلب دائم الانفتاح على مثل تلك الأمور.

"شيء جميل. في المرة المقبلة التي سيقدم فيها شركاؤنا في شركة بير ستيرنز على عمل ما، سيكون من دواعي سرورنا أن نتصل بك. أليس هذا عادلًا بما فيه الكفاية؟»

كانت الإجابة على الأغلب دائمًا تكون «نعم.»، فمن ذا الذي يرغب في تضييع فرصة سماع ما قد يكون العرض الخاص على الأقل؟ "نعم." أخرى كانت غالبًا ما تتبع سابقتها في الإجابة على سؤال فيما إذا كان علي أن أرسل بعض المواد لهم، إلى جانب بطاقتي. هكذا كانت تبنى أي علاقة، حتى إذا تابعت معه فإنني لن أضيع وقته ولكني سأنشئ صلة بيني وبينه ومحادثة، لأعرف ما الذي أراد بيل آندرسون شراءه، وما الذي كان يشتريه في الآونة الأخيرة، وما إذا كان يحب أو لديه دراية حول أسهم شركات التكنلوجيا.[212]

---

212) أسهم التكنلوجيا Technology stock: شركة تعمل في مجال تجاري متعلق بالتكنولوجيا. مثل: البرامج، وأجهزة الكمبيوتر، والتكنولوجيا البيولوجية.

هل كان بصدد البحث عن فرص لزيادة رأس المال؟ إن كان أكبر سنًا، فهل سيبحث عن طرق ليعزز بها دخله عندما يتقاعد؟ ماذا عن صندوق معاشات التقاعد إن كان عمره قريبًا من سن التقاعد؟

مستعيرًا ربما من خبرتي في مجال الطب والرعاية الصحية، تعاملت مع هذه المحادثات بالطريقة نفسها التي قد أكون ناقشت فيها أمرًا لا يقل أهمية وخصوصية عن صحة المريض الشخصية، صحة أمواله الخاصة. وفي نهاية المطاف أصبحت، بطريقتي الخاصة، الدكتور كريس غاردنر.

لحسن الحظ، أن القائمين على شركة بير ستيرنز أحبوا منذ البداية ما كنت أنجزه. كان غاري معجبًا بعملي منذ أول لحظة، لكن مارشال غيلر كان المسؤول عن كل شيء، لذا ظل وضعي معلقًا بين يديه لفترة. كان غاري مسؤولًا عن إدارة المكتب، وكان مارشال المسؤول عن إدارة غاري. في الحقيقة كان مارشال يدير مكاتب شركة بير ستيرنز في سان فرانسيسكو ولوس أنجلوس وهونغ كونغ في الوقت ذاته. بلغ طول مارشال - دأو «الجمجمة الصارخة» كما كان معروفًا عنه دون علمه- مئة واثنين وثمانين سنتيمترًا، وكان يضع نظارات، وكان لديه شعر خفيف أبيض تمكن من إبقائه على ما أطلقت عليه: نمط الأفرو اليهودي، وكان لديه «تراكب العضة» الطفيف في سنيه الأماميين مما جعله يبدو محبوبًا بعض الشيء. في الواقع كان في معظم الأحيان الشخص الأكثر سحرًا، ولطفًا، وعذوبة. لكنه كان بكل بساطة وبغمضة عين، يغضب بسرعة قائلًا: « ألم تستخدم عقلك اللعين؟ أنتم أيها القوم ألم يسبق لكم استخدام عقلكم اللعين؟!»

إن كان مارشال ينتقدك باستمرار، فمن الطبيعي أن تكون جالسًا في مكتبه، والباب مغلق، وكل من في الطابق سيعلم بأنه كان يوبخك بشدة. لذا حاولت بالطبع أن أرضيه أو أن أتجنبه كليًا.

غير أنه في نهاية المطاف قرر أن الوقت قد حان لإلقاء محاضرة عندما رآني أنظر في قائمة مكالماتي في أحد الأيام، وأقوم بترتيب بطاقات الأسماء الخاصة بالمئتي مكالمة التي كان عليّ إجراؤها.

"غاردنر بيرغ" نادى عليّ، مستخدمًا لقبي الذي جعلني جزءًا من النادي الذي كان أغلب أعضائه يهودًا في الشركة: «تعال إلى هنا.» تبعته إلى قاعة المؤتمرات، حيث أشار إلى قائمة الأرقام التي ما زالت في يدي. ثم أردف قائلًا: «هذه ليست الطريقة التي يتبعها السماسرة المحترفون في العمل.»؛ ليعرفني أن لعبة كمية الأرقام التي كنت قد تدربت على العمل عليها لم تثر إعجابه.

فكرت، «حسنًا، ما هي طريقة المحترفين؟» لكنني لم أقل شيئًا.

"دعني أريك كيفية العمل هنا في شركة بير ستيرنز. السماسرة المحترفون ينجزون عملهم بواسطة منطقة النفوذ." رأى أنه لم تكن لدي أدنى فكرة عن ماذا كان يتحدث، لكنه أومأ لي مرة أخرى: «تعال معي.»

توقفنا في نهاية الممر لنلقي نظرة على فيل شيفير، وهو شخص يفترض أنه لا يعرف كيف يربط حذاءه، لذا كان يرتدي أحذية لوفر. تضمنت منطقة نفوذه والتر مونديل الذي كان سيصبح عما قريب المرشح الرئاسي عن الحزب الديمقراطي. كان أفضل عميل لدى فيل هو صندوق التقاعد التابع لولاية مينيسوتا. آه، الأمر بسيط إذًا؟ عظيم، لكن كيف يمكنني الوصول إلى ما وصل إليه؟

"منطقة النفوذ" أعاد مارشال قائلًا، ثم وجهني إلى مكتبي، دون أي اقتراح عملي أستطيع من خلاله تطوير ما قاله. لكن كلامه تضمن أنني سأعرف الطريقة من تلقاء نفسي عندما أجدها.

كان ذلك سيستغرق مني عشرين عامًا آخر، لكن لكي أبني علاقات في

العمل التدريبي، كان يجب عليّ أن أحقق أرقامًا عالية. كان عليّ أن أسلط كل طاقاتي كي أتخطى حراس البوابة، وموظفي السكرتارية الذين أحبوا نبرة صوتي التي شابهت نبرة صوت باري وايت[213]، والخبثاء الذين يتحينون الفرصة لقطع رأسي إذا ما شعروا أنني كنت على تواصل مع رئيسهم للحصول على فرصة في سوق الاستثمار. بين الحين والآخر كنت أحقق بعض النجاحات، ويعاود العميل المحتمل الاتصال بي فعلًا. كان ذلك هو ما حدث بالضبط في أحد الأيام بعد أن قررت السعي وراء رجال الأعمال الأغنياء في مجال النفط في تكساس من خلال الاتصال البارد.

أجابني أحد رعاة البقر الملقب جي. آر. وليس هذا فحسب بل استمع إلى كل ما قلته أيضًا.

بدأت حديثي: «جي. آر. معك كريس غاردنر من شركة بير ستيرنز في سان فرانسيسكو.»

"نعم، أنا أعرفكم جميعًا، ماذا تريد؟»

"في الواقع، أردت فقط أن أخبرك بشأن..."

"حسنًا، اسمعني، قبل أن تخبرني بأي شيء، دعني أنا أخبرك بشيء."

ومن ثم تابع حديثه وأخبرني كل نكتة قيلت عن الزنوج، وعن اليهود، وكل النكات العنصرية في العالم. لم أكن أعرف ما إذا كان يجب عليّ أن أغلق السماعة أم أن أركب الطائرة وأذهب إليه لأبرح وجهه العنصري ضربًا، بقيت هادئًا تمامًا واستمعت له، ومن ثم، أخذت نفسًا عميقًا، وعدت من حيث بدأت، وأخبرته عني وعن الشركة.

---

213) باري وايت Barry White: اسمه الحقيقي باري يوجين كارتر وهو مغن ومؤلف وملحن أمريكي، ولد في غالفيستون في تكساس سنة 1944 وتوفي في لوس أنجلوس في 4 تموز 2003. لقب ب «ملك الديسكو» في السبعينات و«مايسترو الحب». وقد انطلقت شهرته في السبعينات في خضم رواج موسيقى الديسكو وقد أصبح باري وايت رمزًا للرومانسية عبر العالم.

كان ذلك كل ما أحتاج سماعه. «حسنًا، ماذا الآن؟» قال لي، «اشتر لي أسهمًا بقيمة خمسين ألف دولار من أي شيء اتصلت بي لتخبرني عنه، وسوف نرى كيف ستجري الأمور لاحقًا.»

أسهم بقيمة خمسين ألف دولار في خمسين سنتًا لكل سهم، يعني أن العمولة ستكون خمسة وعشرين ألفًا! بالطبع سأتحمل كل النكات من أجل ذلك المبلغ. وتحملت بالفعل، وبدأت أتصل به، وكان في كل مرة يعطيني أعمالًا أكبر، ويقول لي أكثر النكات عنصرية وإهانة قام بجمعها منذ أول مكالمة جرت بيننا، ودون أن يكرر نكتة واحدة. لكي أوسع منطقة نفوذي، كنت أسايره وأضحك ضحكًا هستيريًا: «يا لها من نكتة طريفة!» وأحيانًا كنت أرى بعضًا من نكاته مضحكة. كنت أفكر من حين لآخر، «ماذا لو عرف أنني أسود!" لكن على ما يبدو أنه لم تكن لديه أدنى فكرة عن لوني.»

من سوء حظي الشديد أنه اتصل بي ذات يوم وقال: «مرحبًا، معك جي. آر. ستذهب زوجتي إلى الصين وأنا سأحضر عشيقتي إلى بحيرة تاهو، وسوف نمر بسان فرانسيسكو لكي أرى هذا السمسار الذي يدعى كريس غاردنر والذي جعلني أكسب كل تلك النقود.»

يا إلهي، سينكشف الأمر. ذعرت وتذكرت أيام سمسار اليوم، عندما كان لدى جميع العملاء مشكلة مع «الأكثر خبرة»، بدأت أرى عملي معه يذهب هباء عندما يدرك أنه كان يقول كل تلك النكات عن الزنوج إلى شخص «زنجي"، حاولت أن أبقى هادئًا، وذكّرت نفسي بأني أصبحت الآن أمام احتمالين لا ثالث لهما: إما سيحدث سيناريو (أ): سيغلق حسابه معي، وستكون تلك هي نهاية علاقتنا. أو سيناريو (ب): إن تعاملت مع الوضع بشكل صحيح، فإنه سيغلق حساباته التي يمتلكها في جميع تلك

الأماكن الأخرى، وسيدعني أتولى جميع أعماله. ما الذي ينبغي عليّ فعله لأتعامل مع الوضع بالشكل الصحيح؟

صادف أن كان مارشال -الجمجمة الصارخة- غيلر واقفًا خارج المكتب في اليوم الذي كان فيه جي. آر. وحبيبته سيأتيان. ليس هناك ما يمنع من القول بأنني غير مسموح لي الانتقال بشكل مؤقت إلى مكتب مارشال الكبير، وليس هناك أي ضرر في تبديل اسمه مع اسمي الموجود على باب المكتب. فكرت بسرعة، وقمت بإزاحة كل تلك الصور الجميلة لعائلته البيضاء عن مكتبه ووضعتها في مجره.

وافق زملائي وسكرتيرتي على التعاون مع خطتي المؤقتة هذه في ألّا يخبروه بشيء. عندما وصل جي. آر. ومرافقته، رحبت بهما سكرتيرتي وقادتهما لمكاني. عندما دخل جي. آر. كنت أجلس في كرسي مارشال الضخم، وأتطلع من خلال نافذته إلى منظر سان فرانسيسكو الخلاب، مدعيًا أنني أتحدث على الهاتف، وأوبخ أحدهم بلغة عامية، لا يمكن التعرف من خلالها على لون المتحدث. وكأنني قد لاحظت للتو قدوم زائري من تكساس، فقمت بإغلاق سماعة الهاتف، وأدرت الكرسي وقلت: «مرحبًا جي. آر، كيف حالك؟ تفضل بالجلوس. أترغب في فنجان من القهوة؟»

استطعت أن أرى الدم وهو يجف من وجه جي. آر. حرفيًا. كان في صدمة لا مثيل لها. الأمر لا يتعلق فقط بالنكات عن الزنوج ولون بشرتي، على الرغم من أن ذلك كان كافيًا ليصيبه بتصلب في شرايينه التاجية. بل لأنه كان أيضًا راعيَ بقر قصير القامة، وصغير الحجم، وسمينًا، حليق الذقن، في منتصف الستينات من عمره، يمتلك قصة شعر قصيرة، ويرتدي نظارات شمسية لامعة، وبنطال جينز، وحذاء طويل الرقبة مصنوعًا من جلد حيوانات مهددة بالانقراض، وحزام معدني عريض، وكأنه قد فاز لتوه

بمسابقة رعاة البقر. توجب عليه أن يتطلع إلي ويصافحني بكل احترام. أما حبيبته فلم تكن جميلة على الرغم من أنها كانت أصغر منه وأطول منه، وذات شعر أشقر طويل، وصدر عريض. كانت تنظر فقط، لا تدري ما الذي يجري لكنها على ما يبدو كانت سعيدة بتواجدها في أي مكان، عدا ذاك الذي تعودَت أن تراه فيه بعيدًا عن أنظار الناس.

ها أنا ذا، أضع أمامه أوراق العمل وسعر الإغلاق(214) بقيمة نصف مليون استثمرها مع شركة بير ستيرنز، معدًا له تقريرًا مفصلًا: بكل موقع، وكل توصية، وكل سهم استثمرناه في محفظته الاستثمارية، أين وضعناه، وأين بعناه، وكم هي النسبة المكتسبة. أريته الأموال التي جعلته يكسبها حتى الآن، وكانت الأرقام ممتازة: ما بين أربعة وثلاثين إلى خمسة وثلاثين بالمئة نسبة ربح عائد على رأس المال. هذه هي فرصتي في الحصول على كل شيء أو خسارة كل شيء. قلت له بكل صراحة: «بناء على هذه الأرقام وبناء على ما جعلتني أعرفه عن حساباتك الأخرى التي تمتلكها، نحتاج إلى أن نتوسع أكثر في أعمالك هنا، فما هو رأيك؟»

ما كان يفكر به، كما تبين، هو أنني كنت على صواب. بدا وكأنه قد شعر بصحوة داخل روحه: لم تكن المسألة متعلقة باللون الأبيض أو الأسود، وإنما باللون الأخضر. قام بإغلاق حساباته في شركات غولدمان وليهام ومورغن وفي أي مكان آخر كان يستثمر فيه أمواله؛ كي يتسنى لنا أنا وشركة بير ستيرنز الإشراف على جميع أعماله. منذ ذلك الوقت، ومن خلال حسابه فقط، استطعت أن أكسب مئتي ألف دولار في السنة. الأمر المثير للاهتمام هو أنه توقف بعد زيارته تلك عن قول النكات عن الزنوج.

214 سعر الإغلاق Closing Price: هو سعر السهم عند نهاية الدوام في السوق أو البورصة ويتم التداول في اليوم التالي منذ بدايته بنفس السعر.

في كل مكالماتنا اللاحقة، لم يعد ينطق حرف «الزاي» مرة أخرى. ظل يخبرني نكاتًا عن اليهود ونكاتًا عنصرية أخرى، لكن كل الدلائل كانت تشير إلى أنه منذ ذلك الحين فصاعدًا طوى صفحة الاستهزاء بالسود.

لأنني كنت أقوم بجميع أعماله ولأنه كان أكبر الحسابات الموجودة لدي، فقد حرصت على أن يكون أول اتّصال أقوم به كل يوم، لا لشيء سوى أن أعوض من خلال المال ما تحملته جراء سماعي كل تلك النكات ضد الزنوج في بداية معرفتي به.

صباح كل يوم كنت أبدأ مكالمتنا بتقرير عن السوق وكيف كان يبدو في ذلك اليوم وتوصياتي فيما إذا كان علينا أن نراقب الوضع بهدوء أم نتاجر. وبسبب المبالغ الطائلة التي كنت أكسبها لأجله كانت إجابته دائمًا ما تكون: "افعل ما تراه مناسبًا يا كريس."

استمر عملي هذا لأكثر من عامين، بدأته هناك في سان فرانسيسكو واستمررت فيه بعد أن قمت بانتقال لا مفر منه إلى مدينة نيويورك؛ لأعمل مع شركة بير ستيرنز هناك في وول ستريت الحقيقية، في المقر الرئيس.

لم يكن جميع السماسرة مضطرين إلى الذهاب إلى نيويورك لينجحوا، غير أنني منذ أول لحظة تخيلت فيها نفسي في هذا المجال، كان الذهاب إلى هذه المدينة جزءًا لا يتجزأ من الحلم. لقد كانت نيويورك مترسخة في حمضي النووي، جزءًا من كوني «ف. ذ. ر.» مثلما كان حتميًا عليّ أن أشتري تلك الفيراري يومًا ما، واشتريتها فعلًا، بعد أن انتقلت إلى شيكاغو في أواخر الثمانينيات لأنشئ شركتي الخاصة. ومن ناحية أخرى فإن الأحلام تتغير. وعلى الرغم من أن أول سيارة فيراري اشتريتها كانت حمراء، فإن الثانية كانت سوداء. لقد اشتريت في الحقيقة سيارة مايكل

جوردان[215] الفيراري السوداء، وبوصفها لفتة رمزية لا أحد باستطاعته أن يقدر ثمنها الحقيقي سوى أمي وأنا، كتبت على لوحة تسجيل السيارة: ليست ملكًا لمايكل جوردان.

عندما كنت في السابعة عشر من عمري، وضعتني أمي على الطريق الصحيح، وجعلتني أعلم بالفعل أنني لم أكن مضطرًا لأن أصبح لاعب سلة كي أكسب مليون دولار. بعد مرور سبعة عشر عامًا، أثبت صحة قولها عندما كسبت أول مليون دولار في تلك السنة فقط. لكي أصل إلى هذه المرحلة، ما إن بدأت أكسب رزقي من خلال عملي في السمسرة في سان فرانسيسكو، كان التفكير بحتمية ذهابي للعيش في نيويورك أمرًا لا يغيب عن بالي. كان هذا المكان سيكون ميدان الاختبار الحقيقي: كما تقول الأغنية، إن استطعت أن تحقق ذاتك هناك فإنك ستستطيع أن تحققها في أي مكان آخر.[216]

الكثير من الأصدقاء في مكتب سان فرانسيسكو لم يكونوا سعداء بقرار انتقالي. حذرني صديقي ديف «جوارب» كرانتسون في اللحظة التي

215) مايكل جوردان Michael Jordan: مايكل جوردن، ولد في 17 شباط 1963، هو لاعب كرة سلة أمريكي سابق، ويعتبر أحد أفضل اللاعبين في تاريخ كرة السلة. أصبح أفضل رياضي في جيله، وهو الذي ساعد منتخب الولايات المتحدة لكرة السلة على التفوق في الثمانينات والتسعينات من القرن العشرين. لعب 15 موسمًا في الدوري الأمريكي لكرة السلة، وكان معدل تسجيله في الموسم العادي 12 ,30 نقطة في المباراة، وهو الأعلى في تاريخ الدوري الأمريكي لكرة السلة. فاز في بطولة الدوري الأمريكي لكرة السلة ستّ مرات مع نادي شيكاغو بولز. فاز في تلك الفترة بلقب أفضل لاعب، وفاز بلقب الهداف عشر مرات، وكان أغلى لاعب في الدوري خمس مرات. اختيرَ ضمن فريق الدوري الأمريكي 10 مرات، وفاز بلقب أفضل مدافع تسع مرات وفاز بلقب أفضل سارق للكرات في أربع مرات.

216) أغنية نيويورك New York: هي من أشهر أغاني المغني الأمريكي من جذور إيطالية فرانك سيناترا Francis Albert Sinatra، الذي ولد في 1915 وتوفي في 1998.

سمع فيها أنني كنت سأغادر الساحل الغربي: «هل أنت مجنون؟ هل تعلم أنك إن كنت ستعيش حياة بائسة في نيويورك فعليك أن تكسب ثلاثمئة ألف دولار في سنتك الأولى؟"

"نعم، أنا أعلم ذلك." قلت كذبًا.

لم أكن أعلم، اللعنة إن لم يكن على حق. علاوة على ذلك فهو لم يكن يعرف أن معاشي الآن كان عليه أن يسد حاجة طفلين وليس طفلًا واحدًا. أجل، على الرغم من غرابة ما قلته، إلا أنني بحلول عام 1985 أصبحت وبكل فخر أبًا للمرة الثانية لطفلة جميلة وذكية ورائعة تدعى جاسنثا غاردنر. كانت والدتها هي والدة كريستوفر، طليقتي جاكي التي حملت بها خلال زيارة قامت بها لترى كريس. كانت جاسنثا، مثل أخيها، ستحظى بوالدها طوال حياتها، وكنت سأظل متواجدًا من أجلها برغم كل ما كان يحدث بيني وبين والدتها. خلال الاثنتي عشرة ساعة التي قضيناها سوية في تلك الليلة عندما استسلمت مرة أخرى إلى الإغراءات الجنسية التي لطالما استخدمتها جاكي معي، أقنعت نفسي تمامًا أننا يجب علينا أن نعود لبعضنا. ورغم كل ما كان قد حدث في السابق بيننا، ثمة جزء في داخلي تصور، "حسنًا، افعل ذلك من أجل كريستوفر." لربما الآن ومع زوال مشكلة عدم توفر المال ومع ثبات مكانتي في عالم الأعمال، كان لديها فرصة للسعي وراء أهدافها. الرب وحده يعلم ما كنت أفكر به. أحيانًا، كان يبدو أنّ عليّ إلقاء نفسي في النار كي أعرف أن هذه هي الطريقة التي نحترق بها. استغرقني الأمر أقل من أربع وعشرين ساعة لأعود إلى صوابي.

عندما قررت الانتقال إلى نيويورك، كانت جاكي -حاملًا الآن- مشغولة بالتخطيط لعودتنا لبعضنا. رغم أنني كنت مصرًا على أن رجوعنا هو أمر مستحيل إلا أنني اقترحت عليها الأمر، ومع قدرتي على إعالتهم كان

باستطاعتها أن تأخذ كريستوفر للعيش معها ومع ابنتنا الجديدة في لوس أنجلوس. كان هذا الحل الأمثل، آخذًا بعين الاعتبار أنني سأعمل لساعات متأخرة وسأضطر لتعويد كريس على نظام مركز رعاية نهارية جديد. وافقت أخيرًا على اقتراحي، وفي النهاية فإن قضاء كريستوفر بعض الوقت مع أمه هو أمر في صالحه، رغم أنني مررت بآلام انفصال رهيبة في الأسابيع الأولى من فراقه.

بعد ذهابي كانت نيويورك مثبطة للعزيمة كما أخبرني الجميع عنها. لكن من حسن حظي أنني كنت قد حققت للتو نجاحًا في فتح حساب جديد هيأ لي الجو في لفت الأنظار نحوي، في مكتب نيويورك. وكما هو الحال مع جي. آر. فإن هذا الحساب الجديد جاء عن طريق الاتصال البارد.

كان ذلك الرجل الذي اتصلت به من خلال طلبي لعدة أرقام في لاس فيغاس هو إدوارد دوماني الذي قال ردًا على تعريفي بنفسي له: «كلّا، أنا لا أشتري أسهمًا كثيرة، لكنني قد أرغب ببيع البعض منها.»

لم أكن متأكدًا إلى أين كانت ستفضي هذه المحادثة، لكنني وبكل أدب قلت له: «حسنًا، ما هي تلك الأسهم؟»

علق إيد بطريقة عفوية قائلًا: "أمتلك حصة في شركة صغيرة هنا في لاس فيغاس وأنا أفكر ببيع بعض الأسهم."

"أحقًا ذلك؟ ما اسم تلك الشركة؟ يا سيد دوماني؟»

"شركة الكتلة الذهبية." أجاب.

"عظيم" قلت له، ومن ثم سألته: «كم حصتك فيها؟»

"حوالي ستة ملايين سهم."

دون أي تردد أخبرته على الفور أن شركة بير ستيرنز متخصصة في بيع الأسهم المقيدة. «لذا أخبرنا إن كان هناك أي طريقة نستطيع مساعدتك

بها، كي نقلل لك نسبة الضرائب.»

"أجل، سأكون مهتمًا بذلك.»

أغلقت سماعة الهاتف وأنا في حيرة من أمري، عليّ أن أفكر بطريقة لإتمام هذه الصفقة. استغرقت وقتًا لأعرف أن إيد وأخياه فريد هما منتجا الفيلم المليء بالفضائح: «نادي القطن»[217] بالتعاون مع بوب إيفانز وآخرين، فضلًا عن أن الأخوين دوماني كانا على خلاف مع لجنة المقامرة في نيو جيرسي.

بدلًا من محاولة الحصول على عمولة أسهم بقيمة ستة ملايين دولار لي وحدي، سلمت إيد وأخاه فريد إلى الأشخاص المناسبين في شركة بير ستيرنز، الأمر الذي جعلني أصبح نجمًا بين ليلة وضحاها في الوقت الذي كنت قد وصلت فيه للتو إلى نيويورك. إن إحضاري أسهمًا بقيمة ستة ملايين، أو ما يعادل ستةً بالمئة من ملكية شركة الكتلة الذهبية هو أمر أكسبني مصداقية فورية مع الأشخاص الذين لهم شأن كبير في مكتب بير ستيرنز في نيويورك. أصبح حديث الجميع: «من هذا الشخص اللعين القادم من سان فرانسيسكو؟ كيف استطاع فعل ذلك؟ من هم معارفه؟"

لم يكن الأمر مجرد تسليمي لمكتبهم صفقة بقيمة تقديرية تصل إلى عشرة ملايين دولار فحسب، وإنما أيضًا معرفتي بأن إيد دوماني لن يتحدث سوى معي ولن يتحدث مع أي شخص من خارج نيويورك دون أن أكون أنا معه على الهاتف.

لذا وعلى الرغم من أنني كان أمامي الكثير لأتعلمه كي أتمكن من

---

217) فيلم نادي القطن The Cotton Club: هو فيلم جريمة من إنتاج الأخوين إدوارد وفريد دوماني. صدر في عام 1984. الفيلم من إخراج فرانسيس فورد كوبولا ومن بطولة ريتشارد جير وجريجوري هاينز وديان لاين وبوب هوسكينز وجيمس ريمار.

شق طريقي مع هؤلاء الأشخاص، إلا أنني جئت إليهم وفي جعبتي الكثير من المصادر والخطط. مما تبين لي على الفور هو أن شركة بير ستيرنز، بفرعيها في الشرق «مكتب نيويورك» والغرب «مكتب سان فرانسيسكو" كانت نوعًا ما بمثابة غزاة أموال وول ستريت.

جميع من يعمل هناك في كلا الساحلين كانوا بارعين في عملهم وموهوبين، الكثير منهم كانوا «ف. ذ. ر.»، والكثير منهم لم يكونوا بالضرورة قد تخرجوا من جامعة هارفارد. كان هناك أيضًا العديد من السود، لكن في المحصلة النهائية ورغم المنافسة الشديدة الموجودة، كان الجميع يهتم ببعضهم البعض، والجميع في مرحلة ما كانوا يساندون بعضهم البعض. الفرق ما بين مكاتب شركة بير ستيرنز في سان فرانسيسكو وفي نيويورك كان يشبه كثيرًا الفرق ما بين المدينتين. كان مكتب شركة بير ستيرنز في سان فرانسيسكو ذا طاقة وحيوية، وإبداع، وفرص، وأشخاص لامِعين في مجالهم. أما مكتب نيويورك فقد كان كل ذلك وأكثر! كان كل شيء يسير على أكمل وجه. ناسبتني تلك الطاقة الحماسية الفائقة وتناسبت معها أيضًا، إضافة إلى أنه كان هناك مستوى جديد من التحدي. في المكان الذي كنت أعمل فيه، كنا نحرر سندات، ونأخذ عمولتنا عن كل صفقة نجريها، أما في نيويورك فقد كان الكثير من السماسرة يتحدثون بشأن اعتماد الخدمات مقابل الرسوم التي من شأنها أن تقضي على الحاجة لتحرير السندات، الإعداد لتدفق إيرادات قد يصل إلى ثلاثة ملايين دولار في السنة.

كان ذلك هو نوع العمل الذي أرغب في التواجد فيه، لكن كيف؟ وكالمعتاد قمت بطرح نفس الأسئلة: «كيف تفعل ذلك؟" كانت الإجابة هي أن أعمل في مجال خدمات إدارة الأصول للعملاء. هذا ما قاله لي أحد السماسرة وكنت بصراحة مندهشًا مما سمعته.

"دعني أرى إن كنت قد فهمت ما قلته بشكل صحيح. إذا الطريقة هي كالآتي: يعطيك شخص ما مئة مليون دولار في السنة كي تديرها له. يدفعون لك خمسين نقطة أساس[218]، فتكسب أنت خمسة ملايين في السنة؟»

تلك هي منطقة النفوذ التي تحدث عنها مارشال غيلر. في تلك الأثناء، وما بين العمل مع الأخوين دوماني، وبضعة حسابات أخرى دسمة، بالإضافة إلى العمل مع جي. آر. لم أكن خالي الوفاض عندما بدأت مغامرتي الجديدة في مكتب بير ستيرنز في فرع نيويورك. لكن في وقتها، وفي بداية عام 1986، اتصلت بي سكرتيرة جي. آر. لتقول لي: «كريس، لدي أخبار سيئة، لقد توفي جي. آر. البارحة في منزله أثناء نومه.»

لقد كانت أخبارًا سيئة بالفعل. اختفى أكبر حساباتي بلمح البصر! لم يكن ذلك الخبر سيسهل لي طريقي، كان الخبر ألمًا فوريًا، وذلك لأنه عندما يموت صاحب الحساب، يقوم الوكيل العقاري بتجميد التداول، ومن ثم بعدها يُوزّع كل شيء ما بين مجموعة من الانتهازيين والمستفيدين. الأمر المثير للسخرية هو أنه على مدى الأيام القليلة الماضية كان جي. آر. دائم القلق بشأن أحوال السوق وكان يخبرني بأن علينا أن نبيع كل شيء ونحوله إلى سيولة. لذا ولكي أحترم وصيته الأخيرة، قمت ببيع جميع الأسهم المتبقية في محفظته الاستثمارية، وأخذت عمولتي البالغة ستين ألف دولار كتعويض عن كل النكات التي قالها عن الزنوج. لم يكن لدى الوكيل العقاري أي شيء يقوله، ليس بعد كل الأموال التي استحصلتها له وللورثة.

---

218) نقطة أساس Basis Point: تشير نقطة الأساس إلى وحدة قياس معروفة لمعدلات الفائدة ونسب أخرى في التمويل. تساوي نقطة أساس 100/1 من 1% أو 0.01% 0.0001 وتستخدم للدلالة على نسبة التغير في الأداة المالية. يمكن تلخيص العلاقة بين نسبة التغير ونقطة الأساس كما يلي: تغير 1%= 100 نقطة أساس وتغير 0.01%= 1 نقطة أساس.

مع رحيل الرجل الطيب جي. آر. لم أكن أبحث عن استبداله بحساب مشابه. كانت فكرتي هي أن أعطي نفسي فرصة في العمل في إدارة الأصول القائمة على الرسوم. استطعت مرة أخرى، من خلال الاتصال البارد، العمل مع بوب، وهو مدير تنفيذي كان مسؤولًا عن محفظة استثمارية ثابتة الدخل لشركة في أوهايو، تدعى «شركة التأمين الأمريكية العظمى" تصادقنا بمجرد أن تكلمنا، وأصبح مهتمًا بالعمل معي، لكن كانت هناك مشكلة، فكما تبين لاحقًا أن الشركة كان مفترضًا أن تكون أصلًا تحت تغطية شركة بير ستيرنز. لكي أكون على الجانب الآمن، اتصلت ب آيس غرينبيرغ، المدير التنفيذي ومن كبار الشركاء في شركة بير ستيرنز، الذي كان قد عرفني على معنى «ف. ذ. ر.» وطلبت منه الموافقة على أن تكون الشركة تحت تغطيتي أنا، ولم أمانع عندما تحقق آيس من الوضع وأخبرني: «إليك حقيقة الأمر يا كريس، تستطيع أن تغطي الحساب لكنني أريدك أن تتصل بي أسبوعيًا لأعرف كيفية سير الأمور.» ومن ثم أغلق السماعة.

مر أسبوعان وأنا أعمل مع بوب، أعرض عليه بعض الأفكار، والأسهم، وجميع أنواع الأشياء ذات الصلة، وكان معجبًا بكل ما يراه وأعطاني أول عمل كبداية: سندًا بقيمة خمسة وعشرين ألف دولار. لم يكن المبلغ سيئًا، حيث إنني أصبحت أعمل ضمن المجال المؤسسي. كنت متحمسًا للغاية، اتصلت ب آيس وأخبرته: «لقد ربحنا لتونا خمسة وعشرين ألف دولار.»

عم الهدوء التام ومن ثم قال لي: «غاردنر، أنت مطرود.» على الفور، هذه هي النهاية. كان السبب هو "لقد كنت تتحدث مع الرجل لأسبوعين وكل ما استطعت أن تحصل عليه هو خمسة وعشرون ألف دولار فقط؟»

للمرة الثانية في حياتي كنت أعلم ما يعنيه أن يكون لدي عضلة

عاصرة تمنعني من التّبوّل على نفسي. أن يتم طردي على يد آيس غرينبيرغ يعني نهاية مساري المهني فليس هناك شخص أعلى منه كي أتقدم بطلب استئناف على الحكم الصادر.

وقبل أن أفكر فيما سأقوله، هزت خط الهاتف قهقهة مدوية ومن ثم قال لي آيس: «أنت تسير بشكل جيد يا كريس، أتمنى لك يومًا سعيدًا.»

كان ذلك طقسَ عبورٍ[219] قاطعًا نحو عالم الاستثمار المؤسسي، ومثالًا على حس الدعابة السمج لدى آيس غرينبيرغ. فتحت الخبرة عيني على وطأة المنافسة الشديدة الموجودة في سوق الاستثمار المؤسسي. لكي أكون في تلك المرحلة المتقدمة، ولكي أكون قادرًا على تقديم شيء فريد من نوعه، طورت استراتيجية مبتكرة في الأشهر اللاحقة لكي أسعى وراء إدارة الأصول والخدمات القائمة على الرسوم التي كان الأشخاص في مكتب نيويورك يتحدثون عنها. لكن طريقتي التي اتبعتها كانت ملكي حصريًا. كانت عبارة عن عملية متعددة الخطوات تضمنت أولًا التواصل مع الشخص رقم اثنين في تسلسل الإدارة الهرمي وتعريفه بالعروض الاستثمارية المميزة، ومن ثم إن لم يكن هناك أي محط اهتمام مباشر، أقوم بتتبع سير ما رفضوه بالقيمة الحقيقية للدولار، وبعد مرور ثلاثة أشهر أقوم بتحويل المكالمة إلى الشخص رقم واحد في الشركة وأخبره بأنني قد اتصلت سابقًا، وأقول له: «كنت سأتصل بك لأرسل لك صكًا بقيمة مئة ألف دولار، لكن لم يكن يبدو عليك الاهتمام بالعرض في ذلك الوقت. السبب الذي جعلني

---

219) طقس عبور Rite of Passage: طقس العبور (علم الأنثروبولوجيا أو علم الإنسان) هو أحد الطقوس التي تجري بمناسبة العبور من حالة سابقة أو وضع سابق إلى حالة لاحقة ووضع جديد. مثل تغير الوضع الاجتماعي، أو الولادة أو بلوغ سن اليأس، وتعد المناسبة الاجتماعية الأكثر شيوعًا هي البلوغ (أي الانضمام لمجموعة البالغين). عادة ما يتحقق طقس العبور من خلال طقوس معينة واحتفاليات خاصة بالمناسبة.

أتصل بك الآن هو...» غالبًا ما كان يتبع تلك المحادثة اهتمام فوري تليه بعض من الصفقات التجارية.

حالما بدأت أتقن هذه الاستراتيجية، فجأة تجلى أمامي نوع العمل الذي أردت فعلًا خوض مضماره، ذاك السوق الذي نبذته وول ستريت على نحو فادح، والمكان المناسب الذي سأستطيع من خلاله تطوير نفسي في نيويورك، والذي سرعان ما أصبح عاملًا أساسيًا في عملي الخاص بي عندما افتتحت متجرًا في شيكاغو.

اقتضت فكرتي أن أسعى وراء ذلك السوق غير المطروق وأن أوفر آفاقًا جديدة للمنتجات والخدمات التي تقدمها شركة بير ستيرنز، إحدى أكثر الشركات ربحًا في تاريخ وول ستريت. ما هو هذا السوق غير المطروق؟ في الواقع، لقد أردت أن أبدأ في دعوة الأمريكيين ذوي الأصول الإفريقية. أردت إدارة أموال الأشخاص الموجودين في منطقة النفوذ التي يتقاسمها كوينسي جونز[220]، وستيف وندر وأوبرا، ومايكل جوردان. أردت أن أستثمر في الفنانين ومقدمي البرامج والرياضيين المشهورين، وليس هذا فحسب بل أن أستثمر أيضًا بالنيابة عن المؤسسات السوداء، من بنوك سوداء، وشركات تأمين سوداء، ومتعهدين سود، ومدراء تنفيذيين سود، ومؤسسات غير ربحية سوداء. هذا ما أردت فعله. أحببت فكرة الترويج للملكية الأقلية والرفاهية، إضافة إلى حقيقة ألا أحد آخر كان يسعى وراء هذا السوق.

---

220) كوينسي جونز Quincy Jones: ولد في 14 مارس 1933 وهو منتج أسطوانات، وقائد أوركسترا، وموزع، ومؤلف موسيقى أفلام، ومنتج تلفزيوني. امتد مشواره الفني خمسة عقود في مجال الترفيه، ورشح خلاله تسعًا وسبعين مرة لجائزة غرامي (Grammy Award) بما في ذلك جائزة أسطورة غرامي في عام 1991.

مع دعم آيس غرينبيرغ ورؤسائي الآخرين في شركة بير ستيرنز، بدأت العمل بجد شديد، وكنت أحيانًا أصيب وأحيانًا أخرى كنت أخطئ ولكن في نهاية المطاف، وفي مطلع عام 1987، بدأت الأمور تلقى النجاح، وكنت أقوم بأعمال كثيرة لدرجة ألّا أحد شكّك بي عندما قررت أن أخاطر وأؤسس متجري الخاص بي وتحت رعايتي.

كانت تلك مخاطرة كبيرة، لربما الأكبر في حياتي، فقد تطلبت أن أبدأ من نقطة الصفر. تطلبت أيضًا دعمًا ماليًا وشخصًا مؤمنًا برؤيتي الطموحة لمشروعي. كان الشخص الذي مد يد العون ليستثمر في حلمي، هو رجل يدعى وليامز جوزف كيندي، وهو رئيس شركة تأمين متبادل في كارولاينا الشمالية، تعد أكبر شركة تأمين تمتلكها الأقليات في البلد.

واصلت السير إلى الأمام، واستمرت رؤيتي في التوسع، وإضافة إلى عملي مع الأقلية، أردت أن أكرّم ذكرى أخوالي العاملين المجدين من خلال استثمار بعض الأموال في سوق العمل. أردت أيضًا أن أستثمر في المعلّمين وأنصار التعليم العام ومحو الأمية. ولكي أخلق تحالف الخبرات المتنوعة الذي تخيلته، أردت أن أعين «ف. ذ. ر.»، ربما لم يكونوا مثلي بالضبط، لكنهم امتلكوا قدرات مشابهة مكنتهم من أن يحلموا أحلامًا كبيرة، ومن أجل تنمية إمكانياتهم أردت أن أوجد لهم نفس الفرصة التي أوجدتاها دين وتر وبير ستيرنز لي. ولكي أوسع دائرة أعمالي، أردت أن أستكشف بعض الأفكار التي كانت تجول في ذهني حول ما أصبحت مؤخرًا أدعوه بـ"الرأسمالية الواعية"[221] باعتبارها مصلحة تهتم بالأعمال الخيرية الشخصية، من

221) الرأسمالية الواعية Conscious Capitalism: هي فلسفة ذات فرضية مركزية مفادها أن الشركات يجب أن تخدم جميع أصحاب المصلحة الرئيسين، بما في ذلك البيئة. لا تقلل هذه الفلسفة من البحث عن الربح لكنها تشجع على استيعاب جميع المصالح المشتركة في خطة أعمال الشركة.

خلال إعادة توجيه نسبة من أرباح أعمالي التجارية إلى القطاعات العامة في المجالات التي كسبت المال من خلالها أو كوسيلة للاستثمار، لتشجيع الإمكانيات وخلق الفرص على مستوى العالم كله. كان للقس سيسيل وليماز وكنيسة غلايد اليد في صقل بعض من تلك الأفكار، وبعض الأفكار الأخرى تبلورت من خلال قراءاتي في الاقتصاد المتطور، عندما كنت أتوقف لأدخل المكتبات العامة متى ما سنحت لي الفرصة، فقط لأطمئن أمي بأنني لم أنس أبدًا نصيحتها بشأن القراءة.

من خلال اختيار شيكاغو لتكون المكان الذي سأزرع فيه «غاردنر ريتش وشركاؤه" وهو الاسم الذي أطلقته على شركتي، قمت مرة أخرى برحلة ذهاب وإياب، عائدًا إلى مكان ليس ببعيد عن ميلواكي وأمي، وكذلك بلدة كان لدي فيها الكثير من الأقارب. كان هذا الانتقال صائبًا لأن شيكاغو كانت مدينة استطاع فيها كريس ذو الست سنوات وأخته جاسنثا ذات السنتين -انتقل كلاهما من لوس أنجلوس إلى شيكاغو- أن يتربيا وأن يكون لهما مكانٌ يدعوانه بالمنزل. لذا، بشكل ما، عدت مجددًا إلى هناك لكني كنت أكتشف آفاقًا جديدة أيضًا، ومن خلال تربية طفليَّ استطعت أن أكسر دائرة الحرمان من الأب التي بدأها أبي.

مع تطور شركتي وتجسد أحلامي على أرض الواقع، أتيحت لي الفرصة للعمل من أجل صناديق التقاعد المؤسسي، والأصول التي تصل قيمتها إلى بضعة بلايين الدولارات ولتغذية النمو الاقتصادي ومنظمات الصحة المالية مثل جمعية التعليم الوطنية التي تعد أهم عملائي، بأعضائها الذين يصل عددهم إلى ملايين الأشخاص، واستطعت أن أحقق حلمي الآخر في أن أسافر وأرى العالم. كانت النساء كل شيء وصفهن به خالي هنري وأكثر.

كل ذلك السفر كان في نهاية المطاف أمرًا مرهقًا، لكنه ظل متعة لا

تشيب أبدًا. بقي الوصول إلى الوجهة المقبلة للحصول على فرصة مقبلة أمرًا لا تنتهي متعته. أينما كنت ومهما كثرت انشغالاتي، حاولت أن أخرج وأمشي في الشوارع، أنظر إلى الأرصفة وأبحث فيها عن الشقوق، لكي أتذكر مدى البعد الذي وصلت إليه وأين أصبحت اليوم ولكي أقدر كل خطوة صغيرة من الطريق، ولكي أقف وقفة ذهول وفرح بأن السعي لا ينتهي أبدًا.

الخاتمة

نعم فاقت أحلام ألف رجل

نيسان، 2004

لا شيء يمكنه أن يهيّئك للجمال الأخّاذ المتمثل في جوهانسبرغ، جنوب إفريقيا، وأنت تهبط عبر الغيوم، وتشاهد الرسم البياني الجنوبي منبسطًا أسفل منك. إنها بالفعل خارطة حية.

بغض النظر عن عدد المرات التي زرت فيها جنوب إفريقيا، كنت في كل زيارة جديدة أختبر قوة في المشاعر لا يضاهيها شعور آخر عشته من قبل. أصبحت تلك المشاعر أكثر حدَّة عندما وطِئت عجلات الطائرة الأرض لدى زيارتي هذه، في نيسان عام 2004، بعد أن تلقيت دعوة من قيادة مؤتمر نقابات عمال جنوب إفريقيا[222] لأكون من ضمن مئتي مراقب من حول العالم لمتابعة سير العمليات الانتخابية لعام 2004 – حدث ضخم سيتزامن

---

(222) مؤتمر نقابات عمال جنوب إفريقيا COSATU-The Congress of South African Trade Unions: هو اتحاد نقابي تأسس في جنوب إفريقيا عام 1985 بعد أربع سنوات من المحادثات لإحلال الوحدة والديمقراطية ورفض نظام الفصل العنصري.

مع الذكرى السنوية العاشرة للاحتفال بيوم الديمقراطية والحرية لشعب جنوب إفريقيا.

عندما قبلت الدعوة -هذا التكريم- بكل بفخر واعتزاز، قلت محذرًا: «لن أغادر جنوب إفريقيا حتى أحصل على مقابلة منفردة مع نيلسون مانديلا.»[223] أخبروني أنه لا بأس بذلك، إذا تحليت بالصبر فسوف يتدبرون الأمر.

لقد كنت متحمسًا لخوض هذه التجربة برمتها، لذا فور وصولي فعلت شيئًا لم يسبق أن فعلته من قبل، خرجت واشتريت كاميرا بنيّة تصوير الواقع الذي أوشكت أن أشهده خلال رحلتي: ذروة عشر سنوات من الديمقراطية والحرية. أنا وملايين مثلي من شعب جنوب إفريقيا والناس من كل أنحاء العالم نمر بحالة رهبة شديدة. من كان يعلم أن هذا اليوم سيأتي؟

خلال زيارتي الأولى إلى جنوب إفريقيا، كنت برفقة رجل -أصبح في مكانة والدي- يدعى بيل لوسي[224]، كان يعمل في الاتحاد الأمريكي لمقاطعة

---

223) نيلسون مانديلا Nelson Mandela: ولد في 18 تموز 1918 وتوفي في كانون الأول عام 2013 وهو سياسي مناهض لنظام الفصل العنصري في جنوب إفريقيا، وثوري شغل منصب رئيس جنوب إفريقيا 1994-1999 . وكان أول رئيس أسود لجنوب إفريقيا، انتخب في أول انتخابات متعددة وممثلة لكل الأعراق. ركزت حكومته على تفكيك إرث نظام الفصل العنصري من خلال التصدي للعنصرية المؤسساتية والفقر وعدم المساواة وتعزيز المصالحة العرقية. سياسيًا، هو قومي إفريقي وديمقراطي اشتراكي، شغل منصب رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي (African National Congress : ANC) في الفترة من 1991 إلى 1997 . كما شغل دوليًا، منصب الأمين العام لحركة عدم الانحياز 1998-1999 .

224) بيل وليم لوسي Bill William Lucy: هو واحد من أبرز قادة العمل في تاريخ الولايات المتحدة مؤخرًا. وقد شغل منصب أمين صندوق الاتحاد الأمريكي لمقاطعة الولاية وموظفي البلديات خلال السنوات الخمس والثلاثين الماضية، وأعيد انتخابه في تموز 2008 لفترة أخرى مدتها 4 سنوات. في عام 1972 شارك لوسي في تأسيس تحالف النقابات السوداء (كبتو) لضمان حق أصوات الأميركيين الأفارقة في العمل. في عام 1984، انضم لوسي إلى حركة جنوب إفريقيا الحرة، وهي حملة شعبية أثارت معارضة واسعة للفصل العنصري في جنوب إفريقيا.

الولاية وموظفي البلديات، وتحالف النقابات التجارية السوداء[225]، وكان هو من عرفني على السيد مانديلا. صافح يدي السيد مانديلا بقوة وقال لي كلمات لم أسمع مثيلها من رجل في حياتي: «أهلًا بك في ديارك يا بني.»

انهارت قواي وبكيت كالطفل. أن أكون في السادسة والأربعين من عمري وأن يكون نيلسون مانديلا هو أول رجل يوجه لي كلمات كتلك على الإطلاق هو أمر كان يساوي كل يوم عانيت فيه من كآبة الحرمان من الأب.

الآن وبعد مرور أربعة أعوام، عدت مرة أخرى. في الرابع عشر من نيسان، في يوم الانتخاب، وُضع جميع المراقبين الدوليين في مجموعات صغيرة بعد تلقيهم بيانات اعتمادهم وبعض التعليمات في اليوم السابق للانتخاب. وُضعت مع امرأتين سوداوين من جنوب إفريقيا، كلتاهما مراقبتان متمرستان ومحاربتان قديمتان ضد التمييز العنصري الذي ظل مستمرًا طوال مراحل حياتهم. كانت كاميرتي في أهبة الاستعداد، بدأنا جولاتنا من راند الشرقية، ومن ثم انتقلنا إلى اليكساندرا، وأورلاندو، ومن ثم أخيرًا إلى سويتو. رأينا طوابير طويلة بصورة لا تصدق -أو صفوفًا، كما نسميها في أمريكا- من السكان السود في جنوب إفريقيا، الكل يقف بشرف، وعزة، وتواضع، وصبر، لدرجة أنني لم أخرج الكاميرا من جيبي، فتصويرهم سيكون بمثابة عدم احترام مثل التقاط الصور في الكنيسة.

حركت وجوههم في داخلي إحساسًا قديمًا ومألوفًا، كما لو أنهم كانوا أناسًا أعرفهم سابقًا من شيكاغو، أو نيويورك، أو أوكلاند، أو ميلواكي، أو حتى من بلدتي في لويزيانا، لكن يبدو أن هؤلاء الناس يعرفون أنني لست من

---

225 تحالف النقابات التجارية السوداء CBTU Coalition of Black Trade Unionists: هي منظمة غير ربحية لأعضاء النقابات الأمريكية الإفريقية التابعة للاتحاد الأمريكي للعمال ومؤتمر المنظمات الصناعية AFL – CIO.

جنوب إفريقيا. تطرقت في وقت لاحق إلى ذكر الموضوع مع جان ماهلانغو، أحد أعضاء مؤتمر نقابات عمال جنوب إفريقيا، وسألته كيف أن الجميع يعرف أنني لست من جنوب إفريقيا، فأجابني بابتسامة: «طريقة مشيتك هي السبب، أنت تمشي وكأنك تملك المكان؛ لابد وأنك تقضي طوال الوقت في وول ستريت.»

لم أستطع أن أتمالك نفسي من الضحك.

تمركزت في ليلة الانتخابات في مركز الاقتراع الذي تحول إلى حصن. نصبت خيمتنا في باحة وقوف السيارات في وسط مدينة جوهانسبرغ، على مقربة من جسر نيلسون مانديلا.[226] كانت التعليمات واضحة: بالنسبة للآخرين، «لا يسمح لأحد بالدخول أو الخروج.» حتى نكون جميعنا قد توصلنا إلى الإحصائية النهائية لعدد الأصوات. أول شيء فكرت به هو: «لا مزيد من شرب القهوة أو أي سوائل أخرى.»؛ فليس هناك حمام في خيمتنا. أخيرًا، وبعد مرور ساعات طوال من التوتر والقلق أكملنا عملنا. وكما هو متوقع، فإن المؤتمر الوطني الإفريقي[227] حصل على ستة وثمانين بالمئة من الأصوات من خلال تعدادنا نحن فقط.

لم تكن المتعة بالنسبة لي هي مراقبة التعداد فقط وإنما أيضًا التفاعل

226) جسر مانديلا Mandela Bridge: استمر العمل في هذا الجسر سنتين من الشغل المتواصل وبعد صرف 38 مليون راند، تم افتتاح جسر نيلسون مانديلا في 21 تموز 2003، ويبلغ طوله 284 مترًا، ويعبره أكثر من 42 خطًا للسكك الحديدية، يربط بين الطرق التنفيذية في برامفونتين وإلى الشمال من جوهانسبرغ إلى نيوتاون المدينة الجديدة في قلب جوهانسبرغ.

227) المؤتمر الوطني الإفريقي: African National Congress - ANC هو حزب سياسي حاكم في جنوب إفريقيا تأسس منذ إلغاء الفصل العنصري، في أيار 1994. يُعرِّف نفسه بأنه «قوة منضبطة من اليسار.»

الحاصل ما بين السود، والشعوب الملونين[228]، والهنود. وعلى الرغم من أن أغلال الفصل العنصري كانت محطمة ماديًا إلا أنها كانت لم تزل ترسف معنويًا بكل وضوح.

ما زلت أتأمل الكثير مما اختبرته خلال زيارتي لحد الآن، وفي الخامس عشر من نيسان، من عام 2004، بدأ انتظاري لموعدي مع السيد مانديلا بشكل رسمي. أُحطت علمًا بأن الذكرى السنوية ليوم الديمقراطية والحرية في جنوب إفريقيا يُحتفلُ بها حول العالم، حيث يُرسلُ ممثلون وسفراء ورؤساء دول من كل بلد في العالم. رغم أن دوري في انتظار المقابلة كان مؤمّنًا إلا أنه على ما يبدو كان أيضًا ما زال غامضًا جدًا. لا يوجد أي مشكلة، سأنتظر دوري.

خلال فترة انتظاري، كان حفل تنصيب تابو إيمبيكي[229] لولايته الثانية، حدث آخر غير مسبوق في حياتي. لم يسبق للبشرة السوداء أن كانت رائعة، وجميلة، وفخمة هكذا. تكاد تكون الحياة هي من تحاكي الفن، تمامًا مثل مشهد من فيلم «القدوم إلى أمريكا".[230] موكب واحتفال يحدث

---

228) الملونون Coloreds: هم شعوب متعددة الأعراق تعيش في مناطق جنوب إفريقيا ولكن قانون الجنوب الإفريقي لا يعدهم من السود لأن عرقهم ليس أسود بما فيه الكفاية، كونهم ينحدرون من جذور مختلطة مثل جذور هندية، إندونيسية، أوروبية، مالوية وموزمبيقية إلخ. وهناك البعض الذين يعتبرون هذه التسمية مهينة. والمصطلح المفضل هو «أناس ملونون People of Color.» الذي يشمل كل الأشخاص غير البيض مثل الآسيويين، الأميركيين الأصليين والأشخاص من أصول إفريقية.

229) تابو إيمبيكي Thabo Mbeki: ولد في 18 حزيران 1942، في إيدوتيوي بجنوب إفريقيا ومن أصل غسوسا. وهو رئيس جمهورية جنوب إفريقيا الحادي عشر منذ 14 حزيران 1999 إلى 21 أيلول 2008.

230) فيلم القدوم إلى أمريكا Coming to America: فيلم من تمثيل الممثل إيدي مورفي والذي يتحدث عن أمير إفريقي غني جدًا يذهب إلى أمريكا للبحث عن زوجة لتحبه لشخصه لا لماله. سنة إنتاج الفيلم 1988.

في بناية الاتحاد، التي تشبه البيت الأبيض من حيث المكانة، وفي حديقتها المغلقة، التي تضاهي جمال حديقة البيت الأبيض. تعالت الهتافات حال دخول الرؤساء الواحد تلو الآخر. استعرضت الشاشات الكبيرة الحشد المتجمهر الذي فاق مئة ألفِ شخصٍ في انتظار التنصيب والحفل الذي سيتبعه. وفي الختام، أصبح ضجيج الهتافات لا يوصف، لم أسمع مثله من قبل، وهذا لا يعني سوى شيء واحد: لقد وصل مانديلا!

في هذه المرحلة من حياتي كنت قد جربت لذة الجلوس على المقعد الأمامي لمباريات الرابطة الوطنية لكرة السلة النهائية، وفي الصف الأول لحلبة مباريات الملاكمة، وفي مقاعد الصفوف الأمامية في الحفلات الموسيقية، لكني لم أشهد في حياتي تجربة سماع مئة ألف شخص وهم يهتفون بصوت واحد: «مانديلا!» بكيت للمرة الثانية وسألني كل من هم حولي عن سبب بكائي. لن يفهموا السبب حتى وإن شرحت لهم، فهذه هي المرة الأولى على الإطلاق التي رأيت فيها رئيسًا أسود. وها أنا قد قاربت الخمسين من العمر!

تلاشت تنهداتي وسط أصوات ثلاث طيارات، نوع 747، التابعة لخطوط جنوب إفريقيا الجوية التي طارت فوق رؤوسنا تحية للرئيس.

في الأيام التالية قمت باستغلال وقت انتظاري في التحضر للقاء السيد مانديلا. خضع نيلسون مانديلا للتدريب ليصبح أول محامٍ أسود في جنوب إفريقيا، وواصل طريقه ليؤسس أول شركة محاماة إفريقية «تامبو ومانديلا» مع رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي وصديقه العزيز أوليفر تامبو.[231]

وضعت ذلك بعين الاعتبار وأنا أتحضر لطرح قضية واضحة،

---

231) أوليفر تامبو Oliver Tambo: ولد عام 27 تشرين الأول 1917 وتوفي في 24 نيسان عام 1997 وهو سياسي أسود من جنوب إفريقيا، مناضل ومناهض لنظام التميز العنصري ورئيس المؤتمر الوطني الإفريقي ANC، ولد بوندولاند - شرق كيب. سمي في الأول Kaizana إشارة إلى كايزر Kaiser، عدو البريطانيين، وأسموه بالاسم الإنكليزي «أوليفر» عند بدء تعليمه.

ودقيقة وقاطعة الدليل.

قمت أيضًا بإيجاد الشركة المصنعة للقمصان الحريرية الجميلة التي يرتديها نيلسون مانديلا دائمًا. «لدي موعد مع السيد مانديلا" قلتها حالما دخلت مكاتب الشركة الرئيسة. "عليك أن تخيط لي قميصًا، أريد أن أكون بأبهى حلة عندما ألقاه."

بينما كنت أنتظر موعدي، قمت باستكشاف جوهانسبرغ، وسويتو، وكيب تاون، وتفتحت عيني على الحياة بطرق لم أعهدها من قبل. كنت أعتقد أنني أعلم شيئًا عن الفقر. أنت لم تر الفقر على حقيقته حتى تراه في إفريقيا. يؤلمني قلبي عندما أرى وأتعلم أكثر حول الظروف التي يجبر الإنسان على التواجد فيها. بالرغم من حالة الفقر هذه، إلا أنه ثمة شعور بالأمل لمسته في كل مكان كنت أذهب إليه. فالشعور السائد بين شعب جنوب إفريقيا هو أن: نعم، الأمور صعبة، ونعم، نحن بحاجة لوظائف ومساكن، ونعم، علينا أن نتصدى لفايروس نقص المناعة البشرية/ الإيدز، لكننا، رغم كل ذلك، ولأول مرة في حياتنا، نعم، نستطيع أن نحلم. لقد أصبح المستحيل ممكنًا الآن.

لم يكن الانتظار مرهقًا أبدًا، فالشعور بما هو ممكن يجعل مرور الأيام أمرًا هينًا. لقد وجدت أيضًا المكان المناسب الذي سأعيش فيه يومًا ما. لم يكن العقار للبيع، لكن، نعم، الأمر ممكن.

استهلكتني مجددًا التحضيرات للموعد المرتقب. حضرت صفحتين مليئتين بالملاحظات لأناقشهما مع السيد مانديلا أوجزتهما في مظروفين، ومن ثم اختصرتهما إلى مظروف واحد، ثم أخيرًا رن جرس الهاتف: «سيراك السيد مانديلا غدًا في تمام الساعة الحادية عشرة صباحًا.»

أنا جاهز. لقد انتظرت سبعة وعشرين يومًا لكنني تذكرت أن السيد

مانديلا انتظر سبعة وعشرين عامًا في السجن، وبقيت في مكان ألطف بكثير مما كان هو فيه. عندما حل الصباح، لم يبق أمامي سوى قرار واحد لأتخذه: أي قميص حريري خلاب سأرتديه للقاء. نظرت هيزل، الموظفة الأقرب لقلبي في فندق بارك حياة، إلى قمصاني واختارت أفخم قميص من بينهم، موضحة: «هذا هو القميص الذي سيليق باللقاء – تبدو فيه وكأنك ماديبا!» استخدمت لقب عشيرة مانديلا لتصف القميص والسبب الذي يحتم عليّ ارتداءه.

رافقني إلى اللقاء إيريك مولوي، أحد أبرز رجال الأعمال في جنوب إفريقيا، وكان في مرحلة ما مسجونًا أيضًا في جزيرة روبين مع السيد مانديلا.

لم أشعر أبدًا بتوتر إيجابي كهذا من قبل. كنت قد التقيت بعدة شخصيات رفيعة المستوى، لكن هذا اللقاء كان أسطوريًا، تجاوز نطاق أي شيء حدث معي في حياتي من قبله أو من بعده. قلة هم الأبطال الحقيقيون الذين كان لهم أهمية في حياتي: أمي، ومايلز ديفيس، ومحمد علي كلاي. كوني على وشك أن ألتقي بنيلسون مانديلا، بطل تجسد بهيئة إنسان، جعلني أدرك كيف يمكن للإنسان أن يختبر شيئًا أبعد من نطاق جسده.

جاءت أخيرًا مساعدة السيد مانديلا الشخصية، السيدة زيلدا، لتصاحبني للدخول، وأخبرتني بأن لقائي مع ماديبا سيكون لخمس عشرة دقيقة فقط.

دخلت من الباب، وها هو ذا يقف أمامي، مستقيم الظهر، وكأنه ملك في أقل تقدير، يرتدي قميص ماديبا خلابًا. شعر بتوتري، فقال بصوت مهيب: «لماذا ترتدي قميصي يا كريس؟»

شعرت بالراحة على الفور وجلست على الجانب الآخر منه حسب التوجيه. كان عمره ثمانية وستين عامًا، يتحرك بعزم ولكن بحذر شديد،

لكن عينيه كانتا تتفحّصانني. هاتان العينان هما عينا مناضل في سبيل الحرية قضى معظم سنوات عمره الثمانية والستين وهو مضطر إلى أن ينظر إلى أحدهم ويتخذ قرارًا فوريًا: هل أستطيع أن أثق بهذا الشخص الذي يقف أمامي؟ هل هذه المعلومة التي يقولها صحيحة؟ هل هذا يستحق وقتي؟

بدأت بطرح قضيتي. قامت صناديق الولايات المتحدة العامة بزيادة مخصصاتها من أجل الأسواق الناشئة حول العالم لكنها لم تعد إلى جنوب إفريقيا. عدد كبير للغاية من «الأتراك الشبان"[232] في الحركة العمالية في الولايات المتحدة ممن قادوا الحركة لتصفية الشركات الأمريكية من الاستثمارات في جنوب إفريقيا، يشغلون الآن مناصب كبيرة مثل رؤساء، ووزراء مالية، وأمناء على صناديق معاشاتهم التقاعدية. وعلى هذا الأساس فإنهم في موقع يخولهم التأثير، أو السيطرة، أو إدارة بلايين الدولارات من رؤوس الأموال. على أساس المقارنة، فإن جنوب إفريقيا قد تفوقت على جميع الأسواق الناشئة الأخرى، واحتفلت مؤخرًا بمرور عشر سنوات على إحلال الديمقراطية والحرية. مثلما كان رأس المال في السابق يستخدم كأداة لتساعد على خلق التغيير في جنوب إفريقيا، فإنه من شأنه أيضًا أن يستخدم مرة أخرى كأداة لتساعد على إدامة النمو والتطور في جنوب إفريقيا.

دخلت زيلدا وأعطت إشارة دولية بيدها مفاداها أن وقتي قد انتهى

---

232) الأتراك الشبان Young Turks: مصطلح يطلق على كل شاب يرغب بإحداث تغيير جذري في النظام القائم. يعود أصل المصطلح إلى الثورة التي قادها مجموعة من الشباب في عام 1908 والتي أدت إلى خلع السلطان عبد الحميد الثاني وتنصيب أخيه محمد الخامس، كما أعادت العمل بالدستور العثماني.

وقالت: «سيد مانديلا، وصل السفير من أجل موعده.»

تحدث السيد مانديلا مرة أخرى بصوته المهيب وقال لها: «أخبري السفير أن بإمكانه الانتظار!»

لم أتمالك نفسي من الحماس وختمت أدائي بتعليق كنت أعرف جيدًا أنه سيلمس وترًا حساسًا: «في بعض الأحيان تصطف النجوم، لقد حان الآن وقتنا، هذا هو وقتي، وهذه فرصتي لأستغل كل شيء تعلمته في خمسة وعشرين عامًا من خلال عملي في وول ستريت، وأسواق رأس المال كي أساعد في إحداث فرق في العالم لأشخاص مروا بنفس ظروفي.» أخبرته أنها فرصة لخلق حرية اقتصادية تكون متاحة للجميع شأنها شأن الحرية السياسية.

سألني السيد مانديلا بضعة أسئلة بعد انتهائي من حديثي وفي النهاية قال: «كيف أستطيع مساعدتك؟» ذكرت له عدة تفاصيل، واتفقنا أن نرى إلى أين ستأخذنا فكرتي.

بعد طول انتظار استطعت استخدام كاميرتي التي اشتريتها من أجل الانتخابات، وطلبت من زيلدا أن تأخذ لي صورة مع ماديبا، ونحن نجلس جنبًا إلى جنب. وما تزال هذه الصورة أثمن مقتنياتي حتى هذا اليوم.

تصافحنا، وانحنيت لأقبل جبينه. ابتسم لي، فهو يعرف ماذا كان يعني الوقت الذي قضيته معه. أنا الآن مستعد للسير إلى الأمام، مستعد للسعي.

من المفارقات التي حدثت هي أنني عندما غادرت اللقاء ومررت بجانب السفير الذي ظل ينتظر لخمس وأربعين دقيقة، نظر لي هو وحاشيته، والكل يتساءل: «يا ترى من هذا الرجل؟»

وفي الإطار الزمني ذاته، واصلت السعي وراء مفهومي للرأسمالية

الواعية، وسافرت من جنوب إفريقيا إلى سان فرانسيسكو حيث التقيت بالقس سيسيل وليامز لكي أتناقش معه حول رؤيته بشأن التطور الاقتصادي في تيندرلوين – حيي القديم.

كانت فكرة سيسل الرئيسة هي شراء مربع سكني بأكمله في تيندرلوين وتطويره إلى مجمع كبير بما يكفي ليتضمن مركز مؤتمرات صغيرًا، ومتاجر للبيع بالتجزئة، ومطاعم، ومتنزهًا، ولكن الأهم من هذا كله تأمين مساكن بأسعار معقولة من أجل العمال في سان فرانسيسكو.

اختتم لقائنا باعتماد قرار تقليص خطتنا الأصلية من شراء المربع السكني كله بقيمة ما يقارب مئتين وخمسين مليون دولار، إلى اختيار مواقع وعقارات تصل تكلفتها إلى خمسين مليون دولار. لم يكن حجم هذا الالتزام هو ما حفزني وإنما العودة إلى نقطة البداية حيث بدأ كل شيء. الأمر لا يتعلق بالمال وإنما هو مسألة شخصية.

ما هو الحلم الأمريكي إن لم يكن حول إمكانية أن ينتقل شخص ما، أي شخص من مجرد سائر في شوارع تيندرلوين، متسائلًا كيف سيخطو الخطوة التالية إلى شخص قادر على أن يساعد في تأمين مساكن آمنة وبأسعار معقولة في ذلك الحي نفسه للعاملين فيه؟ بعد كل شيء، أوضحت الدراسات أن ما يقارب اثني عشر بالمئة من المشردين في أمريكا هم ممن لديهم وظائف ويذهبون لعملهم كل يوم. بدأ الأمريكيون أكثر فأكثر يرون الحلم يتلاشى من بين أيديهم وهذا أمر فادح. وعلى أية حال فإن إحراز الثروة التي نسعى جميعنا جاهدين وراءها يجب ألا يتعلق بإحراز المال. في الحقيقة، لطالما سئلت ما هو المبلغ الذي يعادل الثروة الحقيقية؟ ودائمًا تكون إجابتي هي نفسها. المال، من خلال تعريفي الخاص بي، هو الجزء الأقل أهمية في الثروة. فصافي قيمة رأس المال الخاص بي لا يدخل ضمن

قائمة مجلة فوربس[233] لأغنى أربعمئة أمريكي، ولست أطمح أن أكون ضمن هذه القائمة، لكني أتمتع بصحة جيدة، ونجحت في تربية طفلين وأنا أب أعزب (حظيت بدعم قرية بأكملها)[234] وأصبحا من خيرة الشباب، وأنا في موقع يخولني أن أعمل عملًا يعكس قيمي في الحياة. هذا هو تعريفي للثروة.

يمكن لتعريف الثروة أن يتضمن أيضًا «الشعور بالامتنان» الذي من خلاله نذكر أنفسنا بإحصاء النعم كل يوم. لقد حظيت بنعمة التمكن من كسر الحلقة المفرغة التي حرمتني من الحصول على علاقة مع أبي – وهي أحد الأسباب التي جعلتني أصر على البقاء في حياة ابني وابنتي. لطالما كانا سندًا لي. ابني كريستوفر، وبنتي جاسنتا، هما شابان من أروع ما يكون، وهما أيضًا الشخصان المفضلان لدي في العالم بأسره، لدرجة أنني قمت بتعيينهما في شركتي، لا لأنني أحبهما فقط ولكن لأنهما عاملان مجدان ولديهما كل ما يلزم للعمل بجد. لطالما جعلاني أفخر بأن أكون أبًا لهما، ولطالما جعلاني أشعر بالسعادة الحقيقية.

أن أكون سعيدًا، كوني شخصًا مدمنًا على العمل، هو أمر قد يعني أيضًا أخذ استراحة من السعي وراء هذا الشيء، وذاك، وغيره لأحظى بقليل من المرح. منحني السادس والعشرين من شهر حزيران من عام 2005 الفرصة لفعل ذلك حيث قامت شركتنا باستضافة حفل خاص من أجل رابطة التعليم القومية في لوس أنجلوس. أتت شريكتي ندابا نستيلا قاطعةً

---

233) فوربس Forbes: هي مجلة تحتوي على قائمة مليارديرات العالم. وتعد أيضًا المصدر الرئيس للحصول على الأخبار الموثوقة في عالم الأعمال وآخر مستجدات الاستثمارات.

234) دعم قرية Village Support: أخذت هذه العبارة من القول المأثور: It takes a village to raise a child وهو قول قديم يعود أصله للثقافة الإفريقية ويعني أن المجتمع بأكمله يجب أن يشارك في تنشئة ودعم الأطفال لكي يتربوا في بيئة آمنة.

كل تلك المسافة بالطائرة من جنوب إفريقيا. أما سيدني كي إنس، منسقة مناسباتنا الخاصة، فقد تفوقت على نفسها للمرة الثانية حيث قامت بدعوة الفائزين بجائزة الغرامي[235] مثل: ديف كوز[236]، وجوناثان بتلر[237]، وويمن تسديل[238] من أجل هذا الحفل. لكي نجمع التبرعات من أجل رابطة التعليم القومية، الحزب الأسود[239] قمنا بتنظيم سحب يانصيب. كانت الجائزة الأولى عبارة عن تذكرتين للسفر على متن درجة رجال الأعمال في رحلة إلى جنوب إفريقيا بما في ذلك برنامج سياحي شامل. بلغت تكلفة الرحلة الإجمالية أكثر من ثلاثين ألف دولار، بينما كان سعر تذكرة اليانصيب الواحدة عشرة دولارات فقط وقمنا ببيع الكثير من التذاكر.

كان جوُّ المشاهير، وتجمع الحضور من الأصدقاء والعملاء الرائعين حدثًا لا ينسى في حين أن أهم حدث في الأمسية، بالنسبة لي شخصيًا،

235) جائزة الغرامي Grammy Award: تقدم هذه الجائزة الأكاديمية الوطنية لتسجيل الفنون والعلوم (NARAS) التي أنشئت عام 1959، وهي أحد الجوائز الموسيقية السنوية الأربع الكبرى في الولايات المتحدة الأمريكية. يقام حفل توزيع جوائز الغرامي في شهر فبراير من كل عام، وهو يشبه إلى حد بعيد حفل توزيع جوائز الأوسكار الخاصة بالسينما، وحفل توزيع جوائز إيمي الخاصة بالمسلسلات وحفلة جائزة توني الخاصة بالمسرح لكن الغرامي تعنى فقط بالموسيقى.

236) ديف كوز Dave Koz: ولد في 27 مارس 1963 وهو عازف الساكسوفون الأمريكي الشهير بعزف موسيقى الجاز.

237) جوناثان بتلر Jonathan Butler: ولد في 10 أكتوبر 1961 مغنٍ وكاتب أغانٍ من جنوب إفريقيا وعازف جيتار.

238) ويمن تسديل Waymon Tisdale: ولد في 9 حزيران 1964 وتوفي في 15 أيار 2009 وهو لاعب كرة السلة الأمريكية المهنية في الدوري الأميركي للمحترفين وعازف جيتار.

239) رابطة التعليم القومية - الحزب الأسود NEA Black Caucus: رابطة تأسست لدى انعقاد مؤتمر رابطة التعليم القومية في سان فرانسيسكو عام 1970 لتعزيز مجتمع السود حول العالم. رابطة التعليم القومية NEA – National Education Association: مقرها في العاصمة واشنطن، وهي رابطة تمثل معلمي المدارس العامة وموظفي الدعم الآخرين وأعضاء هيئة التدريس والموظفين في الكليات والجامعات والمعلمين المتقاعدين، وطلاب الجامعات الذين يستعدون ليصبحوا مدرسين.

كان فرصة التقدم بالشكر والامتنان للكثيرين ممن كانوا جزءًا من رحلتي، جميع أعضاء رابطة التعليم القومية، وشكر خاص لرئيس عملي السابق، مارشال غيلر.

كان مارشال غيلر هو من أعطى الموافقة النهائية لتعييني في شركة بير ستيرنز وهو أيضًا من علمني أهمية مصطلح «منطقة النفوذ.» لم يعرف مارشال حتى يومنا هذا كيف استغليت مكتبه كدرع عندما قرر جي. آر. العميل ذو النكات العنصرية، أن يزورني بنفسه للمرة الأولى، لكن مارشال كان يعرف نيتي جيدًا. لقد رآني، يومًا بعد يوم، وأنا أحاول أن أكسب حصتي من المئتي مكالمة في اليوم، وغالبًا ما كان يقف بالقرب من مكتبي ويعلق: «هذه ليست طريقة المحترفين، المحترفون يعملون بواسطة منطقة النفوذ.» استغرق مني الأمر السنوات العشرين القادمة لأطور تلك المنطقة. أعتقد أني بدأت أتعلم التعامل مع هذا المصطلح. يجب عليّ أن أخبركم أنه لأمر رائع أن تستطيع الوصول إلى أي أحد والتحدث معه على الهاتف بمجرد قولك وبكل صدق: «السيد مانديلا اقترح عليّ أن أتصل بك.»

فضلًا عن جمع التبرعات لرابطة التعليم القومية -الحزب الأسود فإن حفلنا في لوس أنجلوس كان من أجل تكريم أصدقاء أعزاء ومراكز نفوذ تعليمية مثل: آن ديفيس من جمعية إلينويز التعليمية، ولندا بويندكستر - تشيسترفيلد من جمعية أركانسس التعليمية- كلتاهما كانتا على وشك التقاعد بعد عقود من تمثيل معلمي المدارس العامة ودعم شؤون الموظفين في المدارس. كان الحدث، الذي استقطب حوالي ثمانمئة ممثل من رابطة التعليم القومية، مكانًا لا مثيل له لأعبر من خلاله عن شكري لمارشال على الملأ. لطالما علمتني أمي بأن أهم الكلمات في اللغة الإنجليزية هي: «من فضلك.» و"شكرًا."

من أجل العديد من الأطفال الذين يكبرون قمت بتذكير الحضور بأنه في بعض الأحيان لا يوجد سوى شخص واحد فقط في حياتهم، غالبًا ما يكون معلمًا أو صاحب عمل، لديه استعداد لمد يد العون لمنحهم تلك الفرصة، وإعلاء صوت الثقة بأنفسهم، وإحداث التغير الذي هم بأمس الحاجة له. لقد أوضحت قائلًا، إن مارشال غيلر، هو شخص قد أعطى فرصة لسمسار شاب يدعى كريس غاردنر.

علّق مارشال غيلر على كلامي قائلًا للحضور إنه كان يعمل في مجال يضطره لاتخاذ الكثير من القرارات، البعض منها صائب والبعض الآخر خطأ. "اتّضح أن كريس غاردنر كان من القرارات الصائبة التي اتخذتها في حياتي." قالها بنبرة تواضع متكلفة، رغم أنه لم يستطع إخفاء فخره الأبوي بي.

كانت أمي هي الشخص الوحيد الذي افتقدت وجوده في تلك الليلة التي لا تنسى. كنت سأحزن كثيرًا إن لم أستطع أن أشارك نجاحي مع أمي. لحسن الحظ، أنها شهدت قبل وفاتها، بعشر سنوات، قمة مجدي وليس هذا فحسب بل أتيحت لها الفرصة أيضًا أن تشاركني نجاحاتي. لم تستطع أمي أن تفهم لفترة من الوقت ماذا بحق السماء كنت أعمل لأكسب عيشي. لكنني أخيرًا وبعد عدة مرات لا تحصى من الشرح والمحاولات لإفهامها، صغت لها المسألة بهذا الشكل: «دعينا نقول بأن كل تلك الشركات التي أمثلها هم في نادي قمار وأنا من يديره.» كانت تلك هي الطريقة الوحيدة التي جعلتها تفهم طبيعة عملي.

لم تشعر بيتي جين بصحة جيدة في أيامها الأخيرة فما مر به جسدها وعقلها عبر السنين لم يكن بالأمر الهين. لو كان بإمكان المال أن يعيد لها صحتها، لكنت قد أنفقت كل درهم أملكه في سبيل أن تصبح بخير. لكن الأمر لم يكن بيدي. عندما وصلني خبر وفاتها، كنا أنا وأخواتي على يقين

تام بأن أمنا، تلك السيدة الجميلة التي رأيتها لأول مرة منذ وقت طويل جدًا وهي تعد لنا الحلوى، قد عجلت بوفاتها من خلال شرب الخمر الذي حذرها الأطباء من تناوله.

خسارة أمي حطمت قلبي بالفعل، وتركت فراغًا في العالم كانت تملأه ابتسامتها، التي سأفتقد رؤيتها لآخر يوم في حياتي. كان هناك العديد من الأمور التي ستحدث في حياتي، والتي أردت مشاركتها معها، لأجعلها سعيدة.

كان هذا ما أخبرته لخالتي ديسي بيل عندما التقيت بها في شيكاغو لأخبرها عن كل الأحداث المثيرة التي حصلت معي، ليس فقط الحفل الخاص برابطة التعليم القومية وإنما المشاريع الجارية مع كنيسة غلايد، وشراكتي مع شركة استثمار بامودزي القابضة في جنوب إفريقيا. لقد نشأت تنشئة صالحة وتدرجت في المراتب الاجتماعية لأصبح أحد مواطني هذا العالم، ويعود الفضل في ذلك إلى العديد من الأشخاص الذين منحوني تلك الفرص، لكن الفضل الأعظم يعود لأمي. كان من الهام جدًا بالنسبة لي أن تعرف أمي إلى أي مدى استطعت أن أصل بفضلها.

طمأنتني الخالة ديسي بيل أن أمي كانت فرحة بكل لحظة عظيمة مضت في جميع مغامراتي، وقالت لي، وكان كل ما احتجت لسماعه: «كريس، أمك الآن في الجنة تتراقص بجناحيها.»

الطريقة التي تحدثت بها كانت رائعة للغاية، وكان عليّ أن أصدق أن ما قالته حقيقي. لقد كانت أمي تتراقص بجناحيها وتحرص على أنني لم أزل أحظى بنعم فاقت أحلام ألف رجل على الإطلاق.

كريس غاردنر هو المدير التنفيذي لشركة (غاردنير ريتش وشركاؤه) وهي شركة سمسرة تصل قيمة أسهما لملايين الدولارات، ولديها فروع في نيويورك، وشيكاغو، وسان فرانسيسكو. وهو أيضًا صاحب مبادرات خيرية ومتحدث تحفيزي، ملتزم بعدة منظمات -خاصة تلك التي تتعلق بالتعليم- حاز مؤخرًا على جائزة أفضل أب قدمتها له مبادرة الأبوة الوطنية. ولد غاردنر في ميلواكي وهو أب لطفلين ويسكن في شيكاغو ونيويورك.

كوينسي تروب هو شاعر مشهور من مؤلفاته: «ما وراء الحلقات المفرغة» و"هندسة اللغة" تعاون مع مايلز ديفيس في كتابة سيرته الذاتية. وكتب أيضًا «مايلز وأنا» و"ستيف وندر الصغير".

ميم ايشلر ريفاس هي مؤلفة تحت اسم مستعار، ومؤلفة مشاركة. قامت بتأليف أكثر من أربعة عشر كتابًا، من ضمنها: «إيجاد السمكة". ويعد كتاب «جيم كي الجميل» أول ظهور لها بتصنيفها مؤلفة حصرية.

فرح أبو التمن أستاذة قسم الترجمة في الجامعة المستنصريّة في العراق. لها بحوث عدّة ومقالات منشورة حول الترجمة والأدب. صدر لها كتاب نصوص بعنوان "مذكرات فنجان" وآخر "ما بين حب وحب".

السعي وراء السعادة

في عمر العشرين، انطلق كاتب هذه المذكرات، كريس غاردنر، في مدينة سان فرانسيسكو بحثًا عن مهنة لها مستقبل واعد في مجال الطب. ورغم اعتباره مُعجزةً في عالم البحوث العلميّة الطبيّة، فإنّه نجح في فهم السّوق ووضع نفسه في تحديات عالم المال، حتى وجد فرصة للعمل في شركة كُبرى في المجال. وفي سعيه لنيل الوظيفة، انتهى به الأمر مع طفله وقد باتا فردين في مُجتمع مشرّدي الشوارع، وهناك أمضيا حوالي العام بين النوم في بيوت المأوى، والحمامات العامة، والمحطات. لكن كريس لم ييأس، لقد بات أحد المؤثّرين ماليًّا في وول ستريت منهاتن.

حُوّل إلى فيلم شهير عام 2006 وكانت البطولة للممثّل ويل سميث الذي ترشّح بها لجائزة أفضل ممثّل في مهرجاني الأوسكار وغولدن غلوب.

Artwork: Father and Child (mixed media on canvas), Deceus, Francks (Contemporary Artist) / Private Collection / Bridgeman Images
Cover design: Diana Chamma

ISBN 978-9948-38-587-5
9 789948 385875

روايات
REWAYAT